



فِي ظِلِّ الرِّسَالِ

رِسَالَةُ التَّعَالِيمِ

د. صلاح عبدالحق



فِي ظِلِّ الْأَرْسَائِلِ

الجزء الأول

د. صلاح عبدالحق

رِسَالَةُ التَّعَالِيمِ

(أَرْكَانُ الْبَيْعَةِ)



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ،
المربي الأول، والقائد القدوة، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى
يوم الدين.
أما بعد..

فإن الله تعالى لا يقيم هذا الدين بالأمان، ولا يورث قيادته بالعواطف
المجردة، وإنما يقيمه برجالٍ ربانيين، عرفت قلوبهم الإيمان، واستنارت
عقولهم بالفهم، واستقامت نفوسهم على الطاعة، وتربت أرواحهم على
البذل والصبر والثبات، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا
عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾
[الأحزاب: 23]. وما نهضت أمة، ولا قامت دعوة، ولا استقرت جماعة، إلا
على هذا الأساس المتين.

ولقد عايشنا في مسيرة العمل للإسلام عقوداً طويلة، رأينا فيها أجيالاً
أقبلت على الدعوة بحب صادق، ثم حالت بينها وبين غاياتها عوائق
الطريق، ورأينا آخرين ثبتوا حتى لقوا الله؛ لأنهم تربوا على منهج واضح،
وربطوا حركتهم بالوحي، وجعلوا التربية قبل الحركة، وبناء الإنسان قبل بناء
المؤسسات، مصداقاً لقوله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم».

ومن هنا بقيت رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، رحمه الله، حيّة في النفوس، متجددة في معانيها، لا لأنها كلمات بليغة، وإنما لأنها خرجت من قلب مخلص، وتجربة دعوية عميقة، ورؤية تربوية صنعت رجالاً حملوا الفكرة في الرخاء والشدة، وفي السعة والمحنة، وربطت بين الإيمان والعمل، وبين العبادة والجهاد، وبين إصلاح النفس وإصلاح المجتمع.

ومن بين تلك الرسائل تظل رسالة التعاليم الوثيقة الجامعة، والدستور التربوي، والمنهاج العملي الذي صاغ الشخصية الإخوانية، ورسم معالم الطريق للمجاهدين من الإخوان المسلمين، وجعل من أركان البيعة العشرة منهجاً متكاملًا لبناء الفرد، وتكوين الصف، وإعداد الجماعة التي تحمل الإسلام فهمًا وسلوكًا ودعوةً وحركة.

ولم تكن هذه الأركان مجرد عناوين تربوية، بل احتوت في ثناياها معالم مشروع متكامل، تحدث عن الفهم والإخلاص والعمل والجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد والأخوة والثقة، وربط هذه المعاني جميعًا بغاية كبرى، هي إقامة الإنسان المسلم الذي يعرف ربه، ويحسن فهم دينه، ويؤدي واجبه، ويحمل هم أمته، ويسير في طريق الإصلاح بعلم وبصيرة وصبر.

وقد أثبتت الأيام أن الأزمات لا تكشف قوة التنظيمات بقدر ما تكشف عمق التربية، وأن الصف الذي يربى على الفهم الصحيح والإخلاص والأخوة والثقة يبقى متماسكًا مهما تغيرت الظروف، بينما تتساقط الصفوف التي قامت على الحماسة المجردة أو ردود الأفعال. وكم رأينا أفكارًا عظيمة ذبلت لأنها افتقدت التربية، ورأينا صفوفًا قليلة العدد عظيمة الأثر لأنها أحسنت بناء الإنسان قبل الانشغال ببناء البنيان. ولذلك ظلت

رسالة التعاليم، بعد مرور عشرات السنين، مدرسة في صناعة الرجال، ومصدرًا لإحياء معاني الانضباط والالتزام والمسؤولية والوعي.

وهذا الكتاب ليس شرحًا لألفاظ الرسالة، ولا تعليقًا على عباراتها، وإنما هو وقوف في ظلالها، واستكشاف لما تحمله من كنوز تربوية ودعوية وحركية، ومحاولة لربط معانيها بواقع المسلمين اليوم، واستحضار مقاصدها في زمن كثرت فيه التحديات، وتشعبت فيه المسارات، وأصبح الناس أحوج ما يكونون إلى وضوح الرؤية، وسلامة المنهج، ووحدة الصف.

وقد شاء الله تعالى أن يكون أصل هذا الكتاب مجالس علمية وتربوية جمعتني بطائفة من طلابي وإخواني، كنا نقف فيها مع رسالة التعاليم وقفات تدبر ومدارسة، نستخرج معانيها، ونربط أصولها بواقع الدعوة، ونقيسها على ما عشته وعاشته من مسيرة العمل للإسلام عبر أكثر من ستين عامًا. ولم تكن تلك المجالس دروسًا نظرية بقدر ما كانت حوارًا بين النص والتجربة، وبين المنهج والواقع، وبين ما قرأناه في الرسائل وما رأيناه في ميادين الدعوة والتربية.

ثم تتابعت رغبة إخواني وأبنائي في الدعوة في جمع تلك المحاضرات، وإعادة صياغتها، وإضافة ما فتح الله به من تأملات ومراجعات، حتى خرجت في هذا الكتاب، رجاء أن ينتفع به طالب العلم، والمربي، والداعية، وكل من يريد أن يسلك طريق الإصلاح على بصيرة، مستفيدًا من ميراث الدعوة، ومن خبرة السنين التي أثبتت أن التربية الصادقة هي أساس الثبات، وأن بناء الإنسان هو أول طريق بناء الأمة.

وإني أرجو أن يجد فيه المسلم عامة، والعامل للإسلام خاصة، والأخ المجاهد في جماعة الإخوان المسلمين على وجه الخصوص، ما يعينه على

مراجعة نفسه، وتجديد عهده، وتعميق فهمه، واستحضار الغاية التي من أجلها بايع، وأن يتعامل مع أركان البيعة لا بوصفها معلومات تحفظ، بل معالم طريق، وعهداً مع الله، ومنهج حياة، وتربية تمتد من القلب إلى السلوك، ومن الفرد إلى الجماعة، ومن الجماعة إلى نهضة الأمة.

ونختم بقول الإمام حسن البنا؛ حيث يقول في مقدمة رسالة التعاليم:

«فَهَذِهِ رِسَالَتِي إِلَى الْإِخْوَانِ الْمُجَاهِدِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِسُمُوِّ دَعْوَتِهِمْ، وَقُدْسِيَّةِ فِكْرَتِهِمْ، وَعَزَمُوا صَادِقِينَ عَلَى أَنْ يَعِيشُوا بِهَا، أَوْ يَمُوتُوا فِي سَبِيلِهَا، إِلَى هَؤُلَاءِ الْإِخْوَانِ فَقَطْ أَوْجُهُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَهِيَ لَيْسَتْ دُرُوسًا تُحْفَظُ، وَلَكِنَّهَا تَعْلِمَاتٌ تُنْفَذُ، فَإِلَى الْعَمَلِ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الصَّادِقُونَ: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153). أمَّا غيرُ هَؤُلَاءِ.. فَلَهُمْ دُرُوسٌ وَمُحَاضِرَاتٌ، وَكُتُبٌ وَمَقَالَاتٌ، وَمُظَاهِرٌ وَإِدَارِيَّاتٌ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148]، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

حَسَنُ الْبَنَّا.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ أَبْنَاءَ الْأُمَّةِ، وَأَنْ يَرُدَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دِينِهِمْ رَدًّا جَمِيلًا، وَأَنْ يَجْمَعَ الْعَامِلِينَ لِلْإِسْلَامِ عَلَى الْحَقِّ وَالْهَدْيِ، وَيُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، وَيُبَارِكَ فِي جُهُودِهِمْ، وَيَجْعَلَهُمْ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
[العنكبوت: 69].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. صلاح عبدالحق

القائم بأعمال فضيلة المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين
المحرم 1448 هـ الموافق يونيو (حزيران) 2026 م

المحتويات

3	رِسَالَةُ التَّعَالِيمِ
5	مقدمة
11	المحتويات
15	مِهَادٌ عَامٌ
15	شُبُهَاتٌ مُتَجَدِّدَةٌ .. وإجاباتٌ واضحةٌ حَاسِمَةٌ
18	ثَلَاثَةُ مُقَوِّمَاتٍ لِلنَّجَاحِ
23	لَحْظَتَانِ فَارِقَتَانِ
26	تَفَرُّدٌ فِي الرُّؤْيَا وَالْفَهْمِ (شُمُولِيَّةُ الْفِكْرَةِ وَوَحْدَةُ الْأُمَّةِ)
28	رُؤْيَا عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ
29	حَتْمِيَّةُ الْعَمَلِ الْمَنْظَمِ
31	مِنْهَاجُ الْعَمَلِ وَدُسْتُورُهُ
39	جُهْدٌ لَا يُضَيِّعُهُ اللَّهُ تَعَالَى
41	ضَوَابِطُ بَيْعَتِنَا وَأَرْكَانُهَا
41	تَمْهِيدٌ
53	أُسْلُوبُ الْإِمَامِ الْبَنَّا فِي خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ

61	رُكْنُ الْفَهْمِ
61	الْفَهْمُ أَوَّلُ الْأَرْكَانِ
68	مَوَاقِفُ فِي الْفَهْمِ السَّيِّدِ
73	رُكْنُ الْإِخْلَاصِ
79	رُكْنُ الْعَمَلِ
79	الْعَمَلُ رُكْنُ الْأَرْكَانِ
89	أَوْهَامٌ لَحَقَتْ بِرُكْنِ الْعَمَلِ
93	بِاتِّسَاعِ الْعِلْمِ يَتَسَّعُ الْعَمَلُ
94	ثَمَرَةُ الدِّينِ وَالتَّدِينِ
97	الْجَمَاعَةُ ضَرُورَةٌ وَاقِعِيَّةٌ
99	وَاجِبُ الْفَرْدِ فِي الْجَمَاعَةِ
101	مَرَاتِبُ الْعَمَلِ
102	إِحْيَاءُ الْإِسْلَامِ فِي النُّفُوسِ
104	بِنَاءُ الْكِفَاءَاتِ وَاتِّشَافُ الْقُدْرَاتِ
108	رُكْنُ الْجِهَادِ
108	مَرْتَبَةُ الْجِهَادِ بَيْنَ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ
112	تَصَوُّرَاتُ خَاطِئَةٍ لِمَعْنَى الْجِهَادِ
121	فَهْمٌ غَالِطٌ لِمَرَادِ سَيِّدِ قُطْبٍ مِنَ الْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ
127	بَيْنَ فِقْهِ الْمِخْنَةِ وَاعْتِنَامِ الْفُرْصِ
135	رُكْنُ التَّضَحِّيَةِ



140.....	رُكْنُ الطَّاعَةِ.....
144	شُبُهَاتٌ حَوْلَ الطَّاعَةِ فِي دَعْوَتِنَا
147.....	وَقَفَاتٌ مَعَ رُكْنِ الطَّاعَةِ.....
165	رَفْعُ الْحَرَجِ وَجَلْبُ التَّيْسِيرِ
168	التَّربِيَةُ الْإِيمَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ
169	الْمَرَاجَعَةُ بَيْنَ الْقَائِدِ وَالْجُنْدِيِّ
172	قِيَادَةُ تَسْبِقُ وَصَفٌ يُطِيعُ
176	التَّشْعِيبُ وَالتَّكْوِينُ
179	الْمُعِينَاتُ عَلَى الطَّاعَةِ
191	أَوْتَادُ الدَّعْوَةِ مَبْعَثُ ثِقَةِ الصَّفِّ وَأَطْمَئِنَّاهُ
193	مَهَابَةُ الْقِيَادَةِ تُيسِّرُ الطَّاعَةَ
195	رَأْسُ تَنْظِيمِ السُّجُونِ
196	صَدِيقُ الزَّنَانَةِ
198.....	رُكْنُ الثَّبَاتِ.....
198	الثَّبَاتُ زَادٌ فِي الْمَحَنِ الطَّوَالِ
202	نَمَازِجٌ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ
204	ثَمَارُ التَّعَهُدِ وَالتَّربِيَةِ
210.....	رُكْنُ التَّجَرُّدِ.....
210	التَّجَرُّدُ أَمَارَةٌ وَلَاءٍ
215.....	رُكْنُ الْأُخُوَّةِ.....

رُكْنُ الثَّقَةِ 222

الثَّقَةُ تَأْجُ الْأَرْكَانَ وَخِتَامُهَا 222

كَيْفَ يَبْنِي الْقَائِدُ الثَّقَةَ فِي نَفُوسِ إِخْوَانِهِ؟ 224

إِعَادَةُ الثَّقَةِ فِي أُصُولِ دَعْوَتِنَا وَمَنَاهِجِهَا 232

مهاذ عام

يقولون إن أعمال أصحاب الرسالات لا تفهم على حقيقتها عند كثير من الناس؛ لأنهم لا يدركون غاية تلك الأعمال، وقد سُئل الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ عندما رآوه يُلقي دروسًا، ويكوّن أسرارًا وكتائب، ويُنظّم رحلاتٍ وأسفارًا، ويُؤلف الرسائل والنشرات والكتب، ويصدر تعليماتٍ وبياناتٍ، وتحضر كلماته وآراؤه في كلِّ شأنٍ يُهمُّ الأمة، أو قضيةٍ من قضاياها، أو موقفٍ من مواقفها، فلا يعدم رأيًا أو فتوى، أو اجتهدًا.

فقالوا: أتريد أن تحدث انقلابًا على نظام الحكم في مصر؟!

شبهات متجددة .. وإجابات واضحة حاسمة

سُئل الإمام البنّا هذا السؤال صراحةً؛ فأجاب رَحِمَهُ اللهُ: « وَهَذِهِ فِي الْوَاقِعِ أَعْجَبُ الْاِتِّهَامَاتِ، وَلَا نَذْرِي أَيَّ نِظَامٍ حُكْمٍ يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُتَّهَمُونَ. إِنَّ نِظَامَ الْحُكْمِ فِي مِصْرٍ إِمَّا دِينِي، وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي يُنصُّ الدُّسْتُورُ عَلَى أَنَّهُ دِينَ الدَّوْلَةِ الرَّسْمِيَّةِ، وَإِمَّا مَدْنِي، وَهُوَ النَّظَامُ الدِّيمُقْرَاطِي الَّذِي يَقُومُ عَلَى إِرَادَةِ الشَّعْبِ وَاحْتِرَامِ حُرِّيَّتِهِ، وَالَّذِي فَصَّلَهُ الدُّسْتُورُ تَفْصِيلًا؛ فَهَلِ الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى قَلْبِ أَحَدِ هَذَيْنِ النِّظَامَيْنِ؟ اللَّهُمَّ لَا! وَأَلْفَ مَرَّةٍ: لَا! فَإِنَّ أَسَاسَ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَلَا وَسِيلَةَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَلَا حِمَايَةَ لَهَا إِلَّا بِالدُّسْتُورِ الَّذِي يَكْفُلُ الْحُرِّيَّاتِ؛ فَكَيْفَ يُوَجِّهُ إِلَى الْإِخْوَانِ مِثْلُ هَذَا الْاِتِّهَامِ؟ وَالْحَقُّ أَنَّ الَّذِي قَلْبَ نِظَامِ الْحُكْمِ فَعَلًا هُوَ هَذِهِ الْحُكُومَاتُ الَّتِي أَهْمَلَتْ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ، وَعَطَلَتْ رُوحَ الدُّسْتُورِ.

هَذِهِ الْمُنْكَرَاتُ الْفَاشِيَّةُ، وَهَذِهِ الدُّورُ الْمُشِيدَةُ لِلَّهِوِ وَاللَّعِبِ وَالْخَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ وَالرَّفْقِصِ وَالْعَبَثِ وَالْفَسَادِ، وَهَذِهِ الْفَرَائِضُ الْمُهِدَرَةُ الَّتِي لَا
يُؤَدِّيْهَا الْكِبَارُ لِيَكُونُوا قُدْوَةً لِّغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ، وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ الْمُسْتَمَدَّةُ
مِنْ غَيْرِ كِتَابِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؛ كُلُّ ذَلِكَ هَدْمٌ لِلْإِسْلَامِ، وَقَلْبٌ لِنِظَامِ
الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْإِسْلَامِ.

وَهَذِهِ الْمَظَالِمُ الْوَاقِعَةُ عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَإِهْدَارُ الْحُقُوقِ،
وَكَبْتُ الْحُرِّيَّاتِ، وَمَنْعُ الْمَجَالِسِ وَالْبَرَكَمَانَاتِ، وَتَزْيِيفُ إِرَادَةِ الشَّعْبِ فِي
الانتخابات؛ قَلْبٌ لِنِظَامِ الْحُكْمِ الْمَدَنِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى الدُّسْتُورِ.

وَلَيْسَ الْمَسْئُولُ عَنْ ذَلِكَ الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ الْحَاكِمُونَ
الْمُسَيْطِرُونَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْإِخْوَانُ صَلَاحَ الْحَالِ وَاسْتِقَامَةَ الْأَوْضَاعِ الدِّينِيَّةِ
وَالدُّنْيَوِيَّةِ فِي هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ، بِوَسِيلَةٍ مَعْرُوفَةٍ مَشْرُوعَةٍ، هِيَ الدَّعْوَةُ
وَالاجْتِمَاعُ وَالتَّرْبِيَّةُ وَحُسْنُ التَّوْجِيهِ، وَذَلِكَ حَقٌّ لِكُلِّ مُوَاطِنٍ، لَا يَحُولُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِلَّا كُلُّ ظَالِمٍ مُعْتَدٍ جَبَّارٍ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ⁽¹⁾.

وَرِغْمَ أَنْ إِجَابَاتِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مَهَذَّبَةٌ، وَأَنْ أَسْلُوبَهُ حَذِرٌ؛ فَإِنَّ
الْمُتَرْبِّصِينَ يَتَخَذُونَ تِلْكَ الْإِجَابَاتِ فُخًّا، أَوْ يَنْصَبُونَهَا شِرَاكًا؛ مِنْ أَجْلِ
حَصْرِهِ فِي ثَنَائِيَّاتٍ قَلَّمَا أَفْلَتَ مِنْهَا غَيْرُهُ؛ مِمَّنْ كَانُوا أَحَدَ رَجُلَيْنِ أَمَامَ
مِثْلِ هَاتِيكَ الْأَسْئَلَةِ: فَمِنْهُمْ مَنْ وَاجَهَهُ، وَصَارَعَ وَارْتَطَمَ، وَمِنْهُمْ مَنْ آثَرَ
الانْسِحَابَ وَالْعِزْلَةَ.

أَمَّا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّهَا تَحْدِثَاتٌ هَائِلَةٌ تَكْسِرُ الْإِرَادَاتِ،
وَتَفْلُ الْعِزَائِمَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ وَفَّقَهُ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ تِلْكَ الشَّنَائِيَّاتِ،

(1) مجموعة رسائل الإمام البنّا؛ رسالة قضيتنا بين يدي الرأي العام المصري والعربي والإسلامي.
وهي آخر رسالة كتبها الإمام البنّا قبيل اغتياله بوقت قصير في يناير 1949، ونشرت بعد استشهاده. ص
743.

وأعانه عَلَى ذَلِكَ مَا وَهَبَهُ مِنْ رُؤْيَةٍ وَاضِحَةٍ. وما أَكْثَرَ مَا قَالَ الإمامُ البنا رَحِمَهُ اللهُ بِأَنَّ: «رُؤْيَتَهُ الْوَاضِحَةَ لِحَقِيقَةِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقُومَ بِهِ، هُوَ الْبِنَاءُ، وَلَيْسَ الْهَدْمُ»، وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ: «يَاوِيحُ أُمَّةٌ تَقْدُرُ عَلَى الْهَدْمِ، وَلَا تُحْسِنُ الْبِنَاءَ». وما استطاع كثيرون أَنْ يَفْهَمُوا أَنَّ الرَّجُلَ جَاءَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحْيِيَ أُمَّتَهُ وَيُقِيمَ دَوْلَتَهَا. وما استطاعَ ذُوو الْعَقْلِيَّةِ التَّسْلُطِيَّةِ الْاِسْتِبْدَادِيَّةِ الْدِيكْتَاتُورِيَّةِ أَنْ يَفْهَمُوا هَذَا الْمَعْنَى، وتلك الغاية الَّتِي نَذَرَهَا الإمامُ البنا رَحِمَهُ اللهُ جَهْدَهُ كُلِّهَا؛ فَظَنُّوا أَنَّ الْحَرَكَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي قَادَهَا تَهْدَفُ إِلَى قَلْبِ نِظَامِ الْحُكْمِ!

ولقد رَدَّ عَلَيْهِمُ الإمامُ البنا بِأَنَّ وجودَ مثل هذه الحركةِ ضرورةٌ لوجودنا وريادتنا كذلك، وهي حركةٌ ودعوةٌ يُسَوِّغُهَا الْإِسْلَامُ الَّذِي هُوَ أَساسُ دَعْوَتِنَا، وَالْاِسْتَوْرُ الَّذِي كَفَلَ الْحَقُوقَ وَالْحُرِّيَّاتِ ؛ لِأَنَّ مَا نَقُومُ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فَرَضٌ وَوَاجِبٌ لَا إِذْنَ لَهُ.

بِهذه الإجابة استطاع الإمامُ البنا أَنْ يَدْحَضَ شُبُهَتَهُمْ، كما قَالَ: وَلَوْ انْحَازَتِ الْقُوَّةُ إِلَى جَانِبِ الْحَقِّ لِخَاصِمِنَاهُمْ كَمَا يُخَاصِمُونَنَا وَلِحَاسِبِنَاهُمْ كَمَا يُحَاسِبُونَنَا، وَلِحَاكِمِنَاهُمْ كَمَا يَحَاكِمُونَنَا. وَلَكِنْ إِلَى اللَّهِ الْمَشْتَكَى وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ .. لَمْ يَحِنْ وَقْتُنَا بَعْدُ.

يُرِيدُ الإمامُ الْبَنَّا بِذَلِكَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ بِأَنَّ دَعْوَتَنَا وَحَرَكَتَنَا تَقُومُ عَلَى أَساسٍ مَكِينٍ، يَقْتَضِي وُجُودَهَا، وَيُسَوِّغُ مَا تَقُومُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ وَجُهْدٍ، وَأَساسُ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَغَايَتُهَا: تَصْحِيحُ الْفِكْرَةِ، وَنَشْرُ الدَّعْوَةِ، وَتَرْبِيَةُ الْفَرْدِ، وَتَكْوِينُ الْجَمَاعَةِ. فَإِنَّ خُطَّتَنَا الصَّبْرَ وَالْمُطَاوَلَةَ وَالتَّوْبِيَةَ وَالتَّكْوِينَ وَالْاِنْتِظَارَ.

لقد استطاعَ الأستاذُ البنا رَحِمَهُ اللهُ بهذا الأسلوب الذي رَدَّ بِهِ عَلَيْهِمُ أَنْ

يسحب البساط من تحت أرجلهم، وأن يدعم رؤيته ويُقوِّمها، وخلاصة تلك الرؤية: «الإسلام أساس دعوتنا، التي يحميها الدستور الذي كفل الحريات».

وقد تكون إجابة الإمام البنا متقدمة جداً؛ تضمنتها بعض رسائله من أكثر من سبعين عاماً، لكنها ما زالت إجابة حاضرة معاصرة، تصلح للرد على ما يثار الآن، ويردده الكارهون للمشروع الإسلامي، مثل: الحكم الديني والحكم المدني، المرجعية الدينية والنظام الديمقراطي، الدولة المدنية والدولة الدينية؛ فكأن الرجل يُجيب بهذه الإجابات الدقيقة التي بلغت قرابة قرن من الزمان؛ على إشكاليات معاصرة أو متجددة.

ثلاثة مقومات للنجاح

لا غنى - فيما يرى الإمام البنا - لكل عمل يُراد له النجاح، أو حركة تريد أن تحقق أهدافها؛ عن ثلاثة أركان:



وَيَضْرِبُ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِثَالًا تَارِيخِيًّا بِمَا شَهِدَتْهُ أَلْمَانِيَا فِي عَهْدِ هِتْلَرٍ مِنْ انْتِقَالٍ مِنْ أَوْضَاعٍ شَدِيدَةِ الْقَسْوَةِ وَالضَّعْفِ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْقُوَّةِ؛ فَيَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَاجَهَ أَوْضَاعًا غَايَةً فِي الْقَسْوَةِ، فَأَحَالَهَا إِلَى أَوْضَاعٍ غَايَةً فِي الْقُوَّةِ».

ثُمَّ شَرَحَ الْإِمَامُ الْبَنَّا تِلْكَ الْأَوْضَاعَ، مُشِيرًا إِلَى مَا وَاجَهَتْهُ أَلْمَانِيَا فِي عَهْدِ هِتْلَرٍ مِنْ تَدَهُوْرٍ اِقْتِصَادِيٍّ، وَبَطَالَةٍ وَاسِعَةٍ، وَتَمَزُّقٍ دَاخِلِيٍّ، وَقُيُودٍ مَفْرُوضَةٍ عَلَى الصَّنَاعَةِ وَالْجَيْشِ بِحُكْمِ مُعَاهَدَةِ فَرَسَايَ⁽²⁾ وَالْاِتِّفَاقَاتِ الَّتِي أَعْقَبَتِ الْحَرْبَ الْعَالَمِيَّةَ الْأُولَى، ثُمَّ مَا جَرَى مِنْ تَحْوِيلِ هَذِهِ الْأَوْضَاعِ خِلَالَ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ إِلَى قُوَّةٍ اِقْتِصَادِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ.

وَلَا يَقْصِدُ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِهَذَا الْمِثَالِ تَمْجِيدَ التَّجَرِبَةِ النَّازِيَّةِ، أَوْ إِفْرَارَ فِكْرِهَا أَوْ سِيَاسَاتِهَا وَمُمَارَسَاتِهَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُقَرِّرَ مَعْنَى مُحَدَّدًا، وَهُوَ أَنَّ وُضُوحَ الرُّؤْيَا، وَحُسْنَ الْإِعْدَادِ، وَتَنْظِيمَ الْجُهُودِ، وَتَوْفِيرَ الْوَسَائِلِ الْمُكَافِئَةِ لِلْأَهْدَافِ، يُمَكِّنُ أَنْ يَنْقُلَ الْأُمَمُ مِنَ الضَّعْفِ إِلَى الْقُوَّةِ. وَلِذَلِكَ يُؤَكِّدُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: إِنَّنَا لَسْنَا نَازِيَّيْنَ وَلَا فَاشِيَّيْنَ وَلَا دِيْكَتَاتُورِيَّيْنَ، وَلَكِنَّهَا الرُّؤْيَا الْوَاضِحَةُ الَّتِي يُدْرِكُ بِهَا الْإِنْسَانُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، ثُمَّ يَهَيِّئُ لِغَايَاتِهِ حَرَكََةً جَادَّةً، وَيَهَيِّئُ لِهَذِهِ الْحَرَكََةِ وَسَائِلَ مُكَافِئَةً.

أولاً- الرؤية الواضحة

أما الرؤية الواضحة، فيراها الإمام البنا بتلخيص في أمرين:

اغْتِرَابُ الْأُمَّةِ وَضِياع الدَّوْلَةِ

وَيُرِيدُ الْإِمَامُ بِأَوَّلِ الْأَمْرَيْنِ (اغْتِرَابُ الْأُمَّةِ): أَنَّهَا انفَصَلَتْ عَنْ مَرْجِعِيَّتِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، تَكُونُ مَرْجِعِيَّةُ الْأُمَّةِ غَيْرَ الْقُرْآنِ وَغَيْرَ الْإِسْلَامِ. وَبَعْدَ أَنْ كَانَ الْإِسْلَامُ هُوَ الْمِيعَارَ الْحَاكِمَ وَالْمَرْجِعَ الضَّابِطَ لِمَسَارَاتِ الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ

(2) معاهدة فرساي: معاهدة سلام وُقِّعت عام 1919م في أعقاب الحرب العالمية الأولى بين دول الحلفاء وألمانيا، وفرضت على ألمانيا قيوداً سياسية وعسكرية واقتصادية قاسية، من أبرزها تقليص حجم الجيش، وتقييد التسلح والصناعات الحربية، وإلزامها بتعويضات مالية كبيرة، وقد تركت آثاراً عميقة في الأوضاع الألمانية خلال مرحلة ما بين الحربين.

وَالْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْفِكْرِيَّةَ وَالْثَقَافِيَّةَ وَالْاِقْتِصَادِيَّةَ، تَغْيِيرَ الْمَعْيَارِ، وَأَصْبَحَتْ
الْمَرْجِعِيَّةُ مُسْتَمَدَّةً مِنْ مَصَادِرَ وَمَنَاهِجَ وَضَعِيَّةٍ.

وأما الأمر الثاني (ضياع الدولة)، فيريد به الإمام البناء ما حدث لأول مرة في التاريخ كذلك؛ حيث سقطت الخلافة، وهو حادث فاجع - كما يقولون - في لحظة مؤثرة، ولأول مرة في تاريخ العالم الإسلامي، لا يكون هناك شعبٌ مُسلمٌ حر، وقد نظر الإمام البناء إلى هذه الأحداث العظام (كما يقول الشيخ الغزالي): عَلَى أَنَّهَا فَوَاجِعٌ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَصْبَحُوا فِي وَضْعٍ قَلْبٍ: فَوْضَى عَارِمَةٍ، وَتَمَزَّقَ وَتَشَرَّدُمُ، وَضَعْفٌ شَدِيدٌ .. أَمَامَ قُوَّةٍ جَبَّارَةٍ، وَنِظَامٍ قَوِيٍّ جَادٍّ فِي مُعَسِّكِرِ الْأَعْدَاءِ وَالْخُصُوفِ.

ثانيًا - الحَرَكَةُ الْجَادَّةُ

أدرك الإمام البناء أن هذا الوضع القلق للمسلمين يقتضي (حركة جادة)، وتتمثل هذه الحركة الجادة في أمرين أيضا:

1 - الْعَمَلُ الْمُنْتَظَمُ:

أي أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ مَتْرُوكًا لِلظُرُوفِ وَالْمَصَادِفَاتِ؛ فَلِكِي تَغْيِيرَ هَذِهِ الْأَوْضَاعِ الَّتِي هِيَ غَايَةٌ فِي الْقِسْوَةِ لِتَصْبَحَ أَوْضَاعًا غَايَةً فِي الْقُوَّةِ، لَا بَدَّ مِنْ عَمَلٍ مُنْتَظَمٍ مُؤَسَّسِيٍّ جَادٍّ، وَلَيْسَ مَطْرُوحًا أَنْ كُلُّ مَنْ جَالَتْ بِخَاطِرِهِ فِكْرَةٌ، أَوْ عَنَّتْ لَهُ رُؤْيَا يَنْفِذُهَا مُنْفَرِدًا، وَإِنْ بَذَلَ قِصَارَى جَهْدِهِ، وَسَخَّرَ لَهَا كُلَّ وَقْتِهِ، فَلَا أَمَمَ وَالنَهْضَاتِ لَا تَبْنَى بِالْجُهُودِ الْفَرْدِيَّةِ الْمُبَعَثَةِ، وَإِنَّمَا لَا بَدَّ لَهَا مِنَ التَّزَامِ، وَمِنْهَاجِ عَمَلٍ مُنْتَظَمٍ، لَخَصَّهُ الْإِمَامُ الْبِنَاءُ فِي أَمْرَيْنِ:

المنهاج

الالتزام



فالالتزامُ يكونُ بصيغةٍ منَ الحقِّ كما طرَحَها، والمُنْهاجُ: بَيْعَةٌ عَلَى عَمَلٍ. ولقد طرَحَ الإمامُ البنا صِغَةً مِنَ الْحَقِّ، وأَخَذَ عَلَيْهَا بَيْعَةً عَلَى عَمَلٍ، ولم يترك هذا العملَ يسيرَ جزافاً، ولكنه سعى إلى توحيد الرؤى، وتجميع الجهود وتنظيمها، كي تضطلع الملايين بالعمل الهادف إلى استعادة مجد أمتنا وتجديد نهضتها وعزتها.

2- الوفرة والهيبة

وقد أدرك الإمامُ البنا كذلك أن كل عمل منظم يحتاج إلى (وَفَرَةٍ وَهَيْبَةٍ) تتيحهما كَثْرَةُ الْأَنْصَارِ؛ إذ كان رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ إِنَّ عُدَّةَ الدَّعَوَاتِ، ونجاحها بأمرين: أولهما- عُمُومُ الدَّعَايَةِ، ثانيهما- كَثْرَةُ الْأَنْصَارِ. ومن تكلم عن الإمامِ البنا أو اتصل، يعلم أنه واجهَ جَيْلاً أَفْسَدَتْهُ رُوحُ المِيعَةِ، وَعُقْدُ النَقْصِ، والدونية؛ فَأَحْسَنَ تَرْبِيَّتَهُ وَتَوَجِيهَهُ، وَوَاجَهَ مُجْتَمَعًا مُمَزَّقًا، فَقَدَ قُوَّةَ الْإِيمَانِ، وقوة الجماعة؛ فَوَجَّهَهُ بِقُوَّةِ الْإِيمَانِ وقُوَّةِ الجماعة، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ يَقْوَى رَوَابِطَهُ، وَيَرْفَعُ دَرَجَةَ أُخُوَّتِهِ لِكَيْ يَجْعَلَ مِنْهُ هَذِهِ الْمَلَائِينَ الَّتِي حَمَلَتْ مِنْهَا جَهَ، ونشرت دعوته ورسالته بين أبناء الأمة الإسلامية.

ثَالِثًا- الْوَسَائِلُ الْمَكَافِئَةُ

لن تؤتي الرؤية الواضحة والحركة الجادة ثمارهما، حتى تُوَازِرَهُمَا وَسَائِلُ تَكَافِئُهُمَا، وتكون سبباً في تحقيق الرؤية وإنزالها على أرض الواقع، وتتمثل تلك الوسائل في أمرين:

وَسَائِلُ رَسْمِيَّة

جُهُودَ ذَاتِيَّة

فأما الجهود الذاتية، فقد تمثلت في وعيه الباكر؛ إذ أدرك الإمام البنا منذ يفاعته أن عليه واجباً ينبغي أن يؤديه، كما أن لديه طاقةً؛ ينبغي ألا يدخرها إلا لخدمة وطنه وقضايا أمتِه الكُبرى.

وأما الوسائل الرسمية، فكثيراً ما وصفها الإمام البنا بأنها: «الأشدُّ أثراً، والأقوى خطراً»، في تكييف الشعوب، وتوجيه النهضات؛ ولذلك كان يقول دائماً: إن الرضا برتبة الوعظ والإرشاد، والدعوة والإقناع، وتزكية الأرواح وتهذيب النفوس؛ إنما هو سبيل الفلاسفة الخياليين، لا المصلحين العمليين، ونحن قومٌ عمليون، نتخذ الوسائل الرسمية: كالوزارة، والمدرسة، والبرلمان، والمحكمة، والصحف، والمجلات، والمسارح، والخيالات [دور السينما]، والحاكي، والمذيع؛ حتى نستطيع تغيير الأمة؛ لأنها وسائل أصحاب الدعوات في تكييف الأمم وتوجيه الشعوب.

يقول الإمام البنا:

«وَوَسَائِلُ الدَّعَايَةِ الْآنَ غَيْرُهَا بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ؛ فَقَدْ كَانَتْ دَعَايَةُ الْأَمْسِ كَلِمَةً تُلقَى فِي خُطْبَةٍ أَوْ اجْتِمَاعٍ، أَوْ كَلِمَةً تُكْتَبُ فِي رِسَالَةٍ أَوْ خِطَابٍ، أَمَّا الْآنَ فَنَشَرَاتٌ وَمَجَلَّاتٌ وَجَرَائِدٌ وَرِسَالَاتٌ وَمَسَارِخُ وَ(خَيَالَاتٌ) وَحَاكِ وَمِذْيَاعٌ، وَقَدْ ذَلَّلَ ذَلِكَ كُلُّهُ سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ جَمِيعِهِمْ، نِسَاءً وَرِجَالاً، فِي بُيُوتِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَمَصَانِعِهِمْ وَمَزَارِعِهِمْ.

لِهَذَا كَانَ مِنْ وَاجِبِ أَهْلِ الدَّعْوَةِ أَنْ يُحْسِنُوا تِلْكَ الْوَسَائِلَ جَمِيعاً، حَتَّى يَأْتِيَ عَمَلُهُمْ بِشَمَرَتِهِ الْمَطْلُوبَةِ»⁽³⁾.

(3) مجموعة رسائل الإمام البنا. رسالة دعوتنا. ص 124.

لَحْظَتَانِ فَارِقَتَانِ

لَقَدْ بَدَأَ الْإِمَامُ الْبَنَّا وَاقِعِيًّا فِي طَرَحِهِ، رُغْمَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْخِيَالِ؛ عِنْدَمَا قَدَّمَ هَذِهِ الرُّوْيَةَ الْوَاضِحَةَ حَوْلَ: اغْتِرَابِ الْأُمَّةِ، وَضِيَاعِ الدَّوْلَةِ، وَقَدْ أَسْعَفَهُ فِي تَكْوِينِ تِلْكَ الرُّوْيَةِ اسْتِشْرَافُهُ الْمَوْرُوثَ التَّارِيخِيَّ؛ حَيْثُ رَأَى أَنَّ أَصْعَبَ لَحْظَتَيْنِ وَاجِهَتِ الْأُمَّةَ، وَقَدَّمَتْ فِيهَا خَسَائِرَ جَمَّةٍ هُمَا: لَحْظَةُ تَهْدِيدِ نَمُودَجِ الدَّوْلَةِ، وَلَحْظَةُ تَهْدِيدِ سَلَامَةِ الْفِكْرَةِ.

فَأَمَّا اللَّحْظَةُ الْأُولَى (تَهْدِيدِ نَمُودَجِ الدَّوْلَةِ)؛ فَهِيَ أَوَّلُ تَهْدِيدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ وَأَقَامَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَوْلَةً، وَتَرَكَهَا أَمَانَةً بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ، وَوَصَّى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِسُنَّتِهِمْ⁽⁴⁾. لَقَدْ هُدِّدَ نَمُودَجُ الدَّوْلَةِ الرَّاشِدِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ، وَوُلِدَ ذَلِكَ التَّهْدِيدُ عَقِيبَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَبْلَ أَنْ يُدْفَنَ جَسَدُهُ الْكَرِيمَ وَيُوَارَى الثَّرَى، عِنْدَمَا اخْتَلَفَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، حَوْلَ مَنْ يَخْلَفُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، وَمَا حَدِيثُ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ بِسَرٍّ، وَكَادَتْ الرُّوحُ الْقَبْلِيَّةُ الْبَالِيَّةُ الَّتِي خَلَصَهُمُ الْإِسْلَامُ مِنْهَا تَسْتَقِظُ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ جَدِيدٍ، لَوْلَا أَنَّ قَيَّضَ اللَّهُ لَذَلِكَ الْخِلَافِ سَيِّدَنَا أَبَا بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فَحَسَمَهُ بِحِكْمَةٍ حَازِمَةٍ؛ تَوْكُدُ كَوَامِنَ الْعِظْمَةِ فِي نَفُوسِ الصَّحَابَةِ)، وَأَزَالَ الشَّقَاقَ فِي سُرْعَةٍ وَعَدَلٍ، وَنَبَلَ يُقَرُّ لِلْأَنْصَارِ بِفَضْلِهِمْ وَنَبْلِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ، وَلَا يَنْسَى فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ فَضَّلَ الْمُهَاجِرِينَ وَسَابَقَتَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَمِنْ ثَمَّ تَضَمَّنَتْ خُطْبَةُ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، مُوجِبَاتٍ أَنْ يَكُونَ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ: فَهُمْ أَوَّلُ النَّاسِ إِيمَانًا بِاللَّهِ

(4) رَوَى الْعَرَبِيَّاتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «... فَإِنَّهُ مَنِ يَعِشْ مِنْكُمْ فَيَسِرْ إِلَى خِيَلِهِ كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَصُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ، أَخْرَجَهُ مَطُولًا أَبُو دَاوُدَ (4607)، وَالتِّرْمِذِيُّ (2676)، وَابْنُ مَاجَةَ (44)، وَأَحْمَدُ (17144) بِاخْتِلَافٍ يَسِيرٍ.

ورسوله، وهم أولياء النبي ﷺ وعشيرته، وأحق الناس بالأمر من بعده، لا ينازعهم في ذلك إلا ظالم، ومما قاله عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، في هذا الموقف العصيب: «... فلَمَّا أردتُ أن أتكلَّم، قال أبو بكر: على رِسْلِكَ، فكَرِهْتُ أن أُغْضِبَهُ، فتكلَّم أبو بكر، فكان هو أحلم مِنِّي وأوقر، والله ما تركَ مِن كَلِمَةٍ أعجبتني في تزويري إلَّا قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتَّى سَكَتَ، فقال: ما ذَكَّرْتُم فيكم مِن خيرٍ فأنتم له أهلٌ [يريد: الأنصار]، ولَن يُعَرَفَ هذا الأمرُ إلَّا لهذا الحَيِّ مِن قُرَيشٍ [يريد المهاجرين]؛ هُم أوسطُ العَرَبِ نَسَبًا ودارًا...» (5).

وأما اللحظة الثانية (تهديد سلامة الفكرة)، فقد تمثلت في حروب الردة، التي مثلت خطرًا على وحدة المسلمين ودينهم؛ إذ كانت حركة الردة أول تمرد مسلح، يهدد (شمولية الإسلام)، وتلك أهم خصائص ذلك الدين الخاتم الذي ارتضاه الله لأمة محمد ﷺ وجعله المنهاج الخاتم للبشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد فرَّق المرتدون بين الصلاة والزكاة، وأرادوا أن يؤدوا الصلاة، ويمتنعوا عن أداء الزكاة، وهذا تجزئ للإسلام وتهديد لشموليته، يُشبه تجزئ العلمانيين المعاصرين، ومحاولات تحويل الإسلام إلى نحلة دينية (محاولة نصرنة الإسلام كما يقولون). وقد قيض الله أبا بكر الصديق (رضي الله عنه)، لتلك اللحظة العصبية كذلك؛ فتصدى للمرتدين بكل قوة وحسم، حتى يحافظ على سلامة الفكرة، واسترخص في سبيل تلك الغاية كل تضحية، وإن اضطر من أجلها إلى التضحية بجيل فريد من صحابة رسول الله ﷺ، وقال في

(5) انظر حديث السقيفة مطولا عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) في: صحيح البخاري (رقم: 6830)، ومسلم (رقم: 1691).

ذلك قوله الذائعة: «لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ»⁽⁶⁾.

إِنَّ هَذَيْنِ الْخَطَرَيْنِ (تَشْوِيهِ الْفِكْرَةِ - وَتَهْدِيدَ نَمُودَجِ الدَّوْلَةِ)، كَانَا أَقْوَى تَهْدِيدَ يَوَاجِهَ الْمُسْلِمِينَ عَقَبَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَبْعَثُ الْخَوْفَ فِي نَفُوسِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ مِنْ أَنْ يُضَيَّعَ الْإِسْلَامُ فِي مَوَاجِهَةِ هَذَيْنِ الْخَطَرَيْنِ، وَقَدْ صَوَّرَ الْفَارُوقُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ ذَلِكَ الْخَوْفَ، كَمَا صَوَّرَ جَسَامَةُ التَّضَحِّيَّاتِ الَّتِي بُذِلَتْ وَالنَّفُوسِ الَّتِي أَزْهَقَتْ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ؛ فِيمَا قَالَهُ يَوْمَ الْيَمَامَةِ: «أَلَحَّتِ السُّيُوفُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُعْوَلُ يَوْمئِذٍ إِلَّا عَلَيْهِمْ. خَافُوا عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ يُكْسَرَ بَابُهُ فَيَدْخُلَ مِنْهُ إِنْ ظَهَرَ مُسَيْلِمَةُ. فَمَنَعَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِهِمْ حَتَّى قُتِلَ عَدُوُّهُ. وَأَظْهَرَ كَلِمَتَهُ وَقَدِّمُوا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - عَلَى مَا يُسْرُونَ بِهِ مِنْ ثَوَابِ جِهَادِهِمْ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ. فَاسْتَحَرَّ بِهِمُ الْقَتْلُ. فَرَحِمَ اللَّهُ تِلْكَ الْوُجُوهَ».

وعبارة الفاروق (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَوْمئِذٍ قَدْ ضَحَّوْا بِجِيلٍ عَظِيمٍ جَدًّا مِنَ الصَّحَابَةِ؛ وَمِنْهُمْ كَثِيرُونَ مِنْ حَفْظَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَكِنَّ هَذِهِ التَّضَحِّيَّاتِ قُدِّمَتْ فِي سَخَاءٍ بِالْغِ. لِمَاذَا؟ لَأَنَّ الْأَمْرَ يَسْتَدْعِي هَذَا. وَكَانَتْ وَقْفَةُ الصَّدِيقِ الْقَوِيَّةِ هِيَ الَّتِي عَصَمَتْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَيْنِ الْخَطَرَيْنِ [تَشْوِيهِ الْفِكْرَةِ - وَتَهْدِيدَ نَمُودَجِ الدَّوْلَةِ]، وَأَبْقَتْ دِينَ اللَّهِ سَالِمًا رَغْمَ التَّضَحِّيَّاتِ الْعَزِيزَةِ، وَالْخَسَائِرِ الْجَمَّةِ؟

وَالسُّؤَالُ: مَاذَا أَدْرَكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ هَذَا؟ مَا الَّذِي فَهَمَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ ذَلِكَ الْاسْتِشْرَافِ التَّارِيخِيِّ؟

(6) مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَدْرَكَ أَنَّ الزَّكَاةَ هِيَ التَّجْسِيدُ الْمَلْمُوسُ، وَرَبَّمَا التَّجْسِيدُ الْمَادِي الْوَحِيدُ، لِوَحِدَةِ الْقَبَائِلِ، وَهِيَ الْعِلَاقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَرْبُطَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَكُلُّ قَبِيلَةٍ كَانَتْ يُمْكِنُ لَهَا أَنْ تَصْلِيَ وَرَاءَ إِمَامِهَا، وَيَقْتَصِرَ الْحَالُ عَلَى هَذَا، فِي حِينَ تَتَطَلَّبُ الزَّكَاةُ نَوْعًا مِنَ الْعِلَاقَةِ الْمَتَبَادَلَةِ، وَالتَّنْظِيمِ الْمَرْكَزِيِّ لِجَمْعِهَا وَصَرْفِهَا، مِنْ هُنَا أَصَرَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ضَرُورَةِ اسْتِمْرَارِ الْقَبَائِلِ فِي دَفْعِ الزَّكَاةِ. انظر محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين، الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، ص 61.

تَفَرَّدَ فِي الرَّؤْيِيَةِ وَالْفَهْمِ (شُمُولِيَّةُ الْفِكْرَةِ وَوَحْدَةُ الْأُمَّةِ)

فَهَمَ الْإِمَامُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَدْرَكَ أَنَّ سَلَامَةَ الْفِكْرَةِ وَالْحِفَاطَ عَلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ؛ يَسْتَحِقُّ مَا يُبْذَلُ مِنْ أَجْلِهِ أَوْ فِي سَبِيلِهِ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ رُبَّمَا يُكَلِّفُهُ رَاحَتَهُ وَحَيَاتَهُ. وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الْغَايَةُ الْكُبْرَى الَّتِي نَذَرَ لَهَا حَيَاتَهُ وَوَقْتَهُ وَجِهَادَهُ، هِيَ: تَصْحِيحُ الْفِكْرَةِ، وَالْحِفَاطُ عَلَى وَحْدَةِ الْأُمَّةِ.. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يُؤَكِّدُ شُمُولِيَّةَ الْإِسْلَامِ، وَيُلَحِّحُ عَلَيْهَا فِي رِسَائِلِهِ وَكُتَابَاتِهِ، فَيَقُولُ: «الْإِسْلَامُ نِظَامٌ شَامِلٌ يَتَنَاوَلُ مَظَاهِرَ الْحَيَاةِ جَمِيعًا؛ فَهُوَ: دَوْلَةٌ وَوَطَنٌ أَوْ حُكُومَةٌ وَأُمَّةٌ، وَهُوَ خُلُقٌ وَقُوَّةٌ أَوْ رَحْمَةٌ وَعَدَالَةٌ، وَهُوَ ثَقَافَةٌ وَقَانُونٌ أَوْ عِلْمٌ وَقَضَاءٌ، وَهُوَ مَادَّةٌ وَثَرَوَةٌ أَوْ كَسْبٌ وَغِنَى، وَهُوَ جِهَادٌ وَدَعْوَةٌ أَوْ جَيْشٌ وَفِكْرَةٌ، كَمَا هُوَ عَقِيدَةٌ صَادِقَةٌ وَعِبَادَةٌ صَحِيحَةٌ سَوَاءً بِسَوَاءٍ»⁽⁷⁾. وَلَمْ تَكُنْ غَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُؤَسِّسَ جَمَاعَةً دَعْوِيَّةً فَحَسْبُ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُؤَسِّسَ جَمَاعَةً تَتَجَلَّى فِيهَا مَظَاهِرُ (شُمُولِيَّةِ الْإِسْلَامِ)، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ جَمَاعَةَ (الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ) فِي تَصَوُّرِ الْإِمَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَرُؤْيِيَّتِهِ: «دَعْوَةٌ سَلَفِيَّةٌ، وَطَرِيقَةٌ سُنِّيَّةٌ، وَحَقِيقَةٌ صُوفِيَّةٌ، وَهَيْئَةٌ سِيَاسِيَّةٌ، وَجَمَاعَةٌ رِيَاضِيَّةٌ، وَرَابِطَةٌ عِلْمِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ، وَشَرِكَةٌ اقْتِصَادِيَّةٌ، وَفِكْرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ»⁽⁸⁾.

وهكذا نرى شُمُولِيَّةَ فِكْرَتِنَا ودَعْوَتِنَا مُسْتَمْدَةً مِنْ شُمُولِيَّةِ الْإِسْلَامِ لِكُلِّ مَنَاحِي الْحَيَاةِ، وَقَدْ أَفَادَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ نَمُودَجِ الدَّوْلَةِ الرَّاشِدِيَّةِ ضَرُورَةَ اسْتِبْقَاءِ ذَلِكَ الشُّمُولِ وَحِمَايَتِهِ، وَمَقَاوِمَةَ أَيِّ تَشْوِيهِ لِدَلِكِ الشُّمُولِ [تَشْوِيهِ الْفِكْرَةِ، أَوْ تَشْوِيهِ الدَّوْلَةِ]؛ مَهْمَا تَكَلَّفَتْ هَذِهِ الْحِمَايَةُ، أَوْ تِلْكَ الْمَقَاوِمَةُ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ. وَلِذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِ رُؤْيِيَّةِ الْإِمَامِ الْبَنَّا لِفَهْمِ الْإِسْلَامِ يُؤَكِّدُ شُمُولِيَّةَ الْفِكْرَةِ (الْإِسْلَامُ نِظَامٌ شَامِلٌ)، وَكَانَ آخِرُ أَصْلٍ مِنْ أَصُولِهِ الْعَشْرِينَ يُؤَكِّدُ (وَاحِدَةَ الْأُمَّةِ): «وَلَا تُكْفِّرُ مُسْلِمًا أَقْرَبُ الشَّهَادَتَيْنِ

(7) مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 269.

(8) مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص 332.



وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُمَا، وَأَدَّى الْفَرَائِضَ - بِرَأْيٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ - إِلَّا إِنْ أَقَرَّ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، أَوْ أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، أَوْ كَذَّبَ صَرِيحَ الْقُرْآنِ، أَوْ فَسَّرَهُ عَلَى وَجْهِ لَا تَحْتَمِلُهُ أَسَالِيبُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِحَالٍ، أَوْ عَمِلَ عَمَلًا لَا يَحْتَمِلُ تَأْوِيلًا غَيْرَ الْكُفْرِ»⁽⁹⁾.

فوحدة الأمة والحفاظ عليها غايتان يؤكدهما (الأصل الأول والأصل العشرون)، وما بينهما من أصول؛ إنما هي فروع يُمكن الاختلاف فيها أو الاتفاق عليها. أمّا الأصلان اللذان لا يُمكن التساهل فيهما، فهما: شمولية الفكرة ووحدة الأمة؛ فلا يمكن أبدًا أن نترخص فيهما، بل تبدّل في سبيلهما التضحيات التي بذلت من قبل من أجل الحفاظ عليهما، وقد بذل الإمام البنا راحته وحياته، من أجل أن يفهم المسلمون ضرورة حماية هذين الأصلين. ولم يكن هذا فهم خاص ابتدعه، وإنما ورث ذلك الفهم استشرافه موارث خير القرون، وقد تفرد حسن البنا بهذا الفهم الشمولي من بين المصلحين المعاصرين، ولم يكن غريبًا أن يدرك روبر جاكسون هذا التفرد، فيصف الإمام البنا بـ«الرجل القرآني»، ويقول عنه: «كان حسن البنا الداعية الأول في الشرق الذي قدم للناس برنامجًا مدروسًا كاملاً، لم يفعل ذلك أحد قبله، لم يفعله جمال الدين الأفغاني ولا محمد عبده، ولم يفعله زعماء الأحزاب والجمعيات الذين لمعت أسماءهم بعد الحرب العالمية الأولى... وأستطيع بناءً على دراساتي الواسعة أن أقول: إن حياة الرجل وتصرفاته كانت تطبيقًا صادقًا للمبادئ التي نادى بها. وقد منحه (الإسلام) - كما كان يفهمه ويدعو إليه - حُلَّةً متألقةً، قوية الأثر في النفوس، لم تُتخّ لزعماء السياسة ولا لرجال الدين»⁽¹⁰⁾.

(9) مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 271.

(10) روبر جاكسون: حسن البنا (الرجل القرآني)، ترجمة أنور الجندي، ط 1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1397هـ - 1997م، ص 10.

وصحيح أن الإمام البنا قد لفت إليه كل الأنظار بهذا الفهم الذي رُبَّما رآه الناس فهمًا غريبًا في ذلك الوقت، لكنه الفهم الصحيح للإسلام، وقد آمن الإمام البنا بهذا الفهم إيمانًا لا يتطرق إليه شك، وحرص على تأكيد أن هذا الفهم مستمد من الإسلام ومبادئه، ومن ثم تراه يعرف الركن الأول من أركان بيعته العشر، وهو ركن (الفهم)، فيقول: «أن تؤقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموزعة كل الإيجاز»⁽¹¹⁾؛ وقد أشرنا من قبل إلى أن هذه الأصول العشرين تهدف إلى الحفاظ على شمولية الإسلام (سلامة الفكرة)، والحفاظ على (وحدة الأمة)؛ لأنهما أهم ثغرتين أتيت منهما أمتنا الإسلامية؛ فإذا شوَّهت الفكرة فسَدَ الواقع، وإذا ضاعت الوحدة ضاعت الأمة، يقول الإمام البنا: «دعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تُحبُّ الإجماع، وتكره الشذوذ، وإن أعظم ما مُني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحُبُّ والوَحدة»¹².

رؤية على منهاج النبوة

كانت الرؤية الواضحة (إذن) أهم ما ورثه الإمام البنا من استشرافه ميراث خير القرون، مهتديًا بسنة رسول الله ﷺ الذي جمع ما تفرق من ميراث الرُّسل: من عقل، وروح، ومن دين ودولة تكون سياجًا للمجتمع؛ لقد جمع ﷺ ما تفرق من ميراث الرُّسل الكرام، فكان ذلك الجمع كسبه وإضافته، وحقق ما مهدوا له من مهمات خذلهم في تحقيقها أقوامهم.

ويبقى السؤال: كيف خذلت الأقوام السابقة أنبياءها، فلم يحققوا

(11) مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 269.

(12) مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة دعوتنا]، ص 137.

فضائل النبوة وميراث الوحي؟

إذا بدأنا بسيدنا موسى (عليه السلام)، فقد أعجزه قومه بأخلاقهم الذميمة عن إتمام رسالته، فمات في التيه معهم دون أن يحقق غايته وينجز مهمته، وكذلك سيدنا عيسى (عليه السلام)، وهو نبي بازغ الشرف في بني إسرائيل (كما يقول عنه الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللهُ)، إلا أن قومه أعجزوه عن أن يُتِمَّ مهمته فَرَفَعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وداوود وسليمان عليهما السلام، فرغم أنهما نجحا في حيز محدود وفي وقت محدود في أن يُقيموا دولةً، فإن خلال قومهم السيئة، وأخلاقهم الذميمة سرعان ما أفسدتها، حتَّى إنَّ سيدنا سليمان (عليه السلام)، تخلص من جيشه وخيله ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ طَافِقٌ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، واستبدل بها الاستعانة بقوى الكون الهائلة، ودعا ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾؛ لكي أتمَّ مهمَّتي، وهذا تعبير صارخ عن لحظة صارخة في تاريخ الرسل؛ أن يستعِضَّ عن جيشه وخيله بقوى الكون الهائلة، كما أنه تعبير صارخ عن فساد الأمم وسوء أخلاقها، ممَّا يوقعها تحت سُنَّةِ الاستبدال؛ فَتَنْتَقِلُ مُهمَّتُهَا إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى، وقد كَانَ ذَلِكَ إِذَا نَا بِأَنَّ هَذِهِ الْمُهمَّةَ (لكي تتحقق) ينبغي أن تتحول من بني إسرائيل إِلَى أُمَّةٍ أُخْرَى تَهَيَّأُ لِلنُّهُوضِ بِرِسَالَةِ الْوَحْيِ، وتكاليف النبوة.

حتمية العمل المنظم

وهذا أيضًا ممَّا أفاده الإمام البنا من الموروث النبوي واستشراف المورث التاريخي؛ فقد أدرك أنَّ عقائد الأمم الراسخة، وأفكارها، ونظمها، وعاداتها، وتقاليدها؛ أعجزت الرسل الكرام (عليهم السلام) عن إنجاز مهمتهم؛ لأنَّ رُسُوخَ الأمم يحتاج من أجل إزالتها إِلَى مَنْعَةٍ وعُصْبَةٍ قوية، وهذا ما أدركه الإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ، فكان أوَّلُ شيءٍ في تكوين

حركته الجادة كما تكلمنا: العمل المنظم تنهض به الملايين (الهيئة والوفرة)، وأن ذلك العمل المنظم ليس متروكاً للتوافق والمصادفات، وإنما التزام بصيغة من الحق ومنهاج وبيعة على عمل، حتى يستطيع أن يزيل رُسوخ الدول المعادية للإسلام بعقائدها، وفلسفاتها، وعاداتها وتقاليدها، ونظمها؛ لأن رُسوخ تلك الأنظمة يُعجزك عن أداء رسالتك، وإتمام مهمتك، وإن كانت نبيلة شريفة. هذه النظم تُعجزك؛ لأنك لا تأخذُ بالأسباب، والسبيل المطلوبة التي أسماها ابن خلدون (المطالبة القوية بالعصبة والمنعة)، ويؤكدُه - قبل ابن خلدون - حديث المصطفى ﷺ عن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنه قال: «... ورحمة الله على لوط، إن كان ليأوي إلى رُكنٍ شديد؛ إذ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فما بعث الله من بعده نبياً إلا في ذروة من قومه»⁽¹³⁾.

فلا بد للحق من منعة وقوة تحمله وتحميه، ولذا أتم رسولنا ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، لأنه كان في منعة من قومه، ثم قَوَاهُ الله بصحابته الكرام (مهاجرين، وأنصار)، فكانوا بعد تأييد الله تعالى جُنُودَ الدَّعْوَةِ، وَحَمَلَةَ الْفِكْرَةِ، ومن ثم نقول بأن رسولنا ﷺ حَقَّقَ مَا مَهَّدَ لَهُ إِخْوَانُهُ مِنَ الرِّسَالِ الكرام، وَجَمَعَ مِنْ مِيرَاثِهِمْ مَا تَفَرَّقَ، فلم يكن ﷺ مجرد نبي، بل كان خير الرسل، واصطفاه ربه تعالى ليكون نبي خير الأمم، وتلك سنة الله الماضية وهو التفاضل بين مخلوقاته، وإن كانوا رسلاً مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، وليس هذا انتقاصاً من قدرهم صلوات

(13) حديث صحيح، أخرجه البخاري (4694)، ومسلم (151)، والترمذي (3116) واللفظ له. ومعنى (إن كان ليأوي إلى رُكنٍ شديد)، أي: كان يطلب العزة والمنعة من قومه حتى لا يؤذوا ضيوفه بتعمدهم إلى فعل الفاحشة فيهم، وإنما ترحم عليه النبي ﷺ لسهوه حين ضاق صدره، وأنه كان يأوي إلى الله تعالى؛ فالله عز وجل أشد الأركان وأقواها.. وفي رواية: «فما بعث الله من بعده نبياً إلا ثروة من قومه»، والمراد بالثروة: أعلاها نسباً، والمراد بالثروة: الكثرة والمنعة.

الله عليهم، ولكنها دروسٌ نتعلمها من تاريخهم وجهادهم.

ولقد كان ذلك الميراث النبوي، والاستشراف التاريخي أساس الرؤية الواضحة لدى الإمام البنّا، وعمادها، فلقد هداه ذلك الاستشراف التاريخي إلى أنه سوف يبذل جهداً ضخماً جداً، من أجل سلامة الفكرة ووحدة الأمة. كما هداه إلى أنه سوف يحتاج لكي يزحّ النظم الراسخة، ويُغيّر تلك الحال القاسية البئسة، وينقلها إلى حال غاية في القوة؛ يحتاج من أجل ذلك إلى عمل منظم (التزام ومنهاج) تضطلع به الملايين لكي يوفر الهيبة والوفرة، أو (المنعة والعصبة) بأسلوب الأقدمين، وقد كان الإمام البنّا دائماً يصوغ المصطلحات صياغةً عصريةً، تُقربها إلى أفهام الناس، فاستبدل (الهيبة والوفرة) بما اصطلح عليه الأقدمون (العصبة والمنعة).

منهاج العمل ودُستوره

كان أول شيء عمله الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ أنه أسرع إلى تكوين أنصار للدعوة يكافح بهم ويُسانِدونه؛ لأنه أيقن من اطلاعه على ميراث القرون السابقة أن إتمام المهمة التي نذر نفسه من أجلها، والتي هي عمل الأنبياء والمرسلين، لا تتحقق إلا بعمل منظم (المنهاج والالتزام)، أي التزام بصيغة من الحق، وهي التي طرحها في الأصول العشرين، وقد أراد الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ بتلك الأصول العشرين، أن تلتقي عليها الأمة من أجل أمور ثلاث:

1 - أن يُخفّف مِنَ الغُلُوِّ.

2 - أن يَضْبُطَ المَسِيرَ.

3 - أن يُوَحِّدَ مِنْ فُرْقَةٍ.

ومن ثم كانت الصيغة التي وضعها الإمام البنّا في أصوله العشرين،

موضع اهتمام العلماء، وممن كتب عنها وشرحها الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللهُ، وسماها (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، في كتابه المشهور الذي شرح فيه (الأصول العشرين) التي وضعها الإمام البنا لتوحد فهم المسلمين للإسلام، كما أنَّها صيغة من الحق أراد الإمام البنا بالتزامها، أن تتوحد رؤية الأمة الإسلامية، وفكرها في مواقفها التي تصدر عنها، وفي حركتها كذلك، وعلى هذه الصيغة التي طرحها الإمام البنا أخذ بيعة [التزام ومنهاج]، تتوحد بها رؤية العاملين لدين الله تعالى، ولا يُترك عملهم للموافقات والمصادفات.

ويبدو الإمام البنا في صيغته التي طرحها كأنه أستاذ يعلم ويشرح ويُفصّل، ويتجنب الإجمال، فقد كان يرى أن الإجمال مع الجهل (الغفلة) يؤديان إلى الفوضى والحيرة، التي وقعت فيها جماهير الأمة، ولذا تراه في حركته وجهاده ودعوته يذكّر الأمة الإسلامية ب(واجبات غفل الناس عنها)؛ إذ صار كل صالح في الأمة يقول: نفسي نفسي، ولا يُبالي إن هو نجّا، بغيره من إخوانه المسلمين الغافلين، حتى لقد صدم الإمام بإجابة بعض من توسّم فيهم الخير، ورَجَا أن يُعاونوه على أداء رسالته، وتحقيق مهمته، فإذا به (الشيخ يوسف الدجوي) ⁽¹⁴⁾ يُجيبه مُتمثلاً ببيت شعر يُلخص منهجه في الحياة:

وَمَا أَبَالِي إِذَا نَفْسِي تُطَاوَعُنِي
عَلَى النَّجَاةِ بَمَنْ قَدْ مَاتَ أَوْ هَلَكَ ⁽¹⁵⁾

وقد روى الإمام البنا قصة هذه الإجابة مفصّلة في (مذكرات الدعوة

(14) يوسف بن أحمد نصر الدجوي (1287-1365 هـ/ 1870-1946 م): فقيه مصري، عمل بالتدريس في الأزهر، وكان عضواً في هيئة كبار علماء الأزهر الشريف. له كتابات في شتى الأمور الإسلامية.

(15) يُنسب هذا البيت إلى محي الدين بن عربي، مع استبدال كلمة (تُساعدني) ب(تطاولعني)، هكذا:

فَمَا أَبَالِي إِذَا نَفْسِي تُسَاعِدُنِي
عَلَى النَّجَاةِ بَمَنْ قَدْ مَاتَ أَوْ هَلَكَ



والداعية)، خلال حديثه مع الشيخ الدجوي، وبعض علماء الأمة كي يقوموا بواجبهم تجاه أمتهم، ويساعدوها على النهوض من كبوتها، يقول الإمام البنا: «كنت أقرأ للشيخ يوسف الدجوي رَحِمَهُ اللهُ كثيراً. وكان الرجل سَمَحَ الخُلُق، حُلُو الحديث صَافِي الرُّوح. وبحكم النشأة الصوفية كان بيني وبينه رحمه الله صلةٌ روحيةٌ وعلميةٌ تحملني على زيارته الفينة بعد الفينة، بمنزله بقصر الشوق، أو بعطفة الدويداري بحي الأزهر، وكنت أعرف أن له صلاتٍ بكثيرٍ من رجال المعسكر الإسلامي، من علماء أو وجهاء، وأعرف أنهم يحبونه ويُقدِّرونه فعزمتُ على زيارته، ومُكاشفته بما في نفسي، والاستعانة به على تحقيق هذه الفكرة والوصول إلى هذه الغاية. وزرته بعد الإفطار، وكان حوله لفيف من العلماء وبعض الوجهاء، ومن بينهم رجلٌ فاضلٌ لا أزال أذكرُ أن اسمه (أحمد بك كامل) وإن لم ألتق به بعد هذه المرة.

تحدثت إلى الشيخ في الأمر فأظهر الألم والأسف وأخذ يعدد مظاهر الداء والآثار السيئة المترتبة على انتشار هذه الظاهرة في الأمة، وخلص من ذلك إلى ضعف المعسكر الإسلامي أمام هؤلاء المتأمرين عليه، وكيف أن الأزهر حاول كثيراً أن يصد هذا التيار فلم يستطع، وتطرق الحديث إلى جمعية «نهضة الإسلام» التي ألفها الشيخ، هو ولفيف من العلماء، ومع ذلك لم تُجد شيئاً، وإلى كفاح الأزهر ضد المبشرين والملحدين، وإلى مؤتمر الأديان في اليابان، ورسائل الإسلام التي ألفها فضيلته وبعث بها إليه، وانتهى ذلك كله إلى أنه لا فائدة من كل الجهود، وحسب الإنسان أن يعمل لنفسه وأن ينجو بها من هذا البلاء. وأذكر أنه تمثل بهذا البيت، الذي كان كثيراً ما يتمثل به، والذي كتبه لي في بعض بطاقاته في بعض المناسبات:

وَمَا أَبَالِي إِذَا نَفْسِي تَطَاوَعْنِي
عَلَى النَّجَاةِ بِمَنْ قَدِمَاتِ أَوْ هَلَكَا

وَأَوْصَانِي أَنْ أَعْمَلَ بِقَدْرِ الْإِسْطَاعَةِ، وَأَدَعَ النَّتَاجَ لِلَّهِ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

لَمْ يُعْجِبْنِي طَبْعًا هَذَا الْقَوْلُ، وَأَخَذْتَنِي فَوْرَةُ الْحَمَاسَةِ، وَتَمَثَّلَ أَمَامِي
شَبْحُ الْإِخْفَاقِ الْمُرْعَبِ، إِذَا كَانَ هَذَا الْجَوَابُ سَيَكُونُ جَوَابَ كُلِّ مَنْ
أَلْقَى مِنْ هَؤُلَاءِ الْقَادَةِ فَقُلْتُ لَهُ فِي قُوَّةٍ: إِنِّي أَخَالَفُكَ يَا سَيِّدِي كُلَّ
الْمُخَالَفَةِ فِي هَذَا الَّذِي تَقُولُ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ ضَعْفًا
فَقَطْ، وَقَعُودًا عَنِ الْعَمَلِ، وَهَرُوبًا مِنَ التَّبَعَاتِ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَخَافُونَ؟
مِنَ الْحُكُومَةِ أَوْ الْأَزْهَرِ؟ كَيْفِيكُمْ مَعَاشُكُمْ وَاقْعُدُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَاعْمَلُوا
لِلْإِسْلَامِ، فَالشَّعْبُ مَعَكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَوْ وَاجَهْتُمُوهُ، لِأَنَّهُ شَعْبٌ مُسْلِمٌ،
وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي الْمَقَاهِي، وَفِي الْمَسَاجِدِ، وَفِي الشُّوَارِعِ، فَرَأَيْتُهُ يَفِيضُ إِيْمَانًا،
وَلَكِنَّهُ قُوَّةٌ مُهْمَلَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدِينَ وَالْإِبَاحِيِّينَ، وَجَرَائِدِهِمْ وَمَجَلَّاتِهِمْ
لَا قِيَامَ لَهَا إِلَّا فِي غَفْلَتِكُمْ، وَلَوْ تَنَبَّهْتُمْ لَدَخَلُوا جُحُورَهُمْ.

يَا أُسْتَاذُ! إِنْ لَمْ تُرِيدُوا أَنْ تَعْمَلُوا لِلَّهِ فَاعْمَلُوا لِلدُّنْيَا وَلِلرَّغِيفِ الَّذِي
تَأْكُلُونَ، فَإِنَّهُ إِذَا ضَاعَ الْإِسْلَامُ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ ضَاعَ الْأَزْهَرُ، وَضَاعَ الْعُلَمَاءُ،
فَلَا تَجِدُونَ مَا تَأْكُلُونَ، وَلَا مَا تُنْفِقُونَ، فَدَافِعُوا عَنْ كِيَانِكُمْ إِنْ لَمْ تُدَافِعُوا
عَنْ كِيَانِ الْإِسْلَامِ، وَاعْمَلُوا لِلدُّنْيَا إِنْ لَمْ تُرِيدُوا أَنْ تَعْمَلُوا لِلْآخِرَةِ، وَإِلَّا
فَقَدْ ضَاعَتْ دُنْيَاكُمْ وَآخَرَتُكُمْ عَلَى السَّوَاءِ!.

وَكُنْتُ أَتَكَلَّمُ فِي حَمَاسَةٍ وَتَأَثَّرٍ وَشِدَّةٍ، مِنْ قَلْبٍ مُحْتَرِقٍ مَكْلُومٍ، فَانْبَرَى
بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْجَالِسِينَ يَرُدُّ عَلَيَّ فِي قَسْوَةٍ كَذَلِكَ، وَيَتَّهَمُنِي بِأَنِّي أَسَأْتُ
إِلَى الشَّيْخِ وَخَاطَبْتُهُ بِمَا لَا يَلِيقُ، وَأَسَأْتُ إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْأَزْهَرِ، وَأَسَأْتُ

بذلك إلى الإسلام القوي العزيز، والإسلام لا يضعف أبداً والله تكفل بنصره.

وقبل أن أردّ عليه انبرى أحمد بك كامل هذا، وقال: «لا يا أستاذ، من فضلك هذا الشاب لا يريد منكم إلا الاجتماع لنصرة الإسلام. وإن كنتم تريدون مكاناً تجتمعون فيه فهذه داري تحت تصرفكم افعلوا بها ما تريدون، وإن كنتم تريدون مالا فلن نعدم المحسنين من المسلمين، ولكن أنتم القادة فسيروا ونحن وراءكم. أما هذه الحجج فلم تعد تنفع بشيء». هنا سألت جاري عن هذا الرجل المؤمن: من هو؟ فذكر لي اسمه - وما زال عالقا بذهني ولم أره بعد - وانقسم المجلس إلى فريقين: فريق يؤيد رأي الأستاذ العالم، وفريق يؤيد رأي أحمد بك كامل، والشيخ رحمه الله ساكت. ثم بدا له أن ينهي هذا الأمر فقال: على كل حال نسأل الله أن يوفقنا للعمل بما يرضيه، ولا شك أن المقاصد كلها متجهة إلى العمل، والأمور بيد الله. وأظننا الآن على موعد مع الشيخ محمد سعد فهيا لنزوره.

وانقلنا جميعاً إلى منزل الشيخ محمد سعد (وهو قريب من منزل الشيخ الدجوي رحمه الله)، وتحريت أن يكون مجلسي بجوار الشيخ الدجوي مباشرة، لأستطيع الحديث فيما أريد. ودعا الشيخ محمد سعد بحلويات رمضان، فقدمت وتقدم الشيخ ليأكل فدنوت منه، فلما شعر بي بجواره سأل: من هذا؟ فقلت: فلان.

فقال: أنت جئت معنا أيضاً؟ فقلت: نعم يا سيدي، وسوف لا أفارقكم إلا إذا انتهينا إلى أمر. فأخذ بيده مجموعة من النقل وناولنيها وقال: خذ، وإن شاء الله نفكر، فقلت: يا سبحان الله، يا سيدي إن الأمر لا يحتمل تفكيراً، ولكن يتطلب عملاً، ولو كانت رغبتني في هذا النقل وأمثاله

لاستطعتُ أن أشتري بقرش، وأظَلَّ في منزلي وَلَا أَتَكَلَّفُ مَشَقَّةَ زِيَارَتِكُمْ.
يَا سَيِّدِي إِنَّ الْإِسْلَامَ يُحَارَبُ هَذِهِ الْحَرْبَ الْعَنِيفَةَ الْقَاسِيَةَ، وَرِجَالَهُ وَحُمَاتِهِ
وَأُئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَقْضُونَ الْأَوْقَاتِ غَارِقِينَ فِي هَذَا النِّعَمِ. أَتَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ
لَا يَحَاسِبُكُمْ عَلَى هَذَا الَّذِي تَصْنَعُونَ؟ إِنْ كُتُبْتُمْ تَعْلَمُونَ لِلْإِسْلَامِ أُمَّةً
غَيْرَكُمْ وَحُمَاءً غَيْرَكُمْ فَدُلُّونِي عَلَيْهِمْ؛ لَأُذْهَبَ إِلَيْهِمْ، لَعَلِّي أَجِدُ عِنْدَهُمْ
مَا لَيْسَ عِنْدَكُمْ !!

وسادت لحظة صمت عجيبة، وفاضت عينا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بدمع غزير
بَلَلٍ لِحَيْتِهِ، وَبَكَى بَعْضُ مَنْ حَضَرَ. وَقَطَعَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الصَّمْتَ بِأَنْ
قَالَ فِي حُزْنٍ عَمِيقٍ، وَفِي تَأْثَرٍ بَالِغٍ: وَمَاذَا أَصْنَعُ يَا فُلَانُ؟ فَقُلْتُ: يَا سَيِّدِي
الْأَمْرُ يَسِيرُ، وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهَ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا. لَا أُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَحْضُرَ أَسْمَاءُ
مَنْ نَتَوَسَّمُ فِيهِمْ الْغَيْرَةَ عَلَى الدِّينِ، مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ وَالْوَجَاهَةِ وَالْمَنْزِلَةِ،
لِيَفَكَّرُوا فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَعْمَلُوهُ: يُصَدِّرُونَ وَلَوْ مَجْلَةً أُسْبُوعِيَّةً أَمَامَ جَرَائِدِ
الْإِلْحَادِ وَالْإِبَاحِيَّةِ، وَيَكْتُبُونَ كُتُبًا وَرُدُودًا عَلَى هَذِهِ الْكُتُبِ، وَيُؤَلِّفُونَ
جَمْعِيَّاتٍ يَأْوِي إِلَيْهَا الشَّبَابُ، وَيُنَشِّطُونَ حَرَكَةَ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ.. وَهَكَذَا
مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ. فَقَالَ: جَمِيلٌ. وَأَمَرَ بِرَفْعِ «الصَّيْنِيَّةِ» بِمَا عَلَيْهَا، وَإِحْضَارِ
وَرَقَةٍ وَقَلَمٍ. وَقَالَ: اكْتُبْ. وَأَخَذْنَا نَتَذَاكَرُ الْأَسْمَاءَ، فَكُتِبْنَا فَرِيقًا كَبِيرًا مِنْ
الْعُلَمَاءِ الْأَجَلَاءِ أَذْكَرُ مِنْهُمْ: الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَفَضِيلَةُ الْأُسْتَاذِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ
الْخَضِرِ حُسَيْنٍ، وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْعَزِيزِ جَاوِيَشٍ، وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْوَهَّابِ
النَّجَّارِ، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْخَضِرِيِّ، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدِ أَحْمَدَ إِبْرَاهِيمَ، وَالشَّيْخِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَوْلِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وَجَاءَ اسْمُ السَّيِّدِ رَشِيدٍ رَضَا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ الشَّيْخُ: «اَكْتُبُوهُ اَكْتُبُوهُ فَإِنَّ
الْأَمْرَ لَيْسَ أَمْرًا فَرَعِيًّا نَخْتَلِفُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ إِسْلَامٌ وَكُفْرٌ، وَالشَّيْخُ رَشِيدٌ
خَيْرٌ مَنْ يَدَافِعُ بِقَلَمِهِ وَعِلْمِهِ وَمَجْلَّتِهِ». وَكَانَتْ هَذِهِ شَهَادَةً طَيِّبَةً مِنَ الشَّيْخِ

للسيد رشيد رحمهما الله، مع ما كان بينهما من خلاف في الرأي حول بعض الشؤون. وكان من الوجهاء: أحمد باشا تيمور، ونسيم باشا وأبو بكر يحيى باشا، ومتولي بك غنيم، وعبد العزيز بك محمد (وهو عبد العزيز باشا محمد الآن)، وعبد الحميد بك سعيد رحمهم الله جميعاً، وكثيرون غير هؤلاء.

ثم قال الشيخ: وإذن فعليك أن تمرّ على من تعرف، وأمرّ على من أعرف، ونلتقي بعد أسبوعٍ إن شاء الله.

التقينا مرّاتٍ، وتكونت نواة طيبة من هؤلاء الفضلاء وواصلت اجتماعها بعد عيد الفطر، وأعقب ذلك أن ظهرت مجلة «الفتح» الإسلامية القوية يرأس تحريرها الشيخ عبد الباقي سرور نعيم رحمته، ومديرها السيد محب الدين الخطيب، ثم آل تحريرها وإدارتها إليه، فنهض بها خير نهوض، وكانت مشعل الهداية والنور لهذا الجيل من شباب الإسلام المثقف الغيور.

وظلت هذه النخبة المباركة من الفضلاء تعمل حتى بعد أن فارقت دَار العلوم، وظلّ يحركها نَفَرٌ من هذا الشباب المخلص حتى كانت هذه الحركات (جمعية الشبان المسلمين) فيما بعد (انتهى) (16).

سبحان الله هل رأيتُم حَمِيَّةً للعمل للدين، وإخلاصاً للدعوة إليه، مثلما فعل الإمام البنّا وهو ما زال بعد شاباً صغيراً، ولما كانت دعوته خالصة لوجه الله الكريم، فقد تمخضت عن عمل للشيخ الدجوي؛ ظهرت آثاره بمجلة إسلامية قوية، وجمعية (الشبان المسلمين) التي ما زالت قائمة لآلآن.

(16) حسن البنّا: مذكرات الدعوة والداعية، ط 1، مركز الإعلام العربي، 1432هـ - 2011م، ص 74.

ولعلك تلاحظ أن الإمام البنا ذكّر الشيخ الدجوي، بأن الإسلام يتكون من: تكاليف فردية، وتكاليف اجتماعية، وأنّ الأولى مقدمةٌ للثانية؛ حتّى لا يعتذر أحدٌ بانشغاله بنفسه عن واجباته تجاه أمّته، أو يُعنى بواجبات الأمّة، ويقصر بواجباته تجاه نفسه، أي أن الإمام البنا أراد أن يذكر كل مسلم بضرورة أن يوازن بين واجباته الفردية، وواجباته تجاه مجتمعه وأمّته، ولا ريب أن الغفلة التي أصابت كثيرًا من أبنائه قد أنستهم واجب الجمع بين الأمرين، والموازنة بينهما، بحيث لا يطغى جانب على آخر.

وقد أشرنا من قبل إلى حرص الإمام البنا على تفصيل منهاج عمله، وخطته؛ لأنه أدرك أن الإجمال يزيد الأمر فوضىً وحيرةً، ممّا يؤدي إلى التذبذب والاضطراب، ومن ثم حرص على وجود منهاج لیتج فائدةً تؤدي إلى واجب يزيل عوائق، وحرص كذلك على أن يسير منهاج العمل وفق خططٍ مُحكمة الخطوات، مُرتبة اللحظات، بحيث يؤدي كل واجب في اللحظة التي تقتضيه، لا يقدم عليها ولا يؤخر، ما استطاع المسلم إلى ذلك سبيلًا، وكثيرًا ما كان يقول: «إنّ النجاح ليس في الخطة الدقيقة، ولا في الوقت المناسب، إنّما في اللحظة المناسبة؛ لأن الوقت لحظات وكل لحظة تفرق عن غيرها»، ويتمثل بيت المتنبي:

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا
وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمَ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا

ومعنى بيت المتنبي أن الأوقات واللحظات متفاوتة في فضلها، وعلى المسلم أن يغتنم كل لحظة تخدم دعوته، فرب لحظة كانت فرصةً، ثم تمضي، وربما لا تعود إلا بعد حينٍ لا يعلم مداه إلا الله.



جُهْدٌ لَا يُضِيعُهُ اللَّهُ تَعَالَى

نخلصُ مِمَّا سَبَقَ إِلَى أَنْ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَ الْعَامِلِينَ لِلْإِسْلَامِ (بل الأمة كلها) عَلَى صِغَةٍ مِنَ الْحَقِّ، يَأْخُذُ عَلَيْهَا بَيْعَةٌ تُخَفِّفُ مِنَ الْغُلُوِّ وَتَضْبِطُ الْمَسِيرَ، وَتُوَحِّدُ مِنَ الْفُرْقَةِ، وَهِيَ بَيْعَةٌ عَلَى عَمَلٍ يُتَبَجَّ فَائِدَةً وَيُؤَدِّي وَاجِبًا، وَيُزِيلُ عَائِقًا، وَلِذَلِكَ قَالَ: «إِنْ لَمْ تُتَبَجَّ فَائِدَةٌ، فَلَا يَفُوتُكَ وَاجِبٌ»؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ مِنْ سِيرِ الْمُرْسَلِينَ أَنََّّهُمْ أَدَّوْا مَا عَلَيْهِمْ، لَكِنْ الْعَوَائِقُ الَّتِي وَاجَهْتَهُمْ (مِنَ الْعَادَاتِ وَالْعَقَائِدِ وَالْفَلَسَفَاتِ... إلخ) قَدْ أَعْجَزَتْهُمْ عَنْ إِنْجَازِ غَايَاتِهِمْ، فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُؤَدِيَ مُهِمَّتَهُ وَوَاجِبَهُ، فَإِنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ فِيهَا وَنِعَمَتْ، وَإِنْ لَمْ يَلْغُ غَايَتَهُ، فَسَيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ مَنْ يُتِمُّ رِسَالَتَهُ، وَيُكْمِلُ سَعْيَهُ، وَجُهِدُهُ فِي الْحَالِينَ مَا جُورَ غَيْرُ ضَائِعٍ فِي مِيزَانِ اللَّهِ تَعَالَى. يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا جِهَادٌ لَا تَضْحِيَّةَ مَعَهُ، وَلَا تَضِيعُ فِي سَبِيلِ فِكْرَتِنَا تَضْحِيَّةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ الْأَجْرُ الْجَزِيلُ، وَالثَّوَابُ الْجَمِيلُ» (17).

وَفِي آخِرِ سُطُورِ رِسَالَتِهِ (هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُونَ؟) يؤكدُ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْمَعْنَى: [لا يضيع جهد في سبيل الله]، وَمِنْ ثَمَّ يَدْعُو كُلَّ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُوَازَرَةِ الْعَامِلِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَمُسَانَدَتِهِمْ بِكُلِّ سَبِيلٍ؛ «وَأَنْ يُوَازِرُوا أَوْلِيَّكَ الْقَوْمَ الَّذِينَ وَقَفُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالدَّعْوَةِ، وَيَنْضَمُّوا إِلَيْهِمْ لِيُسَاهِمُوا مَعَهُمْ فِي هَذِهِ النَّهْضَةِ الْمُؤَفَّقَةِ، الَّتِي يَكْسِبُ الْعَامِلُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ نَصْرًا جَدِيدًا، إِنْ لَمْ يُؤَدِّهِ إِلَى الْفَتْحِ فَسَيُؤَدِّي إِلَيْهِ مَنْ بَعْدَهُ بِفَضْلِ مَجْهُودِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا

(17) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ط 1، (سلسلة من تراث الإمام البنا)، دار النداء، إسطنبول - تركيا، 2015م، ص 274.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[التوبة: ١٠٥]﴾⁽¹⁸⁾.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ فِي سَبِيلٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَظِرَ نَتَائِجَ عَمَلِهِ، وَهَذَا الْعَمَلُ الَّذِي نَعْمَلُهُ رُبَّمَا لَا نَرَى نَتَائِجَهُ، وَيَأْتِي بَعْدَنَا مَنْ يَجْنِي ثَمَارَهُ، وَجِئْنَا هَذَا خَيْرٌ مِثَالٍ لِهَذَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ هَذَا الْجِيلَ هُوَ نِتَاجُ ثَمَرَةِ بَذَرِهَا حَسَنُ الْبَنَاءِ وَإِخْوَانُهُ مِنْ سَنَوَاتٍ قَارَبَتْ قَرْنًا مِنَ الزَّمَانِ، وَلَمْ يَرَوْا تِلْكَ الثَّمَرَةَ، لَكِنَّهَا فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمْ، وَلِهَذَا فَالْعَامِلُ الْمُتَنَظِّرُ لِلنَتَائِجِ قَدْ يُصِيبُهُ الْيَأْسُ إِنْ لَمْ يَرَ ثَمَرَاتِ عَمَلِهِ، وَلَكِنَّهُ إِذَا أَخْلَصَ جُهْدَهُ لِلَّهِ، لَمْ تَشْغَلْهُ النَتَائِجُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ زَادًا لَهُ يُثَبِّتُهُ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ. وَكَثِيرًا مَا ذَكَرَ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ إِخْوَانَهُ بِهَذَا الْمَعْنَى، يَتَّبِعِي بِذَلِكَ التَّذْكِيرِ مُوَاصِلَةً السَّعْيِ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْأَمْرِ؛ يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعَامِلُ يَعْمَلُ لِأَدَاءِ الْوَاجِبِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِلْأَجْرِ الْآخِرِيِّ ثَانِيًا، ثُمَّ لِلْإِفَادَةِ ثَالِثًا، وَهُوَ إِنْ عَمِلَ فَقَدْ أَدَّى الْوَاجِبَ، وَفَازَ بِثَوَابِ اللَّهِ، مَا فِي ذَلِكَ مِنْ شَكٍّ، مَتَى تَوَفَّرَتْ شُرُوطُهُ. وَبَقِيَتِ الْإِفَادَةُ، وَأَمْرُهَا إِلَى اللَّهِ، فَقَدْ تَأْتِي فُرْصَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي حِسَابِهِ تَجْعَلُ عَمَلَهُ يَأْتِي بِأَبْرَكَ الثَّمَرَاتِ، عَلَى حِينٍ أَنَّهُ إِذَا قَعَدَ عَنِ الْعَمَلِ فَقَدْ لَزِمَهُ إِثْمُ التَّقْصِيرِ، وَضَاعَ مِنْهُ أَجْرُ الْجِهَادِ، وَحُرِمَ الْإِفَادَةُ قَطْعًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؟»⁽¹⁹⁾.

(18) حسن البناء: مجموعة رسائل الإمام البناء، ص 114.

(19) مجموعة رسائل الإمام البناء، رسالة إلى أي شيء ندعو الناس، ص 69.



ضوابطُ بَيَعَتِنَا وَأَرْكَانُهَا

تمهيدٌ

يَطْرَحُ الْجُهْدُ الضَّخْمُ الَّذِي قَامَ بِهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ سُؤلاً لَا يَحْتَاجُ دَائِماً إِلَى إِجَابَةٍ أَوْ تَفْسِيرٍ؛ كَيْفَ تَأْتِي لِهَذَا الشَّابِّ الَّذِي لَمْ يَعِشْ طَوِيلاً أَنْ يُنْجِزَ ذَلِكَ الْإِنْجَازَ الْفِكْرِيَّ وَالتَّرْبَوِيَّ وَالْحَرَكِيَّ الَّذِي أَتَعَبَ مَنْ بَعْدَهُ، وَبَهَرَ الْعَالَمَ كُلَّهُ؟!

وَالْحَقُّ أَنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ فِي إِجَابَةِ هَذَا السُّؤَالِ أَنْ نَسْتَبْعِدَ تَوْفِيقَ اللَّهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدَهُ وَتَسْدِيدَهُ لِلْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، غَيْرَ أَنَّنَا لَا نَسْتَبْعِدُ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا كَانَ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَقَدْ نَذَرَ هِمَّتَهُ وَجُهْدَهُ وَوَقْتَهُ، وَنَفْسَهُ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، مَهْمَا كَانَتِ الْعَوَاقِبُ، وَالْحَقُّ كَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ قَدْ كَلَفَتْهُ رَاحَتُهُ وَحَيَاتُهُ، تَقْبَلُهُ اللَّهُ فِي الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

لَقَدْ بَدَأَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ دَعْوَتَهُ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي وَضْعٍ قَلِقٍ: ضَعْفُ وَفَوْضَى بِلا حُدُودٍ، أَمَامَ قُوَّةٍ وَنِظَامٍ بِلا حُدُودٍ، تَكَلَّمَ عَنْهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ لَا ثِقَلُ الْقِيُودِ مِنْ جِهَةٍ، وَالْفَوْضَى فِي التَّوْجِيهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، لَكَانَ لِهَذِهِ الْيَقِظَةِ أَرْوَعُ الْآثَارِ، وَلَكِنْ تَظَلَّ هَذِهِ الْقِيُودُ قِيُوداً أَبَدَ الدَّهْرِ فَإِنَّمَا الدَّهْرُ قُلُوبٌ، وَمَا بَيْنَ طَرْفَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللَّهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَكِنْ يَظَلُّ الْحَائِرُ حَائِراً، فَإِنَّمَا بَعْدَ الْحَيْرَةِ هُدًى، وَبَعْدَ الْفَوْضَى اسْتِقْرَارٌ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدٍ» (20).

(20) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ط 1، (سلسلة من تراث الإمام البنا)، دار النداء، إسطنبول — تركيا، 2015م، رسالة دعوتنا، ص 145.

ويريدُ الإمامُ البنا (بِثِقَلِ الْقِيُودِ) الْوَاقِعَ الْخَارِجِيَّ الْمُتَرَبِّصَ، مِنْ الْخُصُومِ وَالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يُلْجِئُوهُ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ، وَيَضَعُوهُ فِي مَازِقٍ، وَهَذَا مَا تَجَنَّبَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدَرِ اسْتِطَاعَتِهِ، وَأَمَّا (فَوْضَى التَّوَجِيهِ) فَإِنَّهُ يَقْصِدُ بِهَا الْوَاقِعَ الْمُتَرَدِّيَ الَّذِي وَاجَهُهُ فِي أُمَّتِهِ وَعَبَّرَ عَنْهُ أَيْضًا أَوْ شَرَحَهُ بِأَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ، حَتَّى يُقَرِّبَ إِلَى السَّامِعِ السَّبَبَ وَرَاءَ هَذَا الْجُهْدِ الضَّخْمِ الَّذِي بَذَلَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ونستطيعُ أَنْ نُلْخِصَ وَاقِعَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَرَدِّيَ الَّذِي دَفَعَ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى تَأْسِيسِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ، شَرَحَهَا هُوَ بِنَفْسِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي شَخَّصَ فِيهِ أَدْوَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَوَصَفَ عِلْلَهُمْ وَأَمْرَاضَهُمْ الَّتِي أَوْجَدَتْهَا الْجُهُودُ الْهَدَّامَةُ الَّتِي سُلِّطَتْ عَلَى أُمَّتِنَا، فَأَدَّتْ إِلَى آفَاتٍ أَوْ أُمُورٍ تَسْتَوْجِبُ الْمُقَاوَمَةَ، وَتَدْعُو كُلَّ مُسْلِمٍ أَنْ يُشَمِّرَ وَيَنْهَضَ لِمُوَاجَهَتِهَا، فَتَقْدَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ وَحَمَلَ الرَّايَةَ لِمُوَاجَهَةِ آفَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ الَّتِي يُمَكِّنُ تَلْخِيصُهَا فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ:

الأمرُ الأوَّلُ: فَقْدَانُ الثِّقَةِ فِي صِلَاحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، صِلَاحِيَّتِهِ فِي الْبَقَاءِ وَالْخُلُودِ، وَأَهْلِيَّتِهِ فِي إِصْلَاحِ الْوُجُودِ.

الأمرُ الثاني: فَقْدَانُ ثِقَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، مِمَّا رَسَخَ مَعَانِيهِ اللَّامِبَالَةَ وَعَدَمَ الْاِكْتِرَاثِ، وَهَذَا الْوَضْعُ الْبَيْسُ هُوَ مَا حَاوَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا تَغْيِيرَهُ؛ فَدَعَا إِلَى التَّعَارُفِ وَالتَّفَاهُمِ، وَتَحَدَّثَ عَنِ التَّكَافُلِ لِكَيْ يَتَقَارَبَ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَثِقَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ.

وَلَقَدْ نَشَأَ عَنْ فَقْدَانِ الثِّقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ يَأْسٌ مِنَ التَّغْيِيرِ؛ إِذْ صَارُوا يَرَوْنَ الْحَوَادِثَ أَكْبَرَ مِنْهُمْ، أَوْ أَنَّهُمْ أَشْفَقُوا مِنَ الْفِعْلِ أَوْ التَّغْيِيرِ، فَهُمْ يَأْسُونَ مِنْ أَنْ يَفْعَلُوا أَوْ مُشْفِقُونَ أَنْ فَعَلُوا، فَأَصْبَحُوا بَيْنَ شَرِّينَ أَحْلَاهُمَا

مُرَّ: اليأس والإشفاق، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَيْنِ الشُّعُورَيْنِ الْخَاطِئَيْنِ (اليأس والإشفاق) وَلَيْدَا الْجُهُودِ الْهَدَامَةِ الَّتِي سُلِّطَتْ عَلَى أُمَّتِنَا!

الأمْرُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا شَأْنَ لَهُ بِالسِّيَاسَةِ، وَلَا مَحَلَّ لَهُ فِي الْقِيَادَةِ، وَهُوَ تَصَوُّرٌ أَوْ انْطِبَاعٌ خَاطِئٌ زَرَعَتْهُ كَذَلِكَ الْجُهُودُ الْهَدَامَةُ فِي عُقُولِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ وَصَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا ذَلِكَ الْوَاقِعَ الْمُتَرَدِّي؛ عِنْدَمَا تَكَلَّمَ عَنْ رُوحِ الْمُيُوعَةِ وَالشُّحِّ وَالْبُخْلِ وَالْآثَرَةِ وَالْإِنَانِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَعِنْدَمَا تَكَلَّمَ عَنْ عَقْدَةِ النَقْصِ وَالْدُّنْيَةِ الَّتِي دَعَتِ الْأُمَّةَ إِلَى الْإِعْجَابِ بِالْخُصْمِ وَتَقْلِيدِهِ فِي كُلِّ مَا صَدَرَ عَنْهُ.

وَكَثِيرًا مَا يَصِفُ الْإِمَامُ الْبَنَّا وَاقِعَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ عِلَلٍ وَأَدَوَاءٍ، عَلَى جَمِيعِ الْمُسْتَوِيَّاتِ، كَيْ يَعْلَمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ التَّبِعَةَ ثَقِيلَةٌ، وَأَنَّ النُّهْضَةَ تَحْتَاجُ إِلَى مَجْهُودٍ ضَخْمٍ، بَدَأَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ؛ فَكَلَّفَهُ فِي النِّهَايَةِ رَاحَتَهُ وَحَيَاتِهِ.

وَمِنْ صُورِ التَّرَدِّي الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا، حَدِيثُهُ عَنْ: حَاكِمٍ اعْتَنَى بِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا اعْتَنَى بغيرِهِ، وَمَحْكُومٌ خُدِعَ بِالْبَاطِلِ وَغَفَلَ عَنِ الْوَاجِبِ، وَضَيَاعُ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَقُوَّةِ الْجَمَاعَةِ.

كَمَا تَحَدَّثَ عَنْ اسْتِمْرَارِ النِّظَامِ وَزَوَالِ الْإِمَامِ، وَازْدِهَارِ التَّشْرِيعِ، وَغِيَابِ التَّنْفِيزِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا صُورٌ لِلْفَوْضَى الَّتِي عَمَّتْ وَاقِعَ الْمُسْلِمِينَ، فَدَعَتِ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ إِلَى تَأْسِيسِ عَمَلٍ ضَخْمٍ، يَسْتَوْعِبُ طَاقَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَقُدْرَاتِهِمْ، وَيُوجِّهُهَا لِتَحْقِيقِ غَايَتَيْنِ: أَوَّلَاهُمَا - أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُهُودُ جُزْءًا مِنْ تَيَّارِ إِسْلَامِيٍّ أَصِيلٍ، بَدَلًا مِنْ أَنْ تُوظَّفَ فِي خِدْمَةِ تَيَّارٍ عِلْمَانِيٍّ دَخِيلٍ. وِثَانِيَّتُهُمَا - الْجَمْعُ بَيْنَ تَطَلُّعَاتِ الشُّعُوبِ مِنْ نَاحِيَةِ وَالتَّبْنِيِ الْكَامِلِ لِلْإِسْلَامِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى.

وَإِذَا أَمَكَّنَا أَنْ نُوظِّفَ عُقُولَ الْمُسْلِمِينَ وَطَاقَاتِهِمْ لِتَحْقِيقِ هَاتَيْنِ الْغَايَتَيْنِ؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا نَرَاهُ الْآنَ مِنْ تَخَوُّفِ الشُّعُوبِ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفَقْدَانِ الثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّتِهِ وَأَهْلِيَّتِهِ لِلْبَقَاءِ وَالْخُلُودِ وَإِصْلَاحِ الْوُجُودِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ إِلَى تَبَنٍّ كَامِلٍ لِلْإِسْلَامِ، وَدَوْرِهِ فِي نُهُوضِ الْمُسْلِمِينَ وَوَحْدَتِهِمْ؛ بَعْدَ مَا أُلْغِيَتِ الْخِلَافَةُ الَّتِي كَانَتْ تُمَثِّلُ مَعْنَى الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ فِي مَقَاصِدِهَا وَأَهْدَافِهَا، وَأُلْغِيَتِ الْجَامِعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ؛ بِمَا كَانَتْ تَعْنِيهِ مِنْ رُوحِ الْأُخُوَّةِ، وَأُلْغِيَ الْحُكْمُ بِشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ أَنَّ الْحُكْمَ بِالْإِسْلَامِ مَعْدُودٌ كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ «فِي كُتُبِنَا الْفِقْهِيَّةِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأُصُولِ، لَا مِنَ الْفِقْهِيَّاتِ وَالْفُرُوعِ»⁽²¹⁾. لَكِنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ فَقَدَتْ مَرَجِعِيَّتَهَا بِسُقُوطِ الْخِلَافَةِ وَالْغَايَةِ؛ مِمَّا فَتَحَ الطَّرِيقَ أَمَامَ مَرَجِعِيَّاتٍ أُخْرَى لِتَسْوَدَ حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَ، وَتُوجَّهَهَا فِي جَوَانِبِهَا الْمُخْتَلِفَةِ: الثَّقَافِيَّةِ، وَالْفِكْرِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ!

الْأَمْرُ الرَّابِعُ: مَحْوُ مَعَالِمِ الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَنَاحِي الْحَيَاةِ، فِي: الْبَيْتِ وَالْمَدْرَسَةِ وَالْمَحْكَمَةِ، مِمَّا أَفْقَدَ الْأُمَّةَ هُوِّيَّتَهَا.

تِلْكَ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَوْجَدَهَا وَقَعَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَرَدِّينَ، وَالَّتِي دَعَتْ الْإِمَامَ الْبَنَّا إِلَى التَّقَدُّمِ بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ (الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ)، لِإِصْلَاحِ هَذَا الْوَاقِعِ الْبَيْسِ، وَإِنْهَاضِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَثَرَتِهِمْ.

وَقَدْ حَدَّدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ غَايَتَيْنِ: إِحْيَاءُ الْأُمَّةِ، وَإِقَامَةُ الدَّوْلَةِ، وَلِكُلِّ غَايَةٍ مِنْهُمَا وَسِيلَةٌ، فَأَمَّا إِحْيَاءُ الْأُمَّةِ فَوْسِيلَتُهُ (الْفِكْرَةُ أَوِ الرُّوْيَةُ أَوِ الْمُنْهَاجُ)، وَأَمَّا إِحْيَاءُ الدَّوْلَةِ فَوْسِيلَتُهُ (الصِّفُّ أَوِ التَّنْظِيمُ)، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ (التَّنْظِيمَ السَّرِّيَّ) عَلَى نَحْوِ مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الْأَذْهَانِ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةِ

(21) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص 351.

(التنظيم) لأَوَّلِ وَهْلَةٍ، بِسَبَبِ الإِعْلَامِ الْمُضِلِّ الَّذِي رَبَطَ الْكَلِمَةَ بِظُلَالٍ مُخِيفَةٍ مُرِيبةٍ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ (الْعَمَلُ الْمُنَظَّمُ) الَّذِي تَضَطَّلِعُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ.

فَأَمَّا (الفِكرَةُ) فَقَدْ طَرَحَهَا الإِمَامُ الْبَنَّا جَامِعَةً شَامِلَةً، لَا تَحْمِلُ طَابِعًا خَاصًّا، قِوَامُهَا الْعِلْمُ وَالتَّرْبِيَةُ وَالْجِهَادُ، وَلَا تَحْمِلُ طَابِعًا فِئَوِيًّا أَوْ فِكْرِيًّا، أَوْ مَذْهَبِيًّا، أَوْ فِقْهِيًّا، وَقَدْ خَدَمَ الإِمَامُ الْبَنَّا فِكْرَتَهُ بِوَسِيلَتَيْنِ مُهِمَّتَيْنِ: الْأُولَى - الْأُسْلُوبُ الَّذِي عَرَضَ بِهِ فِكْرَتَهُ، وَالثَّانِيَةُ - الْجُمْهُورُ الَّذِي اخْتَارَهُ لِيَتَبَنَّى هَذِهِ الْفِكْرَةَ وَيَحْمِلَهَا، فَاخْتَارَ أَنْصَارًا مُسْتَعِدِّينَ لِلتَّضَحُّيَةِ مِنْ أَجْلِ تَنْفِيدِ الْمَطْلُوبِ.

وَإِذَا تَحَدَّثْنَا عَنِ الْأُسْلُوبِ الَّذِي عَرَضَ بِهِ الإِمَامُ الْبَنَّا فِكْرَتَهُ، أَمَكَّنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ قَدَّمَهَا سَهْلَةً وَاضِحَةً جَلِيَّةً لَا غُمُوضَ فِيهَا، كَيْ تَصِلَ إِلَى النَّاسِ بِلا عَوَاقِقَ. انْظُرْ قَوْلَهُ: «الإِسْلَامُ نِظَامٌ شَامِلٌ يَتَنَاوَلُ مَظَاهِرَ الْحَيَاةِ جَمِيعًا»، كَمَا عَرَضَهَا بِبَسِيطَةٍ تَنَاسَبُ كُلَّ الْبَيِّنَاتِ، فَلَا تَقْبِلُهَا بَيِّنَةٌ وَتَنْفِرُ مِنْهَا أُخْرَى، مِثْلَمَا خَتَمَ رِسَالَةَ (التَّعَالِيمِ) بِقَوْلِهِ: «أَيُّهَا الْأَخُ الصَّادِقُ: هَذَا مُجْمَلٌ لِدَعْوَتِكَ، وَبَيَانٌ مُوجِزٌ لِفِكْرَتِكَ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْمَعَ هَذِهِ الْمَبَادِئَ فِي خَمْسِ كَلِمَاتٍ: (اللَّهُ غَايَتُنَا، وَالرُّسُولُ قُدُّوتُنَا، وَالْقُرْآنُ شَرْعَتُنَا، وَالْجِهَادُ سَبِيلُنَا، وَالشَّهَادَةُ أَمْنِيَّتُنَا). وَأَنْ تَجْمَعَ مَظَاهِرَهَا فِي خَمْسِ كَلِمَاتٍ أُخْرَى: الْبَسَاطَةُ، وَالتَّلَاوَةُ، وَالصَّلَاةُ، وَالْجُنْدِيَّةُ، وَالْخُلُقُ. فَخُذْ نَفْسَكَ بِشِدَّةٍ بِهِذِهِ التَّعَالِيمِ، وَإِلَّا فَفِي صُفُوفِ الْقَاعِدِينَ مُتَّسِعٌ لِلْكَسَالَى وَالْعَابِثِينَ»⁽²²⁾.

وَعَرَضَهَا مُحَدَّدَةً كَذَلِكَ، بِحَيْثُ يَسْهُلُ الاسْتِدْلَالُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالسُّنَّةُ الْمُطَهَّرَةُ مَرْجِعُ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي تَعَرُّفِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَيُفْهَمُ الْقُرْآنُ طَبَقًا لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ وَلَا

تَعْسُفٍ، وَيُرْجَعُ فِي فَهْمِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ إِلَى رِجَالِ الْحَدِيثِ الثَّقَاتِ» (23).

ثُمَّ عَرَضَهَا أَصِيلَةً، فَلَمْ يَخْتَرْعَهَا أَوْ يَبْتَدِعْهَا، وَإِنَّمَا اسْتَمَدَّهَا مِنْ ذَاكِرَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي مَا زَالَتْ تَحْفَظُهَا وَتَعْيِيهَا، وَكُتِبَ التَّارِيخُ شَاهِدٌ يُقَرَّرُ بِأَصَالَتِهَا، وَبِذَلِكَ تَكُونُ دَعْوَةُ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) - بِمَا تَهَيَّأَ لَهَا مِنْ: وَضُوحٍ، وَبَسَاطَةٍ، وَتَحْدِيدٍ، وَأَصَالَةٍ - فِكْرَةً فُذَّةً تَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الْأُمَّةُ أَوْ «صِغَةً مِنَ الْحَقِّ تَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الْأُمَّةُ».

كَمَا نَأَى الْإِمَامُ الْبَنَّا بِفِكْرَتِهِ عَنِ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ؛ لِأَنَّ مَوَاطِنَ الْخِلَافِ هِيَ الَّتِي مَزَقَتْ الْأُمَّةَ شِيعًا وَشِرَازِمَ، كَمَا كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَعْظَمَ مَا مُنِيَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الْفُرْقَةُ وَالْخِلَافُ، وَأَسَاسُ مَا انتَصَرُوا بِهِ الْحُبُّ وَالْوَحْدَةُ» (24).

كَمَا أَنَّهُ ابْتَعَدَ بِهَا عَنِ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ لِغَايَةِ مُهِمَّةٍ جَدًّا؛ وَهِيَ أَنْ يَحْتَفِظَ لِنَفْسِهِ بِمَنْطِقَةِ الْقُوَّةِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَالِدَّعْوَةِ، وَهِيَ غَايَاتُ الدِّينِ وَعِزَائِمُهُ الْكُبْرَى، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «إِذَا قِيلَ لَكُمْ: الْإِمَامُ تَدْعُون؟ فَقُولُوا: نَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْحُكُومَةُ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالْحُرِّيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِهِ، فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: هَذِهِ سِيَاسَةٌ! فَقُولُوا: هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْأَقْسَامَ» (25).

وَهَذِهِ الْغَايَاتُ وَالْعِزَائِمُ لَنْ يَخْتَلِفَ مَعَهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ جُمُوعِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا. وَقَدْ اهْتَدَى الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي عِنَايَتِهِ بِمَنْطِقَةِ الْقُوَّةِ مِنَ الْإِسْلَامِ بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَالْحُكْمُ رُكْنٌ أَصِيلٌ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَالْحُرِّيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ الْإِسْلَامِ، مَنْحَهَا دِينُنَا الْحَنِيفُ لِلشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَحَذَرْنَا نَبِيَّنَا الْكَرِيمُ مِنَ الذَّلَّةِ، وَالْعُبُودِيَّةِ،

(23) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 269.

(24) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة دعوتنا، ص 137.

(25) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة بين الأُمس واليوم، ص 517.

فَقَالَ: «مَنْ أَعْطَى الذَّلَّةَ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ فَلَيْسَ مِنَّا» (26). وَرُغِمَ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ ضَعْفٍ، فَإِنَّ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ تَخُلْ مِنْ حَثِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ، فَعَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَكُونُوا إِمْعَةً تَقُولُونَ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا» (27). بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ وَالْغَايَاتِ الْكُبْرَى مِنَ الْإِسْلَامِ، اخْتَارَ الْإِمَامُ الْبَنَّا لِدَعْوَتِهِ مَنْطِقَةَ قُوَّةٍ، كَيْ لَا يَجْرَّهَ أَحَدٌ إِلَى مَنَاطِقِ الْخِلَافِ فَيَسْهَلُ بَعْدَ ذَلِكَ الْاجْتِرَاءُ عَلَيْهِ وَعَلَى دَعْوَتِهِ، وَيَسْهَلُ تَشْوِيهِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، فَتَفْقِدُ الْأُمَّةُ الْحِمَاسَةَ لِلْعَمَلِ مَعَهُ.

وَالْحَقُّ أَنَّ اخْتِيَارَ مَنَاطِقِ الْقُوَّةِ نَهَجٌ قُرْآنِيٌّ تَجَلَّى فِي مَسَلِكِ سَيِّدِنَا مُوسَى (عليه السلام)، وَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ يُحَاوِلُ فِرْعَوْنَ إِبْعَادَهُ عَنِ الْقَضِيَّةِ الْجَوْهَرِيَّةِ؛ إِذْ يَسْأَلُهُ: «فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى» [طه: ٥١]، أَي: فَمَا شَأْنُ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ مِنْ قَبْلِنَا لَمْ تُقَرَّرْ بِمَا تَقُولُ، وَلَمْ تُصَدَّقْ بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَلَمْ تُخْلِصْ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَكِنَّهَا عَبَدَتِ الْأَلْهَةَ وَالْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى، شَرَعَ يَحْتَجُّ بِالْقُرُونِ الْأُولَى، أَي: الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، أَي: فَمَا بِالْهَمِّ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ، لَمْ يَعْبُدُوا رَبَّكَ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ؟ يُرِيدُ فِرْعَوْنَ بِذَلِكَ أَنَّ يُخْرِجَ سَيِّدَنَا مُوسَى عَنِ الْقَضِيَّةِ الْأَسَاسِيَةِ الَّتِي أَرْسَلَ مِنْ أَجْلِهَا: (تَحْرِيرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَعْبِيدُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى)، وَلَكِنَّ مُوسَى (عليه السلام) فَطِنَ لِهَذَا الْأَمْرِ، فَرَدَّ عَلَى سَوْأِلِهِ: ﴿أَلْ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]؛ أَي: أَنَّهُمْ قَدِمُوا إِلَيَّ مَا قَدَّمُوا، وَلَا قُوا أَعْمَالَهُمْ، وَسَيُجَازُونَ عَلَيْهَا، فَلَا مَعْنَى لِسَوْأَلِكَ وَاسْتِفْهَامِكَ يَا فِرْعَوْنَ

(26) أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط)، رقم (471)، وهو حديث ضعيف.

(27) رواه الترمذي في سننه، رقم (2007)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأخرجه البزار (2802) بلفظه.

عَنْهُمْ، فِتْلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ.

كَأَنَّ مُوسَى يَقُولُ لَهُ: إِنَّمَا بُعِثْتُ بِرِسَالَةٍ غَايَتُهَا الْأَحْيَاءُ لَا الْأَمْوَاتُ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: 47]. يَقُولُ السَّعْدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: «أَيُّ: فَأْتِيَاهُ بِهِذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ: دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَخْلِيصِ هَذَا الشَّعْبِ الشَّرِيفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنْ قَيْدِهِ وَتَعْبِيدِهِ لَهُمْ، لِيَتَحَرَّرُوا وَيَمْلِكُوا أَمْرَهُمْ، وَيُقِيمَ فِيهِمْ مُوسَى شَرَعَ اللَّهِ وَدِينَهُ».

فاختارَ مُوسَى مَنَظِقَةَ الْقُوَّةِ: التَّوْحِيدَ، وَتَخْلِيصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الذَّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ، لِيَعُودُوا أَحْرَارًا فِي عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ.

كَمَا ابْتَعَدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ؛ لِأَنَّهُ صَاحِبُ قَضِيَّةٍ تَهْمُ الْأُمَّةَ، وَهِيَ قَضِيَّةُ (الْحُكْمِ وَالْحُرِّيَّةِ)، وَلَيْسَ صَاحِبُ شَغْبٍ يَجْرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى خِلَافَاتٍ فَرَعِيَّةٍ تَزِيدُهُمْ فُرْقَةً.

فَقَضِيَّةُ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَسَاسِيَّةُ أَنْ تَعِيشَ الشُّعُوبُ حُرَّةً مُسْتَقْلَةً، وَأَنْ تَخْتَارَ أَشْكَالَ الْحُكْمِ الَّتِي تُلَائِمُهَا، وَهَذَا هُوَ الْمِيثَاقُ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ تَجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانِيَّةُ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ وَطَّنَا أَنْفُسَنَا عَلَى أَنْ نَعِيشَ أَحْرَارًا عَظْمَاءَ أَوْ نَمُوتَ أَطْهَارًا كُرْمَاءَ. وَنَحْنُ لَا نَطْمَعُ فِي حَقِّ سِوَانَا، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْنَا حَقَّنَا. وَإِنَّ خَيْرًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ تَعِيشَ مُتَعَاوِنَةً مَعَ غَيْرِهَا، مِنْ أَنْ تَعِيشَ مُتَنَافِسَةً مَعَ سِوَاهَا حِينًا مِنَ الدَّهْرِ» (28).

وَلَعَلَّكَ تَلَحَّظُ أَنَّ أَعْدَاءَ الْإِخْوَانِ يُحَاوِلُونَ الْآنَ إِظْهَارَهُمْ أَصْحَابَ شَغْبٍ، وَتَخْرِيْبٍ، غَايَتُهُمُ الْحُكْمُ لِدَاتِهِ، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَحْرِمُوا

(28) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر السادس، ص 450.

الإخوان من منطقة قوتهم، ويجروهم إلى منطقة الدفاع عن أنفسهم، لأنهم يجيدون الحزبية ومعاركها، وقد كان الإمام البنا يؤكد كراهية الإسلام لزعة الحكم، أي أن غايتنا ليست أن نشغب على الناس أو الحكام أو غيرهم، وإنما غايتنا أن نقرر حقائق دعا إليها الإسلام وقررها للأمم والشعوب والجماعات والأفراد وهو حقهم في أن يعيشوا سادة في أوطانهم أئمة في ديارهم، يختارون أشكال الحكم التي تلائمهم، إلى غير ذلك من المعاني التي أكدها الإمام البنا، وهي معانٍ توجه بها إلى الأمم الغربية التي تحرم أمتنا حريتها واستقلالها، كما أكد هذه المعاني في رسالة المؤتمر الخامس كذلك، حيث يقول: «كما يعتقد الإخوان أن هناك فارقاً بين حرية الرأي والتفكير والإبانة والإفصاح والشورى والنصيحة، وهو ما يوجب الإسلام، وبين التعصب للرأي والخروج على الجماعة والعمل الدائب على توسيع هوة الانقسام في الأمة وزعة سلطان الحكام، وهو ما تستلزمه الحزبية ويأباه الإسلام ويحرمه أشد التحريم، والإسلام في كل تشريعاته إنما يدعو إلى الوحدة والتعاون» (29).

بهذا الأسلوب، وتلك المعاني التي سلفت الإشارة إليها، طرح الإمام البنا فكرته؛ حيث شخّص العِلل التي أفقدت الأمة هويتها وفتحت الطريق أمام مرجعيات أخرى لتقودها نحو تغريب وعبودية للغرب مخيفين، وذلك ما لحظه الأستاذ أبو الحسن الندويّ فصور الفرق بين الإمام البنا رحمه الله وكثيرين من علماء عصره، الذين خضعوا للمادة والسلطة، وانسحبوا من ميدان الدعوة والإرشاد، والكفاح والجهاد، واستسلموا (للأمر الواقع)، فخفت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،



فِي حِينِ نَشَطَ دُعَاةُ الْفَسَادِ وَالْهَدْمِ، وَالْخَلَاعَةِ وَالْمُجُونِ، وَالْإِلْحَادِ
وَالزَّنْدَقَةِ⁽³⁰⁾.

أَمَّا الْإِمَامُ الْبَنَّا؛ فَقَدْ «عَاشَ مُتَّصِلًا بِالْحَيَاةِ وَالشَّعْبِ، وَتَتَبَعَ الْحَوَادِثَ،
وَلَمْ يَعِشْ فِي بُرْجٍ عَاجِيٍّ، وَفِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ وَالْأَوْهَامِ، عَرَفَ رَزِيَّةَ
الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَنَكَبَةَ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ الَّذِي كَانَ
يَجِبُ أَنْ يَكُونَ زَعِيمًا لِلْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ، وَزَعِيمًا لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ
طَرِيقِهِ، وَقَدْ بَقِيَ قُرُونًا كِنَانَةَ الْإِسْلَامِ، وَمَصْدَرُ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ، وَأَسْعَفَ
الْعَالَمَ الْعَرَبِيَّ وَأَنْجَدَهُ، بَلْ أَنْقَذَهُ، فِي فتراتٍ دَقِيقَةٍ عَصِيبَةٍ فِي التَّارِيخِ
الْإِسْلَامِيِّ، وَلَا يَزَالُ يَحْتَضِنُ الْأَزْهَرَ الشَّرِيفَ، أَكْبَرَ مَرْكَزِ ثَقَافِيَّيْهِ إِسْلَامِيَّيْهِ
وَأَقْدَمَهُ»⁽³¹⁾.

هَذَا جَانِبُ (الفكرة)، وَالْجَانِبُ الْآخَرُ هُوَ جَانِبُ (التنظيم)؛ حَيْثُ أَدْرَكَ
الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ، أَنَّ نَهْضَةَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِحَاجَةٍ إِلَى اصْطِفَافٍ، وَإِلَى
مَشْرُوعٍ ضَخْمٍ يُوَازِي الْوَاقِعَ الْبَيْسَ الَّذِي تَرَدَّتْ فِيهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَأَنَّ
هَذَا الْمَشْرُوعَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْهَضَ بِهِ فَرْدٌ، أَوْ فَصِيلٌ وَاحِدٌ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّةُ
أَفْرَادِهِ وَقُدْرَاتُهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَا بَدَّ مِنْ (تَنْظِيمٍ) قَوِيٍّ يَنْهَضُ بِهِذَا الْمَشْرُوعِ
الضَّخْمِ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَلِهَذَا سَعَى الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَى تَكْوِينِ ذَلِكَ
(التَّانْظِيمِ)، أَوْ الْعَمَلِ الْمُنْظَمِ الَّذِي تَضَطَّلُعُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَنَ أَكْثَرَ
مِنْ مُرَّةٍ حَاجَةَ أُمَّتِهِ، إِلَى قُوَّةِ الْأُمَّةِ الضَّارِبَةِ؛ لِأَنَّ الْإِخْوَانَ وَحْدَهُمْ لَيْسُوا
قَادِرِينَ، وَلَكِنَّهُمْ يُفْسِحُونَ الْمَجَالَ لِأُمَّتِهِمْ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ (الْإِخْوَانُ) أَنْجَازَ
هَذَا الْمَشْرُوعِ الضَّخْمِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَنْهَضَ بِهِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ تَتَوَحَّدَ
فِي عَمَلٍ مُنْظَمٍ عَلَى مِنْهَاجِ الْإِسْلَامِ، وَتَنْبِذَ دَوَاعِي التَّفَرُّقِ وَالتَّشْتُّتِ، وَمَا

(30) انظر مقدمة الأستاذ الندوي لكتام الإمام حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، ط 1، مركز الإعلام العربي، 1432هـ - 2011م، ص 15.

(31) حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، ص 16.

تَنْظِيمُ (الِإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) إِلَّا نَوَاةٌ لِهَذِهِ الْوَحْدَةِ الْمَأْمُولَةِ.

يَقُولُ الْأَسْتَاذُ النَّبَا: «إِنَّ الْأَمْرَ جِدُّ خَطِيرٍ، وَلَقَدْ حَاوَلَ الْمُصْلِحُونَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى وَحْدَةٍ وَلَوْ مُؤَقَّتَةٍ لِمُوَاجَهَةِ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ الَّتِي تَجْتَازُهَا الْبِلَادُ، فَيَسُّوْا وَأَخْفُقُوا، وَلَمْ يَعُدْ الْأَمْرُ يَحْتَمِلُ أَنْصَافَ الْحُلُولِ، وَلَا مَنَاصَ بَعْدَ الْآنِ مِنْ أَنْ تُحَلَّ هَذِهِ الْأَحْزَابُ جَمِيعًا وَتُجْمَعَ قُوَى الْأُمَّةِ فِي حِزْبٍ وَاحِدٍ يَعْمَلُ لِاسْتِكْمَالِ اسْتِقْلَالِهَا وَحُرِّيَّتِهَا، وَيَضْعُ أُصُولَ الْإِصْلَاحِ الدَّاخِلِيِّ الْعَامِّ، ثُمَّ تَرْسُمُ الْحَوَادِثُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ طَرَائِقَ فِي التَّنْظِيمِ فِي ظِلِّ الْوَحْدَةِ الَّتِي يَفْرِضُهَا الْإِسْلَامُ»⁽³²⁾.

وَنَلَا حِظَّ أَنْ لُغَةَ الْإِمَامِ النَّبَا فِي كَلَامِهِ السَّالِفِ حَاسِمَةٌ جَازِمَةٌ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ (التَّنْظِيمَ الْمُتَاخِي) هُوَ سِرُّ قُوَّةِ الْأُمَمِ، وَسَبِيلُ نَهْضَتِهَا، وَسَبَبُ نُصْرَتِهَا، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَفْتَرُ عَنْ تَأْكِيدِ حَتْمِيَّةِ تَوْحِيدِ الْأُمَّةِ فِي عَمَلٍ مَنَظَّمٍ؛ إِذْ يَقُولُ فِي مَوْضِعٍ سَابِقٍ: «وَيَوْمَ وَاجَهَ الْمُسْلِمُونَ الْعَالَمَ كُلَّهُ صَفًّا وَاحِدًا وَقَلْبًا وَاحِدًا فِي ظِلِّ هَذِهِ الْأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ الْحَقَّةِ، لَمْ تَبْتَ أَمَامَهُمْ مِمَالِكُ الرُّوَاطِطِ الْإِدَارِيَّةِ أَوْ السِّيَاسِيَّةِ الْمُجْرَدَةِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَأَنْهَزَمَ أَمَامَهُمْ - بَغَيْرِ نِظَامٍ - الرُّومُ وَالْفُرْسُ عَلَى السَّوَاءِ. وَكُونُوا إِمْبَرَاتُورِيَّةً ضَخْمَةً تَمْتَدُّ مِنَ الْمُحِيطِ إِلَى الْمُحِيطِ، ذَاتَ عِلْمٍ وَحَضَارَةٍ، وَقُوَّةٍ وَإِشْرَاقٍ. وَيَوْمَ غَفَلُوا عَنْ سِرِّ قُوَّتِهِمْ، وَلَمْ يَأْخُذُوا بِهَدْيِ كِتَابِهِمْ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَدَبَّ إِلَيْهِمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، مِنْ تَغْلِيْبِ الْمَصَالِحِ الْمَادِيَّةِ الزَّائِلَةِ عَلَى الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْبَاقِيَةِ؛ تَمَزَّقَتْ هَذِهِ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةُ أَيْدِي سَبَا [أي متفرقين]، وَلَعَبَتْ بِهَا الْمَطَامِعُ الْخَارِجِيَّةُ وَالْدَّاخِلِيَّةُ، وَانْتَهَى أَمْرُهَا مُؤَخَّرًا بَعْدَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى إِلَى الْإِنْهِيَارِ، وَالْوُقُوعِ فِي أَسْرِ خُصُومِهَا مِنْ

(32) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص 655.

غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ احْتَلُّوا أَرْضَهَا، وَمَلَكَوا أَمْرَهَا، وَتَقَاسَمُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ انْتَهَى أَمْرُ الْإِسْلَامِ وَخُتِمَتِ الْحُرُوبُ الصَّلَيبِيَّةُ أَفْضَلَ خِتَامٍ» (33).

وَقَدْ أَشْرَنَّا مِنْ قَبْلُ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ دَعَا إِلَى (الفكرة) لِأَحْيَاءِ الْأُمَّةِ، وَأَسَّسَ (التنظيم) لِإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ، وَهُوَ الْعَمَلُ الْمُنَظَّمُ الَّذِي تَضطلعُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ.

وَمَعْنَى الْعَمَلِ الْمُنَظَّمِ أَنَّهُ غَيْرُ مَتْرُوكٍ لِلتَّوَافِقِ (القناعة الشخصية)؛ فَلَيْسَ لِأَيِّ أَخٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا بَدَأَ لَهُ، أَوْ يُمارِسَ الدَّعْوَةَ وَفَقَ هَوَاهُ وَمِزَاجَهُ، فَيَخْتَارُ مَتَى يَعْمَلُ، وَمَتَى يَتْرَكَ الْعَمَلَ، وَمَتَى يَسْتَرِيحُ وَمَتَى يَجِدُّ؛ فَيَصْبِحُ أَمْرُ الدَّعْوَةِ مَتْرُوكًا لِلرَّغْبَةِ وَالْهَوَى، وَلَمْ يَكُنِ الْإِمَامُ الْبَنَّا يَسْتَرِيحُ لِهَذَا الصَّنَفِ مِنَ النَّاسِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ جَدُّ خَطِيرٌ كَمَا قَالَ أَنِفًا، وَهُوَ يُرِيدُ عَمَلًا ضَخْمًا مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ الدَّوْلَةِ، وَإِحْيَاءِ الْأُمَّةِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَمَامَ وَاقِعٍ مُتَرْبِّصٍ تُهَيِّمُنُ عَلَيْهِ قُوَى نَافِذَةٌ، وَقَدْ تُلْجِئُهُ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ، أَوِ الصِّدَامِ وَالصَّرَاعِ، أَوْ إِلَى تَحْدِيَاتٍ هَائِلَةٍ تَكْسِرُ الْإِرَادَاتِ فَتَدْفَعُهُ إِلَى الْإِنْسِحَابِ وَالْعُزْلَةِ، أَوْ تَدْفَعُهُ إِلَى الْإِرْتِطَامِ وَالصَّرَاعِ، أَوْ تَجْرُهُ إِلَى الْعُنْفِ وَالْحَرْبِ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْبِنَاءِ؛ وَلِكُلِّ هَذِهِ الْمَخَاطِرِ الْمُتَرْبِّصَةِ بِالدَّعْوَةِ، رَفَضَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنْ يَكُونَ (العمل) خَاضِعًا لِلتَّوَافِقِ، أَوِ الْهَوَى، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ (العمل) مُؤَسَّسِيًا مُنَظَّمًا، تَخَضَعُ قَرَارَاتُهُ لِمَبْدَأِ الشُّورَى الَّتِي أَوْجَبَهَا الْإِسْلَامُ، وَيُطِيعُ أَبْنَاءُ الصَّفِّ، مَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ.

وَلِذَلِكَ أَخَذَ بِيَعَةٍ عَلَى عَمَلٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ، وَبِمُوَاصِفَاتٍ يَحْتَاجُهَا الْعَمَلُ.

(33) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، ص 640.

وَهُنَا نَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ كُلُّ أَخٍ أَوْ كُلُّ مُسْلِمٍ تَهْمَهُ حَقِيقَةُ (الْإِخْوَانِ) وَدَعَوَتُهُمْ؛ أَنْ قِوَامَ دَعْوَةِ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ)، وَأَوْجَزَ مَا تُوصَفُ بِهِ، أَنَّهَا: بَيْعَةٌ عَلَى عَمَلٍ تَحْتَاجُهُ الْأُمَّةُ، وَبِمَوَاصِفَاتٍ يَحْتَاجُهَا الْعَمَلُ. تِلْكَ حَقِيقَةُ تَنْظِيمِ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ). فَهُمْ صَفٌّ مُنَظَّمٌ، يُبَايِعُ عَلَى عَمَلٍ.

وَقَدْ أَسَّسَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الصَّفَّ، أَوْ ذَلِكَ التَّنْظِيمَ، تَلِيَّةً لِحَاجَةِ الْأُمَّةِ إِلَى صَفٍّ قَادِرٍ مُنْضَبِطٍ مُسْتَقَرٍّ، يَجْمَعُ بَيْنَ كَفَاءَةِ الْعَمَلِ، وَقُوَّةِ التَّمَاسُكِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّلَاوُمِ مَعَ مُتَطَلِّبَاتِ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ. لِأَنَّ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ بِمُفْرَدِهِ، فَيَفْهَمُ وَيُجَاهِدَ وَيَعْمَلُ وَيُضَحِّي، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْفَرْدُ غَيْرَ الْمُتَنَظِّمِ صَالِحًا فِي ذَاتِهِ، غَيْرَ أَنَّ صُحْبَةَ هَذَا الْفَرْدِ السَّائِبِ غَيْرِ الْمُتَنَظِّمِ قَدْ تَضَرَّرَ أَكْثَرُ مِمَّا تَنْفَعُ؛ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فِي ذَاتِهِ؛ فَفِي هَذَا الرَّجُلِ وَأَمْثَالِهِ تَبْرُزُ خُطُورَةُ الصَّلَاحِ إِذَا تَجَرَّدَ مِنْ فِقْهِ النِّظَامِ وَتَقْدِيرِ التَّبَعَةِ؛ فَقَدْ يُغَيِّرِي الرَّجُلُ بِصَلَاحِهِ، ثُمَّ يُفَرِّقُ بِخِلَافِهِ وَعَدَمِ طَاعَتِهِ؛ وَتِلْكَ آفَةٌ مِنْ أخطرِ آفَاتِ الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ. أَيُّ: أَنَّهُ يُغَيِّرِي الْجَمَاعَةَ بِصَلَاحِهِ، وَيُفَرِّقُهَا بِخِلَافِهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ خَطٌّ وَاضِحٌ.

أُسْلُوبُ الْإِمَامِ الْبَنَّا فِي خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ

هَذَا وَيَنْبَغِي أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا قَدْ خَدَمَ فِكْرَتَهُ بِوَسَائِلَ كَثِيرَةٍ؛ فَقَدْ خَدَمَهَا بِأُسْلُوبٍ عَرَضِهِ الْفَرِيدِ الدَّقِيقِ الْوَاضِحِ الْمَوْجَزِ الْجَامِعِ؛ حَيْثُ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْمِدُ إِلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ أَقْرَبِ سَبِيلٍ فَيُشْرَحُهُ وَيُوضِّحُهُ دُونَمَا إِطَالَةٍ أَوْ إِسْهَابٍ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ أَعْمَالًا كَثِيرَةً فِي أَوْقَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ فُرْصَةٌ لِأَنْ يَتَحَوَّلَ (تَنْظِيمُهُ) أَوْ دَعْوَتُهُ إِلَى مَدَارِسٍ فِكْرِيَّةٍ حِوَارِيَّةٍ، أَوْ إِلَى مُتَنَدِيَّاتٍ خَطَابِيَّةٍ، وَلِذَلِكَ كَانَ أُسْلُوبُهُ مُحَدَّدًا بَسِيطًا، وَمُبَاشِرًا يَعْمِدُ إِلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ فَيُشْرَحُهُ،

وَالِىَ الْاِسْتِشْهَادِ الْمَطْلُوبِ فَيَوْضِّحُهُ حَتَّى يَكُونَ وَاْفِيًّا شَافِيًّا.

كَمَا اعْتَمَدَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ اسْلُوبًا تَذْكِيرِيًّا؛ يُكثِرُ فِيهِ مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ الشَّعْبَ الْمِصْرِيَّ شَعْبٌ مُتَدَيِّنٌ بِطَبِيعَتِهِ؛ لَا يُجَاهِرُ بِمَعْصِيَةٍ، وَإِذَا خُوفَ بِاللَّهِ خَافَ، وَلِذَلِكَ جَمَعَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحْمَةُ اللهِ فِيهِ خِطَابَهُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَكَانَ اسْلُوبُهُ جَذَابًا مُشَوِّقًا بَاعِثًا عَلَى الرِّغْبَةِ وَالتَّسَاوُلِ بَعِيدًا عَنِ الْغِلْظَةِ وَالْاَسْتَاذِيَّةِ، خَلِيطًا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَامِيَّةِ، وَكَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْعَامِيَّةِ أَعْطَاهَا جَلَالَ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى لَا تَنْبُو عَنْهُ الْأَذْوَاقُ، وَكَانَ يَتَجَنَّبُ اللَّوْمَ وَالتَّعْرِیْضَ وَالتَّنَائِبَ وَالتَّجْرِیْحَ رُغْمَ حُضُورِ الْمَآسِي وَالمُنْكَرَاتِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ - كَمَا نَعْلَمُ - بِجُمْهُورِ الْمَسْجِدِ؛ فَجُمْهُورُ الْمَسْجِدِ لَا يَكْفِي، وَاتَّجَهَ إِلَى جُمْهُورِ الشُّوَارِعِ وَالمَقَاهِي، وَلِذَلِكَ تَجَنَّبَ فِي حَدِيثِهِ إِلَيْهِمُ التَّجْرِیْحَ وَالتَّنَائِبَ، أَوِ اللَّمَزَ وَالهَمْزَ، أَوِ التَّلْمِيْحَ بِالمُنْكَرَاتِ الْمَوْجُودَةِ، حَتَّى لَا يُحَرِّجَهُمْ أَوْ يُنْفِرَهُمْ.

كَمَا خَدَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ فِكْرَتَهُ بِالجُمْهُورِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِحَمْلِهَا، فَاخْتَارَ جُمْهُورًا مِنَ البُسَطَاءِ الْمَغْمُورِينَ، جُمْهُورًا يَجْمَعُ بَيْنَ رُؤَادِ الْمَسَاجِدِ وَرُؤَادِ الْمَقَاهِي؛ جُمْهُورًا لَا يَتَسَمُّ بِصِفَةٍ تُمَيِّزُهُ خُلُقِيًّا، أَوْ عَقْلِيًّا، أَوْ نَفْسِيًّا، غَيْرَ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ صِفَةُ الْإِصْغَاءِ وَالاِتِّبَاعِ، وَلَا يُرَادُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ أَنَّهُ اخْتَارَ جُمْهُورًا لَا شَخْصِيَّةَ لَهُ؛ وَإِنَّمَا يُرَادُ بِصِفَةِ الْإِصْغَاءِ وَالاِتِّبَاعِ: أَنَّ هَذَا الْجُمْهُورَ كَانَ لَدَيْهِ الرِّغْبَةُ فِي التَّعَلُّمِ وَالقَبُولِ، وَهَذَا مَا كَانَ يَكْفِيهِ؛ لِأَنَّ الْبَنَّا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ جُمْهُورِ البُسَطَاءِ الْمَغْمُورِينَ أَبْطَالًا فَاتِحِينَ، وَقَدْ كَانَ - وَذَلِكَ مَا شَهِدَ بِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْحَسَنِ النَّدَوِي - كَمَا قَالَ بِأَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ خَلَقَ «كَمَا يَقُولُ شَاعِرُ الْإِسْلَامِ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ إِقْبَالُ: (فِي جِسْمِ الْحَمَامِ الرَّخْوِ الرَّقِيقِ قَلْبَ الصُّقُورِ وَالْأُسُودِ)، حَتَّى



استطاعَ هذا الجيلُ أَنْ يَصْنَعَ عَجَائِبَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَسَالَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ
وَالثَّبَاتِ»⁽³⁴⁾.

وَيَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ مَنْ اخْتَارَهُمُ الْإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ لِيَحْمِلُوا فِكْرَتَهُ،
كَانُوا حَدِيثَ عَهْدٍ بِالتَّعَبُّدِ، لَا يُحْسِنُونَ الْوُضُوءَ، وَلَا يُتَقِنُونَ الصَّلَاةَ، فَبَدَأَ
مَعَهُمْ مِنْ أَوَّلِ خُطْوَةٍ وَأَوَّلِ دَرَسٍ؛ مِنْ (الْحَنْفِيَّةِ = الصَّبُور)؛ كَيْ يُعَلِّمَهُمْ
كَيْفِيَّةَ الْوُضُوءِ، وَفَضْلَهُ وَآدَابَهُ⁽³⁵⁾.

بَدَأَ الْإِمَامُ النَّبَا بِهَؤُلَاءِ الْبُسَطَاءِ الْمَغْمُورِينَ فَجَعَلَ مِنْهُمْ مَصَابِيحَ
هَدَايَةٍ وَرَشَادٍ، وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ أَبْطَالَاً فَاتِحِينَ، لِأَنَّ الرَّجُلَ تَوَاضَعَ فِي
مَطَالِبِ الْإِيمَانِ، وَتَقَدَّمَ بِدَعْوَتِهِ إِلَى كُلِّ مَنْ شَهِدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، مَهْمَا كَانَ مُقْصِراً فِيَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ
وَأَفْكَارِهِ، ثُمَّ اسْتَدْرَكَ الْإِمَامُ النَّبَا مَا فَاتَهُمْ بِوصْفِهِ الْمُعَلِّمَ الْمَوْجَّهَ
النَّاصِحَ. وَإِنَّمَا تَقُومُ الدَّعَوَاتُ عَلَى قُدْرَةِ الْمُعَلِّمِ وَإِخْلَاصِ التَّلَامِيذِ، مَا
دَامَ الْمُعَلِّمُ مُتِمَكِّناً قَادِراً، وَمَا دَامَ التَّلَامِيذُ يَتَصِفُّونَ بِالْإِصْغَاءِ وَالِاتِّبَاعِ،
بِمَعْنَى: الْقُدْرَةِ عَلَى التَّعَلُّمِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقَبُولِ، وَأَضَافَ الْإِمَامُ النَّبَا صِفَةً
أُخْرَى، وَهِيَ: حُسْنُ الْاسْتِعْدَادِ لِإِصْلَاحِ الْعُيُوبِ وَأَنْ يُكَلِّفُوا أَنْفُسَهُمْ غَايَةَ
مَا يَسْتَطِيعُونَ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْءٌ فِي مَطَالِبِ الْإِيمَانِ، بَلْ يَكْفِي
أَنْ يَكُونَ لَدَى الشَّخْصِ الرَّاغِبِ فِي الانْضِمَامِ إِلَى هَذَا الصَّفِّ؛ الْقُدْرَةُ
عَلَى الْإِصْغَاءِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِإِصْلَاحِ الْعُيُوبِ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِبَذْلِ أَقْصَى مَا
يَسْتَطِيعُ، وَالْبَاقِي يَنْهَضُ بِهِ الْمُعَلِّمُ. وَمَا جَدَّوِي التَّلَامِيذِ الْمُخْلِصِينَ إِذَا
قَادَهُمْ زُعَمَاءُ أَغْرَارٍ، يَسْتَعْجِلُونَ النَّتَائِجَ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْوَسَائِلِ، وَيَرْضَوْنَ
مِنْ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ؟!

(34) حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، تقديم الشيخ أبي الحسن الندوي. ص 19.

(35) انظر السابق، ص 85.

وَأِنَّمَا النَّهَضَاتُ: أَسْلَافٌ يَبْدُوْنَ، وَأَخْلَافٌ يُتِمُّونَ، يَزِيدُونَ الْبِنَاءَ طَبَقَةً، وَيَقْطَعُونَ بِالْأَمَّةِ شَوْطًا ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

بهذا الأسلوب، وذلك الجمهور اللذين اختارهما الإمام البنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ استطاع أن يدفع العمل الإسلامي إلى الحد الذي وصل إليه وأن يخرج من هؤلاء البسطاء المغمورين أسوداً. أذكر منهم نموذجاً رأيته بنفسي، وأنا في السجن مع الأستاذ يوسف هَواش رَحِمَهُمُ اللَّهُ وكُنْتُ معه في زنازة واحدة، وأذكر أنهم جمَعُونَا في يوم، وقالوا غداً ستصدر الأحكام، فجعل كل واحد يفكر: أياخذ حكماً قاسياً أم تخفف الأحكام في ظل الظروف التي كنا فيها؟ ثُمَّ دَخَلْتُ الزنازة بعدما أعلمونا بهذا الخبر، فرأيت الأستاذ يوسف هَواش رَحِمَهُمُ اللَّهُ مُسْتَرْخِياً في ركن من أركان الزنازة، يضع يديه المشبكتين تحت رأسه، ويضع إحدى رجليه على الأخرى؛ أي ينام هادئاً مُسْتَسْلِمًا مُطْمَئِنًّا واثقاً غير مُكترٍ كأنه لم يسمع ما سمعنا!

فلما رأيته على هذه الحال من الاطمئنان والهدوء، وهو المُتَهَمُ رَقْمُ (2)، وأنا المُتَهَمُ رَقْمُ (34)، شجعتني أن أسأله عن تصوُّره لأحكام الغد، وكيف يراها؟ وقد حدثت نفسي: إذا كان المُتَهَمُ رَقْمُ (٢) على هذه الحال من الهدوء والسكينة، فمؤكد أنني سأخذ (براءة) وأنا المُتَهَمُ رَقْمُ (٣٤)، تصورت ذلك، فقلت له: تسمح لي يا أستاذ محمد أن أسألك سؤالاً؟ قال: تفضل، قلت له: كيف ترى أحكام الغد؟ قال: أمّا نحن فمقتولون لا محالة، فاستغربت من الإجابة: مقتول لا محالة، وتجلس على هذه الحال؟!



هَذَا نَمُودَجٌ مِنَ النَّمَاذِجِ الَّتِي رَبَّاهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى عَيْنِهِ، لَقَدْ ظَفَرُوا بِمُعَلِّمٍ قَدِيرٍ وَهُوَ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقُلْتُ لَهُ: وَمَا الْحَلُّ إِذَنْ؟ قَالَ: أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ تَهَيَّأْنَا لِلِقَاءِ اللَّهِ، يَقْصِدُ نَفْسَهُ وَإِخْوَانَهُ، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ تَرَى الْغَدَ بِالنِّسْبَةِ لَنَا نَحْنُ؟ قَالَ: أَمَّا أَنْتُمْ، فَإِذَا صَبَرْتُمْ وَتَحَمَّلْتُمْ حَتَّى تَخْرُجُوا بِالْدَّعْوَةِ مِنْ هَذَا الْمَازِقِ بِصَبْرِكُمْ وَتَحَمُّلِكُمْ فَسَوْفَ يَصْنَعُ اللَّهُ بِكُمْ فِي الْأَرْضِ أَدْوَارًا عَمِيقَةً الْأَثَارِ، الْمَهْمُ أَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَحَمَّلُوا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْكَلَامُ لِي وَحْدِي بِالطَّبَعِ، وَإِنَّمَا كَانَ لِإِخْوَةٍ كَثِيرِينَ كَانُوا مَعِيَ، وَمِنْهُمْ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ بَدِيعُ الْمُرْشِدِ الْعَامِّ، وَالدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَزَّتْ نَائِبُ الْمُرْشِدِ، وَالْأَخُ مُحَمَّدُ الْبَحِيرِيُّ وَغَيْرُهُمْ.

ثُمَّ ذَهَبْنَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِسَمَاعِ الْأَحْكَامِ، وَلَمْ نَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ مَا قَالَ؛ لِأَنَّهُ تَهَيَّأَ وَاسْتَعَدَّ لِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُوَهَّلَ الْأُسْتَاذِ مُحَمَّدٍ هَوَاشِ دُبُلُومِ تِجَارَةٍ؟! لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ نَمُودَجٌ لِلْبُسْطَاءِ الْمَغْمُورِينَ الَّذِينَ رَبَّى مِنْهُمْ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَبْطَالًا وَاجْهُوا الْمَوْتَ لَا يَحْفَلُونَ بِمَقَاوِمَةٍ ذِي بَأْسٍ أَوْ سُلْطَانٍ.

وَمِثْلُهُ الْأُسْتَاذُ (يُوسُفُ طَلَعَتْ)، حَيْثُ كَانَ نَجَّارًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَسْئُولَ النِّظَامِ سَنَةَ (1954م)، وَقَدْ كَتَبَتْ الْجَرِيدَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ (وَهِيَ الْجَرِيدَةُ الَّتِي سُمِّحَ لَهَا بِحُضُورِ تَنْفِيذِ أَحْكَامِ الْإِعْدَامِ) بِالْمَانِشَةِ الْكَبِيرِ، فِي الصَّفْحَةِ الرَّئِيسَةِ تَحْتَ صُورِ السِّتَةِ الَّذِينَ نُفِّدَ فِيهِمْ حُكْمُ الْإِعْدَامِ، تَقُولُ: قَبْلَ دَقِيقَتَيْنِ مِنْ تَنْفِيذِ الْحُكْمِ، وَالْأُسْتَاذُ يُوسُفُ طَلَعَتْ يُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي حَبْلِ الْمِشْنَقَةِ، وَالشَّيْخُ يَقُولُ لَهُ: تَشْهَدُ، أَيِ انْطِقْ بِالشَّهَادَةِ، وَالضَّابِطُ الْوَاقِفُ بِجَوَارِهِ يَسْأَلُهُ: عَايِزَ حَاجَةٍ يَا يُوسُفُ؟ فِيرُدُّ قَائِلًا، رَافِعًا صَوْتَهُ، وَالْكُلُّ يَسْمَعُ: «اللَّهُمَّ سَامِعِنِي وَسَامِعَ مَنْ ظَلَمَنِي وَأَسَاءَ إِلَيَّ»، كَانَتْ هَذِهِ آخِرُ كَلِمَاتٍ قَالَهَا قَبْلَ تَنْفِيذِ الْحُكْمِ.

فالإمام البنا تواضع في مطالب الإيمان، لأنه كان واثقاً في قدرته معلماً، يستطيع أن يجعل من بسطاء مغمورين أبطالاً فاتحين.

والإمام البنا نفسه كتب ذلك، حينما جاءه المكوّجي والحلاق والنجار وغيرهم، من الستة الأوائل الذين سمعوا منه وفهموا عنه، وزاروه في بيته وأبدوا تأثرهم بدعوته وعزمهم على العمل غير أنهم لا يعرفون السبيل⁽³⁶⁾؛ وتأثر هؤلاء البسطاء بأسلوب الإمام البنا رحمه الله دليل واضح على أن أسلوب الرجل كان بسيطاً مباشراً فريداً، لا يطيل ولا يمل، إذ كان لا يتجاوز عشر دقائق، يقصد إلى المعنى الذي يريد توصيله فيوضه ويشرحه شرحاً يترك أثره في النفس واضحاً شافياً.

إن كثيراً من مواقف حسن البنا رحمه الله تدل على أن هذا الشاب كان يعرف غايته وجهته، ويقصدها من أقرب سبيل. يذكر الأستاذ عباس السيسي في كتابه (حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية) أن الطالب حسن البنا حين تقدم إلى لجنة الامتحان الشفهي في دار العلوم، سأل أحد الممتحنين:

- ماذا تحفظ من الشعر القديم؟
- فأجاب: أحفظ المعلقة السبع.
- قال الأستاذ الممتحن: أسمعني معلقة طرفة بن العبد، فأخذ حسن البنا يستظهرها في فصاحة وثبات، ولما تأكد الممتحن من جودة حفظه، قال له: على رسلك، أريدك أن تختار بيتاً أعجبك من هذه القصيدة، فأطرق حسن البنا هنيئاً، ثم قال:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي عَنِتُّ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

(36) انظر حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، ص 95.



فَمَا كَانَ مِنَ الْأُسْتَاذِ الْمُتَحِنِّ إِلَّا أَنْ رَفَعَ عِمَامَتَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَهُوَ يُرَدِّدُ: اللَّهُ .. اللَّهُ... فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الْمُتَحِنُّ الْآخَرُ، وَقَالَ لَهُ: مَاذَا جَرَى يَا مَوْلَانَا؟، فَأَجَابَهُ بَأَنَّ هَذَا الْفَتَى - يَقْصِدُ حَسَنَ الْبَنَّا - سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَأَعَادَ عَلَى سَمْعِهِ بَيْتَ الشُّعْرِ الَّذِي أَعْجَبَ الْبَنَّا مِنَ الْقَصِيدَةِ، فَشَارَكَهُ إِعْجَابَهُ وَتَفَاوُلَهُ.

وَيُؤَكِّدُ الْأُسْتَاذُ عَبَّاسُ السَّيِّسِيُّ سُهولةَ أُسْلُوبِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، وَنَفَادَهُ إِلَى الْقُلُوبِ، إِذْ يَقُولُ: سَمِعْتُ قَبْلَ أَنْ أَرَى الْإِمَامَ الْبَنَّا بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ أَنَّهُ قَادِمٌ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ لِلِقَاءِ مُحَاضِرَةٍ فِي مَوْسِمٍ مِنَ الْمَوَاسِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ فَهَمْتُ كَلِمَتَيْنِ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي سَيَقُولُهُ هَذَا الرَّجُلُ، فَهَذَا إِنْجَازٌ عَظِيمٌ جَدًّا؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ مُجْتَهِدٌ لِقُرُونٍ خَلَتْ؛ أَيْ عَالِمٌ كَبِيرٌ جَدًّا، وَتَوَقَّعْتُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِأُسْلُوبٍ لَا يَفْهَمُهُ أَمْثَالِي؛ لِأَنِّي كُنْتُ شَاوِشًا بِالْجَيْشِ، مِنْ خَرَّيجِي الْمَدَارِسِ الثَّانَوِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، الَّتِي تُخْرَجُ عَمَّا لَا مَهَرَةَ فِي الْجَيْشِ. ثُمَّ يَقُولُ: فَلَمَّا حَضَرْتُ الْمُحَاضِرَةَ وَسَمِعْتُ الرَّجُلَ وَهُوَ يَتَكَلَّمَ وَجَدْتُهُ يُحَدِّثُ النَّاسَ وَكَأَنَّهُ يَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَهُ، وَلَمْ يَكُنْ أُسْلُوبُ الْإِمَامِ الْبَنَّا هُوَ مَا يَجْعَلُهُ يَصِلُ إِلَى النَّاسِ فَقَطْ، وَلَكِنْ حُضُورُهُ الْمُحَبَّبَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِلَا غِلْظَةٍ أَوْ اسْتِعْلَاءٍ أَوْ تَأْنِيْبٍ أَوْ تَجْرِيحٍ أَوْ لَوْمٍ.

وَبِهَذَا الْأُسْلُوبِ الْبَسِيطِ اسْتَطَاعَ الْبَنَّا أَنْ يُقَدِّمَ دَعْوَتَهُ، بِهَذِهِ الصِّيغَةِ مِنَ الْحَقِّ الَّتِي أَرَادَ أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَيْهَا الْقُلُوبُ مِنْ أَجْلِ إِحْيَاءِ أُمَّتِهِ، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْخُطْوَةُ الْأُولَى، وَالْخُطْوَةُ الثَّانِيَّةُ الْعَمَلُ الْمُنَظَّمُ مِنْ خِلَالِ صَفٍّ قَادِرٍ عَلَى الْعَمَلِ، قَادِرٍ عَلَى التَّلَاوُمِ.

وَلَكِي تَتَحَقَّقَ الْقُدْرَةُ دَاخِلَ هَذَا الصَّفِّ، طَرَحَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَرْكَانَ الْبَيْعَةِ



العُشْرَةَ؛ بَعْضُهَا يُحَقِّقُ مَطْلَبَ (الصفِّ القادرِ على العمل)، وَبَعْضُهَا يُحَقِّقُ مَطْلَبَ (القُدْرَةَ عَلَى التَّلاوُمِ) دَاخِلَ هَذَا الصَّفِّ، وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ هِيَ: (الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهد، والتضحية، والطاعة، والثبات، والتجرد، والأخوة، والثقة).

وَقَدْ أَشْرْنَا مِنْ قَبْلُ إِلَى أَنَّ الْغَايَةَ الَّتِي تَغْيَاهَا الْإِمَامُ الْبَنَاءُ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِعَمَلٍ مَنْظَّمٍ، وَمِنْهَا جَازٍ يَضْبِطُ ذَلِكَ الْعَمَلَ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْبَيْعَةُ الَّتِي أَخَذَهَا عَلَى إِخْوَانِهِ (بَيْعَةً عَلَى عَمَلٍ)، وَقَدْ أَرَادَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ - الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ - أَنْ يَتَحَقَّقَ فِي هَذَا الْعَمَلِ عُنْصُرُ (الالتزام) وَأَلَّا يَخْضَعَ لِلْأَهْوَاءِ، ثُمَّ أَرَادَ لِهَذَا الْعَمَلِ أَنْ يَسِيرَ وَفْقَ مَنْهَا جَازٍ يُنتِجُ فَائِدَةً، وَيُؤَدِّي وَاجِبًا، وَيُزِيلُ عَوَاقِبَ.

وَحَتَّى تُؤْتِيَ تِلْكَ الْبَيْعَةُ ثَمَارَهَا، وَضَعَ لَهَا الْإِمَامُ الْبَنَاءَ ضَوَابِطَ تَعَصُّمٍ الْعَامِلِينَ الْمُتَحَقِّقِينَ بِأَرْكَانِهَا مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ، أَوْ غَبْشِ الرُّؤْيَةِ، أَوْ اسْتِبْطَاءِ التَّمَكُّنِ، أَوْ تَمَزُّقِ الرُّوَاطِطِ، أَوْ فَقْدَانِ الثِّقَةِ، وَتَمَثَّلَتْ تِلْكَ الضُّوَابِطُ فِي (الأركان العشرة) الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا رِسَالَةُ الْبَيْعَةِ أَوْ (التعاليم)، وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ الْعَشْرَةُ دَلِيلٌ كَذَلِكَ عَلَى حِرْصِ الْإِمَامِ الْبَنَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَوُضُوحِ الرُّؤْيَةِ، فَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ إِخْوَانِهِ بَيْعَةً عَلَى أَمْرٍ غَامِضٍ أَوْ عَمَلٍ مُبْهَمٍ، وَإِنَّمَا وَضَحَ الْأَرْكَانَ الَّتِي يُبَايِعُ عَلَيْهَا كُلَّ أَخٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى كَتِيبَةِ الْعَامِلِينَ الْمُجَاهِدِينَ، لِيَعْمَلَ مَعَ إِخْوَانِهِ مُطْمَئِنًّا، لَا يَسْتَشْعِرُ أَنَّهُ يُطِيعُ طَاعَةً عَمِيَاءَ، وَلَكِنَّهُ يُطِيعُ وَفْقَ رُؤْيَةٍ وَاضِحَةٍ، وَعَهْدٍ أَوْ مِيثَاقٍ وَاضِحٍ الْأَرْكَانَ؛ إِذْ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ يَرَى أَنَّ مُقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ: حُبٌّ وَبَذْلٌ، وَلَنْ يَبْذُلَ عَاقِلٌ فِي سَبِيلِ دَعْوَةٍ لَا يُحِبُّهَا، وَلَا يَفْهَمُهَا.

وَسَتَكُونُ لَنَا وَفَقَةٌ - بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى - مَعَ كُلِّ رُكْنٍ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، نَحَاوُلُ فِيهَا أَنْ نَسْتَخْلِصَ أَهَمَّ مَلَامِحِهِ، وَظِلَالِ الْهَادِيَةِ فِي الدَّعْوَةِ وَالْحَرَكَةِ.

رُكْنُ الْفَهْمِ

الْفَهْمُ أَوَّلُ الْأَرْكَانِ

أَرَادَ الْإِمَامُ الْبَنَّا لدعوة الإخوان المسلمين أَنْ تَكُونَ عَمَلًا مُؤَسَّسِيًّا منظمًا، ووضَعَ لهذا التَّنْظِيمِ قَوَاعِدَ صَارِمَةً، مُمَثِّلَةً فِي أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ؛ كَيْ يَتَحَقَّقَ بِهَا الصَّفُّ الْقَادِرُ الْمُنْضِبُ الْمُسْتَقَرُّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلَكَيْ تَمُنَحَ ذَلِكَ الصَّفُّ الْمُنْضِبُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّلَاوُمِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى؛ لِأَنَّ السَّيَرَ الْمُشْتَرَكِ يَحْتَاجُ إِلَى قَدْرِ مِنَ الْفَهْمِ الْمُشْتَرَكِ.

وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَجْعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رُكْنَ «الْفَهْمِ» الرُّكْنَ الْأَوَّلَ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ؛ لِأَنَّهُ آمَنَ بِأَنَّ «حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ هِيَ حَقِيقَةُ الْفَهْمِ عَنْهُ»، كَمَا كَانَ يَقُولُ، ثُمَّ وَضَعَ بَيْنَ يَدَيِ الصَّفِّ عِشْرِينَ أَصْلًا لِلْفَهْمِ، اسْتَخْلَصَهَا مِنْ قَرَاءَاتِهِ الْوَاسِعَةِ لِلْعُلُومِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ كَالْعَقِيدَةِ، وَالْفَقْهِ وَأُصُولِهِ، وَالسُّنَّةِ وَعُلُومِهَا، وَالتَّفْسِيرِ وَعُلُومِ الْقُرْآنِ، وَالسِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِتَكُونَ تِلْكَ الْأُصُولُ عَوْنًا عَلَى اخْتِيَارِ الصَّوَابِ، وَإِنْ تَزَاحَمَتِ الْبَدَائِلُ، وَكَثُرَ الضَّجِيجُ.

وَأَذْكُرُ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنَّ بَعْضَ مُعَاَصِرِيهِ سَأَلَهُ أَنْ يَضَعَ كُتُبًا فِي تِلْكَ الْعُلُومِ وَالْأَفْكَارِ؛ فَأَجَابَهُ إِبَاجَةً الْعَالَمِ الْحَصِيفِ الْمَدْرِكِ لِفَقْهِه الْأُولَوِيَّاتِ فِيمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَأْلِيفِ الرِّجَالِ الَّذِينَ خَلَتْ مِنْهُمْ تِلْكَ الدُّورُ وَالْقُصُورُ»، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ فَهْمَ الْإِمَامِ الْبَنَّا الْوَاسِعَ الْفَسِيحَ قَدْ أَسْعَفَهُ فَأَدْرَكَ وَاجِبَ وَقْتِهِ، وَلِذَا ضَحَّى بِبَعْثَةِ أُتَيْحَتْ لَهُ، وَتَخَلَّى عَنِ الْوُظُفَةِ، وَرَضِيَ بِرَاتِبٍ تَقَاعَدِيٍّ قَلِيلٍ؛ لِتُفَرِّغَ لِأَدَاءِ وَاجِبِهِ،

وَيَكُونُ بَيْنَ إِخْوَانِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا.

والسؤال: لِمَ جعل الإمام البنا (الفهم) أول أركان البيعة؟

لَقَدْ تَجَلَّى فَقْهُهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا وَفَهْمُهُ الْعَمِيقُ الدَّقِيقُ فِي تَرْتِيبِهِ أَرْكَانَ الْبَيْعَةِ الْعَشْرَةِ؛ إِذَا كَانَ يُتَوَوَّرُ أَوْ يُتَوَقَّعُ، أَنْ يَجْعَلَ رُكْنَ (الْعَمَلِ) أَوَّلَ هَذِهِ الْأَرْكَانِ، مَا دَامَتْ الْبَيْعَةُ فِي دَعْوَةِ (الإخوان المسلمين) بَيْعَةً عَلَى الْعَمَلِ، لَكِنَّهُ قَدَّمَ رُكْنِي (الْفَهْمَ وَالْإِخْلَاصَ) عَلَى رُكْنِ (الْعَمَلِ)، وَهُوَ رُكْنُ الْأَرْكَانِ فِي بَيْعَتِنَا، لِأَنَّهَا شَرْطَانِ لِقُبُولِ أَيِّ عَمَلٍ، مُنْظَمًا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُنْظَمٍ، فَمَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ فَهْمٍ ضَلَّ وَأَضَلَّ، وَمَنْ افْتَقَدَ الْإِخْلَاصَ فِيمَا يَعْمَلُ، فَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَكَأَنِّي بِالْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ وَضَعَ نُصْبَ عَيْنِهِ قَوْلَهُ فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ الَّتِي اشْتَرَطَ (الْفَهْمَ وَالْإِخْلَاصَ) لِكُلِّ عَمَلٍ حَسَنٍ مَقْبُولٍ، قَالَ فَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]: «أَحْسَنُ عَمَلًا: أَخْلَصُهُ وَأَصُوبُهُ. وَقَالَ: الْعَمَلُ لَا يَقْبَلُ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، الْخَالِصُ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ» (37).

وَفِي كِتَابِ الْعِلْمِ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، نَرَى الْإِمَامَ الْبُخَارِيَّ يُتَرَجِّمُ بَابًا بِعُنْوَانٍ: «بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ»، ثُمَّ يَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [مُحَمَّد: 19]، وَيَقُولُ: «فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَرَثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ». ثُمَّ أوردَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، وَقَوْلَهُ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وَقَوْلَهُ: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿[المُلْك: 10]، وَقَوْلَهُ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: 9]. وَأُورِدَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (38).

وَهَلِ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ وَالْفِقْهُ، إِلَّا الْفَاطُ مُتَرَادِفَةٌ فِي الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّ الْعَامِّ؟

وَمِنْ ثَمَّ بَدَأَ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِالْفَهْمِ حَتَّى يَنْضَمَّ الْأَخُ إِلَى كَتَيْبَةِ الْعَامِلِينَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108]. أَرَادَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنْ يَشْعُرَ كُلُّ أَخٍ عَامِلٍ أَنَّهُ اخْتَارَ تِلْكَ السَّبِيلَ عَنْ فَهْمٍ وَعِلْمٍ، حَتَّى يَشْعُرَ أَنَّهُ أَحْسَنَ الْأَخْتِيَارِ، وَاهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ، وَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَى قَلْبِهِ شُبْهَةٌ، تُثِيرُ لَدَيْهِ الشَّكَّ وَالْارْتِيَابَ، وَلَئِنْ يَرَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ هِيَ الْفَهْمُ عَنِ اللَّهِ.

وَكَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا يُدْرِكُ أَنَّ مِنَ الْقَضَايَا مَا تَعْظُمُ فِيهِ تَبِعَةُ الْخَطَأِ، وَلَا تَحْتَمِلُ الْعَثَرَاتِ غَيْرَ الْمَحْسُوبَةِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا قَضَايَا الدِّينِ وَالْحَرْبِ وَالسِّيَاسَةِ. فَالْخَطَأُ فِي الدِّينِ: ضَيَاعُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْخَطَأُ فِي الْحَرْبِ: إِنْهَاكُ لِلْأَمَّةِ وَتَبْدِيدُ لِمُقَدَّرَاتِهَا، وَالْخَطَأُ فِي السِّيَاسَةِ: إِعْنَاتُ لِلْأَمَّةِ وَتَحْمِيلُهَا مَا لَا تَطِيقُ.

وَلِأَنَّ الْفَهْمَ عَاصِمٌ - بَعْدَ اللَّهِ - مِنَ الْخَطَأِ؛ بَدَأَ بِهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَرْكَانَ بَيْعَتِهِ، حَتَّى تَصِحَّ الْبَدَايَاتُ فَتَصِحَّ النِّهَايَاتُ، فَالْبَدَايَاتُ السَّلِيمَةُ تَهْدِي إِلَى نِهَايَاتٍ سَلِيمَةٍ، أَمَّا الْبَدَايَاتُ الْخَاطِئَةُ فَلَا تُفْضِي إِلَى غَايَةٍ، وَلَا تُبْنِي عَمَلًا رَاسِخًا.

ولكي تُدرك قيمة (الفهم) وأهميته في بداية كل عمل، فتذكر معي أخي الكريم أن سوء الفهم عن الله ورسوله قد نخر كالسوس في بنية هذه الأمة، ومزقها شيعاً وفرقاً، وقديماً قالوا: «وبضدها تتميز الأشياء»؛ لأن هناك أموراً لا تُعرف محاسنها إلا إذا عرفت مساوئ أضدادها، فليس يعرف محاسن الإسلام إلا من خبر مساوئ الجاهلية، وليس يعرف محاسن الفهم الصائب إلا من عرف العواقب الوخيمة لسوء الفهم، وكيف كان وبالأعلى أمتنا، وما أصدق الشاعر العربي حين قال:

وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ (39)

فإن أردت قولاً جامعاً شافياً في هذين الضدين؛ فخير من يُنيك بذلك العلامة ابن القيم؛ حيث يقول في كتابه (الروح): «أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان. وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع؛ لا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده، وسوء القصد من التابع. فيا محنة الدين وأهله! والله المستعان.

وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله، حتى صار

(39) هذا عجز بيت من قصيدة تُعرف بـ (القصيدة البيمة)، وهذا تمامه:

ضِدَانٌ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ

وهي من قصائد العرب الشهيرة، لكن العلماء مختلفون في نسبتها، ومنهم من نسبها إلى الشاعر دوقلة المنبجي. قيل إنها سُميت بالبيمة؛ لأن صاحبها (دوقلة) لم يكتب غيرها، وقيل: لأنها لا شبيه لها في الشعر العربي؛ لقوة معانيها ووضوح مقاصدها.



الدِّينُ بِأَيْدِي أَكْثَرِ النَّاسِ هُوَ مُوجِبٌ [ما أوجبه] هذه الأفهام! والذي فَهَمَهُ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَمَهْجُورٌ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَرْفَعُ هَوْلًا بِهِ رَأْسًا! (40). هذا نموذجٌ لوعي السلفِ بخطورة سوء الفهم ومغيبته.

وَفِي الْمُعَاصِرِينَ كَذَلِكَ مَنْ يَضَعُ أَيْدِيَنَا عَلَى أَهْمِيَّةِ (الفهم)، وَيُيَسِّنُ مَخَاطِرَ الانْحِرَافِ أَوْ الْخَلَلِ فِيهِ، يَقُولُ د. عَبْدُ الْمَجِيدِ النَّجَّارُ فِي كِتَابِهِ الْقِيَمَ (فقه التدين فهماً وتنزيلاً): «وَتُعْتَبَرُ مَرَحَلَةُ الْفَهْمِ الْمَرَحَلَةُ الْأَسَاسِيَّةُ فِي التَّدِينِ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا تَمَثُّلُ حَقِيقَةِ الدِّينِ، الَّتِي سَتَصْبِحُ عَقِيدَةً وَسُلُوكًا، فَالْخَلَلُ الَّذِي يَطْرَأُ فِيهَا، يُفْضِي إِلَى أَنَّ التَّدِينَ سَيَكُونُ جَارِيًا عَلَى بَاطِلٍ، غَيْرِ مُرَادٍ لِلَّهِ تَعَالَى، بِقَدْرِ ذَلِكَ الْخَلَلِ الطَّارِئِ فِي الْفَهْمِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي حَتْمًا إِلَى بَوَارٍ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، بِحَسَبِ الْبَاطِلِ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ التَّدِينُ، وَالْحَالُ أَنَّ التَّدِينَ غَايَتُهُ تَسْدِيدُ الْحَيَاةِ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ، وَتَحْقِيقُ مَصْلَحَةِ الْإِنْسَانِ، الَّتِي هِيَ الْغَرَضُ الْأَعْلَى لِأَصْلِ الدِّينِ... وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْخَلَلُ الَّذِي يَطْرَأُ فِي تَنْزِيلِ الدِّينِ عَلَى وَاقِعِ الْحَيَاةِ، يُؤَدِّي مِنْ طَرَفٍ قَرِيبٍ فِي عَصِيَانِ الْأَحْكَامِ، إِلَى الْمُرُوقِ مِنَ الْإِسْلَامِ، كَمَا رَأَاهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْخَوَارِجِ، وَهُوَ يُؤَدِّي عِنْدَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَضْعِ إِيْمَانِي شَدِيدٍ الضَّعْفِ يَكَادُ لَا يُغْنِي فِي مِيزَانِ الدِّينِ شَيْئًا» (41).

وَلَقَدْ وَرِثَتْ أُمَّتُنَا الْإِسْلَامِيَّةُ صُورًا كَثِيرَةً مِنْ صُورِ الْانْحِرَافِ فِي الْفَهْمِ؛ مِثْلَمَا وَجَدْنَا بَعْضَ الْفِرْقِ تُسْرِفُ فِي تَمْجِيدِ الْعَقْلِ حَتَّى لَتَكَادُ تُؤْلَهُهُ، وَتَقَدِّمُهُ عَلَى الْوَحْيِ، بَلْ تُحَاصِرُ الْوَحْيَ حَتَّى لَتَكَادُ تُلْغِيهِ، كَمَا

(40) ابن قيم الجوزية: كتاب الروح، ط 3، دار ابن حزم، ص 183.

(41) د. عبد المجيد النجار: فقه التدين فهماً وتنزيلاً، سلسلة كتاب الأمة، 2/ 18.

وجدنا بعض فرق الصوفية تُحبب إلى الناس السلبية، وتُزين لهم العزلة والانسحاب من إصلاح المجتمع وتقويمه، وجدنا من يُفتن بالشبهات التي أثارها اليهود والنصارى حول كتاب الله تعالى، وما تولد عنها؛ مثل فتنة (خلق القرآن)، التي امتحن فيها الإمام أحمد بن حنبل، وجدنا كذلك من يرجع سبب الواقع البئيس الذي تحياه الأمة إلى تمسكها بنصوص الوحي (الكتاب والسنة) اللذين تجاوزهما، ثم يزعم أمثال هؤلاء أن التجديد لن يتحقق إلا بطراح الكتاب والسنة، أو النظر إليهما على أنهما كأقوال الرجال، أو أنهما نوع من التراث قابل للفحص والاختبار، قابل للتردد والشك، قابل للتأجيل والطعن!!

أدرك الإمام البنا أن مثل هذه الأفكار المنحرفة، والشبهات المتراحمة، تربك المسلم المعاصر، وتصرفه عن السبيل القويم، والنهج المستقيم في اتخاذ الإسلام منهاج حياة، ولهذا قدم لهذا الجيل الحائر مبادئ فهم تُعينه على اختيار الصواب رغم تراحم البدائل، وضجيج الأصوات، فبدأ أركان البيعة بركن (الفهم).

وحري بنا أن نذكر الكلمات التي قدم بها الإمام البنا رسالة البيعة أو (التعاليم)، ليدرك كل أخ أن هذه الرسالة تحديدًا لم تكن ترفًا فكريًا يقرأها الإخوان فيعجبون ببلاغة إمامهم ودقته وإيجازه، ولكنها كما قال «تعليمات تُنفذ»؛ ولهذا خص بها الإمام البنا الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين؛ الذين آمنوا بأن دعوتهم أسمى الدعوات، ولم يُقدمها لكل من صحب الإخوان، وما زال مرتابًا يقدم رجلاً ويؤخر آخرى؛ لأن الخلل في أي ركن من أركان البيعة، معناه أن الجماعة تنكبت الطريق، وضلت السبيل.



يقول الإمام البنا في مقدمة رسالة البيعة (التعاليم): «الحمد لله والصلاة والسلام على إمام المتقين، وقائد المجاهدين سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين».

أما بعد:

فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقُدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تحفظ، ولكنها تعليمات تُنفَّذ، فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣). أما غير هؤلاء.. فلهم دروسٌ ومحاضراتٌ، وكُتُبٌ ومقالاتٌ، ومظاهرٌ وإدارياتٌ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَثَبُّوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وكلاً وعد الله الحسنى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حسن البنا⁽⁴²⁾.

ثم عرّف الإمام البنا ﷺ رُكنَ (الفهم)، فقال: «إنما أريد بالفهم: أن تؤقن بأن فكرتنا «إسلامية صميمة»⁽⁴³⁾، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز....»⁽⁴³⁾.

ثم أخذ يسردُ أصولَ الفهم العشرين أصلاً أصلاً، ويحتاج كل أصل

(42) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 368.

(43) السابق: الصفحة نفسها.



منها إلى وقفة خاصة؛ ولقد عني بها بعض العلماء فشرحوها، ومنهم - تمثيلاً لا حصراً - الأستاذ جمعة أمين رَحِمَهُ اللهُ؛ حيث شرحها في كتابه (فهم الإسلام في ظلال الأصول العشرين)، وشرحها من قبله الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه المهم (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، وعنوان الشيخ الغزالي ناطق بقيمة هذه الأصول التي قدمها البنا رَحِمَهُ اللهُ، وكأني بالشيخ الغزالي ينصح بهذا العنوان المسلمين، ويهمس في آذانهم: أيها المسلمون: إذا أردتم دستوراً يوحّدكم فكرياً ومعرفياً وثقافياً، فعليكم بأصول الفهم العشرين التي صاغها الإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ.

مواقف في الفهم السديد

وفي أقوال قادة الدعوة، ومواقفهم ما يؤكّد هذا الفهم الشامل العميق لرسالة الإسلام، ودورها في نهضة الأمة واسترداد عزّتها السليبة.

فالإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ كان يرى بفهمه الثاقب أن مُساندة المسلمين لدعوة الإخوان؛ واجب لا ينبغي لمسلم أن يتخلف عنه؛ لأنه رآها أمل الأمة في العزة والكرامة، ومن أقواله: «ليُحرّض كلُّ أخ على الاجتماعات المحدّدة مهما كانت أعذاره، ثم ليبادر كلُّ منكم إلى تسديد ما عليه لصندوق أسرته، حتّى لا يتخلف عن الواجبات متخلفاً؛ فإذا أدّيت هذه الواجبات الفردية والاجتماعية فإن أركان هذا النظام ستتحقق ولا شك، وإذا قصرتم فسيتضاءل حتّى يموت، وفي موته أكبرُ خسارة لهذه الدعوة، وهي اليوم أمل الإسلام والمسلمين»⁽⁴⁴⁾.

ولمّا دخل عليه مجموعة من (شباب محمد)، ورفعوا في وجهه السلاح يطالبونه بأن يُغيّر من خطّه في منهجه المعتدل السلمي الهادي

(44) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة نظام الأسر، ص 524.



إِلَى الارتطام والصراع بنظام الحكم الموجود في ذلك الوقت، بدَعَوَى علمانيته وابتعاده عن الإسلام، فَمَا كَانَ مِنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ أَزَاحَ عَنْ سُرْتِهِ وَأَظْهَرَ صَدْرَهُ، وَقَالَ لَهُمْ: «أَطْلِقُوا الرَّصَاصَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ لَأَدْعَ يَقِينِي لِشُكُوكِمْ»، فَسَحَبَ البِساطَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنَّ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَدْ كَلَفْتُ نَفْسِي فِيهِ عَنَاءَ الْبَحْثِ وَالدرَاسَةِ، وَاسْتَنْبَطْتُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَمِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَهُوَ مَا أَوْثَنِي الاطمئنانَ واليقينَ، وَأَوْثَنِي الرضا والارتياحَ حَتَّى لِعَذَابَاتِ النَّائِجِ، أَمَّا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَوَلِيدُ أَحْلَامٍ وَأَوْهَامٍ.

وَمِنْ فِيهِ الْمَوْقِفِ السِّيَاسِيِّ أَلَّا تَكُونَ مُخَاصَمَةَ الْحَاكِمِ وَإِخْرَاجَهُ مَوْقِفًا ثَابِتًا فِي جَمِيعِ الظُّرُوفِ؛ فَقَدْ يَقِفُ الْحَاكِمُ فِي وَجْهِ عَدُوِّ قَوِيٍّ لِلْمُسْلِمِينَ، يَدْفَعُهُ وَيَحُولُ دُونَ بُلُوغِ غَايَتِهِ، وَعِنْدَيْهِ يَكُونُ مِنْ سُوءِ التَّقْدِيرِ أَنْ يَسْتَنْفِدَ الْمُسْلِمُونَ قُوَّتَهُمْ فِي مُخَاصَمَتِهِ، وَهُوَ يَحُولُ دُونَ وُصُولِ عَدُوِّهِمْ إِلَى غَايَتِهِ مِنْهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ فِي رِسَالَةِ الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ:
«إِنَّ طَرِيقَكُمْ هَذَا مَرْسُومَةٌ خَطُوتُهُ، مَوْضُوعَةٌ حُدُودُهُ، وَلَسْتُ مُخَالَفًا هَذِهِ الْحُدُودَ الَّتِي افْتَنَعْتُ كُلَّ الْاِقْتِنَاعِ بِأَنَّهَا أَسْلَمَ طَرِيقُ لِلْوُصُولِ»⁽⁴⁵⁾.

وَمِنْ مَوَاقِفِ الْفَهْمِ السَّيِّدِ؛ أَنَّ الْوَاجِبَ أَوَّلًا: فَمِمَّا يُرَوَى عَنِ الْأَسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ قَدْ طُلِبَ إِلَيْهِ - رُغْمَ عِلَّتِهِ وَمَرْضَاهُ، وَبَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّجْنِ عَامَ (١٩٦٥م) - رِعَايَةُ شُؤُونِ تَنْظِيمِ (١٩٦٥م)؛ رِعَايَةُ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ بِنُصَحِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ وَتَنْظِيمِهِمْ وَمُرَاقَبَتِهِمْ وَتَعَهُدِهِمْ كَذَلِكَ، فَرَضِي الرَّجُلُ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ وَلَمْ يَقْدِّمْ أَعْذَارَهُ وَتَعَلَّاتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَعْذَارُ قَائِمَةً وَالتَّعَلَّاتُ حَاضِرَةً، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ هَذَا وَاجِبٌ وَقْتِهِ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ

وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ وَمُرْتَاحٌ لِعَذَابَاتِ النَّتَاجِ، وَقَدْ انْتَهَتْ بِإِعْدَامِهِ.

وَلَمَّا وَقَفَ هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَصِيبَ، وَهُوَ فِي اللَّحْظَاتِ الْأَخِيرَةِ، مُقْبِلٌ عَلَى لِقَاءِ رَبِّهِ، جَاءُوا إِلَيْهِ فِي زَنَانَتِهِ قَبْلَ تَنْفِيزِ الْحُكْمِ بِسَاعَاتٍ قَلِيلَاتٍ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ كَلِمَةً اعْتِذَارَ وَاحِدَةٍ، وَقَالُوا لَهُ: لَنْ يَعْرِفَهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، يُخَفِّفُ بِهَا عَنْكَ وَعَنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، وَكَانَ أَخُوهُ مُحَمَّدٌ قُطْبُ وَأَخَوَاتُهُ الثَّلَاثُ أَمِينَةٌ وَنَفِيسَةٌ وَحَمِيدَةٌ جَمِيعًا فِي السَّجَنِ الْحَرْبِيِّ، فَأَبَى الرَّجُلُ، وَقَدْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

وَقَدْ كَانَ قَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ

إِلَيْهِ الْحِفَاطُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ

لكنه أبى، وَرَدَّ عَلَيْهِمُ: «إِنَّ تَنْفِيزَ الْحُكْمِ أَجْدَى عَلَى الدَّعْوَةِ مِنْ تَخْفِيفِهِ، ثُمَّ إِنَّ هُنَا أَصْحَابًا أَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَنْجُو بِنَفْسِي وَأَدْعَهُمْ، وَإِنْ قَدَّرَ اللَّهُ مَمَاتِي فَلَعَلَّ اللَّهَ يَصْنَعُ بِهَذَا الْقَدَرِ شَيْئًا رَائِعًا لِهَذَا الدِّينِ». وَهُوَ مَا كَانَ إِحْسَاسًا مِنْهُ بِأَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ وَقْتِهِ.

وَكَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ لِأَدَاءِ الْوَاجِبِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِلْأَجْرِ الْآخِرِيِّ ثَانِيًا، ثُمَّ لِلْإِفَادَةِ ثَالِثًا، وَهُوَ إِنْ عَمِلَ فَقَدْ أَدَّى الْوَاجِبَ، وَفَازَ بِثَوَابِ اللَّهِ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ شَكٍّ، مَتَى تَوَفَّرَتْ شُرُوطُهُ، وَبَقِيَتْ الْإِفَادَةُ وَأَمْرُهَا إِلَى اللَّهِ، فَقَدْ تَأْتِي فُرْصَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي حِسَابِهِ تَجْعَلُ عَمَلَهُ يَأْتِي بِأَبْرِكَ الثَّمَرَاتِ، عَلَى حِينٍ أَنَّهُ إِذَا قَعَدَ عَنِ الْعَمَلِ فَقَدْ لَزِمَهُ إِثْمُ التَّقْصِيرِ، وَضَاعَ مِنْهُ أَجْرُ الْجِهَادِ، وَحُرِمَ الْإِفَادَةُ قَطْعًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؟» (46).

وَكَانَ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدٌ حَامِدُ أَبُو النَّصْرِ - وَهُوَ مِنْ أَوَاخِرِ مَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ



من الإخوان⁽⁴⁷⁾ - يَقُولُ: «حَضَرَ إِلَيَّ ضَبَاطُ الشَّرْطَةِ فِي بِلَدَتِي مَنَفْلُوطَ فِي صَعِيدِ مِصْرَ؛ لِلْقَبْضِ عَلَيَّ، وَكُنْتُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَتَهَيَّأُ لِتَنَاوُلِ فَطُورِي فَاسْتَمَهَلْتُهُمْ حَتَّى أَتَنَاوَلَ الْفَطُورَ وَدَعَوْتُهُمْ إِلَيَّ تَنَاوُلِهِ مَعِي»، وَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ أَعْيَانِ مَنَفْلُوطَ، وَكَانَ كِبَارُ الضَّبَّاطِ يَعْرِفُونَهُ، وَلِذَلِكَ اغْرُورَقَتْ أَعْيُنُهُمْ بِالدُمُوعِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، كَيْفَ؟ وَقَدْ كَانَ مَوْقِفًا غَرِيبًا رَجُلٌ يَسْتَعِدُّ لِلذَّهَابِ إِلَى الْمَعْتَقِلِ عَلَى مَا كَانَ لَهُ مِنْ رَهْبَةٍ فِي النُّفُوسِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَقَالَ: «أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّنِي أَسْتَخَفُّ بِوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ لَوَعِيدِ اللَّهِ، وَأَنِّي أَسْتَقِلُّ ذَلِكَ فِي جَنْبِ اللَّهِ تَعَالَى». فَلَمَّا انْتَهَى مِنْ طَعَامِهِ وَوَقَفَ لِلخُرُوجِ مَعَهُمْ قَالَ لَهُمْ: «لِي شَرْطٌ وَاحِدٌ: أَنْ تَضَعُوا الْقِيُودَ فِي يَدَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ أَمَامَ النَّاسِ»، وَكَانُوا قَدْ تَجَمَّعُوا أَمَامَ الْقَصْرِ لِيَرَوْا مَا يَحْدُثُ. إِنَّهَا عِزَّةُ الْمُسْلِمِ الَّذِي يَتَاَجَرُ مَعَ اللَّهِ، وَلَا يَشْغَلُهُ إِلَّا شَيْءٌ وَاحِدٌ: أَنْ تَنْتَصِرَ دَعْوَتُهُ وَيَرْضَى رَبُّهُ!

وَعِنْدَمَا دَخَلْتُ الزَّنَانَةَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ لِي فِي السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ، دَخَلَ مَعِي فَلَاحٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ مِنَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ اسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ عَبْدِ الْعَالِ فِي الْخَمْسِينِيَّاتِ مِنْ عُمُرِهِ، قَدْ مَزَّقَ السَّوْطُ جَسَدَهُ، يَزْحَفُ عَلَى يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَعِي وَاطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ قُلْتُ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَخَفِّفَ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَيُعْجَلَ بِالْإِفْرَاجِ عَنَّا.

فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً مُشْفِقَةً وَقَالَ لِي: «يَا أَخَّ صَلَاحَ أَنَا لَا أَشْعُرُ أَنَّي فِي سَجْنٍ، وَلَكِنْ سَادَعُوا اللَّهَ مِنْ أَجْلِكَ وَلَكِنْ بِشَرِّطٍ وَاحِدٍ».

قلتُ: وما هو؟

قال: «أَلَّا يَكُونَ عَبْدُ النَّاصِرِ حَيًّا».

(47) لِصِلَاتِهِ الْقَدِيمَةِ بِجَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ، فَقَدْ كَانَا مِنْ بَلَدَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ عَبْدُ النَّاصِرِ يُحِبُّهُ وَيَحْتَرِمُهُ.

قلت: إِذَنْ لَنْ نَخْرُجَ أَبَدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يُمِدُّ لِلظَّالِمِينَ مَدًّا، وَلَكِنْ لِمَاذَا؟
قال: «لَأَنَّهُ إِنْ خَرَجْنَا بَعْفُو تَحَرَّكَتْ مَشَاعِرُنَا بِامْتِنَانٍ هُوَ لَا يَسْتَحِقُّهُ،
بَعْدَ مَا فَعَلَ بِأَصْحَابِنَا وَدَعَوَتِنَا مَا فَعَلَ».

قلتُ له: هل تتصوّرُ أَنْ يُضْذِرَ فِي حَقِّنا أَحْكَامًا قَاسِيَةً، إِنَّا لَمْ نَفْعَلْ
شَيْئًا غَيْرَ أَنْ نَجْتَمِعَ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ؟

فقال: «يَا أَخْ صَلاحَ لَوْ حُكِمَ عَلَيَّ بِسَنَةِ أَوْ سَتَيْنِ، فَلَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ
أَعُودَ إِلَى بِلَدَتِي لِيَرَى النَّاسُ وَجْهِي».

فقلتُ: لِمَاذَا؟

قال: «لَأَنِّي لَسْتُ سَارِقَ عَنَزَةٍ. هَذَا الْحُكْمُ يَأْخُذُهُ سَارِقٌ، أَمَّا نَحْنُ
فَنَرْجُو إِصْلاحَ الْعَالَمِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْبَرْهَانُ عَلَى قَدْرِ الرَّجَاءِ. بِمَعْنَى أَنَّ
النَّاسَ يَنْتَظِرُونَ مِنَّا رَجَاءً كَبِيرًا فِي تَخْلِيصِهِمْ، وَإِصْلاحَ الْعَالَمِ وَإِرْشَادِهِ؛
لَأَنَّنَا أَصْحَابُ دَعْوَةٍ هَادِيَةٍ، وَدَعْوَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا فَرِيضَةٌ عَلَيْنَا، فَلَا بُدَّ أَنْ
يَرَوْا مِنَّا بَرْهَانًا مِنَ الْأَعْمَارِ وَالْدِّمَاءِ تُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ!»

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى «الْوَاجِبِ قَبْلَ الْأَجْرِ»، أَمَّا الْإِفَادَةُ فَأَمْرُهَا إِلَى اللَّهِ.



ركنُ الإخلاصِ

ثُمَّ جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا (الإِخْلَاصَ) الرُّكْنَ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ بَيْعَتِهِ،
فَلَمَّا ذَا؟؟؟

لأنَّهُ أَرَادَ أَلَّا يَلْتَفِتَ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَانِهِ إِلَى غَيْرِ الْغَايَةِ الَّتِي يَقْصِدُ
إِلَيْهَا؛ مِنْ تَصَدُّرِ الْمَجَالِسِ، وَحَمْلِ أَفْخَمِ الْأَلْقَابِ، وَمِنْ الظُّهُورِ بِأَكْبَرِ
الْمَظَاهِرِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَنِ الْإِخْلَاصِ مِنْ أَسَاتِدَتِنَا: «إِنَّ
فَقْدَانَ الْإِخْلَاصِ يَغْتَالُ الصِّفِّ»؛ إِذَا فَقِدَ الْإِخْلَاصُ اغْتِيلَ الصِّفُّ، فَلِمَ
جَعَلُوا غِيَابَ الْإِخْلَاصِ مُرَادِفًا لَإِغْتِيَالِ الصِّفِّ؟ لَأَنَّهُ إِذَا قَادَكَ إِنْسَانٌ غَيْرُ
مُخْلِصٍ أَضَاعَكَ، وَقَدْ يَبِيعُكَ بِثَمَنِ بَخْسٍ مِنْ أَجْلِ تَصَدُّرِ مَجْلِسٍ، أَوْ مِنْ
أَجْلِ مَنْصَبٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَيِّ لُغَاةٍ⁽⁴⁸⁾ مِنْ دُنْيَا. وَلِذَلِكَ اشْتَرَطَ
الْإِمَامُ الْبَنَّا الْإِخْلَاصَ، وَشَرَحَهُ فَقَالَ:

«وَأُرِيدُ بِالْإِخْلَاصِ: أَنْ يَقْصِدَ الْأَخُ الْمُسْلِمُ بِقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ وَجِهَادِهِ كُلَّهُ
وَجْهَ اللَّهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَحُسْنِ ثَمَوْبَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَغْنَمٍ أَوْ مَظْهَرٍ
أَوْ جَاهٍ أَوْ لَقَبٍ أَوْ تَقَدُّمٍ أَوْ تَأْخِرٍ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ جُنْدِيَّ فِكْرَةٍ وَعَقِيدَةٍ، لَا
جُنْدِيَّ غَرَضٍ وَمَنْفَعَةٍ، ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، وَبِذَلِكَ يَفْهَمُ الْأَخُ الْمُسْلِمُ مَعْنَى هُتَافِهِ الدَّائِمِ
(اللَّهُ غَايَتُنَا) وَ(اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ)».

وَقَدْ تَعَلَّمْنَا فِي دَعْوَتِنَا هَذِهِ وَتَرَبَّيْنَا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: أَنَّ «الْخَفِيَّ فِي
هَذِهِ السَّبِيلِ خَيْرٌ مِنَ الظَّاهِرِ»، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الظَّاهِرُ لِمَا يَكُونُ إِدَارِيَّةً. وَتَعَلَّمْنَا

(48) اللَّغَاةُ: الْبَقِيَّةُ الْيَسِيرَةُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (أَوْ الدُّنْيَا).

في هذه الدعوة كذلك: أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ الشُّرُورِ تَرْكُ تَرْتِيبِ الْخَيْرَاتِ، بِحَيْثُ يُؤَدَّى الْعَمَلُ دُونَ مَرَاعَاةِ الْأَوَلَوِيَّاتِ فَيُقَدِّمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، وَيُؤَخِّرُ مَا حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، وَقَدْ تَدَفَّعْنَا الْعَجَلَةَ الْمُرْكُوزَةَ فِي طَبَائِعِنَا، وَالْحِرْصَ عَلَى رُؤْيَا نَتِيجَةِ عَاجِلَةٍ لِعَمَلِنَا؛ إِلَى أَنْ نَشْغَلَ بِالنَّاتِجِ عَنِ النِّيَّاتِ، وَمِنْ هُنَا يَفْتَرِقُ مَنْطِقُ الثَّوَرَةِ عَنِ مَنْطِقِ الدِّينِ؛ فَالثَّوَرَةُ تَزِنُ الْأَعْمَالَ بِنَتَائِجِهَا، أَمَّا الدِّينُ فَيَجْعَلُ لِلنِّيَّاتِ وَالْمَقَاصِدِ مَكَانَهَا الْأَصِيلَ فِي تَقْوِيمِ الْأَعْمَالِ.

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَذَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ تَعَجُّلِ النَّاتِجِ، أَوِ الْفِتْنَةِ بِهَؤُلَاءِ الزَّعَمَاءِ وَالْأَغْرَارِ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ النَّاتِجَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ الْأَسْبَابِ، فَقَالَ: «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ وَبِخَاصَّةِ الْمُتَحَمِّسُونَ الْمُتَعَجِّلُونَ مِنْكُمْ: اسْمَعُوهَا مِنِّي كَلِمَةً عَالِيَةً دَاوِيَةً، مِنْ فَوْقِ هَذَا الْمِنْبَرِ فِي مُؤْتَمَرِكُمْ هَذَا الْجَامِعِ: إِنَّ طَرِيقَكُمْ هَذَا مَرْسُومَةٌ خُطَوَاتُهُ مَوْضُوعَةٌ حُدُودُهُ. وَلَسْتُ مُخَالِفًا هَذِهِ الْحُدُودَ الَّتِي اقْتَنَعْتُ كُلَّ الْاِقْتِنَاعِ بِأَنَّهَا أَسْلَمُ طَرِيقٌ لِلْوُصُولِ، أَجَلٌ قَدْ تَكُونُ طَرِيقًا طَوِيلَةً وَلَكِنْ لَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهَا. إِنَّمَا تَظْهَرُ الرِّجُولَةُ بِالصَّبْرِ وَالْمَثَابَرَةِ وَالْجِدِّ وَالْعَمَلِ الدَّائِبِ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعْجِلَ ثَمَرَةً قَبْلَ نَضِجِهَا أَوْ يَقْتَطِفَ زَهْرَةً قَبْلَ أَوَانِهَا فَلَسْتُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ بِحَالٍ، وَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يَنْصَرِفَ عَنِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الدَّعَوَاتِ» (49).

كَمَا عَلَّمَ إِخْوَانَهُ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى أَنَّ اللَّهَ كَلَفَهُمُ الْعَمَلَ وَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ النَّاتِجَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّكُمْ تَبْتَغُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَتَحْصِلُ مَثُوبَتَهُ وَرِضْوَانَهُ، وَذَلِكَ مَكْفُولٌ لَكُمْ مَا دُمْتُمْ مُخْلِصِينَ. وَلَمْ يُكَلِّفْكُمْ اللَّهُ نَتَائِجَ الْأَعْمَالِ وَلَكِنْ كَلَفَكُمْ صِدْقَ التَّوَجُّهِ وَحُسْنَ الْاسْتِعْدَادِ، وَنَحْنُ بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا مُخْطِئُونَ فَلَنَا أَجْرُ الْعَامِلِينَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَإِمَّا مُصِيبُونَ فَلَنَا أَجْرُ

الفائزين المصبيين»⁽⁵⁰⁾.

وَأَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ: أَنَّ الشَّهِيدَ أ. مُحَمَّدَ يُوسُفَ هَوَّاشَ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَ مَعَنَا فِي زِنَازَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ يَنْظُرُ كُلَّ لَيْلَةٍ (وَنَحْنُ مَعَهُ فِي الزِّنَازَةِ) مِنْ عَيْنٍ أَوْ فَتْحَةٍ فِي بَابِ الزِّنَازَةِ إِلَى الزَّنَازِينَ الْأُخْرَى، وَهِيَ مُغْلَقَةٌ، وَقَدْ سَكَنَ اللَّيْلُ. يَنْظُرُ (مِنْ الْعَيْنِ) وَيَقُولُ: «كَمْ فِي هَذِهِ الْحُجَرَاتِ مِنْ سَاجِدٍ لِلَّهِ وَقَائِمٍ يَذْكُرُ إِخْوَانَهُ الْمُعْتَقَلِينَ فِي هَذِهِ الزَّنَازِينَ»، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاْمْنَعْ رِحَالَكَ»⁽⁵¹⁾. [يريد: أَنْ يَحْمِيَ اللَّهُ عِبَادَهُ وَرِجَالَهُ هَؤُلَاءِ الْمَحْبُوسِينَ].

يَفْعَلُ هَذَا كُلَّ لَيْلَةٍ، وَقَدْ جَلَسْتُ مَعَهُ أَنَا وَأَخِي الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُودُ عَزَّتْ مِائَةٌ يَوْمَ قَبْلَ اسْتِشْهَادِهِ، فَوَجَدْتُهُ يَنْظُرُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الْعَيْنِ، وَيَقُولُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ دُونَ مَلَلٍ أَوْ كَلَلٍ، مَعَ تَغْيِيرٍ مُأَثِّرٍ عَنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ:

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقَبْ لَتَنَّا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ⁽⁵²⁾
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَدَعْ تَوْنًا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

فَالنَّاتِجُ مَتْرُوكَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى. وَعَلَيْنَا أَنْ نَتَقَبَّلَ الْقَدَرَ - كَمَا يَقُولُ أ. سَيِّدُ قُطْبَ رَحِمَهُ اللَّهُ - لِيَصُوغَ الْعَوَاقِبَ وَقَدْ تَكُونُ خَيْرًا وَبَرَكَةً فِي النِّهَايَةِ ﴿لَا تَذَرِي لَعْلَ﴾

(50) السابق، ص 339.

(51) أَصْلُ هَذَا الدَّعَاءِ بَيْتَانِ مِنَ الشَّعْرِ قَالَهُمَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ، يَوْمَ أَرَادَ أَبْرَهَةَ هَدْمَ الْكَعْبَةِ، قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَقْرٌ مِنْ فَرِيشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ، وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ:

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْ نَعُ رَحْلَهُ فَاْمْنَعْ جَلَالَكَ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ عَدُوًّا مِحَالَكَ

انظر: عبد الملك بن هشام: كتاب سيرة ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ - 1955م: 1 / 48. ومعنى لَاهُمْ: أَصْلَهَا اللَّهُمَّ، وَالْعَرَبُ تَحْذِفُ الْأَلْفَ وَاللَّامَ مِنْهَا، وَتَكْتَفِي بِمَا بَقِيَ، كَمَا تَقُولُ: لِأَهْ أَبُوكَ، وَهِيَ تُرِيدُ: اللَّهُ أَبُوكَ. وَالْجَلَالُ (بِالْكَسْرِ): جَمْعُ جَلَّةٍ، وَهِيَ جَمَاعَةُ الْبُيُوتِ، وَتُرِيدُ هُنَا: الْقَوْمُ الْحُلُولُ. وَالْجَلَالُ أَيْضًا: مَتَاعُ الْبَيْتِ، وَجَائِزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى الثَّانِي مَرَادًا هُنَا. وَعَدُوًّا: عَدَاً، وَهُوَ الْيَوْمَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ يَوْمِكَ، فَحِذِفْتَ لَاهُمُ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ تَامًّا إِلَّا فِي الشَّعْرِ. الْمِحَالُ: الْقُوَّةُ وَالشَّدَّةُ. (52) تَفَرَّدَ الْوَاقِدِيُّ بِزِيَادَةِ هَذَا الْبَيْتِ.

اللَّهُ يُحَدِّثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا» [الطلاق: 1]. إِنَّمَا الْمَطْلُوبُ أَنْ تُؤَدِّيَ وَاجِبَكَ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى عَزْمَةٍ قَوِيَّةٍ جِدًّا، وَإِرَادَةٍ عَازِمَةٍ نَبِيلَةٍ؛ كَيْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تُؤَدِّيَ وَاجِبَكَ وَإِنْ كُنْتَ فِي ظُرُوفٍ مَيُّوسٍ مِنْهَا، فَقَدْ كُنَّا، وَنَحْنُ فِي السَّجَنِ، نَرَى الْخُرُوجَ مِنْ بَابِ الزَّنْزَانَةِ أَمَلًا بَعِيدًا، وَلَكِنَّا كُنَّا نَسْتَحْضِرُ قَوْلَ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ: «... لَسْنَا يَأْسِينَ وَلَا يَتَطَرَّقُ الْيَأْسُ إِلَى قُلُوبِنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. وَكُلُّ مَا حَوْلَنَا يُبَشِّرُ بِالْأَمَلِ رُغْمَ تَشَاوُمِ الْمُتَشَائِمِينَ»⁽⁵³⁾. وَالْأَمَلُ هُوَ عُدَّةُ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ، وَبِخَاصَّةٍ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْمَيُّوسِ مِنْهَا، ففِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ كَتَبَ أ. سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَ «الْمُسْتَقْبَلُ لِهَذَا الدِّينِ»، وَمِمَّا قَالَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ: «فَمِنْ طَبِيعَةِ الْمَنْهَجِ الَّذِي يَرْسُمُهُ هَذَا الدِّينُ، وَمِنْ حَاجَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى هَذَا الْمَنْهَجِ، نَسْتَمِدُّ نَحْنُ يَقِينًا الَّذِي لَا يَتَزَعَّزَعُ، فِي أَنْ الْمُسْتَقْبَلَ لِهَذَا الدِّينِ، وَأَنَّ لَهُ دَوْرًا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ هُوَ مَدْعُوٌّ لِأَدَائِهِ - أَرَادَ أَعْدَاؤُهُ كُلَّهُمْ أَمْ لَمْ يُرِيدُوا - وَأَنَّ دَوْرَهُ هَذَا الْمُرْتَقِبُ لَا تَمْلِكُ عَقِيدَةٌ أُخْرَى - كَمَا لَا يَمْلِكُ مِنْهَجٌ آخَرُ - أَنْ يُؤَدِّيَهُ. وَأَنَّ الْبَشَرِيَّةَ بِجُمْلَتِهَا لَا تَمْلِكُ أَنْ تَسْتَغْنِي طَوِيلًا عَنْهُ»⁽⁵⁴⁾.

وَجَلِيٌّ أَنَا مَعْنِيُونَ فِي هَذَا الْكِتَابِ بِظُلَالِ كَلِمَاتِ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَيْسَتْ غَايَتُنَا أَنْ نَشْرَحَهَا شَرْحًا مُفَصَّلًا، وَلَا سِيَّمَا أَنْ إِخْوَةً كِرَامًا قَدْ سَبَقُونَا إِلَى تَنَاوُلِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ وَشَرْحِهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ، وَقَدْ خَصَّ الْعُلَمَاءُ (الْإِخْلَاصَ) بِدِرَاسَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَمِنْ ثَمَّ يَحْسُنُ لِمَنْ كَانَ مُسْتَزِيدًا عَنْ: مَعْنَى الْإِخْلَاصِ، وَفَضْلِهِ، وَضُرُورَتِهِ لِلْسَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالسَّاعِينَ إِلَى تَحْكِيمِ مَنْهَاجِهِ، وَخُطُورَةِ الرِّيَاءِ، وَالشَّهَوَاتِ الْخَفِيَّةِ؛ أَنْ يَقرَأَ كِتَابَ شَيْخِنَا الْجَلِيلِ د. يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ (النِّيَّةُ وَالْإِخْلَاصُ).

(53) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة دعوتنا، ص 144.

(54) سيد قطب: المستقبل لهذا الدين، ط (14)، دار الشروق، القاهرة، 1413 هـ - 1993 م، ص 8.



عَلَى أَنَّنَا نُؤَكِّدُ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ رَبَّى إِخْوَانَهُ عَلَى الْإِخْلَاصِ،
فَزَهَّدُوا فِي أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يُغْرِهِمْ مَنْصِبٌ أَوْ جَاهٌ أَوْ أَيْ عَرَضٌ
دُنْيَوِيٌّ؛ فَقَدْ أَرَادَ نِظَامُ عَبْدِ النَّاصِرِ أَنْ يُغَيِّرَ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ
بِعَرَضٍ زَائِلٍ؛ إِذْ عَرَضُوا عَلَيْهِ لَيْلَةً إِعْدَامِهِ أَنْ يُشِيرَ إِلَى أَيْ جَرِيدَةٍ مِنَ
الْجَرَائِدِ الْكُبْرَى فَيَكُونَ رَأْسَ تَحْرِيرِهَا، بَلْ جَاءَهُ رَأْسُ الْمُبَاحِثِ بِنَفْسِهِ،
وَطَلَبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: كَذَلِكَ فَعَلَ الشُّيُوعِيُّونَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَهُمْ
أَذَكَّى مِنْكُمْ يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُنَاوِرُونَ وَكَيْفَ يَخْدُمُونَ دَعْوَتَهُمْ، أَمَّا أَنْتُمْ فَلَا
تَعْرِفُونَ ذَلِكَ!

وَلَمْ يَكُنِ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ مِمَّنْ تَسْتَهْوِيهِ الْأَعْرَاضُ الزَّائِلَةُ، أَوْ
تَسْتَمِيلُهُمُ الْمُسَاوِمَاتُ عَنْ مَبَادِيئِهِمْ؛ فَقَدْ أَبَى أَنْ يَشْتَرِيَ الْحَيَاةَ بِشَمَنِ
مِنَ النِّفَاقِ وَالْخِيَانَةِ وَالْغِشِّ، وَرَفَضَ أَنْ يَرْضَى بِحَيَاةٍ يَرَاهَا دُونَ مَا يَلِيقُ
بِالشَّرَفِ وَالْمُرُوءَةِ. وَمَضَى الرَّجُلُ ثَابِتًا عَلَى مَوْقِفِهِ، مُتَرَفِّعًا عَنْ أَعْرَاضِ
الدُّنْيَا وَمَغْرِبَاتِهِ.

وَأَبَى الرَّجُلُ وَالْأَعْرَاضُ تَفَرُّقًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَتَنَاقُلًا، وَمَضَى وَهُوَ يَتَرَفَّعُ
وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِ نَصِيْبِهِ الَّذِي لَا يَفُوتُ.

كَمَا أَرَادَ الْإِمَامُ الْبَنَّا بُرْكَانَ (الْإِخْلَاصِ) أَنْ يَحْمِيَ الْإِخْوَانَ مِنْ
أَنْفُسِهِمْ، كَيْ لَا يُغْتَالَ الصَّفُّ؛ بِمَعْنَى أَنْ الْأَخَ قَدْ يَبْدَأُ الْعَمَلَ مُخْلِصًا لِلَّهِ ثُمَّ
يَنْتَهِي بِالْعَمَلِ لِنَفْسِهِ، وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ نَلْحَظُهَا كَثِيرًا؛ إِذْ نَجِدُ الْأَخَ فِي بَدَايَاتِهِ
عَامِلًا لِلدَّعْوَةِ قَاصِدًا غَايَتَهَا، ثُمَّ نَرَاهُ فَجَاءَةً يَتَنَكَّبُ الْغَايَةَ، فَيَقْصِدُ بِعَمَلِهِ
غَايَاتٍ أُخْرَى غَيْرَ غَايَةِ الدَّعْوَةِ، يَبْدَأُ بِالْعَمَلِ لِلَّهِ وَيَنْتَهِي بِالْعَمَلِ لِنَفْسِهِ،
وَقَدْ حَذَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ ذَلِكَ وَدَعَا إِلَى الْإِبْتِعَادِ عَنْ تَصَدُّرِ الْمَجَالِسِ
وَحَمْلِ أَفْخَمِ الْأَلْقَابِ، وَالظُّهُورِ بِأَفْخَمِ الْمَظَاهِرِ، وَقَالَ لَسْتُ مِنَّا وَلَسْنَا
مِنْكَ وَإِنْ تَصَدَّرْتَ فِينَا أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَسَوْفَ يَحْأَسِبُكَ اللَّهُ عَلَى قَعُودِكَ

هَذَا حِسَابًا عَسِيرًا، وَهَذَا كُلُّهُ يُنَافِي مَعْنَى الْإِخْلَاصِ، وَكَانَ يُؤَكِّدُ دَائِمًا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: 7، 8]، وَيُعَلِّمُ إِخْوَانَهُ دَائِمًا أَنَّ الْخَفِيَّ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ خَيْرٌ مِنَ الظَّاهِرِ؛ كَمَا يَعْلَمُهُمْ أَنَّ عَمَلَ الْقَلْبِ أَهَمُّ مِنْ عَمَلِ الْجَارِحَةِ، وَإِنْ كَانَ تَحْصِيلُ الْكَمَالِ فِي كِلَيْهِمَا مُطْلُوبًا شَرْعًا.

وَالصَّفُّ بِخَيْرٍ مَا أَخْلَصَ أَبْنَاؤُهُ الْعَمَلَ لِلَّهِ تَعَالَى، وَابْتَعَوْا مَرْضَاتَهُ؛ فَإِذَا ضَعُفَ الْإِخْلَاصُ فِي نَفُوسِ الْإِخْوَةِ أَوْ حَتَّى فِي نَفُوسِ بَعْضِهِمْ، اغْتِيلَ الصَّفُّ؛ حَيْثُ تَكَثَّرَ فِيهِ الْانْقِسَامَاتُ وَالْانْشِقَاقَاتُ، وَيَدْبُ الْخِلَافُ بَيْنَ الْقُلُوبِ، وَلِذَلِكَ دَعَا الْإِمَامُ الْبَنَّا كُلَّ أَحَدٍ فِينَا إِلَى أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِمَعَانِي الْإِخْلَاصِ، وَبِمَا يُحَقِّقُ فِيهِ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَمِمَّا يُؤَثِّرُ عَنْهُ قَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ مَظْهَرٌ إِدَارِيٌّ لِّغَايَةِ رُوحِيَّةٍ»، وَمَا أَكْثَرَ مَا ذَكَرَ إِخْوَانَهُ بِأَنَّهُمْ دُعَاءُ تَرْبِيَةٍ، وَأَنَّ تَرْبِيَةَ النَّفْسِ هِيَ أَصْعَبُ مَرَاكِلِ التَّرْبِيَةِ. وَلَيْسَ يَخْفَى أَثَرُ النِّشَاءِ الصُّوفِيَّةِ لِلْإِمَامِ الْبَنَّا فِي دَعْوَتِهِ إِلَى الْإِخْلَاصِ وَحِرْصِهِ عَلَيْهِ، وَتَقْدِيمِ عَمَلِ الْقُلُوبِ عَلَى عَمَلِ الْجَوَارِحِ، بَلْ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ نِظَامَ الْجَمَاعَةِ فِي بَعْضِ مَرَاكِلِهَا صُوفِيٌّ بَحَثٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَيَقْصِدُ بِهِ حُسْنَ الصَّلَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى (55).

وَامْتَاخَ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبِ الْمَعِينِ ذَاتِهِ فَقَالَ: كُلُّ أَمْرٍ خَطِيرٍ يَحْتَاجُ إِلَى حَيَاةٍ مَوْضُولَةٍ بِاللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُعِينُ الْأَخَّ عَلَى الْأَلْفِ يَلْتَفِتَ أَبَدًا إِلَى غَيْرِ نَصِيْبِهِ الَّذِي لَا يَفُوتُ، وَهُوَ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرِّضَا وَالْمَتَاعِ، بَعِيدًا عَنِ تَصَدُّرِ الْمَجَالِسِ أَوْ الظُّهُورِ بِأَكْبَرِ الْمَظَاهِرِ، وَحَمَلِ أَفْخَمِ الْأَلْقَابِ.

(55) وَصَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَحِلَةَ التَّكْوِينِ بِهَذَا الْوَصْفِ، فَقَالَ: «التَّكْوِينُ: بِاسْتِخْلَاصِ الْعُنَاوَاتِ الصَّالِحَةِ لِحَمْلِ أَعْيَانِ الْجِهَادِ، وَضَمِّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ، وَنِظَامُ الدَّعْوَةِ (فِي هَذِهِ الْمَرَحِلَةِ) صُوفِيٌّ يَحْتَمِلُ مِنَ النَّاحِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَعَسْكَرِيٌّ يَحْتَمِلُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَشِعَارُ هَاتَيْنِ النَّاحِيَتَيْنِ (أَمْرٌ وَطَاعَةٌ) مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا مُرَاجَعَةٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا حَرْجٍ». حَسَنُ الْبَنَّا: مَجْمُوعَةُ رِسَالَتِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، ص 275.



رُكْنُ الْعَمَلِ

الْعَمَلُ رُكْنُ الْأَرْكَانِ

أَمَّا رُكْنُ (الْعَمَلِ) فَهُوَ وَاسِطَةُ الْعِقْدِ فِي بَيْعَتِنَا؛ لِأَنَّ دَعْوَتَنَا فِي حَقِيقَتِهَا وَجْوهٌ بِهَا بَيْعَةٌ عَلَى الْعَمَلِ، ثُمَّ لِأَنَّ بَقِيَّةَ الْأَرْكَانِ خَادِمَةٌ لِرُكْنِ (الْعَمَلِ)، فَهِيَ إِمَّا مُقَدِّمَةٌ لَهُ أَوْ شَرْطٌ لِقَبُولِهِ، كَمَا قُلْنَا فِي رُكْنِي (الْفَهْمِ وَالْإِخْلَاصِ)، أَوْ وَسِيلَةٌ لِانْضِبَاطِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، وَتَحْقِيقِ الْغَايَةِ مِنْهُ، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ عَلَى بَقِيَّةِ الْأَرْكَانِ الْعَشْرَةِ، فَالْفَهْمُ وَالْإِخْلَاصُ شَرْطَانِ لِقَبُولِ الْعَمَلِ، وَمِنْ ثُمَّ سَبْقَاهُ فِي تَرْتِيبِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، وَبَقِيَّةُ الْأَرْكَانِ شُرُوطٌ لِإِحْسَانِ الْعَمَلِ وَإِجَادَتِهِ وَإِخْرَاجِهِ فِي أَفْضَلِ صَوْرَةٍ، وَمِنْ ثُمَّ جَاءَتْ تَالِيَةٌ لِرُكْنِ (الْعَمَلِ).

وَصَحِيحٌ أَنَّنَا أَكَدْنَا أَهَمِّيَّةَ رُكْنِي [الْفَهْمِ وَالْإِخْلَاصِ] لِقَبُولِ أَيِّ عَمَلٍ. لَكِنْ أَيْكُفِي الْفَهْمُ مَهْمَا كَانَ جَيِّدًا نَاضِجًا دُونَ عَمَلٍ؟، وَأَيْنَ يَتَحَقَّقُ الْإِخْلَاصُ أَوْ يُخْتَبَرُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَمَلٌ؟!

أَلَا فَلْيَعْلَمْ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ بِأَنْ نُحْسِنَ فَهْمَ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِأَنْ نُجِيدَ تَنْزِيلَ فَهْمِنَا عَلَى أَرْضِ الْوَاقِعِ، وَقَدْ وَصَفَتْ أَمْنًا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهَا: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»⁽⁵⁶⁾؛ أَيُّ أَنَّ سِيرَتَهُ وَسُلُوكَهُ وَمُعَامَلَاتِهِ كَانَتْ تَجَسِّدًا لِلْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي أُرْسِلَ بِهِ، وَلَمْ يَكْتَفِ النَّبِيُّ ﷺ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَتَفْهِيمِهِ أَوْ تَفْسِيرِهِ لِصَحَابَتِهِ الْكَرَامِ.

(56) عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ بْنِ عَامِرٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْبِئِي عَن خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فَقَالَتْ: «أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟». فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَتْ: إِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي [الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ] (308)، وَأَحْمَدُ (24601) بِاخْتِلَافٍ يَسِيرٍ.

وَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ بَارِعًا فِي تَرْجَمَةِ الْأَفْكَارِ وَالْمَعَانِي إِلَى أَعْمَالٍ وَأَعْمَالٍ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ الْقَائِدِ الْمُحَوَّرِيِّ، وَقَدْ كَانَ يَرَى أَنَّ الْفَهْمَ وَحْدَهُ بِلا عَمَلٍ لَا يُجْدِي نَفْعًا وَلَا يُحَقِّقُ غَايَةً، وَأَنَّ الْعَمَلَ بِلا فَهْمٍ إِنَّمَا هُوَ جُهْدٌ مُبَعَثَرٌ، وَأَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ بِطَبِيعَتِهَا مَيَّالَةٌ لِأَنَّ تَرَى الْفِكْرَةَ مُثَلَّةً فِي الْوَاقِعِ، مُتَرْجَمَةً فِي حَيَاةٍ مُبْلُورَةٍ فِي مُجْتَمَعٍ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ وَأَقْعِي لَا مَكَانَ فِيهِ لِأَبْطَالِ الْمَلَاحِمِ وَصَّانِعِي الْمُعْجَزَاتِ، وَأَنَّ أَنْتَظَارَ الْخَوَارِقِ إِنَّمَا هُوَ شُعُورٌ بِالْعَجْزِ، وَإِنَّمَا يَحْكُمُنَا مَا يَحْكُمُ غَيْرَنَا مِنْ قَوَانِينِ الْحِدِّ وَالْعَمَلِ، فَكَانَ يَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَحْقِيقِ الْفِكْرَةِ بِعَمَلٍ مُحَدَّدٍ الْبِدَايَاتِ وَاضِحٍ النِّهَايَاتِ.

وَلِذَلِكَ وَضَعَهُ ضَمْنَ مَجَالِ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَمَا وَضَعَ أَهْدَافًا قَرِيبَةً وَأَهْدَافًا أُخْرَى بَعِيدَةً، فَالْأَهْدَافُ الْقَرِيبَةُ هِيَ (إِصْلَاحُ نَفْسِكَ، وَتَكْوِينُ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَإِرْشَادُ الْمَجْتَمَعِ)، وَهِيَ وَاجِبٌ كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى حَدِّهِ، وَلِذَا جَعَلَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي إِطَارِ الْمُسْتَطَاعِ.

وَالْأَهْدَافُ الْبَعِيدَةُ هِيَ (إِصْلَاحُ الْحُكُومَةِ، وَتَحْرِيرُ الْوَطَنِ مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ أَجْنَبِيٍّ، وَإِعَادَةُ الْكِيَانِ الدَّوْلِيِّ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِإِعَادَةِ الْخِلَافَةِ وَأُسْتَاذِيَّةِ الْعَالَمِ بِنَشْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فِي رُبُوعِهِ)، وَهَذِهِ الْأَهْدَافُ وَاجِبُ الْجَمَاعَةِ كَهَيْئَةٍ مُتَّحِدَةٍ عَامِلَةٍ؛ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْمُسْلِمُ بِمُفْرَدِهِ.

وَيُؤَكِّدُ د. عَبْدُ الْمَجِيدِ النَّجَّارُ أَنَّ الْفَهْمَ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي دُونَ عَمَلٍ، فَيَقُولُ: «وَالْمَرْحَلَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ التَّدِينِ، هِيَ مَرَحَلَةُ التَّنْزِيلِ، وَنَعْنِي بِالتَّنْزِيلِ صَيْرُورَةَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي وَقَعَ تَمَثُّلُهَا فِي مَرَحَلَةِ الْفَهْمِ، إِلَى نَمَطٍ عَمَلِيٍّ، تَجْرِي عَلَيْهِ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ فِي الْوَاقِعِ، عَقِيدَةٌ مُوجَّهَةٌ لِجَمِيعِ مَنَاشِطِ الْإِنْسَانِ، فِي وَحْدَةٍ وَتَنَاسُتٍ، وَسُلُوكًا فَرْدِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا، يَنْبَثِقُ مِنْ

تِلْكَ الْعَقِيدَةُ، لِيُوجَّهَ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ شِعَابِهَا، وَجَهَةٌ تَكُونُ فِيهَا جَارِيَةٌ وَفَقَ حَقِيقَةُ الدِّينِ وَهِدَايَتِهِ.

وَإِذَا كَانَ فَهْمُ الدِّينِ هُوَ الْأَسَاسُ فِي التَّدِينِ، فَإِنَّ تَنْزِيلَهُ فِي وَاَقِعِ الْحَيَاةِ هُوَ الثَّمَرَةُ الْمُبْتَغَاةُ مِنْ أَصْلِ الدِّينِ، وَهُوَ لِذَلِكَ يُمَثَّلُ فِي التَّدِينِ الْمَرَحَلَةُ الَّتِي تُكْمِلُ مَرَحَلَةَ الْفَهْمِ، وَتَبْلُغُ بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْغَايَةِ مِنْ نُزُولِهِ. وَلَعَلَّ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي يَتَبَوَّأُهَا التَّنْزِيلُ فِي الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ لَا تُدَانِيهَا فِي الْأَهَمِّيَّةِ مَنْزِلَةُ فِي أَيِّ دِينٍ، أَوْ مَذْهَبٍ فِلْسَافِيٍّ آخَرَ، سَوَاءً مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ الْمِعْيَارِيَّةُ، أَوْ مِنْ حَيْثُ الشُّمُولُ فِي مَجَالَاتِ التَّنْزِيلِ. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْخَلَلَ الَّذِي يَطْرَأُ فِي تَنْزِيلِ الدِّينِ عَلَى وَاَقِعِ الْحَيَاةِ، يُؤَدِّي مِنْ طَرَفٍ قَرِيبٍ فِي عَصِيَانِ الْأَحْكَامِ، إِلَى الْمُرُوقِ مِنَ الْإِسْلَامِ، كَمَا رَأَاهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْمُعْتَرِزَةِ وَالْخَوَارِجِ، وَهُوَ يُؤَدِّي عِنْدَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَضْعِ إِيْمَانِيٍّ شَدِيدِ الضَّعْفِ يَكَادُ لَا يُغْنِي فِي مِيزَانِ الدِّينِ شَيْئًا» (57).

وَلَا أَهَمِّيَّةَ هَذَا الرُّكْنَ وَمَرْكَزِيَّتِهِ، تَجِدُ الْإِمَامَ الْبَنَّا يَسْتَوْعِبُ فِيهِ - عَلَى وَجَارَتِهِ - غَايَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَجِدُهَا مُجْمَلَةً فِي تَعْرِيفِهِ (الْعَمَلِ) الْمَنُوطِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ بِوَصْفِهِ الثَّمَرَةُ الْمَرْجُوءَةُ مِنَ الْفَهْمِ الشَّامِلِ، وَالْإِخْلَاصِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهِ أَبْنَاءُ الصِّفِّ، ثُمَّ تَجِدُهَا مَفْصَلَةً فِي مَرَاتِبِ ذَلِكَ (الْعَمَلِ) وَخُطَوَاتِهِ الَّتِي تَبْدَأُ مِنْ إِصْلَاحِ الْفَرْدِ، وَتَنْتَهِي بِأُسْتَاذِيَّةِ الْعَالِمِ، وَمَا يَجِبُ مِنْ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ عَلَى الْأَخِ مُنْفَرِدًا، وَمَا يَجِبُ مِنْهَا عَلَى الْجَمَاعَةِ، أَيْ أَنَّهُ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِعَمَلِ جَمَاعِيٍّ مُنْظَمٍ، وَيَحْسُنُ أَنْ نَضَعَ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ رُكْنِ (الْعَمَلِ) بَيْنَ يَدَيِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ. يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَأُرِيدُ بِالْعَمَلِ: ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَالْإِخْلَاصِ: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةُ فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿التوبة: 105﴾ .

وَمَرَاتِبُ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْأَخِ الصَّادِقِ:

- 1 - إِصْلَاحُ نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ: قَوِيَّ الْجِسْمِ، مَتِينُ الْخُلُقِ، مُثَقَّفَ الْفِكْرِ، قَادِرًا عَلَى الْكَسْبِ، سَلِيمَ الْعَقِيدَةِ، صَحِيحَ الْعِبَادَةِ، مُجَاهِدًا لِنَفْسِهِ، حَرِيصًا عَلَى وَقْتِهِ، مُنَظَّمًا فِي شُؤُونِهِ، نَافِعًا لِغَيْرِهِ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ كُلُّ أَخٍ عَلَى حَدِّتِهِ.
 - 2 - وَتَكْوِينُ بَيْتٍ مُسْلِمٍ، بِأَنْ يَحْمِلَ أَهْلَهُ عَلَى احْتِرَامِ فِكْرَتِهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى آدَابِ الْإِسْلَامِ فِي مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ، وَحُسْنِ اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ، وَتَوْقِيفِهَا عَلَى حَقِّهَا وَوَاجِبِهَا، وَحُسْنِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ، وَالْخِدْمِ وَتَنْشِئَتِهِمْ عَلَى مَبَادِيِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ كُلُّ أَخٍ عَلَى حَدِّتِهِ كَذَلِكَ.
 - 3 - وِإِزْشَادُ الْمُجْتَمَعِ، بِنَشْرِ دَعْوَةِ الْخَيْرِ فِيهِ، وَمُحَارَبَةِ الرِّذَائِلِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَتَشْجِيعِ الْفَضَائِلِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْمَبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَكَسْبِ الرَّأْيِ الْعَامِّ إِلَى جَانِبِ الْفِكْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَصَبْغِ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ بِهَا دَائِمًا، وَذَلِكَ وَاجِبٌ كُلُّ أَخٍ عَلَى حَدِّتِهِ، وَوَاجِبٌ الْجَمَاعَةُ كَهَيْئَةٍ عَامِلَةٍ.
 - 4 - وَتَحْرِيرُ الْوَطَنِ؛ بِتَخْلِيصِهِ مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ أَجْنَبِيٍّ - غَيْرِ إِسْلَامِيٍّ - سِيَاسِيٍّ أَوْ اقْتِصَادِيٍّ أَوْ رُوحِيٍّ.
 - 5 - وِإِصْلَاحُ الْحُكُومَةِ حَتَّى تَكُونَ إِسْلَامِيَّةً بِحَقٍّ، وَبِذَلِكَ تُؤَدِّي مُهِمَّتَهَا كَخَادِمٍ لِلْأُمَّةِ وَأَجِيرٍ عِنْدَهَا، وَعَامِلٍ عَلَى مَصْلَحَتِهَا، وَالْحُكُومَةُ إِسْلَامِيَّةٌ مَا كَانَ أَعْضَاؤُهَا مُسْلِمِينَ مُؤَدِّينَ لِفَرَائِضِ الْإِسْلَامِ غَيْرِ مُتَجَاهِرِينَ بِعَصْيَانٍ، وَكَانَتْ مُنْفَذَةً لَأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَتَعَالِيمِهِ.
- وَلَا بِأَسَّ أَنْ نَسْتَعِينُ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ فِي غَيْرِ مَنَاصِبِ الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ، وَلَا عِبْرَةَ بِالشَّكْلِ الَّذِي تَتَّخِذُهُ وَلَا بِالنَّوْعِ، مَا دَامَ مُوَافِقًا

للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.
وَمِنْ صِفَاتِهَا: الشعور بالتبعية، والشفقة على الرعية، والعدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه.

وَمِنْ وَاجِبَاتِهَا: صيانته الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر التعليم، وإعداد القوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراسته المال، وتقوية الأخلاق، ونشر الدعوة.

وَمِنْ حَقِّهَا - متى أدت واجبها -: الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال. فإذا قصرت: فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

6 - إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافتها، وجمع كلمتها، حتى يؤدي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

7 - وأستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [أنفال: 39]، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة المتحدة، وعلى كل أخ باعتبار عضواً في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها الناس خيالاً ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نياس أبداً، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]» (58).

في هذه الكلمات الوجيزة يلخص الإمام البنا رحمه الله مشروع (الإخوان المسلمين)، وما يتبعه ذلك المشروع الإسلامي الصميم من إصلاح:

الفرد، والبيت، والمجتمع، والحكومة، والأمة، ثم أستاذية العالم، بل يُلخص قبل ذلك مهمّة الإسلام، التي غفل عنها المسلمون، وقد جعل الإمام البنا هذا الركن مراتب وخطوات متدرّجة، ممّا جعل (ريتشارد ميتشل) يصفه بأنه أوّل داعية إسلامي يرتّب العمل خطوات، ويوضّحها هذا التوضيح ويفصلها هذا التفصيل، ويجعل لكلّ فرد واجبات يؤدّيها على حدّته، ويفرد واجبات أخرى لا تتم ولا تؤدّي إلا بعمل جماعي (دور الجماعة كهيئة عاملة)، وهذا ما تطلّع به الجماهير المسلمة التي تتحقّق بها (الهيبة والوفرة)؛ ومعنى ذلك أن ثمة جهوداً ذاتية يقوم بها الأخ وحده، وجهوداً لا يستطيع أيّ أخ أن ينهض بها منفرداً، ولا تتحقّق إلا بجمهور متساند متعاوّد (العمل الجماعي).

ولا بُدّ لهذا الجهد الجماعي أن يكون وفق بيعة (على عمل) يُنجز وفق خطط مُحكمة، وخطوات مُرتبة متدرّجة، وتلك سنة رُسل الله والدعاة إليه؛ فلم يعرف التاريخ رجلاً فاق رسول الله ﷺ في إحكام خطّطه، وإحسانه في تقدير كلّ خطوة تؤدي إلى التي تليها، فما أضع رسول الله ﷺ لحظة دون استثمارها في سبيل الدعوة إلى الله تعالى؛ فمَنْذُ أَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَى أَنْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تُؤَدِّي إِلَى تَالِيَتِهَا؛ حَتَّى (هُرُوبُهُ فِي الصَّحَرَاءِ) مِنْ أَعْدَائِهِ الْمُصْرِيِّينَ عَلَى قَتْلِهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]. حَتَّى ذَلِكَ الْهَرُوبُ، وَهُوَ مِنْ (رُثُوشٍ) هَذِهِ الرِّحْلَةُ الشَّاقَّةَ (كَمَا يَقُولُونَ)؛ كَانَ يَجْرِي وَفْقَ خُطَّةٍ مُحْكَمَةٍ.

حَتَّى ثِيَابُ الْهَجْرَةِ الَّتِي تَعَفَّرَتْ وَتَغَبَّرَتْ خِلَالَ الرِّحْلَةِ الشَّاقَّةِ فِي الصَّحَرَاءِ، يُغَيِّرُهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، فَيَلْقَى الْأَنْصَارَ

بشباب بيض ناصعة، كي يعلموا - كما يقول الأستاذ سيد قطب - أن ما ينتظرهم ما هو إلا مستقبل مشرق؛ وكان ذلك ممّا وقع في الطريق إلى المدينة؛ فعن عروة بن الزبير: «أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بياضاً» (59).

وكذا روى أصحاب السير أن طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشام وكساهما بعض الثياب (60). فلما أراد رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة دخلها في صمتٍ ووقارٍ وفي ضحوة من نهارٍ.

بهذا الترتيب الذي وضعه رسول الله ﷺ لرحلة الهجرة، غير غافل عن مثل هذه [الرتوش]؛ يؤكد نبينا ﷺ أن الخطط المحكّمة الخطوات، المرتبة اللحظات؛ بحيث تؤدي كل خطوة إلى التي تليها، فلا وقت للضياع، فقد كان ﷺ يدرك من أول يوم بعث فيه أن الله تعالى اصطفاه لينجح، وليس ثمة احتمال لسقوط.

والإمام البنا رحمه الله قارئ جيد لسيرة المصطفى ﷺ، واع بما فيها من دروس وعبر، وقد اهتمت من تلك السيرة العطرة إلى أن يكون كل شيء مرتباً، وألا يترك شيء للظروف والمصادفات، وهذا ما أكدّه رحمه الله في أهم رسالة من رسائله، وهي (رسالة المنهج)، حيث يقول: «طريق الإخوان مرسومة محدودة، معروفة المراحل والخطوات، ليست متروكة للظروف والمصادفات، ومراحل هذه الطريق ثلاث: التعريف، والتكوين، والتنفيذ، أو الدعوة العامة، ثم الدعوة الخاصة، ثم العمل أو تغيير العرف

(59) أخرجه البخاري (3906).

(60) انظر د. محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ط 2، دار القلم - بيروت، 1412 هـ -

1992 م، 1 / 495.

الْعَامِّ، ثُمَّ الْإِعْدَادُ، ثُمَّ الْإِتْمَامُ... إلخ»⁽⁶¹⁾، بَلَّحَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، كَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا فِي [رِسَالَةِ الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ].

وَتَمَّةٌ حَقِيقَةٌ لَا بُدَّ مِنْ تَأْكِيدِهَا لِكَيْ تُتِمَّ بِهَا مَا بَدَأْنَاهُ مِنَ الْحَدِيثِ حَوْلَ الْأَرْكَانِ، وَخُلَاصَةٌ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ: أَنَّ الدِّينَ - كَمَا هُوَ مَفْهُومٌ وَمَعْلُومٌ بِدَاهَةٍ - جُمْلَةٌ تَعَالِيمِ الْوَحْيِ الْمُنْزَلِ الْمَعْصُومِ، وَأَنَّ التَّدِينَ هُوَ انْفِعَالُ الْإِنْسَانِ بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ فِي حَيَاتِهِ، عَنْ إِرَادَةٍ وَرَغْبَةٍ وَاسْتِجَابَتِهِ لَهُ لِيُغَالِبَ بِهَا الْعَوَائِقَ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَعِنَادِ الْبَيْئَةِ، وَتُسَلِّمُنَا هَذِهِ الْحَقِيقَةُ إِلَى بَابٍ مُهِمٍّ يَتَّصِلُ بِالْعَمَلِ، وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ غُمُوضًا؛ عَنِيتُ مَا تَعْلَقُ (بِالتَّكْلِيفِ الْإِلَهِيِّ لِلبَشَرِ، بِمَعْنَى مَا يَقَعُ فِي مَقْدُورِ الْمُكَلَّفِ، وَهُوَ لِهَذَا مِنْ أَكْثَرِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ غُمُوضًا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَخْلِطُ بَيْنَ مَا هُوَ وَاجِبٌ فِي حَقِّ الْفَرْدِ، وَمَا هُوَ مَرْهُونٌ بِوُجُودِ الْأُمَّةِ أَوْ الْمُجْتَمَعِ وَالسَّلْطَانِ ذِي الشُّوْكَةِ، فَيَخْلِطُ فِي التَّكَالِيفِ أَوْ فِي الْوَاجِبَاتِ الْمُنَاطَةِ بِهِ أَوْ كَمَا يُسَمُّونَهَا مَا وَقَعَ فِي مَقْدُورِ الْمُكَلَّفِ، وَلِذَلِكَ انْتَبَهَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى؛ وَجَعَلَ رُكْنَ (الْعَمَلِ) سَبْعَ مَرَاتِبٍ؛ لِكَيْ يُفَصِّلَ هَذَا الْغُمُوضَ الَّذِي يَكْتَنِفُ مِثْلَ هَذَا التَّكْلِيفِ، فَيُوقِعُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْعَنِتِّ الَّذِي يَلْحَقُ بِالْفَرْدِ وَالْأُمَّةِ كَذَلِكَ، حِينَ يَحْدُثُ نَوْعٌ مِنَ الْأَشْتِبَاهِ فِيمَا يَقُومُ بِهِ الْفَرْدُ وَمَا تَقُومُ بِهِ الْأُمَّةُ، أَوْ مَا يَقُومُ بِهِ الْمُجْتَمَعُ ذُو السَّلْطَانِ.

فَالشَّعَائِرُ مِثْلًا مُنَاطَةٌ بِالْفَرْدِ الْمُكَلَّفِ مِثْلَ: الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا؛ لَكِنَّ تَنْفِيزَ الْأَحْكَامِ مِثْلَ: إِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَحِمَايَةِ الثُّغُورِ، وَصِيَانَةِ الْأَمْنِ وَإِنْفَازِ الْقَانُونِ، وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَتَقْوِيَةِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ الْمَالِ الْعَامِّ وَصِيَانَتِهِ؛ مَسْئُولِيَةُ الْفَرْدِ تَجَاهَ أُمَّتِهِ؛ أَيْ أَنَّ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ لَا تَحَقِّقُ إِلَّا

(61) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 248.



بتضافر جهود الفرد والمجتمع والحكومة أو الدولة والسلطان، ولا يستطيع أي فرد أن ينهض بها وحده.

ومن ثم عني الإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ خلال ركن (العمل) بالحكومة ودورها، فأشار إلى صفات الحكومة الصالحة، وواجباتها: الشعور بالتبعية، والشفقة على الرعية، والعدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه؛ فهذه أمور تُكَلِّفُ بها الأمة والسلطان ذو الشوكة، ولكن يظل شمول الخطاب الإلهي للمكلف لا يعفي الفرد من مسؤوليته تجاه ذلك، إنه مطالب أن يقوم بما يحقق ذلك الواجب فيحقق الأمة بالاجتماع، والأمة تحقق وجود السلطان، حتى تنقذ بعد ذلك مثل هذه التكاليف. وقد تكون هذه التكاليف بعيدة عن حق الفرد ولكنه مسؤول عنها بصفته الشخصية؛ فهو مسؤول عن إقامتها، وإن كان لا يستطيع أن يقيمها لوحده، وإن حاول إقامتها منفرداً، فإنه يوقع الأمة والمجتمع في حرج وعنت كبيرين مثلما حدث مع الجماعات الإسلامية المعاصرة، عندما حاول بعضهم أن يطبق بعض الأحكام، وبعض الحدود وغير ذلك متصورين أنه يحق لهم ذلك، بوصفهم أفراداً في جماعة مسلمة، أو عصابة مسلمة أو فصيل إسلامي، ومن ثم وقَعُوا في إغناات أنفسهم إغنا شديداً، بل أعتوا مجتمعهم وأمتهم كذلك.

وما أوقعهم في ذلك العنت إلا أنهم لم يفرقوا بين الواجبات الفردية والواجبات الاجتماعية، ويحمد للإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ أنه فصل لإخوانه الفرق بين المهمتين، فجنبهم مثل هذا الانحراف، ونحن نلاحظ هذا التفصيل في ركن (الفهم) بأصوله العشرين، كما فصل مراتب العمل السبعة، ولم يتركها لكل أخ يجتهد، ولا يعلم إلا الله وحده عواقب اجتهاذه إن أخطأ الفهم، أو لم يراع التدرج في الخطوات.

وَيَبْدُو أَنَّ الْإِمَامَ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَدْرِكَ إِخْوَانُهُ الْفَرْقَ الْجَلِيَّ بَيْنَ مَهْمَةِ الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ، وَمَهْمَةِ الْمَجْتَمَعِ وَالْأُمَّةِ، حَتَّى لَا تَنْحَرِفَ الدَّعْوَةُ فَيَخْلِطَ أَبْنَاؤُهَا بَيْنَ الْمُهِمَّتَيْنِ، وَمِنْ ثَمَّ نَرَاهُ يَفْرُقُ بَيْنَهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ رَسَائِلِهِ، وَتَحْدِيدًا رِسَالَةً «إِلَى أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ»، وَهُوَ يَشْرَحُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: 77]، مُبَيِّنًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حَدَدَتْ مَهْمَةَ الْمُسْلِمِ؛ وَتَضَمَّنَتْ الْوَاجِبَاتِ الْفَرْدِيَّةَ، وَالْوَاجِبَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةَ (الجماعية). وَقَدْ فَهِمَ الْإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ كَذَلِكَ أَنَّهَا جَعَلَتْ الْأَوَّلَى (التكاليف الفردية) مُقَدِّمَةً لِلثَّانِيَةِ (التكاليف الاجتماعية)، وَجَعَلَتْ الْعَقِيدَةَ أَسَاسًا لَهُمَا مَعًا، مِمَّا يَعْنِي أَنَّه لَا عُذْرَ وَلَا مَنَدُوحَةَ - فِيمَا يَرَى الْإِمَامُ الْبَنَا - لِأَنْ يَتَعَلَّلَ الْإِنْسَانُ، أَوْ يَعْتَذِرَ بِأَنَّهُ مَشْغُولٌ بِنَفْسِهِ عَنِ الْعَمَلِ لِلْمَجْمُوعِ، أَوْ أَنَّهُ مَشْغُولٌ بِالْعَمَلِ لِلْمَجْمُوعِ عَنِ الْقِيَامِ بِحَقِّ نَفْسِهِ مِنْ فَرَائِضَ وَشَعَائِرَ، فَالْوَاجِبَانِ مُتَرَابِطَانِ يُكْمِلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ، وَهَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ الْإِمَامُ النَّبَا فِي هَذَا الصَّدَدِ: «ثُمَّ أَوْضَحَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّاسِ بَعْدَ ذَلِكَ الرِّابِطَةَ بَيْنَ التَّكَالِيفِ مِنْ صَلَاةٍ وَصَوْمٍ بِالتَّكَالِيفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَنَّ الْأَوَّلَى وَسِيلَةٌ لِلثَّانِيَةِ، وَأَنَّ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ أَسَاسُهُمَا مَعًا، حَتَّى لَا يَكُونَ لَأَنَاسٍ مَنَدُوحَةٌ مِنَ الْقُعُودِ عَنْ فَرَائِضِهِمُ الْفَرْدِيَّةِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ لِلْمَجْمُوعِ، وَحَتَّى لَا يَكُونَ لِآخَرِينَ مَنَدُوحَةٌ مِنَ الْقُعُودِ عَنِ الْعَمَلِ لِلْمَجْمُوعِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ بِعِبَادَاتِهِمْ مُسْتَغْرِقُونَ فِي صَلَاتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، فَمَا أَدَقُّ وَمَا أَحْكَمُ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟

«أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: عِبَادَةُ رَبِّكُمْ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ التَّمَكِينِ لِدِينِكُمْ وَإِعْزَازِ شَرِيعَتِكُمْ هِيَ مُهِمَّتُكُمْ فِي الْحَيَاةِ، فَإِنْ أَدَيْتُمُوهَا حَقَّ الْأَدَاءِ فَأَنْتُمْ الْفَائِزُونَ، وَإِنْ أَدَيْتُمْ بَعْضَهَا أَوْ أَهْمَلْتُمُوهَا جَمِيعًا فَالْيُكُفُّ أَسْوَقُ قَوْلَ اللَّهِ



تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: 115-116] «(62).

وبذلك حلَّ الإمامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ إشكالًا كبيرًا جدًّا، يَضْطَرُّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، عِنْدَمَا يَسْتَغْرِقُهُ نَوْعٌ وَاحِدٌ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، أَوْ نَوْعٌ وَاحِدٌ مِنَ التَّكْلِيفِ؛ فإِذَا يَسْتَغْرِقُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْإِنْشَغَالِ بِنَفْسِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَوْ عُمُومُهُمْ يَقْعُونَ فِي مِثْلِ هَذَا الْفَهْمِ الْمُضْطَرِّبِ؛ فَيَنْسَوْنَ تَكْلِيفَ أُخْرَى. وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يُمَدُّ الْإِنْسَانَ بِالْعَافِيَةِ إِلَّا بِالْإِجْتِمَاعِ، وَالْقِيَامِ بِالتَّكْلِيفِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ، وَالْعَافِيَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَعْنِي أَمْنُ الْمُسْلِمِ وَاسْتِطَاعَتَهُ الْقِيَامَ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَلَا يَبْلُغُ الْمُسْلِمُ الْمُنْفَرِدُ الْعَافِيَةَ الْمَطْلُوبَةَ فِي دِينِهِ، وَإِنْ كَانَ صَالِحًا، وَلَا يُحَقِّقُ تِلْكَ الْعَافِيَةَ إِلَّا بِالْإِجْتِمَاعِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ مَرَاتِبَ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْأَخِ الْمُسْلِمِ تَبَدُّلًا بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ، وَتَتَدَرَّجُ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أُسْتَاذِيَةِ الْعَالَمِ.

أَوْهَامٌ لَحَقَتْ بِرُكْنِ الْعَمَلِ

ثمة أخطاءٌ في الفهم تتصلُّ بهذا الرُّكْنَ (الْعَمَلِ)، وَهِيَ مِنَ الْأَخْطَاءِ الَّتِي تُسَدُّ عَلَى الْمُسْلِمِ مَنَافِذَ التَّفْكِيرِ، وَمِنْهَا:

انفصالُ الإيمانِ عن قانونِ السَّبَبِيَّةِ

بمعنى أن مقدماتِ الْعَمَلِ غَيْرُ مُرْتَبِطَةٍ بِنَتَائِجِهِ، وَهَذَا وَهُمْ كَبِيرُ أَفْضَى إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَضْطِرَابِ وَالْعُشْوَانِيَّةِ وَالْإِزْتِجَالِ وَالتَّخْبُطِ؛ مِمَّا أَدَّى إِلَى الْهَزِيمَةِ وَالْإِخْفَاقِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَهُ أَسْبَابُهُ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى النَّاتِجِ، أَوْ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ تُؤَدِّي إِلَى النَّاتِجِ، أَوْ أَنَّهُ مُرْتَبِطٌ بِهَدَفٍ أَوْ غَايَةٍ مَا. إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ هُوَ حَرَكَةٌ لَهَا قَصْدٌ وَلَهَا هَدَفٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنْ

(62) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة: إلى أي شيء ندعو الناس، ص 44.



عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» (63).

فكُلُّ عَمَلٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَقَّرَ فِيهِ حَرَكَةٌ، وَيَكُونُ لَهَا هَدَفٌ وَقَصْدٌ، فَإِذَا انْفَصَلَ الْإِيمَانُ عَنِ قَانُونِ السَّبِيَّةِ؛ وَجِدَتْ مَظَاهِرُ خَلَلٍ كَثِيرَةٌ فِي مَسِيرَةِ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ، حَيْثُ تَظْهَرُ دَاخِلُ الصَّفِّ أَمْرَاضُ التَّوَاكُلِ، وَالرُّكُونِ إِلَى الدَّعَةِ فِي الْأَدَاءِ، وَالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ، وَهَذَا مِنْ جَوَانِبِ الضَّعْفِ فِي الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُعَاصِرِ، لِأَنَّ نَتِيجَةَ هَذَا الْخَلَلِ هِيَ الضِّيَاعُ، حَيْثُ يَكُونُ هُنَالِكَ عَمَلٌ رُوتِينِيٌّ، لَكِنَّهُ جُهْدٌ يُنْفَقُ، وَطَاقَةٌ تُهْدَرُ، وَوَقْتُ يُبَدَّدُ بِلا جَدْوَى!

وَقَدِيمًا قِيلَ: إِذَا تَأَخَّرَتِ الْعَوَاقِبُ عَنْ قَدْرِهَا الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهَا رُوجِعَتِ الْأَسْبَابُ وَرُوجِعَتِ الْمَفَاهِيمُ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَهُ عَاقِبَةٌ، وَلَهُ وَقْتُ تَتَحَقَّقُ فِيهِ النَتِيجَةُ، وَإِذَا تَأَخَّرَتِ الْعَوَاقِبُ عَنْ قَدْرِهَا الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهَا لَا بُدَّ مِنْ وَقْفَةٍ وَمُرَاجَعَةٍ، لِلْأَسْبَابِ أَوْ الْأَفْكَارِ وَالْمَبَادِي الَّتِي لَمْ تُهَيَّئْ لِحُدُوثِ الْعَوَاقِبِ، وَذَلِكَ مَا يُسَمِّيهِ الدَّكْتُورُ يُوسُفُ الْقَرْضَاوِيُّ «فِقْهَ الْعَاقِبَةِ» فِي كِتَابِهِ (أُولَوِيَّاتِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ).

وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ مَشْهُورٍ يَرْوِيهِ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، يَقُولُ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرِينَ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ

(63) أخرجه البخاري (1)، وأبو داود (2201) كلاهما بلفظه، ومسلم (1907) بلفظ مقارب.

الْحِيرَةَ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ - قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَارُ طَبِيعِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ؟! - وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَقْتَحَنَ كُنُوزُ كِسْرَى، قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَقْبَلَنَّ اللَّهُ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يَتَرَجِّمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ». وَهُوَ يَذْكُرُ لَهُ أَحَدًا سَوْفَ تَحْدُثُ وَتَظْهَرُ نَتَائِجُهَا فِي مَدَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، وَبَعْدَ مُرُورِ الزَّمَنِ: «قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوْنَ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ...» (64).

نتائج مُرتبطة بمقدماتٍ تَمَّتْ فِي أَوْقَاتٍ مُحَدَّدَةٍ الَّتِي هِيَ الْعَوَاقِبُ، فَعِنْدَمَا تَتَأَخَّرُ فَلَا بَدَّ أَنْ خَلَا مَا حَدَثَ أَدَّى إِلَى هَذَا التَّأخيرِ، وَهَذَا يَرْجِعُ بِنَا إِلَى ضَرُورَةِ الْمُرَاجَعَةِ وَالْمُحَاسَبَةِ وَتَصْحِيحِ الْخَطَأِ لِيَسْتَفِيدَ مِنَ الصَّوَابِ.

نُضْجُ الْإِرَادَةِ وَعَجْزُ الْقُدْرَةِ

هَذَا وَهُمْ آخِرُ مِنَ الْأَوْهَامِ أَوْ الْأَخْطَاءِ الَّتِي لَحِقَتْ رُكْنَ (الْعَمَلِ)، حَيْثُ تَكُونُ الْإِرَادَةُ نَاضِجَةً، وَلَكِنَّ الْأَدَاءَ الْحَقِيقِيَّ نَاقِصٌ أَوْ عَاجِزٌ عَنْ إِتِمَامِ الْعَمَلِ، وَالْبُلُوغُ بِهِ دَرَجَةَ الْكَمَالِ؛ مِمَّا يُورِثُ نَوْعًا مِنَ الْإِحْبَاطِ، وَنَوْعًا مِنَ الْيَأْسِ وَالْقُنُوطِ وَالتَّخَبُّطِ. وَأَحْسَبُ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدَّمَ

(64) أخرجه البخاري (3595)، ومُسلمٌ (1016).

حَالاً لِهَذِهِ الْمُشْكِلَةِ، عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنِ الْأُولَوِيَّاتِ أَوْ التَّدْرُجِ فِي الْمَرَا حِلِّ، فَيُتَّكَلِّفُ مُرْتَبِطٌ دَائِماً بِالْقُدْرَةِ وَمُرْتَبِطٌ بِالْإِسْتِطَاعَةِ، وَمُرْتَبِطٌ بِالطَّاقَةِ.

وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ خُطَوَاتِ الْعَمَلِ أَوْ مَرَاتِبَهُ مُتَدَرِّجَةً؛ لَكِنَّا نَسْتَشْرِفُ لِلنَّهَايَاتِ دَائِماً، وَهَذَا أَمْرٌ مُحْفُورٌ فِي أَذْهَانِنَا وَتَصَوُّرَاتِنَا لِلْأَسْفِ؛ فَنَحْنُ دَائِماً نَنْظُرُ إِلَى النِّهَايَاتِ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْمَرَا حِلِّ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَقْطَعَهَا لِنَصِلَ إِلَى النِّهَايَاتِ وَإِلَى النَّتَائِجِ، فَنَحْزَنُ لِأَنَّا لَمْ نَصِلْ إِلَى أَسْتَاذِيَةِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَكْثَرِ مَنْ تَسْعِينِ عَاماً مِنَ الدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَامَنَا فِيهِ مَرَا حِلٌّ كَثِيرٌ أَوْ وَاجِبَاتٌ كَثِيرَةٌ أَوْ أُولَوِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ يُغْذِي خُصُومَ الدَّعْوَةِ هَذَا التَّصَوُّرَ، حِينَ يَعْيُونَ عَلَى دَعْوَةِ (الْإِخْوَانِ) أَنَّهَا لَمْ تُحَقِّقْ غَايَتَهَا الْكُبْرَى بَعْدَ هَذِهِ السَّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ مِنْ نَشْأَتِهَا وَتَأْسِيسِهَا، وَجِهَادِهَا وَمَعَارِكِهَا فِي الْإِصْلَاحِ!

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَنْسَى أَبْنَاءُ الدَّعْوَةِ أَنَّ مَرَاتِبَ عَمَلِهِمْ مُتَدَرِّجَةٌ، يُسَلِّمُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، كَمَا رَتَّبَهَا الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ تَرْتِيبٌ مَنْطِقِيٌّ تَقْتَضِيهِ طَبَائِعُ الْأُمُورِ: التَّدْرُجُ فِي إِنْجَا زِ الْأَعْمَالِ، ابْتِدَاءً مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِكَ، وَتَكْوِينِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَإِرْشَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَتَحْرِيرِ الْوَطَنِ، وَإِصْلَاحِ الْحُكُومَةِ، وَإِعَادَةِ الْخِلَافَةِ، ثُمَّ أَسْتَاذِيَةِ الْعَالَمِ. فَهَذَا وَلَا شَكَّ نَوْعٌ مِنَ التَّدْرُجِ الَّذِي نَنْسَاهُ تَمَاماً وَنَحْنُ نَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ، وَنَنْسَى أَنَّ لَهُ مَرَا حِلٌّ وَأَنَّ لَهُ أُولَوِيَّاتٍ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي عِنْدَ اكْتِمَالِ كُلِّ مَرَحَلَةٍ أَنْ تُسَلِّمَ إِلَى الْمَرَحَلَةِ الَّتِي تَلِيهَا.

أَمَّا حَلُّ هَذَا الْإِشْكَالِ (نُضْجُ الْإِرَادَةِ وَعَجْزُ الْقُدْرَةِ)، فَهُوَ الْمُعَادَلَةُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ: «أَمَلًا يَوْمَكَ بِمَا فِي وَسْعِكَ يَمْنَحُكَ الْغَدُ وَسَعًا جَدِيدًا»، كَمَا يَقُولُ جُودَةُ سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ [الْعَمَلُ قُدْرَةٌ وَإِرَادَةٌ]: «وَمَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ الْيَوْمَ قَدْ يَكُونُ فِي الْغَدِ مُسْتَطَاعًا، بَلْ قَدْ تَتَجَاوَزُهُ الْإِسْتِطَاعَةُ، الْمُهْمُّ هُوَ

الْبَدْءُ فِي الْعَمَلِ مَعَ مُرَاعَاةِ التَّدْرُجِ وَالْأَوَّلِيَّاتِ وَالْمَرَاهِلِ..»، وَهُوَ أَمْرٌ لَيْسَ بِخَارِجٍ عَنِ الدِّينِ؛ إِنَّمَا هُوَ مُرْتَبِطٌ بِالتَّكْلِيفِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ التَّكْلِيفِ وَمَنَاطَهُ مُرْتَبِطٌ بِالْقُدْرَةِ وَالِاسْتِطَاعَةِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وَ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْعَامِلِينَ لِلدِّينِ بِحَاجَةٍ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْفِقْهِ يُبَصِّرُهُمْ بِالْمُوَازَنَةِ بَيْنَ الْمَوَاقِفِ فَيَعْرِفُونَ مَتَى يُقَدِّمُونَ وَمَتَى يَتَأَخَّرُونَ، كَمَا أَنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى فَهْمٍ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ، لِتَكُونَ مَعْيَارًا حَاكِمًا ضَابِطًا لِحَرَكَتِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ، وَقَرَارَاتِهِمْ، فَيَعْرِفُونَ مَتَى يَتَجَاوَزُونَ الْعَزِيمَةَ إِلَى الرُّخْصَةِ، وَهَذَا أَيْضًا جُزْءٌ مِنَ التَّكْلِيفِ إِذَا كَانَ فِي الْإِلْتِمَامِ بِالْعَزِيمَةِ تَفْوِيتٌ لِمَقْصِدٍ مِنَ مَقَاصِدِ الدِّينِ. وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ هُوَ رَفْعُ الْحَرَجِ عَنِ الْمُكَلَّفِينَ، وَأَنَّ الْمَشَقَّةَ تَجْلِبُ التَّيْسِيرَ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ.. وَغَيْرَهَا مِنْ قَوَاعِدِ الْفِقْهِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تُسَعِفَ الْعَمَلَ الْحَرَكَاتِيَّ وَتُسَدِّدَ خُطَاهُ، وَلِهَذَا نَقُولُ:

بِاتِّسَاعِ الْعِلْمِ يَتَسَّعُ الْعَمَلُ

قَدْ يَضِيقُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ بِالْبَيْئَةِ الَّتِي يَحْيَوْنَ فِيهَا، وَيَرَوْنَهَا خَانَقَةً لَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ يَتَسَرَّعُونَ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَصِحُّ الْعَيْشُ فِيهَا وَلَا التَّعَامُلُ مَعَهَا، دُونَ دِرَاسَةٍ كَافِيَةٍ لِبَيْئَتِهِمُ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا، وَقَدْ يُحَاوِلُونَ الْهَجْرَةَ مِنْهَا إِلَى بَيِّنَاتٍ جَدِيدَةٍ لَا يَشْعُرُونَ فِيهَا بِأَنَّهَا خَانَقَةٌ لِلْعَيْشِ مَانِعَةٌ لِلْحَيَاةِ. وَمِثْلُ هَذَا التَّفَكِيرِ دَلِيلٌ عَلَى ضِيقِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا يَقُولُونَ: إِذَا اتَّسَعَ الْعِلْمُ اتَّسَعَ الْعَمَلُ، وَإِذَا انْحَسَرَ الْعِلْمُ انْحَسَرَ الْعَمَلُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ كَذَلِكَ: إِذَا انْحَسَرَ الْفِقْهُ انْحَسَرَ الْوَاقِعُ، أَمَّا مَنْ اتَّسَعَتْ رُؤْيَاهُ؛ فَإِنَّ صُورَ الْعَمَلِ وَالْوَانَةَ وَمَرَاتِبَهُ وَوَسَائِلَهُ سَوْفَ تَتَسَّعُ أَمَامَهُ،

حَيْثُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِالْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ لِيُحَقِّقَ الثَّمَرَةَ الْمَطْلُوبَةَ مِنْهُ وَهِيَ وَقَعُ الْإِنْجَازِ، وَلَيْسَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْإِنْجَازِ شَيْءٌ يَتَحَصَّلُ بِهِ الْمُسْلِمُ لِنَفْسِهِ.

إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مَشِيئَةُ اللَّهِ كَمَا يَقَرُّرُ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ [مَعَالِمُ فِي الطَّرِيقِ]: «إِنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ أَقْتَضَتْ أَنْ تَكُونَ لِهَذَا الْمَنْهَجِ وَاقِعِيَّةٌ فِي الْحَيَاةِ، تُقَرَّرُهُ فِي صُورَةٍ عَمَلِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ تَرَاهَا الْأَجْيَالُ... وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ جَدِيرَةٌ بِأَنْ يَتَدَبَّرَهَا الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ أَرْضٍ وَفِي كُلِّ جِيلٍ، فَهِيَ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُرِيَهُمْ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ وَاضِحَةً بَلَا غَبْشٍ، وَأَنْ تُثَبِّتَ خُطَى الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَقْطَعُوا الطَّرِيقَ إِلَى نِهَائِيَّتِهِ، كَيْفَمَا كَانَتْ هَذِهِ النِّهَايَةُ، ثُمَّ يَكُونُ قَدَرُ اللَّهِ بِدَعْوَتِهِ وَبِهِمْ مَا يَكُونُ... وَالْأَرْضُ لَيْسَتْ دَارَ جَزَاءٍ، وَإِنَّمَا تَحْقِيقًا لِقَدْرِ اللَّهِ فِي أَمْرِ دَعْوَتِهِ وَمَنْهَجِهِ عَلَى أَيْدِي أَنْاسٍ مِنْ عِبَادِهِ يَخْتَارُهُمُ اللَّهُ لِيُمْضِيَ بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ مَا يَشَاءُ. وَحَسْبُهُمْ هَذَا الْاِخْتِيَارُ الْكَرِيمُ الَّذِي تَهُونُ إِلَى جَانِبِهِ وَتَصْغُرُ هَذِهِ الْحَيَاةُ، وَكُلُّ مَا يَقَعُ فِي رِحْلَةِ الْأَرْضِ مِنْ سَرَاءٍ أَوْ ضُرَاءٍ» (65).

ثَمَرَةُ الدِّينِ وَالتَّدِينِ

كَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُؤَكِّدَ حَقِيقَةَ مَهْمَةٍ رُبَّمَا غَفَلَ عَنْهَا الْكَثِيرُونَ، وَهِيَ ضَرُورَةُ أَنْ تُرَى ثَمَرَةُ التَّدِينِ فِي سُلُوكِ الْمُسْلِمِ وَمَوَاقِفِهِ وَتَفَكِيرِهِ، وَلَنْ تَتَضَحَّ ثَمَرَةُ التَّدِينِ إِلَّا فِي وَقَعِ الْحَيَاةِ، وَلَنْ يَتَجَلَّى أَثَرُهَا الصَّالِحُ إِلَّا فِي جَمٍّ غَفِيرٍ، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ التَّقْرِيعِ وَالتَّوْيِيخِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ عَلِمَ طَبِيعَةَ التَّكَالِيفِ أَوْ الْوَاجِبَاتِ الْمُنَوَّطَةِ بِهِ، وَأَدْرَكَ مَا كَانَ مِنْهَا فَرْدِيًّا، وَمَا كَانَ اجْتِمَاعِيًّا، ثُمَّ قَصَرَ فِي ذَلِكَ أَوْ تَخَلَّفَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِمُ بِذَلِكَ.

ولهذا قال الإمام البنّا في رُكنِ التّضحية: «وَمَنْ قَعَدَ عَنِ التّضْحِيَةِ مَعَنَا فَهُوَ آثِمٌ»⁽⁶⁶⁾؛ لَأَنَّ مَا يَتَغَيَّاهُ الْإِخْوَانُ هُوَ وَاجِبٌ كُلُّ مُسْلِمٍ، وَلَيْسَ دِينًا اخْتَرَعُوهُ.

وهذا الفقه هو ما أدركه الشيخُ محمدُ الغزالي في كتابه [نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم]؛ وهو يتناول قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا﴾؛ وَمِنْ ثَمَّ قَالَ عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ: «لَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ قَضِيَّةٍ مَصِيرِيَّةٍ فَلَا حَقَّ لَهُمْ فِي نُصْرَةٍ»⁽⁶⁷⁾.

إِنَّ هَذَا التَّخَلُّفَ عَنِ الْقَضِيَّةِ الْمَصِيرِيَّةِ بِلَا شَكٍّ يُحْدِثُ شَرْحًا كَبِيرًا فِي التَّجْمُعِ الْإِسْلَامِيِّ فَلَا يُوفَّرُ لَهُ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ (الهيبة)، حَتَّىٰ يَتِمَّ بِذَلِكَ إِنْجَازُ الْمَطْلُوبِ وَهُوَ ثَمَرَةُ الدِّينِ وَالتَّدْيِينِ، فَلَا يَجُوزُ التَّخَلُّي عَنْ وَاجِبٍ أَوْ قَضِيَّةٍ مَصِيرِيَّةٍ، أَوْ التَّعَلُّلُ بِأَنَّ الْأَخَ مَنْشَغُلٌ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ، لَأَنَّ هَذَا التَّخَلُّي يُؤَخِّرُ الْإِنْجَازَ الْمَطْلُوبَ.

وَأَنَا أَذْكَرُ أَنَّ أَحَدَ إِخْوَانِنَا فِي السَّتِينِيَّاتِ كَانَ شَابًّا طَمُوحًا جَدًّا، ذَكِيًّا جَدًّا، وَعَلَى قَدَرٍ كَبِيرٍ مِنَ الطَّاقَةِ وَالْهِمَّةِ وَالْعَزِيمَةِ، وَقَدْ تَعَرَّفْنَا عَلَيْهِ فِي أَوَائِلِ السَّتِينِيَّاتِ، أَنَا وَالْأَخُ مَرْوَانُ حَدِيدٌ⁽⁶⁸⁾، وَكَانَتْ صُورَةُ التَّعَارُفِ عَلَيْهِ مُثِيرَةً لِلدَّهْشَةِ؛ إِذْ تَعَرَّفْنَا عَلَى وَالِدِهِ، وَكَانَ رَجُلًا مِنَ الصَّالِحِينَ فِي أَحَدِ الْمَسَاجِدِ وَاسْتَضَافَنَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ هَذَا فِي بَيْتِهِ، حَيْثُ كَانَ يَسْكُنُ فِي

(66) مجموعة الرسائل. رسالة التعاليم. ص 274.

(67) الشيخ محمد الغزالي: نحو تفسيره موضوعي لسور القرآن الكريم، ط 1، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م، ص 139.

(68) مَرْوَانُ حَدِيدٌ (1934-1976م): دَاعِيَةٌ وَنَاشِطٌ إِسْلَامِيٌّ سُورِيٌّ، مِنْ أَبْرَزِ شَخْصِيَّاتِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي سُورِيَا، وُلِدَ فِي حَمَاةَ، وَدَرَسَ الْهَنْدَسَةَ الزَّرَاعِيَّةَ فِي مِصْرَ، وَعُرِفَ بِمُؤَافِقَةِ الْمُعَارِضَةِ لِلنِّظَامِ السُّورِيِّ، وَبَدَعُوهُ إِلَى مُقَاوَمَتِهِ. اُعْتُقِلَ سَنَةَ 1975 م، وَتُوفِيَ فِي السَّجْنِ سَنَةَ 1976 م.

أحد أحياء القاهرة الفقيرة، وبيته غرفة بسيطة، وجلسنا في بيت ذلك الرجل الصالح نحن والأخ مروان وبعض إخواننا الذين كانوا معنا في ذلك الوقت، وبينما نتكلم معه في هُومنا وشؤوننا، دخل هذا الأخ ولم نكن قد تعرّفنا عليه قبل ذلك، فألقى السلام وجلس إلى مكتبه ووجهه إلى الحائط، لأنّ المكتب كان مُواجهًا للحائط، وأعطانا ظهره وجلس يُذاكِر، وبعد فترة من القراءة ونحن نتكلم مع والده في بيته الصغير جدًا، وكانت علامات الاشتراز والاستياء والازدراء لنا ولجلستنا ظاهرة على هذا الأخ - وقد حكى لي بنفسه هذه القصة بعد ذلك - لكنه بعد فترة من الحديث بدأ يستمع إلى حديثنا، وكثيرًا ما كان يسمع من المشايخ والدراويش الذين يعرفهم أو يعرفهم والده، وكان والده رجلًا طيبًا، لدرجة أنّ أي رجل يلقاه في المسجد، ويتوسّم فيه علامات التقوى، يدعوّه إلى بيته، ويُطعمه ويسقيه وهو لا يعرفه، وكان هذا سببًا للصراع الطويل جدًا بين أختنا هذا وبين والده قبل أن نعرفه، فيقول: كنت أظنكم من هؤلاء الناس الذين يُقابلهم والدي في المسجد عابري السبيل، والذين يأتي بهم إلى البيت، ويستضيفهم رغم رقة حاله، ليبيتوا في بيته.

كان هذا الشاب قد حصل على الثانوية العامة، وكان يعمل في إحدى المصالح الحكومية بالنهار، وفي الليل كان طالبًا في معهد الخدمة الاجتماعية الليلي في الستينيات، وكان متفوقًا ويحقّق المركز الأوّل، كما انتسب إلى قسم الاجتماع في كلية الآداب، كذلك سجّل في الجامعة الأمريكية في قسم اللغة الإنجليزية لكي يُطوّر نفسه فيها، والتحق أيضًا بالمعهد الإسلامي الخاصّ بالشيخ الباقوريّ في حيّ الزمالك. ولعلك تلاحظ أنه قد شغل نفسه بأمور كثيرة في وقت واحد، وانعزل مُنكفئًا على العلم وتحصيله، وقد تفوّق جدًا في دراسته ونجح بتقدير امتياز،

حَتَّى إِنَّهُ عَيَّنَ مُعِيْدًا فِي الْمَعْهَدِ وَسَافَرَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَمْرِيكَ، وَحَصَلَ عَلَى الدِّكْتُورَاهِ، بَعْدَ مَا أَمْضَى هُنَاكَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ تَقْرِيْبًا.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّنَا بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفْنَا عَلَيْهِ، وَالتَّفَتَ إِلَى الْكَلَامِ الَّذِي نَقُولُهُ وَالْمَعَانِي الطَّيْبَةِ فِيهِ، بَدَأَ يَتَعَامَلُ مَعَنَا وَيُرَافِقُنَا، وَظَلَّلَنَا فِي صُحْبَتِهِ مُدَّةَ ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، حَتَّى تَعَرَّفْنَا عَلَى الشَّهِيدِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، وَدَعَانَا الشَّهِيدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِلَى الْعَمَلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَامَ (1965) فَوَافَقْنَا، ثُمَّ دَعَانَا هَذَا الْأَخَ كَذَلِكَ كَيْ يَعْمَلَ مَعَنَا فَأَبَى، وَتَعَلَّلَ بِأَنَّهُ مُنْشَغُلٌ جَدًّا بِعَمَلِهِ وَتَحْصِيلِهِ الْعِلْمَ، وَيَرَى أَنَّهُ يُقَدِّمُ أَعْظَمَ خِدْمَةٍ لِلْإِسْلَامِ؛ أَمَّا الدَّخُولُ فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّنْظِيمَاتِ، وَالْعَمَلُ الْخَاصَّ، وَمَا إِلَى هَذَا الْقَبِيلِ، فَهَذَا أَمْرٌ يَضُرُّ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْفَعُ، وَهَذَا رَأْيُهُ، فَردَّ عَلَيْهِ الشَّهِيدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ وَقَالَ لَهُ: فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّ انْشِغَالَكَ بِجُهْدِكَ الْمُفْرَدِ الْمُعْزَلِ قَدْ يُحَقِّقُ لَكَ نَجَاحًا شَخْصِيًّا أَوْ دُنْيَوِيًّا، وَالْإِيْمَانُ وَحْدَهُ لَنْ يُمَدِّكَ بِالْعَافِيَةِ الْمَطْلُوبَةِ إِلَّا بِالْاجْتِمَاعِ، فَأَنْتَ فِي تَقْصِيرٍ وَفِي تَخَلُّفٍ عَنْ وَاجِبٍ دِينِيٍّ بِهَذِهِ الصُّورَةِ، وَمَا تَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَعِيشَ بِهِ أَمْنًا فِي بَلَدِكَ، أَوْ تَعِيشَ كَمَا أَرَادَ لَكَ رَبُّكَ أَنْ تَعِيشَ.

الْجَمَاعَةُ ضَرُورَةٌ وَاقِعِيَّةٌ

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْعَمَلَ الْجَمَاعِيَّ لَيْسَ تَرْفًا أَوْ اخْتِيَارًا، بَلْ هُوَ وَاجِبٌ وَضَرُورَةٌ يَفْرِضُهَا وَاقِعُ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَمَا لَمْ يَتَكَوَّنِ التَّجْمُّعُ الَّذِي يُحَقِّقُ لِأُمَّتِنَا الْهَيْبَةَ وَالْكَرَامَةَ، فَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُحَقِّقَ نَمُودَجَ الْحَيَاةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُنْشُودَةِ، وَلَا الْمَثَلَ الْعُلْيَا وَالْقِيَمَ الَّتِي أَرَادَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَعِيشَ عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّ هَذَا التَّجْمُّعَ يُسَهِّمُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، فِي تَوْفِيرِ السُّلْطَانِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا. وَكَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ الْقَرَضَاوِيُّ: «إِنَّ وُجُودَ الْحَاكِمِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْحُكُومَةِ الْمُسْلِمَةِ يَحْتَاجُ إِلَى

أمور ثلاثة (هكذا يقول بعقله الأصولي): أرض مُحَرَّرَة، وقُوَّة تُوازِرُه، وتيار عارِم يُشِيرُ به ويُنادي بضرورة وجوده⁽⁶⁹⁾.

فلا الأرض المُحرَّرة تستطيع تحريرها بغير هذا الاجتماع، ولا القوة التي توازِرُه تستطيع أن تُحقِّقها إذا تفلَّت كُلُّ إنسانٍ وانشغل بِخاصَّةِ نفسه وَتحصيل طُموحاته وَتحقيق آماله، بعيدًا عن هذا الاجتماع، ولا يوجد هذا التيار العارِم الذي مِنَ المُمكن أن يفرض نفسه فعلاً على الأمة، ويحقق تلك المُوازرة، ويُشِيرُ به ويُنادي بضرورته، وستبقى أقليات مُبعثرة ولا يُقصدُ بها بالضرورة تلك التي تعيش في ديار الغربِ أو المهجر؛ وإنما الأعمال الفرديَّة كذلك، التي يبذلها النَّاسُ، في حاجةٍ إلى مَنْ يجمع شتاتها، وما بعثرتُه الأهواء والأفكار والمذاهب والآراء منها، وما شتت من جهودٍ وأهدر من طاقات؛ فلا شك أننا بحاجةٍ إلى مثل هذا التَّجمع لتنظيم تلك الأُقلياتِ أو الجهودِ المُبعثرة.

وقد تعجَّب حينَ تعلمُ أن أخانا هذا الذي رَفَضَ العملَ معنا وأصرَّ على رأيه وموقفه؛ لم يَنْجُ مِنَ الفِتْنَةِ والابتلاء؛ فقد مرَّت الأيامُ وجرت الأحداثُ العَصِيْبَةُ في سنة (1965)، والتقينا جميعًا في السَّجْنِ الحربيِّ، فوجدناه قد سجنَ معنا، وفوجئنا حينما رأيناه! وهو نفسه يحكي لي تلك القصة يقول: لما رآني وقلتُ له: ما أتى بك؟ أَلَمْ تكن تقول: كذا وكذا؟ فحكى لي القِصَّةَ التي حكاها لنا، وقال: إنَّهم أتوا بأحدِ إخواننا الذين كانوا يعرفوننا ويعرفوه، وبعدما عذَّبوه دَلَّ علينا وعلى الناس الذين التقوا بنا ورَضُوا أن يدخلوا هذا التنظيم، ثُمَّ بعدَ فترةٍ مِنَ الهدوءِ والتحقيقاتِ استدعوه مرةً أخرى وعذَّبوه وقالوا له: أنتَ ذَكَرتَ لنا الذين قالوا: نَعَمْ، ونريدُ أن تذكُرَ لنا الذين قالوا: لا، الذين عَرَضْتُمْ عَلَيْهِمْ دُخُولَ هذا

(69) جودت سعيد: العملُ قدرة وإرادة، نقلًا عن إحدى مقالات الدكتور يوسف القرضاوي.

التنظيم ورَفُضُوا؛ لَأَنَّ هَؤُلَاءِ وَإِنْ قَالُوا: لَا إِنَّمَا يَشْكُلُونَ نَذِيرَ خَطَرٍ، هُمْ قَنَابُلٌ مَوْقُوتَةٌ؛ لَأَنَّهُمْ عَرَفُوا بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الْجَلَلِ الَّذِي يَحْدُثُ وَلَمْ يُبَلِّغُوا عَنْهُ، وَفِعْلًا دَلَّ عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ مِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ؛ فَجَاءَ وَحْضَرَ مَعَنَا الْمَحْنَةُ الضَّرُوسُ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَرْفُضُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنَّا أَوْ يَكُونَ مَعَنَا. وَهُوَ مَنْ حَكَى لِي تِلْكَ الْقِصَّةَ بِتَفَاصِيلِهَا، وَأَنَا فِي جَامِعَةِ الْإِمَامِ بَعْدَ أَنْ صَارَ أَسْتَاذًا ثُمَّ رَئِيسَ قِسْمِ الْخِدْمَةِ الاجتماعيةِ بِهَا، ثُمَّ رَئِيسَ قِسْمِ الْجَمَاعَةِ فِي الْإِسْلَامِيَةِ بِكُوالِ الْمُبُورَ بِمَالِيزِيَا.

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ الْجُهْدَ الْفَرْدِيَّ ضَائِعٌ مُشَتَّتٌ قَلِيلُ الْجَدْوَى، مَهْمَا بَلَغَ صَاحِبُهُ مِنَ الدَّقَّةِ وَالِاتِّقَانِ، وَالدَّابِّ وَالِإِحْلَاصِ، وَإِلَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَغْنَى النَّاسَ عَنِ الْأَصْحَابِ وَالنَّصَرَاءِ، وَكَانَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى أَنْ يَنْهَضَ بِتَكَالِيفِ الدِّينِ مُنْفَرِدًا!

وَأَجِبُ الْفَرْدِ فِي الْجَمَاعَةِ

وَمَا زِلْنَا نُوَكِّدُ أَنَّ هَذَا بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ يَكْتَفِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْغُمُوضِ، حَيْثُ يَلْتَبِسُ الْأَمْرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، فَلَا يُحْسِنُونَ فَهْمَ التَّكَالِيفِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ التَّفَرُّقَةَ بَيْنَ مَا يَجِبُ فِي حَقِّ الْفَرْدِ، وَمَا يَجِبُ فِي حَقِّ الْجَمَاعَةِ أَوْ الْأُمَّةِ، أَوْ مَا الشَّيْءُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْفَرْدُ، وَمَا الشَّيْءُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَنْهَضَ بِهِ الْأُمَّةُ مُجْتَمِعَةً؛ حَتَّى تُقِيمَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَجْعَلَهُ مِنْهَاجَ حَيَاتِهَا وَاقِعًا وَسَلُوكًا، تَحْقِيقًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يُلَخِّصُ مُهِمَّةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي (إِقَامَةِ الدِّينِ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].



أما الإمامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللهُ فَقَدْ مَيَّزَ بَيْنَ الْوَاجِبِينَ [الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ]، لِيَكُونَ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، بَلْ أَشَارَ إِلَى وَاجِبَاتٍ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الْجُهْدَيْنِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ، وَمِنْ ثَمَّ تَرَاهُ فِي الثَّلَاثِ مَرْتَبِ الْأُولَى يَقُولُ: «وَذَلِكَ وَاجِبُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَدِّهِ»، أما المراتب الأخرى فَيَجْمَعُ بَيْنَ الْوَاجِبِينَ، فَيَقُولُ: «وَذَلِكَ وَاجِبُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى حَدِّهِ، وَوَاجِبُ الْجَمَاعَةِ كَهَيْئَةِ عَامِلَةٍ»، غَيْرَ أَنَّهُ قَدَّمَ وَاجِبَ الْجَمَاعَةِ عَلَى وَاجِبِ الْفَرْدِ، فَقَالَ: «وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعَةُ الْأَخِيرَةُ تَجِبُ عَلَى الْجَمَاعَةِ مُتَّحِدَةً، وَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِاعْتِبَارِهِ عَضْوًا فِي الْجَمَاعَةِ» (70).

وَتَمَّةَ عَامِلٍ آخَرٍ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ النِّجَاحِ فِي الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ، بَعْدَ تَوْفُرِ الْهَيْئَةِ، وَهُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ (تَنْظِيمُ الْوُسْعِ)، وَيَعْنِي إِزَالَةَ كُلِّ أَسْبَابِ الْعَوَاقِقِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ ذَلِكَ الْإِنْجَازِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنْهَا كَمَا فِي حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ، وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي، وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي» (71).

هَذِهِ مَعَانِي الْقُوَّةِ الَّتِي تُنْظِمُ الْوُسْعَ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ تُتِمُّ عَمَلِيَّةَ

(70) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 274.

(71) أخرجه أبو داود (1555).



الإنجاز، ولا شك أنَّ حديث الإمام البنَّا وهو يُمهِّد للدخول في واجب أو ركن من الأركان المهمة في بيعتنا، وهي التي لا تتم إلا بتوافر هذه الشروط من: توفُّر الهيبة، ووجود الأمة، أو وجود المجتمع الإسلامي النَّاشئ، وتنظيم الوُسْع؛ ممَّا يدلُّ على فقه الإمام البنَّا رَحِمَهُ اللهُ ووُصُولِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ.

مَرَاتِبُ الْعَمَلِ

مِنْ فِقْهِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ فِي صِيَاغَةِ رِسَالَةِ الْبَيْعَةِ، أَنَّهُ أَوْجَزَ حَيْثُ يَحْسُنُ الْإِيْجَازُ، وَفَصَّلَ حَيْثُ يَحْسُنُ التَّفْصِيلُ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَرَاهُ فِي رُكْنِ الْفَهْمِ قَدْ فَصَّلَ، فَوَضَعَ لَهُ عِشْرِينَ أَصْلًا (وَإِنْ كَانَتْ الْأُصُولُ ذَاتَهَا مَوْجِزَةً كُلَّ الْإِيْجَازِ)؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِتِلْكَ الْأُصُولِ أَنْ يَحُلَّ مَشَاكِلَ سُوءِ الْفَهْمِ الَّتِي فَرَّقَتْ الْمُسْلِمِينَ شَيْعًا وَأَحْزَابًا، وَلِتَكُونَ تِلْكَ الْأُصُولُ الْعِشْرِينَ دَسْتُورَ وَحْدَةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَتَى اقْتَنَعُوا بِهَا، ثُمَّ تَرَاهُ كَذَلِكَ يُفَصِّلُ مَرَاتِبَ الْعَمَلِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْأَخِ الصَّادِقِ، وَهِيَ سَبْعَةٌ مَرَاتِبٍ تَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ النَّفْسِ وَتَنْتَهِي بِأَسْتَاذِيَّةِ الْعَالَمِ، وَنَشْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فِي رُبُوعِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿...حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]، مُرُورًا بِالْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَالشَّعْبِ الْمُسْلِمِ، وَالْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَالْوَطَنِ الْمَحْرُورِ، وَالْحُكُومَةِ، وَإِعَادَةِ الْخِلَافَةِ؛ فَتِلْكَ مَقُومَاتُ الشَّخْصِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، الْقَادِرَةِ عَلَى السَّيْرِ وَالْعَمَلِ بِأَرْكَانِ الْبَيْعَةِ ابْتِدَاءً بِالْفَهْمِ وَانْتِهَاءً بِالتَّجَرُّدِ وَالثَّقَةِ مُرُورًا بِالْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ وَالتَّضَحِّيَةِ وَالْجِهَادِ وَالطَّاعَةِ وَالثَّبَاتِ.

هَذِهِ مَقُومَاتُ الشَّخْصِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَمِيزُهَا عَنْ غَيْرِهَا، حَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَيْرٌ مُشْتَرَكٌ مِنْ أَجْلِ تَحْوِيلِ الْفِكْرِ وَالْأَمَلِ إِلَى فَهْمٍ وَعَمَلٍ دُونَ هَذِهِ الْمَقُومَاتِ.

ثُمَّ هُنَاكَ وَاجِبَاتٌ تَخْدُمُ هَذِهِ الْمَقُومَاتِ، وَكَيْفَ تُنْشِئُ هَذِهِ الْمَقُومَاتُ فِي النَفْسِ الْوَاجِبَاتِ الْأَرْبَعِينَ حَتَّى تَكُونَ لَبَنَةً قَوِيَّةً فِي هَذَا الْبِنَاءِ؛ عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ بِهَذِهِ الْوَاجِبَاتِ، مِنْ كَلِمَاتِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَفِي نَهَائِهَا: «فُخْذُ نَفْسِكَ بِشِدَّةٍ بِهَذِهِ التَّعَالِيمِ، وَإِلَّا فَفِي صُفُوفِ الْقَاعِدِينَ مُتَّسِعٌ لِلْكَسَالِ وَالْعَاشِينَ» (72).

لَقَدْ اهْتَدَى الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَى آفَةِ الدَّعَوَاتِ وَالرَّسَالَاتِ؛ حَيْثُ تَعَثَّرَ فِي ذَلِكَ الْمُنْعَطَفِ الْحَرَجِ الْمُتَمَثِّلِ فِي الْعَجْزِ عَنْ تَحْوِيلِ الْفِكْرِ إِلَى فَهْمٍ، وَالْأَمَلِ إِلَى عَمَلٍ. فَأَذْرَكَ أَنَّ الرِّسَالَةَ، مَعَ كَوْنِهَا تَكْلِيفًا رَبَّانِيًّا، إِنَّمَا تَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِ قُدْرَاتِ الْبَشَرِ وَإِرَادَتِهِمْ، وَمِنْ خِلَالِ التَّعَرُّفِ عَلَى سُنَنِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ، وَالْقُدْرَةِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الطَّاقَاتِ الْمَذْخُورَةِ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَإِطْلَاقِهَا إِلَى مَيَادِينِ الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ.

إِحْيَاءُ الْإِسْلَامِ فِي النَفُوسِ

وَصَفَّ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ الْإِمَامَ الْبَنَّا وَمَدْرَسَتَهُ فَقَالَ: «لَقَدْ بَدَأَ حَسَنُ الْبَنَّا عَمَلَهُ مِنَ الصَّفْرِ، وَشَرَعَ دُونَ ضَجِيجِ يُحْيِي الْإِسْلَامَ الْمُسْتَكِنَّ فِي الْقُلُوبِ، وَيُوجِّهُهُ لِلْعَمَلِ. وَيَكْفِي الْإِمَامَ الشَّهِيدَ شَرَفًا أَنَّهُ صَانِعُ الشَّبَابِ الَّذِينَ نَسَفُوا مُعْسَكَرَاتِ الْإِنْجِلِيزِ عَلَى ضِفَافِ الْقَنَاةِ وَمَا زَالُوا بِهِمْ حَتَّى أَغْرَوْهُمْ بِالرَّحِيلِ! وَيَكْفِيهِ شَرَفًا أَنَّهُ صَانِعُ الشَّبَابِ الَّذِينَ مَا اشْتَبَكُوا مَعَ الْيَهُودِ فِي حَرْبٍ إِلَّا أَحَقُّوا بِهِمُ الْهَزِيمَةَ وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَى الْهَرَبِ... إِنَّ ذَلِكَ مَا جَعَلَ الْاسْتِعْمَارَ مُصِرًّا عَلَى مُعَادَاةِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ، وَالْحَاقِ الْأَذَى بِهَا حَيْثُمَا ظَهَرَتْ» (73).

وَلِذَلِكَ جَاءَتْ مَدْرَسَتُهُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالْإِعْدَادِ هِيَ أَنْجَحَ مَدْرَسَةٍ مُنْذُ

(72) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 283.

(73) محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، القاهرة، 1401هـ، ص 8.

أربعة قرونٍ خلتْ كما يقولُ الأستاذُ سيدُ قطب رَحِمَهُ اللهُ فِي آخِرِ مَا كَتَبَ قَبْلَ أَنْ يَلْقَى اللهَ (74)، لَأَنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ طَبِيعَةٍ خَلَقَهُ أَنْ لَدَيْهِ مِنَ الْقُدْرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ مَا لَا حُدُودَ لَهُ كَمَا يَقُولُ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..﴾ [البقرة: 31]؛ يقولون: إِنَّهَا قُدْرَاتٌ عَقْلِيَّةٌ لَا حُدُودَ لَهَا، وَفَضَائِلُ خُلُقِيَّةٍ كَذَلِكَ لَا يَعْلَمُ وَفَرْتَهَا إِلَّا اللهُ فِي الْمُجَادَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]؛ وَرَدَّ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ «فَضَائِلُ خُلُقِيَّةٍ لَا يَعْلَمُ وَفَرْتَهَا إِلَّا اللهُ»، لَكِنْ مَنْ الْقَادِرُ أَنْ يُطْلِقَ تِلْكَ الْقُدْرَاتِ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا وَيُظْهِرَ تِلْكَ الْفَضَائِلَ الْخُلُقِيَّةَ، وَيُطْلِقَهَا مِنْ أَجْلِ الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ هَذَا الدِّينِ.

أَخْفَقَتْ مَدَارِسُ التَّرْبِيَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي تِلْكَ الْمُهْمَةِ كَذَلِكَ، وَأَخْرَجَتْ نَفُوسًا لَا تُجِيدُ سِوَى أَمْرَيْنِ: إِمَّا تُؤَثِّرُ الْإِرْجَاءَ وَالْإِنْسَحَابَ وَالْإِنْعَزَالَ، وَإِمَّا تَمَارِسُ عُنْفًا جَانِحًا لَا غَنَاءَ فِيهِ. وَهَذَا مَا أَدْرَكَهُ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ فَأَخْرَجَ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةَ الْمُعَافَاةَ، الْإِنْسَانَ الْعَدَلَ، ذَا النِّسْقِ الْمُنْسَجِمِ، وَلَيْسَ الْكَلَّ (75) الَّذِي أَيْنَمَا تُوجَّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76].

اسْتَطَاعَ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا أَنْ يَضَعَ لِجِيلِ الْمَلَاهِي وَالْخُمُورِ مِنَ الْقَوَاعِدِ مَا

(74) انظر: كتاب: لِمَاذَا أَعْدَمُونِي؟ وهو كتابٌ يُسَبِّحُ إِلَى الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْب، يُضَمُّ نَصَّ مُذَكَّرَةٍ كَتَبَهَا فِي السَّجْنِ أَثْنَاءَ التَّحْقِيقِ مَعَهُ فِي قَضِيَّةِ سَنَةِ 1965م، عَرَضَ فِيهَا تَصَوُّرَهُ لِمَنْهَجِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَطَبِيعَةِ التَّنْظِيمِ، وَمَوْقِفَهُ مِنَ الْعُنْفِ وَاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ، وَمُلَابَسَاتِ الْقَضِيَّةِ الَّتِي حَوَّكَمَ بِسَبَبِهَا، وَصَدَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

(75) الضعيف العالة على غيره.

يُسَاعِدُهُ فِي أَنْ يُخْرِجَ مِنْ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ قُدْرَاتٍ عَقْلِيَّةً وَفَضَائِلَ خُلُقِيَّةً، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتِمَّ هَذَا إِلَّا فِي وُجُودِ كِيَانٍ يَقُومُ عَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الرَّاسِخَةِ وَالثَّوَابِتِ الَّتِي تَحَدَّثُنَا عَنْهَا: (تَنْظِيمٌ قَوِيٌّ مُحْكَمٌ يَحْوِي أُصُولًا وَفَهْمًا، وَمَرَاتِبُ عَمَلٍ، وَمُقَوِّمَاتٌ لِلشَّخْصِيَّةِ، وَوَاجِبَاتٌ لِلإِخْوَةِ الْعَامِلِينَ يَلْتَزِمُونَ بِهَا). وَبِذَلِكَ تَخْرُجُ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةُ الْمُعَافَاةُ ذَاتُ النِّسْقِ الْمُنْسَجِمِ؛ فَتَتَفَجَّرُ فِيهِمْ تِلْكَ الْقُدْرَاتُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا، وَتِلْكَ الْفَضَائِلُ الْخُلُقِيَّةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُ وَفَرْتَهَا إِلَّا اللَّهُ، وَاعْتَقِدْ أُنَّا رَأَيْنَا فِي دَعْوَةِ الإِخْوَانِ جَمِيعًا مِثْلَ هَذِهِ النَّمَاذِجِ، أَوْ هَذِهِ الرُّمُوزِ، وَمِثْلَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ.

بِنَاءُ الْكَفَاءَاتِ وَاكْتِشَافُ الْقُدْرَاتِ

أَذْكُرُ أَحَدَ أَقَارِبِي وَهُوَ عَالِمٌ جَلِيلٌ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ شَارِكٌ فِي تَأْسِيسِ الْكَثِيرِ مِنَ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ فِي الْيَمَنِ وَفِي لِيَبَا وَفِي أَفْغَانِسْتَانَ وَغَيْرِهَا، وَكَانَ يَصِفُهُ مَنْ يَعْمَلُ مَعَهُ خَاصَّةً أَنَّهُ مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، رُغْمَ أَنَّهُ مِنْ أَبْخَلِ النَّاسِ ثَنَاءً عَلَى أَحَدٍ. تَكَلَّمْتُ مَعَهُ مَرَّةً، وَقَدْ كَانَ فِي الإِخْوَانِ قَدِيمًا فِي الْأَرْبَعِينَاتِ وَسَأَلْتُهُ وَقُلْتُ لَهُ: حَضَرْتُكَ لِمَاذَا تَرَكْتَ الْجَمَاعَةَ؟ فَقَالَ لِي: أَنَا فِي الْحَقِيقَةِ كُنْتُ عَاتِبًا وَقَتَهَا عَلَى الشَّيْخِ حَسَنِ الْبَنَّا: أَنَّهُ كَانَ يُقَدِّمُ بَعْضَ الشَّبَابِ فِي الْفَتَاوَى مِثْلَ الشَّيْخِ سَيِّدِ سَابِقٍ وَكَانَ فِي آخِرِ سَنَةٍ لَهُ بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ فِي الْأَزْهَرِ، فَكَيْفَ يُتْرَكُ الْمَجَالُ لَطَالِبٍ فِي الْعَالَمِيَّةِ فِي الْأَزْهَرِ لِيُجِيبَ عَنِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِي لِلإِخْوَانِ، وَتُنَشَرُ فِي مَجَلَّتِي: الشَّهَابِ وَالنَّذِيرِ وَنَحْوَهُمَا؟ فَكُنْتُ أَقُولُ لَهُ: كَيْفَ يَا شَيْخَنَا تَجْعَلُهُ يُجِيبُ عَلَى بَابِ الْفَتَاوَى، قَالَ: يُجِيبُ وَأَنَا مِنْ وَرَائِهِ وَمَعَهُ، وَنَحْنُ نُرِيدُ أَنْ نُمَرِّنَهُ وَنُدَرِّبَهُ لِكَيْ يَتَعَوَّدَ وَيَقْرَأَ وَيَفْهَمَ وَيَسْتَوْعِبَ وَيَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّةَ الْفَتَوَى، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ خَطَأٌ نُسَدِّدُهُ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ نُقَدِّمَهُ ثُمَّ هُوَ يَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّةَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ



الَّتِي جَعَلْتُ قَرِيبِي هَذَا يَتَعَدُّ، وَلَمْ يَسْتَرْخِ لِهَذَا الْمَعْنَى.

النَّيْجَةُ: تَقَدَّمَ سَيِّدُ سَابِقٍ حَتَّى أَصْدَرَ كِتَابَهُ الشَّهِيرَ (فِقْهُ السُّنَّةِ)، وَقَدَّمَ لَهُ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا فِي أَوَّلِ طَبْعَةٍ مِنْ طَبْعَاتِهِ، وَأَحَدُ الْإِخْوَةِ الْأَفْضَلِ الَّذِي أَعْرَفُهُ جَيِّدًا وَتَعْرِفُونَهُ كَانَ فِي الصِّينِ فِي رِحْلَةٍ تَابِعَةٍ لِعَمَلِهِ، وَهُنَاكَ رَأَى كِتَابَ (فِقْهُ السُّنَّةِ) مُتَرْجَمًا إِلَى اللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ. وَتَدُلُّنَا هَذِهِ الْقِصَّةُ عَلَى أَنَّ أُمَّتَنَا تَمْتَلِكُ قُدْرَاتٍ عَقْلِيَّةً لَا حُدُودَ لَهَا، وَلَكِنَّهَا تَنْتَظِرُ مَنْ يُطْلِقُهَا، وَيُوجِّهُهَا وَيُعْطِيهَا الثِّقَةَ لَتَعْمَلَ وَتُنْتَجَ، وَلَمْ يَكُنْ الْإِمَامُ الْبَنَّا يَقُولُ أَمَامَ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ: إِنَّنِي أُسْتَاذُكَ وَشَيْخُكَ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتِمَّ إِلَّا فِي كِيَانٍ ذِي تَنْظِيمٍ قَوِيٍّ، وَهَذَا مِمَّا أَعَانَهُ عَلَى اكْتِشَافِ تِلْكَ الطَّاقَاتِ الْمُسْتَكْنَةِ، فَرَبَّاهَا وَتَعَهَّدَهَا وَوَجَّهَهَا، ثُمَّ أَطْلَقَهَا لِلْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ، فَوَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْعَالَمِيَّةِ.

قِصَّةُ أُخْرَى

حَكَى لِي أَحَدُ الْإِخْوَةِ - وَهُوَ أُسْتَاذٌ فِي الْكُهْرَبَاءِ فِي الْجَامِعَةِ مِنْ إِخْوَانِنَا - قِصَّةً أُخْرَى؛ فَهُوَ يُحَضِّرُ الدِّكْتُورَاةَ الْخَاصَّةَ بِهِ فِي الْكُهْرَبَاءِ فِي إِنْجِلْتْرَا، وَكَانَ يَعْمَلُ فِي الْمُخْتَبَرِ الَّذِي يُحَضِّرُ فِيهِ فَنِّيٌّ مِنْ بَنْجَلَادِيشَ، وَكَانَ فِيهِ ذِكَاؤٌ وَالْمَعِيَّةُ؛ إِذْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصْلِحَ لَهُمْ أَجْهَازَهُمْ، بَلْ يَسَارِعُ لِإِصْلَاحِ أَيِّ عُطْلٍ، يَقُولُ: حَتَّى رَئِيسُ الْقِسْمِ أُعْجِبَ جِدًّا بِهِ فَسَأَلَهُ: مَا مُسْتَوَى تَعْلِيمِكَ؟ قَالَ لَهُ: لَمْ أَلْتَحِقْ بِأَيِّ مَرَحَلَةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ، وَلَمْ يَكُنْ مُتَعَلِّمًا وَلَمْ يَدْخُلْ مَدَارِسَ نِهَائِيًّا، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ لِبِقَائِهِ فِتْرَةً فِي إِنْجِلْتْرَا، وَكَانَ لَدَيْهِ جَاهِزِيَّةٌ جَيِّدَةٌ، وَسَاعَدَهُ عَمَلُهُ فِي هَذَا الْمَجَالِ عَلَى اكْتِسَابِ خِبَرَاتٍ كَبِيرَةٍ أَهْلَتْهُ لَهَا قُدْرَاتُهُ الْعَقْلِيَّةُ. ثُمَّ يُكْمِلُ الْأَخُ الْقِصَّةَ فَيَقُولُ: مَاذَا فَعَلَ مَعَهُ رَئِيسُ الْقِسْمِ؟ أَجْرَى لَهُ مُقَابَلَةً شَخْصِيَّةً، وَقَوَّمَ مُسْتَوَاهُ، ثُمَّ أَلْحَقَهُ بِدَرَجَةِ الْمَاجِسْتِيرِ فَوْرًا، وَإِذَا بِهِ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيزَةٍ يُنْهِي الْمُقَرَّرَ،



وَيُصْبِحُ مُحَاضِرًا مَعَنَا فِي الْجَامِعَةِ. عَقُولٌ مَذْخُورَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَكْتَشِفُهَا، وَيَمْنَحُهَا الثِّقَةَ بِقُدْرَاتِهَا، ثُمَّ يُرِييَهَا وَيُطْلِقُهَا إِلَى الْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَةِ خَلْقَتِهِ مُزَوَّدٌ بِقُدْرَاتٍ عَقْلِيَّةٍ لَا حُدُودَ لَهَا.

كَمَا حَكَى أَسْتَاذُكَ كَانَ مَعِيَ فِي الْجَامِعَةِ، أَنَّهُ كَانَتْ لَدَيْهِ ابْنَةٌ عُمُرُهَا عَشْرُ سِنِينَ أَوْ تِسْعُ سِنِينَ تَدْرُسُ مَقَرَّرَاتِ بَكَالُورِيُوسَ، وَنَحْنُ أَحْيَانًا نَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ وَنَقْرُؤُهُ فِي بَعْضِ الْجَرَائِدِ؛ وَلَدُّ عُمُرِهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا وَمَعَهُ بَكَالُورِيُوسٌ فِي كَذَا، لِأَنَّ فِيهِمْ مِنَ الطَّاقَاتِ الْمَذْخُورَةِ الْفَائِظَةِ، الَّتِي وَجَدْتُ مَنْ يَكْتَشِفُهَا وَيُطْلِقُهَا لِلْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ وَيُوجِّهُهَا.

وَيَقَرِّرُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ طَاقَاتٍ كَامِنَةً لَا يَسْتَمُرُّ مِنْهَا إِلَّا قَدْرًا يَسِيرًا، وَأَنَّ التَّرْبِيَةَ الْوَاعِيَةَ وَالتَّدْرِيْبَ الْمُنْتَظَمَ كَفِيلَانِ بِإِطْلَاقِ هَذِهِ الطَّاقَاتِ وَتَوْجِيهِهَا، حَتَّى يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْجَازِ وَالتَّعَلُّمِ مَا كَانَ يَعِدُّهُ بَعِيدَ الْمَنَالِ.

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَضِيفَ إِلَى الْقُدْرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي اكْتَشَفَهَا الْأَسْتَاذُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَوَقَفَهَا مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ هَذَا الدِّينِ؛ الْأَسْتَاذُ عَبْدَ الْقَادِرِ عُودَةَ؛ حَيْثُ كَانَ يَعْمَلُ مُوظَّفًا فِي الْمَحَاكِمِ الْوَطَنِيَّةِ فَإِذَا بِهِ يُصْبِحُ وَاضِعًا لِأَحْدَثِ الْكُتُبِ وَالْمَرَاجِعِ، وَإِلَى الْآنَ كُلِّ مَنْ جَاءَ لِيَتَكَلَّمَ فِي التَّشْرِيعِ الْجِنَائِيِّ الْمُقَارِنِ يَرْجِعُ إِلَيْهَا، اكْتَشَفَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا حِينَمَا رَأَى نَبَاهَتَهُ وَذِكَاةَهُ وَقُدْرَاتِهِ الْعَقْلِيَّةَ؛ فَدَعَاهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي هَذَا الْمَجَالِ، فَأَوْقَفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَقُدْرَاتِهِ وَنَشَاطَهُ فِي أَنْ يَكْتُبَ كَمَا كَلَّفَهُ الْإِمَامُ، فَظَهَرَتْ قُدْرَاتُهُ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَا حُدُودَ لَهَا.

وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إِذْ اكْتَشَفَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي شَبَابِهِ الْبَاكِرِ؛ وَقَدْ اعْتَرَفَ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَأَرْجَعَ الْفَضْلَ

إِلَى ذَلِكَ الْإِمَامِ الْعَمَلِاقِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: «لَقَدْ بَدَأْتُ الْعَمَلَ مَعَ حَسَنِ الْبَنَّا وَأَنَا طَالِبٌ فِي الْأَزْهَرِ»⁽⁷⁶⁾، ثُمَّ يَقُولُ تَحْتَ عُنْوَانٍ (أَنَا تَلْمِذُ حَسَنِ الْبَنَّا): «كُنْتُ وَمَا زِلْتُ تَلْمِذًا لِحَسَنِ الْبَنَّا، أَذْكُرُ دُرُوسَهُ وَأَتَرَسَّمُ خُطَاهُ، وَأُفِيدُ مِنْ تَجَارِبِهِ، وَأَنَا مُسْتَبْشِرٌ بِدَعَائِهِ لِي وَرَضَائِهِ عَنِّي، وَنَظَرْتِي إِلَى ذَلِكَ الْإِمَامِ الشَّهِيدِ أَنَّهُ مِنْ قِمَمِ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ، وَمِنْ بُنَاةِ أُمَّتِنَا الْفَقِيرَةِ إِلَى الرِّجَالِ، بَلْ هُوَ بِلَا رَيْبٍ مُجَدِّدُ الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْهَجْرِيِّ، وَأَشْهَدُ بِأَنَّهُ لَهٗ بَعْدَ اللَّهِ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِي تَوْجِيهِهِ وَتَثْقِيفِي»⁽⁷⁷⁾. بَلْ يَرَى الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ أَنَّ تَلْمِذَتَهُ لِحَسَنِ الْبَنَّا مَصْدَرُ فَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ، فَيَقُولُ: «أَشْعُرُ بِالرَّضَا وَأَنَا أَعْتَرِفُ بِأَنِّي مِنْ تَلَامِذَةِ حَسَنِ الْبَنَّا وَمُحِبِّهِ، وَحَامِلِي أَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَعَهُ، أَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ يُبْغِضُنِي عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ! لِيَكُنْ، فَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْكَبِيرِ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرْضِي اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَطْلُبُ وَجْهَهُ الْأَعْلَى، وَلَا يَبْعَثُ مَحَابَّةً هُنَا وَهَنَاكَ فَلَا يَظْفَرُ بِشَيْءٍ»⁽⁷⁸⁾.

(76) محمد الغزالي: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص 8.

(77) مجلة لواء الإسلام: رمضان 1410 هـ - مارس 1990 م، 1-45.

(78) نقلاً عن كتاب: الإخوان المسلمون في ميزان الحق تقديم، للدكتور فريد عبد الخالق، تقديم الشيخ محمد الغزالي، ط 1، دار الصحوة للنشر، القاهرة، 1987 م، ص 5.

رُكْنُ الْجِهَادِ

مَرْتَبَةُ الْجِهَادِ بَيْنَ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ

ذَكَرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ الْجِهَادَ بَعْدَ رُكْنِ (الْعَمَلِ)؛ لِأَنَّ دَائِرَةَ الْعَمَلِ أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ الْجِهَادِ؛ فَكُلُّ جِهَادٍ عَمَلٌ وَلَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ جِهَادًا، بَلْ إِنَّ بَعْضَ الْجِهَادِ قَدْ يَكُونُ خَاطِئًا، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي رِسَالَةِ الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ: «إِنَّ مَيْدَانَ الْقَوْلِ غَيْرُ مَيْدَانِ الْخِيَالِ، وَمَيْدَانِ الْعَمَلِ غَيْرُ مَيْدَانِ الْقَوْلِ، وَمَيْدَانِ الْجِهَادِ غَيْرُ مَيْدَانِ الْعَمَلِ، وَمَيْدَانِ الْجِهَادِ الْحَقُّ غَيْرُ مَيْدَانِ الْجِهَادِ الْخَاطِئِ»⁽⁷⁹⁾.

عَلَى أَنَّ مَا يَلِفْتُ الْإِنْتِبَاهَ حَقًّا، أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَبْدَأْ أَرْكَانَ الْبَيْعَةِ بِالْجِهَادِ، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ دَعْوَةَ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) الَّتِي أَسَّسَهَا تَبَنَّى مَشْرُوعًا سَيُضْطَرُّهَا إِلَى جِهَادٍ لَا هَوَادَةَ فِيهِ، وَإِلَى تَضَحِّيَّاتٍ مِنَ النُّفُوسِ وَالْدِّمَاءِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْدَأْهَا بِالتَّضَحِّيَةِ كَذَلِكَ، أَوْ بِالْإِخْلَاصِ، وَإِنَّمَا بَدَأَهَا (بِالْفَهْمِ)!

وَقَدْ ذَكَرْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِغَيْرِ (اقْرَأْ) بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ الْوَاعِيَةِ النَّاضِجَةِ لِطَبِيعَةِ الْأَحْدَاثِ، وَمَا يَكْتَنِفُهَا وَمَا يَلْحَقُ بِهَا، وَالْأَسْبَابِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا وَالتَّائِجِ الَّتِي تَتَمَخَّضُ عَنْهَا، سَتَكُونُ نَهَائِيَةُ الْفَشَلِ وَالْإِخْفَاقِ. وَمِنْ الْغَرِيبِ كَذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا يُقَدِّمُ (الْعَمَلِ) عَلَى (الْجِهَادِ) كَمَا ذَكَرْنَا؛ لِأَنَّ دَائِرَةَ الْعَمَلِ أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ الْجِهَادِ، وَالْجِهَادُ يُعَدُّ جُزْءًا مِنْ هَذَا التَّكْلِيفِ (الْعَمَلِ) وَمُتَمِّمًا لَهُ مَعًا وَمُكَمِّلًا لَهُ.

تَعَلَّمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ سِيرَةِ الْمُصْطَفَى كَذَلِكَ، أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ عَمَلٌ

(79) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 339.

شاقٌّ، وَجِهَادٌ دَائِمٌ، وَأَنَّ الدَّعَوَاتِ لَا تَنْجَحُ دُونَ جِهَادٍ وَبَذْلِ، وَلِهَذَا جَعَلَ (الْجِهَادَ) رُكْنًا مُسْتَقِلًّا مِنْ أَرْكَانِ بَيْعَتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ الْعَمَلَ غَيْرُ الْجِهَادِ؛ فَثَمَّةٌ مَنْ يَكْتَفِي بِأَنْ يَكْتُبَ مَقَالَةً فِي صَحِيفَةٍ، أَوْ يَظْهَرَ فِي قَنَاةٍ فَضَائِيَّةٍ يُحَدِّثُ النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَيَعْظُمُهُمْ، أَوْ يُلْقِي دُرُوسًا فِي الْمَسَاجِدِ، أَوْ مَنْ يُصْلِحُ بَيْنَ مُتَخَاصِمِينَ، أَوْ مَنْ يَبْنِي الْمَسَاجِدَ أَوْ يُكْثِرُ مِنْ رَحَلَاتِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَكُلُّهَا أَعْمَالٌ صَالِحَاتٌ لَا مِرَاءَ فِي ذَلِكَ. لَكِنَّهَا «لَا تُؤَدِّي وَاجِبًا، وَلَا تُزِيلُ عَائِقًا»، يَقْتَضِيهِمَا التَّمَكِينُ لِدِينِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، وَإِقَامَةُ شَرْعِهِ وَتَحْكِيمُ كِتَابِهِ، وَمِنْهَا جِهَةٌ.

أَمَّا التَّمَكِينُ لِدِينِ اللَّهِ، وَإِقَامَةُ شَرْعِهِ، وَاسْتِنَافُ خِلَافَةٍ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ؛ فَتِلْكَ غَايَاتٌ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِعَمَلٍ ضَخْمٍ، وَبَذْلِ وَتَضَحُّيَةٍ دَائِمِينَ، وَاهْتِمَامٍ وَتَرْكِيزٍ دَائِمِينَ مُتَوَاصِلِينَ، وَدِّرَاسَاتٍ كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَلَا بُدَّ لَتَحْقِيقِهَا مِنْ جِهَادٍ شَاقٍّ، لِمَا يَقْتَضِيهِ تِلْكَ الْغَايَاتُ مِنْ مَوَاقِفِ الْخُصُومَةِ وَمَا يَتْلُوهَا مِنْ نَتَائِجٍ مَرِيرَةٍ.

فَلَمْ تَكُنْ غَايَةُ الْإِمَامِ الْبَنَّا تَكْوِينَ جَمَاعَةٍ عَابِدَةٍ زَاهِدَةٍ مُخْلِصَةٍ وَقُضِي الْأَمْرُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لِدَعْوَةِ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) أَنْ تُحْيِيَ أُمَّةً، وَتُقِيمَ دَوْلَةً، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَامَ الْعِلْمِ أَنَّ أَيَّ فِتْنَةٍ تَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَاتِ لَا بُدَّ أَنْ تُجَرَّ إِلَى مَوَاطِنِ الْخُصُومَةِ وَالشَّدَّةِ وَالصَّرَاحِ، وَصَحِيحٌ أَنَّ الْإِخْوَانَ لَا يَسْعَوْنَ إِلَى تِلْكَ الْخُصُومَةِ، وَلَا يُرِيدُونَهَا، لَكِنَّ حُوقَ غَيْرِهِمْ وَالْكَارِهِينَ لِدَعْوَتِهِمْ، سَيُلْجِئُهُمْ حَتْمًا إِلَى الْخُصُومَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ الدَّعْوَةِ وَالْكَارِهِينَ لَهَا [نُظْمًا وَأَفْرَادًا]؛ فَتِلْكَ سُنَّةُ الدَّعَوَاتِ، وَنَهْجُ أَصْحَابِ الرِّسَالَاتِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ كُلُّ أَخٍ فِي دَعْوَتِنَا أَنَّ مُقْتَضِيَّاتِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَحُوقَ

الْخُصُومَ، سَيَجُرُّ الْإِخْوَانَ (شَاءُوا أَمْ أَبَوْا) إِلَى خُصُومَةٍ، يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَهَا فِي مَازِقٍ حَرَجٍ يُحْتَمُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَارُوا وَاحِدًا مِنْ سَبِيلَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَخُونُوا دَعْوَتَهُمْ، وَيَرْضَوْا الدَّيْنَةَ فِي دِينِهِمْ، مُقَابِلَ عَرَضٍ مِنْ دُنْيَا، كَالْوَزَارَةِ وَالرَّائِسَةِ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَإِمَّا أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِمَبَادِي دَعْوَتِهِمْ، وَيَتَحَمَّلُوا مُحْتَسِبِينَ الْأَجْرَ وَالْمَثُوبَةَ، مَا يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ التَّمَسُّكُ مِنْ خُصُومَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ، تُكَلِّفُهُمْ جِهَادًا مُضْنِيًّا وَتَضَحِيَّاتٍ جَسَامًا.

وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ مِنْ مُوَاجَهَةٍ وَصِدَامٍ؛ لِأَنَّهَا تَوَاجَهُ قُوَى نَافِذَةً مُهِمِّنَةً. وَصَحِيحٌ أَنَّ دَعْوَةَ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) تُؤَثِّرُ الْعَمَلَ السَّلْمِيَّ الْمُعْتَدِلَ، لَكِنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ فِي الدَّخْلِ وَالْخَارِجِ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَيَّ دَعْوَةٍ تُوقِظُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سُبَاتِهِمْ بِحَقٍّ، وَتُعِيدُهُمْ إِلَى إِسْلَامِهِمْ إِعَادَةً حَقِيقَةً لَا ظَاهِرِيَّةً؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُهْدِّدُ عُرُوشَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ، وَمِنْ ثَمَّ لَا بُدَّ أَنْ يُعَدَّ أَبْنَاءُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ لِمُوَاجَهَةِ أَكِيدَةٍ، وَجِهَادٍ طَوِيلٍ مُنْضِبٍ لَا يَسْتَخِفُّهُ طَيْشٌ أَوْ نَزَقٌ، وَلَا يَسْتَخْدِمُ الْقُوَّةَ إِلَّا حَيْثُمَا لَا يُجْدِي غَيْرُهَا، وَإِلَّا خَاضَ مَعْرَكَةً فِي غَيْرِ مَيْدَانٍ، وَدَخَلَ فِي دَائِرَةِ الْجِهَادِ الْعَبَثِيِّ الَّذِي لَا يَحُلُّ قَضِيَّةً، وَلَا يَخْدُمُ أَحَدًا.

وَلِهَذَا حِينَمَا طَلَبَ بَعْضُ الْإِخْوَةِ الْعَائِدِينَ مِنْ حَرْبِ فَلَسْطِينَ مِنَ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ - عِنْدَمَا حُلَّتِ الْجَمَاعَةُ - أَنْ يَصْطَدُّوا بِأَنْظِمَةِ الْحُكْمِ الْقَائِمَةِ، وَكَانَتْ كِتَابُ الْإِخْوَانِ عَائِدَةً لِتَوْهَا مِنْ فَلَسْطِينَ بِسِلَاحِهَا، فَقَالُوا لَهُ: «نَتَغَدَّى» بِهِمْ قَبْلَ أَنْ (يَتَعَشَّوْا) بِنَا، فَرَفَضَ الرَّجُلُ، وَقَالَ: «لَنْ نُضِيعَ الْأُمَّةَ مِنْ أَجْلِ الْحُكُومَةِ، وَلَنْ نُضِيعَ الْوَطَنَ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ؛ الْحُكُومَةُ تَقُومُ وَقْتَ مَا تَقُومُ، أَمَّا الْأُمَّةُ فَلَا تَذْبَحُ وَلَا تَضِيعُ، وَالْعِبْرَةُ بِأَخْلَاقِ الْأُمَمِ لَا بِشَكْلِ الْحُكُومَاتِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ تَسْتَحِقُّ الْحُكْمَ الَّذِي تَصْبِرُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا السُّلْطَةُ فَهِيَ تَعْبِيرٌ عَنْ مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ، وَلِذَلِكَ لَنْ



نُضِيعَ الوطنَ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ، أَيْ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَةِ».

رَفَضَ الرَّجُلُ هَذِهِ الْإِنْدِفَاعَةَ لِأَنَّهُ أَعَمَّقُ نَظْرًا وَأَبْعَدُ رُؤْيَةً، يَعْلَمُ أَنَّ الطَّرِيقَ طَوِيلَةً جِدًّا، وَمِنْ الْخَطَا أَنْ يَسْتَعْجَلَ الصَّدَامَ مَعَ أَوَّلِ تَضْيِيقٍ، وَمِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى بَصَرِ الْإِمَامِ الْبَنَّا بِطَبِيعَةِ الطَّرِيقِ، وَشِدَائِدِهِ أَنَّهُ أَوْقَفَ الْإِخْوَانَ عَلَى صُورٍ مِنَ التَّنْكِيلِ الَّتِي سَتَقَعُ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ تَحْدُثَ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي رِسَالَةٍ بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ: «أَحَبُّ أَنْ أُصَارِحَكُمْ أَنْ دَعَوْتُكُمْ لَا زَالَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَيَوْمَ يَعْرِفُونَهَا وَيُدْرِكُونَ مَرَامِيهَا سَتَلْقَى مِنْهُمْ خُصُومَةً شَدِيدَةً وَعَدَاوَةً قَاسِيَةً، وَسَتَجِدُونَ أَمَامَكُمْ كَثِيرًا مِنَ الْمَشَقَّاتِ، وَسَيَعْتَرِضُكُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْعُقَبَاتِ ... وَسَتَدْخُلُونَ بِذَلِكَ - وَلَا شَكَّ - فِي دَوْرِ التَّجَرُّبَةِ وَالْإِمْتِحَانِ، فَتُسَجِّنُونَ وَتُعْتَقِلُونَ، وَتُنْقَلُونَ وَتُشَرَّدُونَ، وَتُصَادَرُ مَصَالِحُكُمْ، وَتُعْطَلُ أَعْمَالُكُمْ، وَتُفْتَشَّ بُيُوتُكُمْ، وَقَدْ يَطُولُ بِكُمْ مَدَى هَذَا الْإِمْتِحَانِ: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]» (80).

وَشَبِيهُهُ بِمَوْقِفِ الْأُسْتَاذِ الْبَنَّا مَا عُرِفَ عَنِ الْأُسْتَاذِ حَسَنِ الْهُضَيْنِيِّ مِنَ التَّرَوِّيِّ فِي تَقْدِيرِ الْمَوَاقِفِ، وَرَفُضِ الْإِنْدِفَاعِ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ قَبْلَ أَوَانِهَا؛ فَفِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ وَاجِبِ الْإِخْوَانِ فِي الْكِفَاحِ، قَالَ: «وَلَا يَزَالُ بَيْنَ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكِفَاحِ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ أَمَدٌ بَعِيدٌ، وَالْأُمُورُ إِلَى أَوْقَاتِهَا، ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: 60]» (81).

إِنَّ مَوَاقِفَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْعُقَلَاءِ وَالْقَادَةِ الْحُكَمَاءِ هِيَ الَّتِي نَأَتْ بِأَبْنَاءِ

(80) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة بين الأمس واليوم، ص 515، وما بعدها.

(81) مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْحَلِيمِ، الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ: أَحْدَاثُ صَنَعَتِ التَّارِيخَ - رُؤْيَا مِنَ الدَّخْلِ، الْجُزْءُ الثَّانِي، الْبَابُ السَّادِسُ؛ وَأَصْلُ التَّصْرِيحِ مَشْهُورٌ فِي جَرِيدَةِ الْمَصْرِيِّ، 3 يَنَآيِرَ 1952 م.

الدَّعْوَةُ أَنْ تُنْفَقَ أَعْمَارُهَا فِي غَيْرِ طَائِلٍ، أَوْ تُسْفَكَ دِمَاؤُهَا فِي غَيْرِ مُوجِبٍ، مِمَّا يُسَمَّى (الْجِهَادُ الْعَبْثِيُّ) الَّذِي يَقَعُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ وَهُوَ جِهَادٌ لَا يَحُلُ قَضِيَّةً، وَلَا يَخْدُمُ أَحَدًا، وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ (الْجِهَادَ) مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ حَتَّى لَا يَتَوَرَّطَ فَصِيلُهُ فِي مَازِقٍ قَدْ تَلَجَّجَتْ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْجِهَادِ الْعَبْثِيِّ.

وَلَمْ يَذْكُرِ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ (الْجِهَادَ)، قَبْلَ أَرْكَانِ مُهِمَّةٍ يَجِبُ أَنْ تُؤَسَّسَ أَوَّلًا، فَلَا يَصِحُّ الْحَدِيثُ عَنْ (جِهَادٍ) قَبْلَ بِنَاءِ أَرْكَانِ: (الْفَهْمُ)، وَ(الْإِخْلَاصُ)، ثُمَّ (الْعَمَلُ)؛ بِمَرَاتِبِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمِنْهَا: تَحْرِيرُ الْوَطَنِ، ثُمَّ إِقَامَةُ الْحُكُومَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَكَمَا ذَكَرْنَا سَابِقًا قَوْلَ الشَّيْخِ الْقُرْصَاوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ وُجُودَ الْحُكُومَةِ الْمُسْلِمَةِ يَسْتَدْعِي وَجُودَ أَرْضٍ مُحَرَّرَةٍ، وَقُوَّةَ يُؤَازِرُهَا تَيَّارٌ عَارِمٌ يُنَادِي بِهَا، وَيُبَشِّرُ بِهَا، وَهَذِهِ الْأُمُورُ إِذَا تَحَقَّقَتْ فِي الْمُجْتَمَعِ النَّاشِئِ، مَنَحَتْهُ حَقَّ الْإِنْطِلَاقِ مِنْ أَجْلِ تَسْلِيمِ السُّلْطَانِ وَتَقْرِيرِ النِّظَامِ.

وَمِنْ فَهْمِ الْإِمَامِ الْبَنَّا أَنْ جَعَلَ الْعَمَلَ مَرَاتِبَ وَخُطُواتٍ، وَقَدْ بَدَأَ بِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ الْوَطَنِ الْمَحْرَّرِ، ثُمَّ الْحُكُومَةِ الْمُسْلِمَةِ، ثُمَّ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ؛ فَإِذَا تَكَوَّنَتْ لِلْمُسْلِمِينَ دَوْلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ قَوِيَّةٌ، تُؤْمِنُ بِمَبَادِي الْإِسْلَامِ، وَتَتَّخِذُهُ مِنْهَا حَيَاةً، فَهِيَ الَّتِي تَقُومُ بَعْدَ ذَلِكَ بِرَفْعِ لُؤَاءِ الدَّعْوَةِ وَالْجِهَادِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُطَالِبَهَا بِأَنْ تُبَلِّغَ دَعْوَتَنَا لِلْعَالَمِ، وَأَنْ تُخْضِعَ لَهَا كُلَّ جَبَّارٍ، وَأَنْ تَعُمَّ بِهَا أَفَاقَ الْأَرْضِ.

تَصَوُّرَاتٌ خَاطِئَةٌ لِمَعْنَى الْجِهَادِ

يَنْبَغِي قَبْلَ أَنْ نَعْرِضَ لِبَعْضِ صُورِ التَّشْوِيهِ الَّتِي لَحِقَتْ مَعْنَى (الْجِهَادِ)؛ أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ فَهْمَ (الْجِهَادِ) مَعْنَاهُ: أَنْ يَضْبِطَ الْمُسْلِمُ عِلَاقَتَهُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ،

فَأَمَّا جِهَادُهُ لِنَفْسِهِ فَهُوَ - بِإِجَازٍ - أَنْ يَحْمِلَهَا عَلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى، وَأَنْ يَنَأَى بِهَا عَمَّا يُغْضِبُ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَمَّا الْغَيْرُ فَقَدْ يَكُونُ مُسْلِمًا وَقَعَ فِي ظُلْمٍ أَوْ ابْتِدَعَ أَوْ أَتَى مُنْكَرًا، وَالْمُسْلِمُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَنْصَحَ أَخَاهُ وَيَنْهَاهُ عَنِ ظُلْمِهِ وَأَنْ يُغَيِّرَ الْمُنْكَرَ حَسَبَ طَاقَتِهِ، وَمَا يُتِيحُهُ فَقَهُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (بِالْيَدِ أَوْ اللَّسَانِ أَوْ الْقَلْبِ)؛ حَتَّى يَبْقَى الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ فِي حَالَةٍ إِصْلَاحٍ دَائِمٍ يَقُومُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَلَا يَظْهَرُ فِيهِ مُنْكَرٌ أَبَدًا كَانَ نَوْعُهُ أَوْ دَرَجَتُهُ حَتَّى يَجِدَ مَنْ يُقَاوِمُهُ، وَيَسْعَى لِتَغْيِيرِهِ.

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْغَيْرُ شَيْطَانًا يُجَاهِدُهُ الْمُسْلِمُ، وَيُقَاوِمُ وَسَاوِسَهُ وَهَمَزَاتِهِ، وَقَدْ يَكُونُ الْغَيْرُ إِنْسَانًا غَيْرَ مُسْلِمٍ (يَهُودِيٌّ - نَصْرَانِيٌّ - مُلْحِدٌ)، وَهَذَا كَلَامٌ يَطُولُ فِي فَقِهِ (الْجِهَادِ) وَلَا يَتَّسِعُ لَهُ الْمَقَامُ، فَثَمَّةُ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الْمُسْلِمِ مُسَالِمًا، وَأَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا أَوْ مُعْتَدِيًا، وَثَمَّةُ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ الْمُسْلِمِ فَرْدًا، وَأَنْ يَكُونَ مُجْتَمَعًا أَوْ دَوْلَةً، وَثَمَّةُ فَرْقٍ بَيْنَ مُسْلِمٍ يَعِيشُ فِي دَوْلَةٍ أَوْ رِبِّيَّةٍ، وَآخَرَ يَعِيشُ فِي دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، فَإِنَّ هَامِشَ الْحُرِّيَةِ الْمُتَاحَ لِلْمُسْلِمِ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ يَخْتَلِفُ مِنْ دَوْلَةٍ لِأُخْرَى وَمِنْ مُجْتَمَعٍ لِآخَرَ، وَلَا يَعْنِي هَذَا بِالضَّرُورَةِ أَنَّ هَامِشَ الْحُرِّيَةِ فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَكْبَرُ، فَكُلُّنَا يَشْهَدُ أَنَّ دَعْوَتَنَا لَا تَزَالُ تَلْقَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْوَاعًا مِنَ التَّضْيِيقِ وَالْمُعَوَّقاتِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ انْطِلَاقِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُولِ.

وَيُفْهَمُ مِمَّا سَبَقَ أَنَّ فَقَهُ (الْجِهَادِ) يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ يَطُولُ، غَيْرَ أَنَّنا نَشِيرُ إِلَى سِتِّ آيَاتٍ تَضْبِطُ صِلَةَ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُجْتَمَعَاتِ؛ لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ سِتَّةَ مَبَادِيٍّ، يَقُولُهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ صِرَاحَةً، وَهِيَ:

1 - حُرِّيَةُ الْإِعْتِقَادِ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].



2 - التَّعَاوُنُ وَالتَّعَارُفُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13].

3 - التَّحْذِيرُ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: 190].

4 - الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَاتِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

5 - الْمُعَامَلَةُ بِالْمِثْلِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [الحج: 126].

6 - إِعْدَادُ الْقُوَّةِ لِصَدِّ الْعُدْوَانِ وَتَأْمِينِ الدَّعْوَةِ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60].

فَهَذِهِ الْآيَاتُ ضَوَابِطُ شَرْعِيَّةٍ حَاكِمَةٌ لِجِهَادِ الْمُسْلِمِينَ غَيْرِهِمْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَادَلَ فِيهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ آيَاتٍ مُحْكَمَةٍ الدَّلَالَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَفْهُومَ (الْجِهَادِ) وَاحِدٌ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي اضْطَرَبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي فَهْمِهَا، مَا بَيْنَ إِفْرَاطٍ وَتَفْرِيطٍ، فَأُولَئِكَ الْحَمَاسَةِ أَفْرَطُوا فِي فَهْمِ مَعْنَى (الْجِهَادِ) وَحَصَرُوهُ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِهَا وَهُوَ الصَّدَامُ الْعَنِيفُ، وَالتَّغْيِيرُ بِالْقُوَّةِ دُونَ مُرَاعَاةِ لِضَوَابِطِ الْجِهَادِ، وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى مَوْقِفَيْنِ مِنْ قَبْلُ أُولَئِكَ الْحَمَاسِيِّينَ الْمُتَهَوِّرِينَ، وَرَأَيْنَا كَيْفَ رَدَّ عَلَيْهِمَا الْمُرْشِدَانِ الْجَلِيلَانِ حَسَنُ الْبَنَاءِ، وَحَسَنُ الْهُضَيْبِيِّ. وَالْحَقُّ أَنَّ نَبْرَةَ الْحَمَاسَةِ الْمُتَهَوِّرَةِ هَذِهِ تَتَجَدَّدُ مَعَ كُلِّ أَزْمَةٍ تَدْخُلُ فِيهَا الْجَمَاعَةُ مَعَ السُّلْطَةِ الْحَاكِمَةِ!

وَيَحْسُنُ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنْ نُشِيرَ إِلَى حَدِيثِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيْمِ عَنْ الْجِهَادِ وَمَرَاتِبِهِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَجْعَلُونَ كَلِمَةَ (الْجِهَادِ) مُرَادِفَةً لِكَلِمَةِ (الْقِتَالِ)، وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّ مَعْنَى (الْجِهَادِ) أَوْسَعُ وَأَعَمُّ مِنْ مَعْنَى



الْقِتَالُ؛ فَلَيْسَ الْقِتَالُ أَوْ التَّغْيِيرُ بِالْقُوَّةِ إِلَّا دَرَجَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الْجِهَادِ، وَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَلْجَأُوا إِلَى الْقُوَّةِ إِذَا أُجْدِيَ غَيْرُهَا، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ حَرِيصًا يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ عَلَى تَجَنُّبِ الصَّدَامِ أَوْ الْقِتَالِ مَعَ فُرَيْشٍ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَتَدَبَّرَ مَلِيًّا قَوْلَهُ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ⁽⁸²⁾ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»⁽⁸³⁾، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ ﷺ: «وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي فُرَيْشَ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»⁽⁸⁴⁾.

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْقِتَالَ أَوْ (القُوَّةَ) لَا يَكُونُ حَلًّا فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَالْأَحْوَالِ، وَلَيْسَ مَعْنَى الْجِهَادِ وَقْفًا الْقِتَالِ أَوْ الْعُنْفِ، فَلَا مَأْمُومٌ ابْنُ الْقِيَمِ جَعَلَ الْجِهَادَ أَرْبَعَ مَرَاتِبَ، فَقَالَ: «فَالْجِهَادُ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ: جِهَادُ النَّفْسِ، وَجِهَادُ الشَّيْطَانِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ»⁽⁸⁵⁾، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مَرَاتِبَ كَذَلِكَ؛ وَدَعَاكَ مِنْ حَدِيثِهِ عَنْ مَرَاتِبِ جِهَادِ النَّفْسِ أَوْ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّ مَا يَعْنِيَانَا هُنَا حَدِيثُهُ عَنْ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ؛ فَهُمَا أَلَدُّ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ؛ يَقُولُ ابْنُ الْقِيَمِ: «وَأَمَّا جِهَادُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فَأَرْبَعُ مَرَاتِبَ: بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْمَالِ، وَالنَّفْسِ، وَجِهَادُ الْكُفَّارِ أَخْصُّ بِالْيَدِ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ أَخْصُّ بِاللِّسَانِ»⁽⁸⁶⁾.

وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ دَعْوَةَ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ لَا

(82) أَيُّ: مِنْ تَرْكِ الْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ، وَحَتَّى الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى: «يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ»، فَإِنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ مِنْ جُمْلَةِ حُرْمَاتِ اللَّهِ.

(83) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (2731).

(84) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، رَقْمُ الْحَدِيثِ (18910)، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

(85) ابْنُ قِيَمٍ الْجَوْزِيَّة: زَادَ الْمَعَادَ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ، تَحْقِيقُ شُعَيْبِ الْأَرْنَؤُوطِ، وَعَبْدُ الْقَادِرِ الْأَرْنَؤُوطِ، ط 1، مَوْسُئَةُ الرِّسَالَةِ، بِيْرُوت - لُبْنَان، 1417هـ - 1996م، 3 / 9.

(86) ابْنُ قِيَمٍ الْجَوْزِيَّة: زَادَ الْمَعَادَ فِي هَدْيِ خَيْرِ الْعِبَادِ، 3 / 10.



تُجَاهِدُ كَفَّارًا فِي الْغَالِبِ⁽⁸⁷⁾؛ وَإِنَّمَا تُجَاهِدُ مُجْتَمَعًا مُسْلِمًا انْحَرَفَ كَثِيرٌ مِنْ أبنائه عَنْ مبادئ الإسلام وواجباته وأخلاقه؛ فَوَقَعُوا فِي مُنْكَرَاتٍ أَوْ مَظَالِمٍ أَوْ بِدَعٍ؛ وَغَايَةُ الْإِخْوَانِ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنَ الدَّعْوَةِ أَنْ تَكُونَ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ، وَأَنْ تُعِيدَ الْمُجْتَمَعَاتِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِمَعْنَاهُ الشَّامِلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ وَمِنْ ثَمَّ رُبَّمَا يَكُونُ حَدِيثُ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ جِهَادِ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ، أَقْرَبَ مَرَاتِبِ الْجِهَادِ إِلَى دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَحَلَتِهَا الرَّاهِنَةِ، وَأَوَّلَاهَا بِالْعِنَايَةِ. يَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ: «وَأَمَّا جِهَادُ أَرْبَابِ الظُّلْمِ وَالْبِدَعِ وَالْمُنْكَرَاتِ فَثَلَاثُ مَرَاتِبٍ، الْأُولَى: بِالْيَدِ إِذَا قَدَّرَ، فَإِنْ عَجَزَ انْتَقَلَ إِلَى اللِّسَانِ، فَإِنْ عَجَزَ جَاهَدَ بِقَلْبِهِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةٌ عَشْرَ مَرْتَبَةٍ مِنَ الْجِهَادِ، وَ«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»⁽⁸⁸⁾.

وَلَا يَبْعُدُ كَلَامُ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ كَلَامِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ السَّالِفِ، هُوَ ذَاتُهُ الْحَدِيثُ الْوَارِدُ فِي تَعْرِيفِ الْإِمَامِ النَّبَا رُكْنَ (الْجِهَادِ)، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ رِوَايَةُ الْحَدِيثِ بَيْنَهُمَا، كَمَا أَشَارَ الْإِمَامُ النَّبَا إِلَى ثَلَاثَةِ الْمَرَاتِبِ السَّابِقَةِ فِي كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ؛ مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْإِمَامَ النَّبَا مَعْنِي فِي رُكْنِ (الْجِهَادِ) بِإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ وَالْأُمَّةِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِ بِمَرَاتِبِ الْجِهَادِ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّهُ تَنَاوَلَهَا فِي الرُّكْنِ السَّابِقِ (الْعَمَلِ)، يَقُولُ الْإِمَامُ النَّبَا فِي تَعْرِيفِ رُكْنِ (الْجِهَادِ): «وَأُرِيدُ

(87) وَلَا يَمْنَعُ هَذَا مِنْ أَنَّ (الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ)، بَلِ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ كُلَّهَا، قَدْ تَضَطَّرَّ فِي وَقْتِ مَا أَوْ مَكَانٍ مَا إِلَى حَرْبٍ مَعَ الْكُفَّارِ أَوْ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى، وَمَا حَرْبُ إِخْوَانِكُمْ فِي غَزَاةٍ مَعَ الْيَهُودِ الْمَلَاعِينِ بَعِيدَةٌ عَنَّا، لَكِنْ تَقْسِيمُ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ (الْجِهَادَ) إِلَى مَرَاتِبٍ وَفُتَاتٍ؛ يَعْنِي أَنْ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ أَوْ فِتْنَةٍ فِقْهًا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَغِيبَ هَذَا الْفِقْهُ عَنِ الْأَخِ الْمُسْلِمِ وَهُوَ يَسْعَى إِلَى إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ وَتَعْيِيدِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، حَتَّى لَا يُقَدِّمَ مَرْتَبَةً عَلَى أُخْرَى، أَوْ يَضَعُ مَرْتَبَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، أَوْ يَسْتَخْدِمَ وَسِيلَةً فِي غَيْرِ أَوَانِهَا، وَقَدِيمًا قَالَ الْمُتَنَبِّي:

وَوَضَعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا مُضَرُّ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

(88) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، 3 / 10.



بِالْجِهَادِ: الْفَرِيضَةُ الْمَاضِيَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْمَقْصُودَةُ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَنْوِ الْغَزَا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)⁽⁸⁹⁾، وَأَوَّلُ مَرَاتِبِهِ انْكَارُ الْقَلْبِ، وَأَعْلَاهَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَبَيْنَ ذَلِكَ جِهَادُ اللِّسَانِ وَالْقَلَمِ، وَالْيَدِ وَكَلِمَةُ الْحَقِّ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ، وَلَا تَحْيَا دَعْوَةٌ إِلَّا بِالْجِهَادِ، وَيَقْدَرُ سُمُو الدَّعْوَةِ وَسَعَةُ أَفْقِهَا، تَكُونُ عَظَمَةُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا، وَضَخَامَةُ الثَّمَنِ الَّذِي يُطْلَبُ لِتَأْيِيدِهَا، وَجَزَالَةُ الثَّوَابِ لِلْعَامِلِينَ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: 78]. وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ مَعْنَى هُتَافِكَ الدَّائِمِ: (الْجِهَادُ سَبِيلُنَا)⁽⁹⁰⁾.

عَلَى أَنَّ الْأُسْتَاذَ النَّبَا ﷺ تَكَلَّمَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ رَسَائِلِهِ عَنِ (الْجِهَادِ)، فَفَصَّلَ الْأَمْرَ تَفْصِيلًا حَسَنًا لَا مَغْنَى عَنْ قِرَاءَتِهِ كَامِلًا؛ لِأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى عِلَاقَةِ أُمْتِنَا بِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَخُلَاصَةً مَا قَالَهُ الْإِمَامُ النَّبَا ﷺ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي اخْتَارَ فِيهِ (الْجِهَادَ) تَأْمِينًا لِلدَّعْوَةِ وَصَدًّا لِلْعُدْوَانِ، دَعَا إِلَى انْتِهَاءِ الْخُصُومَةِ وَالِدَّعْوَةِ إِلَى السَّلَامِ، فَقَالَ: «وَمَعَ هَذَا فَقَدْ رَحَّبَ الْإِسْلَامُ بِالْوَسَائِلِ السَّلَامِيَّةِ وَإِنْهَاءِ الْخُصُومَةِ مُتَى أَذَّتْ هَذِهِ الْوَسَائِلُ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ الْكَامِلِ لِأَصْحَابِهِ، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61]. وَمَا خَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا»⁽⁹¹⁾، ثُمَّ عَدَّدَ الْإِمَامُ النَّبَا ﷺ صُورَ السَّلَامِ فَقَالَ: «وَمِنَ السَّلَامِ الْمُفَاوِضَةُ إِذَا أَوْصَلْتَ إِلَى الْحَقِّ

(89) رواه مسلم في صحيحه، رقم (1910)، بهذا اللفظ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، نَ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»، وَهِيَ الرِّوَايَةُ ذَاتُهَا الَّتِي وَرَدَتْ فِي كَلَامِ الْإِمَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ، وَالْحَقُّ أَنَّ رَوَايَاتِ الْحَدِيثِ كُلَّهَا تَنْتَهِي بِ (مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ) بَدَلًا مِنْ (مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) الَّتِي وَرَدَتْ فِي كَلَامِ الْإِمَامِ النَّبَا، وَلَعَلَّهُ خَلَطَ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَحَدِيثِ الْبَيْعَةِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ كَذَلِكَ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، صَحِيحُ مُسْلِمٍ، رَقْم (1851).

(90) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 274.

(91) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، مشكلاتنا الاقتصادية في ضوء النظام الإسلامي، ص 635.

الكَامِل، وَقَدْ فَاوَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحُدُيَّةِ، وَمِنَ السَّلْمِ التَّحَاكُمُ إِذَا أَدَّى إِلَى هَذَا الْحَقِّ أَيْضًا. وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - أَوْ أَحَدًا مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ - رَضِيَ بِتَحْكِيمِ كَافِرٍ. وَلَكِنَّهُ مُقْتَضَى عُمُومِ الْآيَةِ، وَلَا زِمَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى الْخَيْرِ، الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ الْإِسْلَامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مَتَى كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ» (92).

هَذَا كَلَامُ الْإِمَامِ الْبَنَّا فِي رِسَالَةِ (مُشْكِلَاتُنَا فِي ضَوْءِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ)، وَمِنَ الْخَيْرِ قِرَاءَتُهُ كَامِلًا لِمَا فِيهِ مِنْ فِقْهِ، بَلْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَقْرَأَ رِسَالَةَ (الْجِهَادِ) الَّتِي كَتَبَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ هَذَا الرُّكْنِ لِمَا يَكْتَفِيهِ مِنْ إِشْكَالَاتٍ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ كَلَامَ الْإِمَامِ الْبَنَّا السَّالِفَ يُعَلِّمُنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ مِنَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى الْخَيْرِ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ الْإِسْلَامُ إِذَا كَانَ فِي مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ؛ كَمَا يُعَلِّمُنَا كَيْفَ نَتَّعَاوُنُ مَعَ الْغَيْرِ عَلَى الْخَيْرِ إِذَا أُتِيحَ لَنَا، وَلَا نَعْجِزُ عَنْهُ أَوْ نَتَجَمَّدُ أَوْ نَرْتَبِكُ فَلَا نُحَسِّنُ التَّعَامُلَ مَعَهُ، لِأَنَّ هَذِهِ سُنَّةٌ مَوْجُودَةٌ وَقَائِمَةٌ، وَمَنْ يَقْرَأُ تَفَاصِيلَ صَلَاحِ الْحُدُيَّةِ فِي كُتُبِ السَّيَرَةِ؛ فَسِيرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ حَرِيصًا عَلَى تَجَنُّبِ الْقِتَالِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَقَدْ سَلَفَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «وَاللَّهُ لَا تَدْعُونِي فَرِيضَ الْيَوْمِ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونِي فِيهَا صَلَاةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» (93)، وَلَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْمَقُولَةِ؛ فَإِنَّ عُلَمَاءَ السَّيَرَةِ قَدْ رَوَوْا مَوَاقِفَ عَمَلِيَّةَ غَيْرِ هَذِهِ الْمَقُولَةِ تُؤَكِّدُ حِرْصَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الصُّلْحِ وَتَجَنُّبِ الْقِتَالِ مَا اسْتَطَاعَ.

فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ خَرَجَ يَوْمَ الْحُدُيَّةِ يُرِيدُ الْعُمْرَةَ، بَعْدَ أَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ ﷺ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ مُحَلَّقِينَ

(92) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، مشكلاتنا الاقتصادية في ضوء النظام الإسلامي، ص 635.

(93) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث (18910)، وإسناده حسن.



رُؤُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ؛ أَيَّ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَخْرُجْ لِقِتَالٍ أَوْ حَرْبٍ؛ لَكِنَّهُ ﷺ مَا كَادَ يَبْلُغُ وَادِيًا قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ، حَتَّى أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ وَمَانِعُوكَ، وَكَانَ أَوَّلُ تَدْبِيرٍ يَتَّخِذُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، هُوَ اسْتِشَارَةُ أَصْحَابِهِ فِي الْأَمْرِ، وَهَذَا يُعَلِّمُنَا ضَرُورَةَ الشُّورَى فِي الْمَوَاقِفِ الْحَرَجَةِ، فَلَا يَنْفَرُ الْقَائِدُ فِيهَا بِالرَّأْيِ، فَقَالَ ﷺ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرُونَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذُرَارِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوَنَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ»؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهَ لَهُ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ.

وَقَدْ حَاوَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ الْإِغَارَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - وَكَانَ عَلَى الشَّرْكِ يَوْمَئِذٍ - فِي مَائَتِي فَارِسٍ، وَصَفَّ خَيْلَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فَهَنَّا نَزَلَ الْوَحْيُ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ، وَهَذِهِ أَوَّلُ صَلَاةِ خَوْفٍ صَلَّاهَا الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ لَجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَسِيلَةٍ أُخْرَى لِتَجَنُّبِ الْقِتَالِ، إِذْ انْحَرَفَ عَنْ طَرِيقِ الْمُشْرِكِينَ وَنَزَلَ بِالْحَدِيثِ لِيَتَفَادَى الْإِصْطِدَامَ وَالْإِشْتِبَاكَ مَعَ خَيْلِ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «مَنْ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الَّتِي هُمْ بِهَا؟». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَسْلَمَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعِزًّا أَجْرَلْ، وَفِي قِصَّةِ هَذَا الصُّلْحِ تَفَاصِيلُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى سَعَةِ أَفْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الْحَرْبَ لَمْ تَكُنْ لَدَيْهِ غَايَةً فِي ذَاتِهَا، فَقَدْ جَادَلَ رَسُولُ قُرَيْشٍ بِالْحُسْنَى، وَرَغِمَ أَنْ قُرَيْشًا مَنَعَتْهُ الْعُمَرَةُ هَذَا الْعَامَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قَبِلَ حَتَّى يُجَنَّبَ الْمُسْلِمِينَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، حَتَّى تَعْنَتْ الْمُشْرِكِينَ فِي كِتَابَةِ بُنُودِ الصُّلْحِ، تَغَاضَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَفِي مُقَابِلِ الْمُتَحَمِّسِينَ الْمُتَهَوِّرِينَ، ثَمَّةَ مَنْ يُفَرِّطُ فِي مَعْنَى (الْجِهَادِ) أَوْ يُمَيِّعُهُ إِنْ أَرَدْنَا الدَّقَّةَ، وَيَرُونَهُ تَهْمَةً تَعِيبُ دِينَنَا الْإِسْلَامِيَّ، وَمِنْ ثَمَّ يَسْعَوْنَ لِتَقْدِيمِ الْمُسَوِّغَاتِ وَالْأَعْذَارِ لِحَرَكَةِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي نَشَرَتْ الْإِسْلَامَ فِي رُبُوعِ الْأَرْضِ، وَإِلَى هَؤُلَاءِ أَشَارَ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، خِلَالَ حَدِيثِهِ عَنْ فَحْهِ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ، وَعَلَّلَ مَوْقِفَهُمُ الْمَائِعَ هَذَا بِأَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُمَا - انْهَزَامُهُمُ الرُّوحِيَّ وَالْعَقْلِيَّ أَمَامَ شُبُهَاتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الَّذِينَ اتَّهَمُوا الْإِسْلَامَ بِأَنَّهُ دِينٌ انْتَشَرَ أَوْ فُرِضَ عَلَى الْأُمَمِ الَّتِي اعْتَنَقَتْهُ بِحَدِّ السَّيْفِ!

ثَانِيَهُمَا - خَلَطُهُمْ بَيْنَ نُصُوصٍ وَمَوَاقِفَ لَا يَصَحُّ الْخَلْطُ بَيْنَهُمَا، وَلِهَذَا جَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْمُدَافِعِ عَنْ تَهْمَةٍ غَيْرِ حَقِيقَةٍ. يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمَهْزُومُونَ رُوحِيًّا وَعَقْلِيًّا مِمَّنْ يَكْتُبُونَ عَنِ (الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ)، لِيُدْفَعُوا عَنِ الْإِسْلَامِ هَذَا الْاِتِّهَامَ، يَخْلِطُونَ بَيْنَ مَنْهَجِ هَذَا الدِّينِ فِي النَّصِّ عَلَى اسْتِنْكَارِ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْعَقِيدَةِ، وَبَيْنَ مَنْهَجِهِ فِي تَحْطِيمِ الْقُوَى السِّيَاسِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَهُ، وَالَّتِي تُعَبِّدُ النَّاسَ لِلنَّاسِ، وَتَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ.. وَهُمَا أَمْرَانِ لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهُمَا وَلَا مَجَالَ لِلِالْتِبَاسِ فِيهِمَا.. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا التَّخْلِيطِ، وَقَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْهَزِيمَةِ! يُحَاوِلُونَ أَنْ يَحْضُرُوا الْجِهَادَ فِي الْإِسْلَامِ فِيمَا يُسَمُّونَهُ الْيَوْمَ (الْحَرْبَ الدَّفَاعِيَّةَ).. وَالْجِهَادُ أَمْرٌ آخَرٌ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِحُرُوبِ النَّاسِ الْيَوْمَ، وَلَا بِوَاعِثِهَا، وَلَا تَكْيِيفِهَا كَذَلِكَ.. إِنْ بَوَاعِثَ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ يَنْبَغِي تَلَمُّسُهَا فِي طَبِيعَةِ (الْإِسْلَامِ) ذَاتِهِ وَدَوْرِهِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، وَأَهْدَافِهِ الْعُلْيَا الَّتِي قَرَّرَهَا اللَّهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ مِنْ أَجْلِهَا الرَّسُولَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَجَعَلَهَا خَاتِمَةَ الرِّسَالَاتِ. إِنْ هَذَا الدِّينَ إِعْلَانٌ عَامٌّ لِتَحْرِيرِ (الْإِنْسَانِ) فِي (الْأَرْضِ) مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْعِبَادِ، وَمِنْ الْعُبُودِيَّةِ



لِهَوَاهُ أَيْضًا - وَهِيَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلْعِبَادِ - وَذَلِكَ بِإِعْلَانِ أُلُوْهِيَّةِ اللَّهِ وَحْدَهُ
سُبْحَانَهُ، وَرُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِينَ» (94).

فَهُمْ غَالِطٌ لِمَرَادِ سَيِّدِ قُطْبٍ مِنَ الْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ

هَذِهِ كَلِمَاتُ الْأَسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ بِالنَّصِّ. وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ
هِيَ كَلِمَاتُهُ، ثُمَّ يَحْدُثُ هَذَا الْخَلْطُ، وَيَحْدُثُ هَذَا الْاضْطِرَابُ فِي مَعَانِي
الْجِهَادِ وَصُورِ أَدَائِهِ، وَأَنْ تُلْصَقَ هَذِهِ التُّهْمَةُ بِالْأَسْتَاذِ سَيِّدٍ حِينَمَا كَتَبَ
عَنِ (الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

مَا كَتَبَهُ فِي كِتَابِيهِ (مَعَالِمُ فِي الطَّرِيقِ) وَ(فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ)، يَتَكَلَّمُ
عَنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَيُوضِّحُ مَتَى يَكُونُ الْجِهَادُ بِالْقُوَّةِ الَّتِي حَصَرَ كَثِيرٌ
مِنَ النَّاسِ (الْجِهَادَ) فِيهَا فَحَسَبُ، أَمَّا الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ فَقَدْ قَالَ بَأَنَّهُ
عِنْدَمَا يُوجَدُ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ يَمْنَحُهُ اللَّهُ حَقَّ الْإِنْطِلَاقِ لِتَسْلِمِ السُّلْطَانِ
وَتَقْرِيرِ النِّظَامِ، وَهَذَا أَيْضًا شَرْطٌ مُهِمٌّ يَغْفُلُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَمَعْنَاهُ:
أَنْ ثَمَّةَ وَاجِبَاتٍ تُكَلِّفُ بِهَا الْأُمَّةُ، وَوَاجِبَاتٍ أُخْرَى يُكَلِّفُ بِهَا الْأَفْرَادُ،
أَوْ يُكَلِّفُ بِهَا الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ النَّاشِئُ، وَالْخَلْطُ بَيْنَ هَذِهِ الْوَاجِبَاتِ،
أَوْ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهِ الْأَفْرَادُ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهِ الْمُجْتَمَعُ أَوْ الْأُمَّةُ،
هُوَ مَا يُؤَدِّي إِلَى تَشْوِيهِ مَعْنَى (الْجِهَادِ)، وَإِلَى أَفْعَالٍ خَاطِئَةٍ تَضُرُّ الْعَمَلَ
الْإِسْلَامِيَّ وَلَا تَنْفَعُهُ، وَلِهَذَا حَذَّرَ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْخَلْطِ بَيْنَ
(طَبِيعَةِ الدِّينِ) وَمَنْهَجِهِ الْعَامِّ، وَ(مُقْتَضِيَاتِهِ الْوَقْتِيَّةِ) فَقَالَ: «وَيَجِبُ وَنَحْنُ
نَسْتَعْرِضُ الْوَاقِعَ التَّارِيخِيَّ أَلَّا نَعْمَلَ عَنْ الْاِعْتِبَارَاتِ الذَّاتِيَّةِ فِي طَبِيعَةِ هَذَا
الدِّينِ، وَإِعْلَانِهِ الْعَامِّ وَمَنْهَجِهِ الْوَاقِعِيِّ، وَأَلَّا نَخْلِطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُقْتَضِيَّاتِ
الدَّفَاعِيَّةِ الْوَقْتِيَّةِ» (95).

(94) سيد قطب: معالم في الطريق، الطبعة الشرعية السادسة، دار الشروق، القاهرة، 1399هـ - 1979م، ص 59.

(95) سيد قطب: معالم في الطريق، ص 77.

وَهَذَا شَرْطُ مُهِمٍّ وَتَحْذِيرٌ مُهِمٌّ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ؛ لِأَنَّهُ وَجَدَ أَوْلِيكَ الْمُنْهَزِمِينَ أَمَامَ دَعَاوَى الْمُسْتَشْرِقِينَ وَهُجُومِهِمْ عَلَى مَبْدَأِ (الْجِهَادِ)؛ يَسْتَدْلُونَ بِالْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، الَّذِي أَمَرَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ بِالْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ؛ حَيْثُ قِيلَ لَهُمْ: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء: 77]؛ وَيَقُولُونَ بِأَنَّ الْحَرْبَ فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ حَرْبًا دِفَاعِيَّةً فَحَسْبُ، وَهَذَا تَصَوُّرٌ سَاذِجٌ، وَاسْتِدْلَالٌ غَيْرُ قَوِيمٍ فِي الْاجْتِزَاءِ بَعْضِ النُّصُوصِ، وَتَرْكُ بَعْضِهَا الْآخِرِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي شَأْنِ الْجِهَادِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَيَجِبُ عَلَى مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَكُونَ مُلَمًّا بِهَا كُلِّهَا، وَأَنْ يَفْقَهَ مُلَابَسَاتِهَا التَّارِيخِيَّةَ، وَدِلَالَاتِهَا الشَّرْعِيَّةَ؛ فَقَدْ نَسِيَ أَوْلِيكَ الْمُنْهَزِمُونَ أَمَامَ حِمَايَةِ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنَّ الْكَفَّ عَنِ الْجِهَادِ كَانَ مَرَحَلِيًّا، أَيْ أَنَّهُ مَسْأَلَةٌ خُطَّةٌ لَا مَسْأَلَةٌ مَبْدَأٍ⁽⁹⁶⁾.

فَهَذَا شَرْطُ مُهِمٍّ فِي فَقْهِ (الْجِهَادِ)، يُحْتَمُّ عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَقْصِي نُصُوصَهُ الْكَثِيرَةَ، وَأَلَّا نَجْتَزِيَ بَعْضَهَا دُونَ بَعْضٍ، مَعَ مُرَاعَاةِ السِّيَاقِ التَّارِيخِيِّ لِكُلِّ نَصٍّ مِنْهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ (وَاقِعِيَّةَ الْمَنْهَجِ وَالْحَرَكَةِ) مِنْ أَهَمِّ سِمَاتِ هَذَا الدِّينِ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَتَغْيِيرِهَا، بِمَعْنَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ يُوَاجِهُ الْمُجْتَمَعَ الَّذِي يُصْلِحُهُ بِمَا يُكَافِئُهُ مِنْ وَسَائِلَ، كَمَا أَنَّهُ يُغَيِّرُ الْمُجْتَمَعَ وَيُصْلِحُهُ عَلَى خُطَوَاتٍ وَمَرَاحِلَ، وَلِكُلِّ مَرَحَلَةٍ وَسَائِلٌ مُكَافِئَةٌ لِمُقْتَضَايَاتِهَا وَحَاجَاتِهَا الْوَاقِعِيَّةِ، وَكُلُّ مَرَحَلَةٍ تُسَلِّمُ إِلَى الَّتِي تَلِيهَا.. فَهَذَا الدِّينُ لَا يُقَابِلُ الْوَاقِعَ بِنَظَرِيَّاتٍ مُجَرَّدَةٍ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُقَابِلُ هَذَا الْوَاقِعَ بِوَسَائِلٍ مُتَجَمِّدَةٍ⁽⁹⁷⁾؛ وَلَا رَيْبَ أَنَّ وَاقِعِيَّةَ هَذَا الدِّينِ تُوحِي كَذَلِكَ بِأَنَّهُ مُرْتَبِطٌ فِعْلًا بِالطَّاقَةِ وَوُسْعِ الْمُكَلَّفِ، وَالتَّغْلُبِ عَلَى الضُّغُوطِ وَالتَّصَدِّي لَهَا، وَبِخَاصَّةٍ فِيمَا يَتَّصِلُ بِمَرَحَلَةِ نَشْأَةِ الْمُجْتَمَعَ الْمُسْلِمِ؛ حَيْثُ وَجَدْنَاهُ يَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَكَّةَ

(96) انظر سيد قطب: معالم في الطريق، ص 82.

(97) انظر سيد قطب: معالم في الطريق، ص 57.

بِالصَّبْرِ وَالْكَفِّ عَنِ الْأَذَى، لِأَنَّ هُنَاكَ مُقْتَضِيَاتٍ تَسْتَدْعِي ذَلِكَ.

وَقَدْ فَصَّلَ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مُقْتَضِيَاتِ الصَّبْرِ فِي الْمُرَحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ، فَأَشَارَ إِلَى أَنَّ أَوَّلَ مُقْتَضِيَاتِ الصَّبْرِ حِينَئِذٍ: أَنَّ الْمَرَحَلَةَ الْمَكِّيَّةَ رُبَّمَا كَانَتْ مَرَحَلَةً تَرْبِيَّةً وَإِعْدَادٍ لِلرَّجُلِ الْعَرَبِيِّ عَلَى غَيْرِ مُأَلُوفَاتِهِ وَعَادَاتِهِ، فَيَعُوذُ الصَّبْرَ عَلَى مَا لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ عَادَةً مِنَ الضَّيْمِ وَالْأَذَى، فَلَا يَنْدَفِعُ لِأَوَّلِ مُؤَثِّرٍ، وَلَا يَهْتَاجُ لِأَوَّلِ مُهَيِّجٍ، عَلَى نَحْوِ مَا أَلْفَ وَاعْتَادَ فِي جَاهِلِيَّتِهِ. وَالْأَمْرُ الثَّانِي أَنَّ الدَّعْوَةَ السَّلَامِيَّةَ رُبَّمَا كَانَتْ أَقْوَى أَثَرًا وَأَنْفَذَ فِي بَيْتَةٍ مِثْلَ بَيْتَةِ فُرَيْشِ ذَاتِ الْعُنْجُهِيَّةِ وَالشَّرَفِ، وَالتِّي قَدْ يَزِيدُهَا الصَّدَامُ عِنَادًا وَشِرَاسَةً؛ نَاهِيكَ بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ الْقِتَالُ مِنْ ثَارَاتٍ دَمَوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ كَالَّتِي كَانَتْ بَيْنَ عَبَسَ وَذُبْيَانَ، وَهُمَا أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَالْأَمْرُ الثَّلَاثُ: تَفَادِي قِيَامِ مَقْتَلَةٍ فِي كُلِّ بَيْتٍ وَأُسْرَةٍ. وَالْأَمْرُ الرَّابِعُ: قِلَّةُ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ، وَانْحِصَارُهُمْ فِي مَكَّةَ، فَالدَّعْوَةُ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى بَيْتَاتٍ أُخْرَى بَعْدُ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الصَّدَامَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، قَدْ يُؤَدِّي إِلَى مَحْوِ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ. وَالْأَمْرُ الْخَامِسُ: رُبَّمَا لَمَّا كَانَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْقَائِمِينَ عَلَى تَعْذِيبِ الْمُسْلِمِينَ وَإِذَائِهِمْ، سَيَكُونُونَ مِنْ جُنْدِ الْإِسْلَامِ الْمُخْلِصِينَ، بَلْ مِنْ قَادَتِهِ، أَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَاحِدًا مِنْهُمْ؟! (98)

وَتَمَّةَ شَرْطٍ آخَرَ مِنْهُمْ تَحَدَّثَ عَنْهُ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ كَذَلِكَ، وَيَتَصَلُّ هَذَا الشَّرْطُ بِالْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ وَمَتَى يَكُونُ؟

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ مَنْ يَتَدَبَّرُ كَلَامَ الْأَسْتَاذِ سَيِّدِ رَحِمَهُ اللَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَتْرُكْ أَمْرَ الْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ لِلْهَوَى أَوْ النَّزَوَاتِ الْعَاطِفِيَّةِ، وَإِنَّمَا شَرْطُهُ بِوُجُودِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ الَّذِي تَتَوَفَّرُ فِيهِ عُنَاصِرُ الْقُوَّةِ الثَّلَاثُ: [قُوَّةُ التَّصَوُّرِ

(98) انظر سيد قطب: معالم في الطريق، ص 69، وما بعدها.

وَالْعَقِيدَةَ - قُوَّةُ السُّلُوكِ وَالْخُلُقِ - قُوَّةُ الْبِنَاءِ وَالتَّظْمِيمِ؛ فَإِذَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُوْجِدَ مُجْتَمَعًا تَتَوَفَّرُ فِيهِ عَنَاصِرُ الْقُوَّةِ هَذِهِ؛ فَمِنْ حَقِّ هَذَا الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَنْطَلِقَ مِنْ أَجْلِ تَسْلَمِ السُّلْطَانِ وَتَقْرِيرِ النِّظَامِ. يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ: «وَحَيْثُمَا وُجِدَ التَّجَمُّعُ الْإِسْلَامِيُّ، الَّذِي يَتِمُّثَلُ فِيهِ الْمَنْهَجُ الْإِلَهِيُّ، فَإِنَّ اللَّهَ يَمْنَحُهُ حَقَّ الْحَرَكَةِ وَالْإِنْطِلَاقِ لِتَسْلَمِ السُّلْطَانِ وَتَقْرِيرِ النِّظَامِ، مَعَ تَرْكِ مَسْأَلَةِ الْعَقِيدَةِ الْوِجْدَانِيَّةِ لِحُرِّيَّةِ الْوِجْدَانِ. فَإِذَا كَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ فَتَرَةً عَنِ الْجِهَادِ، فَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ خُطَّةٌ لَا مَسْأَلَةٌ مَبْدَأٌ، مَسْأَلَةٌ مُقْتَضِيَّاتِ حَرَكَةٍ لَا مَسْأَلَةٌ عَقِيدَةٍ.. وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ الْوَاضِحِ يُمَكِّنُ أَنْ نَفْهَمَ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَّةَ الْمُتَعَدِّدَةَ، فِي الْمَرَاكِلِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ، وَلَا نَخْلِطُ بَيْنَ دِلَالَتِهَا الْمَرَحَلِيَّةِ، وَالِدَّلَالَةِ الْعَامَّةِ لِخُطِّ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الثَّابِتِ الطَّوِيلِ» (99).

هَذِهِ أَيْضًا كَلِمَاتُ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِنَصِّهَا، وَقَدْ نَقَلْنَاهَا كَامِلَةً لِكَيْ نُوَكِّدَ أَوَّلًا فِقْهَ الرَّجُلِ لِمَعْنَى (الْجِهَادِ) فِي الْإِسْلَامِ، وَلِكَيْ نُوَكِّدَ ثَانِيًا أَنَّ بَعْضَ الْفَصَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي مَارَسَتْ الْعُنْفَ، وَحَمَلَتْ السَّلَاحَ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ أَوْ هُدًى، قَدْ غَفَلَتْ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الشُّرُوطِ الَّتِي بَيْنَهَا الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ الْمُتَّهَمُ «زُورًا» بِأَنَّهُ مُؤَسَّسُ تِيَارِ الْعُنْفِ فِي الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ.

ثُمَّ لِنُوَكِّدَ ثَالِثًا بِأَنَّ مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ، وَمَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا حَوْلَ الْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاتٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا اخْتَلَفَا إِلَّا فِي طَرِيقَةِ الصِّيَاغَةِ أَوْ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعْنَى، وَانْظُرْ إِلَى مَا قَالَهُ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا عَنِ الْجِهَادِ بِالْقُوَّةِ، وَقَارِنْهُ بِكَلَامِ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، تَجِدُهُ قَرِيبًا مِنْ قَرِيبٍ.

فَقَدْ وَجَدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ النَّاسَ يَتَسَاءَلُونَ: «هَلْ فِي عَزْمِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْتَخْدِمُوا الْقُوَّةَ فِي تَحْقِيقِ أَغْرَاضِهِمْ وَالْوُصُولِ إِلَى غَايَتِهِمْ؟»، فَأَجَابَ إِجَابَةً طَوِيلَةً بَيَّنَّ فِيهَا أَنَّ الْقُوَّةَ شِعَارُ الْإِسْلَامِ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِخْوَانُ أَقْوِيَاءَ، أَمَّا مَتَى يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ الْقُوَّةَ، فَقَدْ اشْتَرَطَ لَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا ثَلَاثَةَ الشُّرُوطِ الَّتِي شَرَطَهَا الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ، وَقَدْ قَالَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا بِهِذِهِ الصِّيغَةِ: (قُوَّةُ الْإِيمَانِ وَالْعَقِيدَةِ، ثُمَّ قُوَّةُ الْوَحْدَةِ وَالْارْتِبَاطِ، ثُمَّ قُوَّةُ السَّاعِدِ وَالسَّلَاحِ). وَالْحَقُّ أَنَّ كَلَامَ الْإِمَامِ الْبَنَّا حَوْلَ (مَوْقِفِ الْإِخْوَانِ مِنَ الْقُوَّةِ)، جَدِيرٌ بِأَنْ يُقْرَأَ كُلُّهُ، لِأَنَّ فِيهِ فِقْهًا عَالِيًّا بِدَرَجَاتِ الْقُوَّةِ وَمَوَاطِنِ اسْتِخْدَامِهَا، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْهَلَ أَبْنَاءُ الصَّفِّ الْكِرَامِ مِثْلَ هَذَا الْفِقْهِ، وَيَحْسُنُ أَنْ أَنْقُلَ هُنَا بَعْضَهُ، حَيْثُ يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

«وَلَكِنَّ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ أَعَمَّقُوا فِكْرًا وَأَبْعَدُوا نَظْرًا مِنْ أَنْ تَسْتَهْوِيَهُمْ سَطَحِيَّةُ الْأَعْمَالِ وَالْفِكَرِ، فَلَا يَغْوُصُّوْنَ إِلَى أَعْمَاقِهَا وَلَا يَزِنُونَ نَتَائِجَهَا وَمَا يُقْصَدُ مِنْهَا وَمَا يُرَادُّ بِهَا، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ الْقُوَّةِ قُوَّةُ الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ، ثُمَّ يَلِي ذَلِكَ قُوَّةُ الْوَحْدَةِ وَالْارْتِبَاطِ، ثُمَّ بَعْدَهُمَا قُوَّةُ السَّاعِدِ وَالسَّلَاحِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تُوصَفَ جَمَاعَةٌ بِالْقُوَّةِ حَتَّى تَتَوَفَّرَ لَهَا هَذِهِ الْمَعَانِي جَمِيعًا، وَأَنَّهَا إِذَا اسْتَخْدَمَتْ قُوَّةَ السَّاعِدِ وَالسَّلَاحِ، وَهِيَ مُفَكَّكَةٌ الْأَوْصَالِ مُضْطَرِبَّةُ النِّظَامِ أَوْ ضَعِيفَةُ الْعَقِيدَةِ، خَامِدَةُ الْإِيمَانِ فَسَيَكُونُ مَصِيرُهَا الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ.

هَذِهِ نَظَرَةٌ، وَنَظَرَةٌ أُخْرَى: هَلْ أَوْصَى الْإِسْلَامُ - وَالْقُوَّةُ شِعَارُهُ - بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ فِي كُلِّ الظُّرُوفِ وَالْأَحْوَالِ؟ أَمْ حَدَدَ لِذَلِكَ حُدُودًا وَاشْتَرَطَ شُرُوطًا، وَوَجَّهَ الْقُوَّةَ تَوْجِيهًا مَحْدُودًا؟



وَنَظَرَةٌ ثَالِثَةٌ: هَلْ تَكُونُ الْقُوَّةُ أَوَّلَ عِلَاجٍ أَمْ أَنَّ آخِرَ الدَّوَاءِ الْكَيْ؟ وَهَلْ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُوَازِنَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ نَتَائِجِ اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ النَّافِعَةِ وَنَتَائِجِهَا الضَّارَّةِ، وَمَا يُحِيطُ بِهِذَا الْاسْتِخْدَامِ مِنْ ظُرُوفٍ؟ أَمْ مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْقُوَّةَ وَلِيَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ؟ هَذِهِ نَظَرَاتٌ يُلْقِيهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أُسْلُوبِ اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهِ، وَالثَّوْرَةُ أَعَنَفُ مَظَاهِرِ الْقُوَّةِ، فَنَظَرُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا أَدَقُّ وَأَعَمَّقُ، وَبِخَاصَّةٍ فِي وَطَنِ كَمِصْرَ جَرَّبَ حَظُّهُ مِنَ الثَّوَرَاتِ فَلَمْ يَجْنِ مِنْ وَرَائِهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُونَ.

وَبَعْدَ كُلِّ هَذِهِ النَظَرَاتِ وَالتَّقْدِيرَاتِ أَقُولُ لَهُؤَلَاءِ الْمُتَسَائِلِينَ: إِنَّ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ سَيَسْتَخْدِمُونَ الْقُوَّةَ الْعَمَلِيَّةَ حَيْثُ لَا يُجْدِي غَيْرُهَا، وَحَيْثُ يَثْقُونَ أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَكْمَلُوا عُدَّةَ الْإِيمَانِ وَالْوَحْدَةِ، وَهُمْ حِينَ يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ الْقُوَّةَ سَيَكُونُونَ شُرَفَاءَ صُرَحَاءَ وَسَيُنْذَرُونَ أَوَّلًا، وَيَتَنَظَّرُونَ بَعْدَ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَدِّمُونَ فِي كَرَامَةٍ وَعِزَّةٍ، وَيَحْتَمِلُونَ كُلَّ نَتَائِجِ مُوقِفِهِمْ هَذَا بِكُلِّ رِضَاءٍ وَارْتِيَاحٍ⁽¹⁰⁰⁾.

وَبَعِيدًا عَنِ تَسَاوُلِ النَّاسِ حَوْلَ مَوْقِفِ الْإِخْوَانِ مِنَ الْقُوَّةِ، يَبْدُو أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا نَفْسَهُ قَدْ لَحَظَ بَعْضَ نُذُرِ الْحَمَاسَةِ الزَّائِدَةِ لَدَى بَعْضِ الْإِخْوَانِ، فَقَالَ يَنْصَحُهُمْ بِكَلِمَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَجِبُ أَنْ يَحْفَظَهَا الْإِخْوَانُ وَأَنْ يَضَعُوهَا نَصَبَ أَعْيُنِهِمْ دَائِمًا، فَهِيَ كَلِمَاتٌ هَادِيَاتٌ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ: أَلْجُمُوا نَزَوَاتِ الْعَوَاطِفِ بِنَظَرَاتِ الْعُقُولِ، وَأَنْبِرُوا أَشْعَةَ الْعُقُولِ بِلَهَبِ الْعَوَاطِفِ، وَأَلْزِمُوا الْخَيَالَ صِدْقَ الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ، وَاکْتَشِفُوا الْحَقَائِقَ فِي أَضْوَاءِ الْخَيَالِ الزَّاهِيَةِ الْبَرَّاقَةِ. وَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ» [النساء: 129]، وَلَا تُصَادِمُوا نَوَامِيسَ الْكَوْنِ فَإِنَّهَا غَلَابَةٌ، وَلَكِنْ غَالِبُوهَا وَاسْتَخْدِمُوهَا وَحَوَّلُوا تَيَارَهَا وَاسْتَعِينُوا

(100) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس. ص 349.

بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، وَتَرَقَّبُوا سَاعَةَ النَّصْرِ وَمَا هِيَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» (101).

بَيْنَ فِقْهِ الْمَحْنَةِ وَاعْتِنَامِ الْفُرْصِ

وَمِنَ الْمَفَاهِيمِ الْخَاطِئَةِ الَّتِي هَيَمَتْ عَلَى كَثِيرِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي الْحَقْلِ الْإِسْلَامِيِّ مَعَ الْأَسَفِ الشَّدِيدِ؛ أَنَّهُمْ تَصَوَّرُوا أَنَّ تَكَرَّرَ الْمَحْنِ وَالِابْتِلَاءَاتِ، وَدُخُولِ الصَّفِّ فِيهَا وَمُوجَهَتِهِ وَتَحْمُلُهُ لَهَا؛ دَلِيلٌ مِصْدَاقِيَّةٌ، وَأَمَارَةٌ سَلَامَةٌ وَصِحَّةٌ، وَيَبْقَى النَّاتِجُ عَنْ ذَلِكَ هُوَ عَجْزُ التَّعَامُلِ مَعَ الْغَيْرِ، وَإِذَا حَاوَلُوا لَمْ يُحْسِنُوا لِأَنَّهُمْ لَمْ يُجَوِّدُوا أَسَالِيِبَهُمْ. وَهَذِهِ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي نَرَاهَا حَوْلَنَا كَثِيرًا؛ حَتَّى إِذَا فَتَحَ هَامِشٌ مِنَ الْحُرِّيَّةِ، فَسُرَّعَانَ مَا تَجِدُ الْفَصِيلَ الْإِسْلَامِيَّ يُغْلِقُهُ بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ التَّعَامُلِ مَعَهُ، صَارَ لَا يُحْسِنُ إِلَّا قَاعِدَةَ الْإِبْتِلَاءِ بِالشَّرِّ وَحْدَهُ، بَوْصَفِهَا دَلِيلًا عَلَى الصَّدَقِ وَالسَّلَامَةِ أَوْ الصَّوَابِ وَالصَّحَّةِ!

وَقَدْ رَأَيْتُ نَمُودَجًا لِهَذَا التَّفَكِيرِ، وَنَحْنُ فِي السَّجْنِ بَعْدَ فِتْرَةِ التَّحْقِيقَاتِ وَالتَّغْذِيبِ الْأُولَى، فَقَدْ بَدَأَ لِنِظَامِ عَبْدِ النَّاصِرِ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابًا مِنَ السَّعَةِ وَالتَّيْسِيرِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْإِخْوَةِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَنَا فِي عَامِ (1965م)، لَكِنَّ بَعْضَ الْإِخْوَةِ رَفَضُوا ذَلِكَ، وَشَكَّلُوا تَيَّارًا دَاخِلَ الصَّفِّ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا سُمِّحَ بِهِ هُوَ زِيَارَةُ بَعْضِ كِبَارِ مُفْتَشِي الدَّاخِلِيَّةِ وَأَعْضَاءِ مَجْلِسِ الشَّعْبِ لَنَا، وَمُرُورُهُمْ عَلَى الزَّنَازِينِ، وَيَسْأَلُونَا: هَلْ لَنَا طَلِبَاتٌ أَوْ أَيَّ شَيْءٍ؟ فَكَانَ هَذَا التَّيَّارُ الرَّافِضُ يَأْبَى التَّعَامُلَ مَعَهُمْ، بَلْ يَرْفُضُ حَتَّى مُجَرَّدَ الْحَدِيثِ أَوْ التَّفَاهُمِ مَعَهُمْ أَوْ أَيَّ شَيْءٍ مَعَهُمْ، ثُمَّ حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ اللَّقَاءَاتِ بَيْنَ رِجَالِ الْمُبَاحِثِ الْعَامَّةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَبَعْضِ الْإِخْوَانِ، فَكَانَ هَذَا التَّيَّارُ يَرْفُضُ كَذَلِكَ الْحَدِيثَ مَعَهُمْ أَوْ التَّفَاوُضَ مَعَهُمْ بِالْمَرَّةِ، وَكَانُوا يُقَابِلُونَهُمْ بِنَوْعٍ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ وَالشُّخْرِيَّةِ، وَحِينَمَا كَانُوا يَدْخُلُونَ

(101) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المؤتمر الخامس، ص 339.

عليهم الزنازين يجدونهم نائمين مادّين أرجلهم في وجوههم. وكان يدخل النائب العام ويسأل هل هناك أي طلبات لنا؟ وكذلك كبار مفتشي الدّاخلية، فلا يرُدّ عليه أحدٌ ولا يكلمه أبداً، وكأنه غير موجود!

ولا ريب أن هذا الأسلوب يزيد الطّين بلّةً كما يقولون، ويزيد الأزيمة. إن رفض أي نوع من التفاهم أو الحوار، وعدم اغتنامه يؤدي إلى مزيد من الجمود والارتباك والعجز في التعامل مع الغير.

كما أذكر ونحن في ليمان (طرة) وفي الأيام الأخيرة جداً سنة (1974)، وكان معنا إخوان كبار، ولهم أسلوبهم في التفكير وعقولهم الناضجة تختلف عن فصيل (1965)، فجاء إلينا فؤاد علام، وجاء معه بعض ضباط الدّاخلية، وقالوا لنا: إنهم يريدون الجلوس مع الإخوان، ليتكلموا معهم، وكان هذا الطلب سبباً في حدوث مشادة بين الفصيلين [فصيل (65)، وفصيل (54)]: كيف نذهب؟ وكيف نقعد معهم؟ لكن في النهاية جلسنا جميعاً، وجاء فؤاد علام إلينا، وبدأ يقول بأن الدولة الآن في مرحلة جديدة، وتظر إلينا بعين جديدة، بالإضافة إلى أنه قد سادت روح الاعتدال والتسامح على سلوكهم وأخلاقهم، وأصبح هناك نوع من التعامل... إلخ. فلما انتهى من كلامه بعد ساعة تقريباً؛ لم يرُدّ عليه أحدٌ، ولم يتفاهم معه أحدٌ؛ غير الأستاذ حامد أبو النصر، فهو الوحيد الذي رفع يده، وطلب أن يتكلم في هذه الجلسة التاريخية، وكان من كلماته ما يأتي: «إن روح التسامح والاعتدال وحسن السلوك ليس غريباً على دعوتنا - من كلماته بالنص - لأنها تنضبط بضوابط الإسلام، والحقيقة يا سعادة العقيد: أن إدارة السجن هي التي تحولت إلى نوع من اللادمية والإنسانية، وأمّا الإخوان فهي فيهم منذ القدم؛ لأنهم منضبطون بضوابط الشرع، وضوابط الإسلام، وإن هذه السنين لا يعدها الإخوان فيتمنون أن



تَمْضِي بِسُرْعَةٍ، بَلْ يَحْسِبُونَ أَنَّهَا فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمْ، وَأَنَّ أَيْ قَرَارٍ تَتَّخِذُهُ الدَّوْلَةُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَعْمَارِنَا أَوْ يَزِيدُهَا شَيْئًا، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]. وَإِنْ مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ مِنَ التَّعْذِيبِ لَمْ يُغَيِّرْ مِنْ عَقِيدَتِنَا شَيْئًا فِي أَنْ نَحْفَظَ لِلْمُحْسِنِ إِحْسَانَهُ وَنَغْفِرَ لِلْمُسِيءِ إِسَاءَتَهُ، وَقَدْ عَلَّمَنَا رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40]. ثُمَّ جَلَسَ، وَكَانَ الْعَقِيدُ بِالطَّبْعِ فَرِحًا جَدًّا.

وَلَمْ يَمْضِ إِلَّا يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ، وَإِذَا بِالنَّهَايَةِ السَّعِيدَةِ، وَقَرَارِ الْإِفْرَاجِ عَنِ الْأُسْتَاذِ حَامِدِ أَبُو النُّصَيْرِ، وَكَانَ هَذَا الْقَرَارُ مُثِيرًا دَاخِلَ السَّجْنِ وَخَارِجَهُ، وَكَانَ بَعْضُ الْفَصِيلِ الْمُعَاصِرِ لِسَنَةِ (65) يَرْفُضُ هَذَا النِّقَاشَ، أَوْ ذَلِكَ الْحِوَارِ، رُغْمَ اعْتِدَالِهِ وَسَمَاحَتِهِ وَضَوَابِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ أَيْ نَوْعٍ مِنَ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ، أَوْ التَّرْخُّصِ فِي مَبَادِئِنَا، أَوْ إِعْلَانٍ لِلتَّيْسِيدِ، إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ النِّقَاطَ، وَخُلَاصَتَهَا: أَنَّنَا لَنْ نَنْسِيَ عَقِيدَتَنَا عَلَى الرُّغْمِ مِنْ مُرُورِ هَذِهِ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ، وَمَا وَقَعَ عَلَيْنَا مِنَ التَّعْذِيبِ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تُعَلِّمُنَا كَيْفِيَّةَ التَّعَامُلِ مَعَ الْغَيْرِ، وَتُعَلِّمُنَا كَذَلِكَ أَنَّ الْقِيَادَةَ الْحَكِيمَةَ هِيَ الَّتِي تَفْتَحُ الْأَبْوَابَ وَلَا تُغْلِقُهَا، وَتُغْتَنِمُ الْفُرْصَ وَفَتْ الْأَزْمَاتِ وَلَا تُضَيِّعُهَا، وَلَا تُغْلِقُ بَابًا قَدْ يَكُونُ فِيهِ انْفِرَاجَةٌ عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَبْنَائِهَا، أَمَّا الْعَاجِزُ الْمُرتَبِكُ فَهُوَ مَنْ يُغْلِقُ الْأَبْوَابَ، وَيَسُدُّ مَنَافِذَ الْخَيْرِ، وَيُسَيِّئُ الظَّنَّ بِكُلِّ يَدٍ تَمُدُّ إِلَيْنَا، وَيَرَى فِي الْاسْتِجَابَةِ لَهَا ضَرْبًا مِنَ التَّرْخُّصِ أَوْ التَّنَازُلِ. إِنْ التَّشَدُّدُ يَحْسَنُهُ كُلُّ أَحَدٍ، أَمَّا الرُّخْصَةُ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِقْهِهِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ بَعْضَ الْفَصَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَإِلَى تَرْسِيخِ رُوحِ التَّسَامُحِ وَالْاعْتِدَالِ فِي الْمُمَارَسَاتِ وَالْمَوَاقِفِ.

وَأَذْكُرُ كَذَلِكَ أَنَّ الْأُسْتَاذَ عُمَرَ التَّلْمِيسَانِيَّ كَتَبَ - حِينَما خَرَجَتْ
الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ الْإِخْوَانِ، وَكُنْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ - فِي جَرِيدَةِ الْأَهْرَامِ
خِطَابًا إِلَى السَّادَاتِ، جَاءَ فِيهِ: كُنَّا أَوَّلَ مَجْمُوعَةٍ خَرَجَتْ بَعْدَ الْحَرْبِ مِنْ
أَجْلِ هَذَا أَشْكُرُهُ، وَكَانَتْ كَلِمَةً طَيِّبَةً. وَكَمَا سَمِعْتُ - لِأَنِّي كُنْتُ خَرَجْتُ
مِنَ السَّجْنِ وَقَتَهَا - حَدَثَ نَوْعٌ مِنَ الْقَلْقِ فِي السَّجْنِ حِينَهَا، وَقَالَ بَعْضُ
الْإِخْوَانِ: لَيْتَهُ مَا كَتَبَ هَذَا الْخِطَابَ! مَنْ قَالَ لَهُ: نَحْنُ نُرِيدُ أَنْ نَخْرُجَ..
وَكَلَامٌ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. لَكِنَّ بَعْضَ الْأُمُورِ تَحْتَاجُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ التَّعْهُدِ
وَالْتَرِيَةِ، وَتَسْتَغْرِقُ فتراتٍ طَوِيلَةً جِدًّا، وَعَدَمُ التَّيَبُّهِ لَهَا أَوْ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا،
يُلْحِقُ الْعَنْتَ بِالْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ أَوْ الْجَمَاعَاتِ؛ فَلَوْ افْتَرَضْنَا أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَسْعَ
إِلَى التَّوَاصُلِ وَالتَّفَاهُظِ، أَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنْ يَزِيدَ عَنْتَ الْإِخْوَةِ الْمَسْجُونِينَ،
وَأَنْ تَطُولَ الْمِحْنَةُ عَلَى أَسْرِهِمْ وَذَوِيهِمْ؟! وَلَا سِيَّما أَنَّ التَّفَاهُظَ لَا يَعْنِي
التَّنَازُلَ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ جَعَلَ الظَّنِّيَّاتِ فِي قُرْآنِهِ الْكَرِيمِ أَكْثَرَ
مِنَ الْقَطْعِيَّاتِ؛ حَتَّى لَا يُضَيِّقَ عَلَيْهَا وَاسِعًا، لِأَنَّ الظَّنِّيَّاتِ مَعْنَاهَا أَنْ تَتَعَدَّدَ
الدَّلَالَاتُ، وَأَنْ تَتَعَدَّدَ تَبَعًا لِذَلِكَ آراءُ الْفُقَهَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، مِمَّا يَفْتَحُ مَنَافِذَ فِي
التَّفْكِيرِ وَالْحَرَكَةِ، وَيَتِيحُ بَدَائِلَ كَثِيرَةً تُسَعِّفُ الدَّعْوَةَ فِي اخْتِلَافِ الظُّرُوفِ
وَالْبَيِّنَاتِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، أَنَّهُ قَالَ: «مَا يُسْرُنِي أَنْ لِي
بِاخْتِلَافِهِمْ حُمَرُ النَّعَمِ»، قَالَ الْقَاسِمُ: «لَقَدْ أَعْجَبَنِي قَوْلُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ
الْعَزِيزِ: «مَا أَحَبُّ أَنْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَخْتَلِفُوا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ
قَوْلًا وَاحِدًا كَانَ النَّاسُ فِي ضَيْقٍ، وَإِنَّمَا أُمَّةٌ يُقْتَدَى بِهِمْ؛ فَلَوْ أَخَذَ أَحَدٌ
بِقَوْلِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كَانَ فِي سَعَةٍ» (102).

(102) انظر أبو إسحاق الشاطبي: الموافقات، تحقيق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط 1، دار
ابن عفان، 1417 هـ - 1997 م، 5/ 68.

وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي وَلَا يَصَحُّ أَنْ يُفْزِعَنَا اخْتِلَافُ الْأَرَاءِ، أَوْ تَعَدُّدُ وَجِهَاتِ
النَّظَرِ، مَا دَامَ الْاِخْتِلَافُ مُحْكُومًا بِضَوَابِطِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ، وَمَا دَامَ مَبْنِيًّا
عَلَى أَسَاسٍ مَكِينٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ، ثُمَّ مَا دُمْنَا نَخْتَلِفُ حَرِيصِينَ
عَلَى تَمَحُّيصِ الْأَدَلَّةِ، وَالْوُصُولِ إِلَى الصَّوَابِ، حَرِيصِينَ عَلَى مَصْلَحَةِ
دَعْوَتِنَا وَنُموِّهَا؛ فَلَا رَيْبَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ يُدْرِبُ أَبْنَاءَ الدَّعْوَةِ
عَلَى الْمُوازَنَةِ بَيْنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ، وَيَزِيدُهُمْ قُدْرَةً عَلَى إدْرَاكِ الْخَطَأِ
وَالصَّوَابِ، وَيُسَعِّفُهُمْ فِي التَّخَلُّصِ مِنَ الْبِئَاتِ الْخَانِقَةِ، فَيَهْجُرُونَهَا إِلَى
حَيْثُ يَرْتَقُونَ بِدَعْوَتِهِمْ. وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَقَدْ كَانَ
يَرْتَادُ لِدَعْوَتِهِ الْوَلِيدَةَ آفَاقًا جَدِيدَةً، وَيَبْحَثُ لِأَصْحَابِهِ عَنْ بِئَاتٍ أَكْثَرَ أَمْنًا
وَحُرِّيَّةً؛ لِكَيْ تَنُمُو الدَّعْوَةُ وَتَزْدَهَرُ.

وَمِنْ صُورِ الْعَجْزِ عَنِ التَّعَامُلِ مَعَ الْغَيْرِ؛ مَا نَلَحْظُهُ فِي بَعْضِ
الْفَضَائِيَّاتِ، فَلَرَبَّمَا سُئِلَ أَحَدُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي دَوْلَةٍ غَرَبِيَّةٍ عَنْ رَأْيِهِ فِي
الْغَرْبِ أَوْ عَمَّا يَدْعُوهُ لِلْعِيشِ فِيهِ، فَتَرَاهُ يَقُولُ: الْغَرْبُ مِثْلُ الْمَرْحَاضِ لَا
بُدَّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْخُلَهُ، أَوْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ! وَهَذَا كَلَامٌ لَا يَقُولُهُ إِلَّا عَاجِزٌ عَنِ
التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِينَ، أَلَمْ يَبْعَثْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ صَحَابَتِهِ
إِلَى الْحَبَشَةِ، وَقَدْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَتَعَامَلُوا مَعَ مُجْتَمَعٍ غَرِيبٍ عَلَيْهِمْ تَمَامًا،
وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَيْثِ أَيْنَمَا وَقَعَ نَفَعَ.

وَسِيرَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَعَلَّمْنَا أَنْ نَرْتَادَ لِدَعْوَتِنَا آفَاقًا أَوْ بِئَاتٍ جَدِيدَةً،
إِذَا ضَاقَتْ بَيَّةٌ مَا بِالْدَّعْوَةِ وَأَهْلِهَا، فَقَدْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَصْحَمَةَ
النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ مَلِكٌ عَادِلٌ، لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ، وَقَدْ رَأَى مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَمَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْقَهْرِ
وَالْأَذَى، وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، قَالَ لَهُمْ: «لَوْ خَرَجْتُمْ
إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضٌ صَدِيقٌ،

حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. قَالَ الشَّيْخُ عَلِيُّ الطَّنْطَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: وَدَعَاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، إِلَى فِرَاقِ الْوَطَنِ، وَتَرْكِ الْأَهْلِ، وَأَنْ يَمْشُوا فِرَارًا بِدِينِهِمْ إِلَى بِلَادٍ لَيْسُوا مِنْهَا، وَلَيْسَتْ مِنْهُمْ، وَلَا لِسَانُهَا لِسَانُهُمْ، وَلَا دِينُهَا دِينُهُمْ، إِلَى الْحَبَشَةِ، فَخَرَجُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَهَجَرُوا أَهْلِيهِمْ، وَمَشَوْا إِلَى الْحَبَشَةِ، فَلَحِقَهُمْ أَذَى قُرَيْشٍ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَأَوْغَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كُفْرِهَا وَصَدَّهَا وَعِنَادِهَا، وَلَكِنْ هَلْ تَقْدِرُ قُرَيْشٌ أَنْ تُطْفِئَ نُورَ اللَّهِ تَعَالَى؟ (103).

وَهَذِهِ هِيَ الهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الْحَبَشَةِ، بَلْ هِيَ أَوَّلُ هِجْرَةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ فِي رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِلْبُعْثَةِ، وَكَانُوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا وَأَرْبَعَ نِسْوَةٍ. وَأَوَّلُ مَنْ خَرَجَ إِلَى الْحَبَشَةِ هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَمَعَهُ زَوْجُهُ رُقَيْيَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ كَانَتْ هِجْرَةً ثَانِيَةً إِلَى الْحَبَشَةِ؛ لَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا أَصَابَ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ أَذِنَ لَهُمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْحَبَشَةِ مَرَّةً ثَانِيَةً. وَكَانَتْ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَةُ أَشَقَّ مِنْ سَابِقَتِهَا، وَلَقِيَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُرَيْشٍ تَعْنِيفًا شَدِيدًا، وَنَالُوهُمْ بِالْأَذَى. وَكَانَ عِدَّةٌ مِنْ خَرَجَ فِي هَذِهِ الْهِجْرَةِ مِنَ الرِّجَالِ: ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا، وَمِنَ النِّسَاءِ ثَمَانِي عَشْرَةَ امْرَأَةً: إِحْدَى عَشْرَةَ قُرَشِيَّاتٍ، وَسَبْعٌ غَيْرُ قُرَشِيَّاتٍ، وَذَلِكَ عَدَا أَبْنَائِهِمُ الَّذِينَ وَلَدُوا لَهُمْ فِي الْحَبَشَةِ. وَكَانَ أَمِيرُهُمْ فِي هَذِهِ الْهِجْرَةِ الثَّانِيَةِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وَفِي حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). مَعَ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، مَا يَدُلُّ عَلَى حُنْكَتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى التَّكْيِيفِ مَعَ الْبَيْئَةِ الْجَدِيدَةِ، حَتَّى أَفْنَعَ

(103) انظر: موسى بن راشد العازمي: اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، 1/ 413، وما بعدها وانظر كذلك الشيخ علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، ص 14،

النَجَاشِيِّ بِسْمِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَرْفَعِهِ عَلَى رِذَائِلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَجَارَ
النَجَاشِيُّ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَضَمَّنَ لَهُمُ الْأَمْنَ وَالْحُرِّيَّةَ
فِي بِلَادِهِ، وَهَذَا جُزْءٌ مِنَ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ الزُّهْرِيُّ، عَنْ أُمِّ
سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بِنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: «... فَكَانَ
الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ
جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ،
وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ
اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ
لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ
وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ
الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ
الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ،
لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ- قَالَتْ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ
أُمُورَ الْإِسْلَامِ- فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا
اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ
لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْ نُسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نُسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ،
فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا
إِلَى بِلَادِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا
نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ
عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ
عَلَيَّ، قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ: «كهيعص: 1-19». قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ
النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ، وَبَكَتْ أَسَافَتُهُ حَتَّى اخْضَلُّوا مَصَاحِفَهُمْ،
حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ (لَهُمْ) النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ

بِهِ عِيسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا، فَلَا وَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمَا،
وَلَا يُكَادُونُ»⁽¹⁰⁴⁾.

(104) جمال الدين ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375 هـ - 1955 م / 1 / 334، وما بعدها.

رُكْنُ التَّضْحِيَةِ

كَمَا أَدْرَكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنْ إِخْوَانَهُ وَوَرَثَةَ دَعْوَتِهِ مُضْطَرُونَ إِلَى بَذْلِ وَتَضَحِيَّاتٍ كَبِيرَةٍ، مَا دَامُوا قَدْ آثَرُوا سَبِيلَ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ، وَالرَّفْعَةِ وَالْجِهَادِ، وَلِهَذَا أَيْضًا جَعَلَ (التَّضْحِيَّةَ) رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ، لِيَعْلَمَ إِخْوَانُهُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مَغْرَمٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنَّهَا مَغْنَمٌ وَنَعِيمٌ مُقِيمٌ فِي الْآخِرَةِ؛ لِمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا.

وقد أشرنا من قبل إلى أن الغايات التي تأسست من أجلها دعوة الإخوان المسلمين لا تتحقق دون جهادٍ دائمٍ، وليس هناك جهادٌ دون تَضَحِيَّاتٍ، ولذلك جعل الإمام البنا رُكْنَ التَّضْحِيَةِ تَالِيًا لِرُكْنِ الْجِهَادِ، وَقَالَ فِي تَعْرِيفِ التَّضْحِيَةِ: «وَأُرِيدُ بِالتَّضْحِيَةِ: بَذْلَ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْوَقْتِ وَالْحَيَاةِ، وَكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الْغَايَةِ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا جِهَادٌ لَا تَضْحِيَّةَ مَعَهُ، وَلَا تَضِيْعٌ فِي سَبِيلِ فِكْرَتِنَا تَضْحِيَّةَ، وَإِنَّمَا هُوَ الْأَجْرُ الْجَزِيلُ وَالثَّوَابُ الْجَمِيلُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنِ التَّضْحِيَةِ مَعَنَا فَهُوَ آثِمٌ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: 111]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ..﴾ [التوبة: 24]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ [التوبة: 120]، ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا﴾ [الفتح: ١٦]، وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ مَعْنَى هُتَافِكَ الدَّائِمِ: (وَالْمَوْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَسْمَى أَمَانِيًا)» (105).

وَتَعْلَمُ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ سِيرَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ، أَنَّ أَيَّ دَعْوَةٍ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ؛ مُبْتَلَاةٌ بِالْحَمَقَى الْمُطَاعِينَ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، وَقَدْ رَوَى

عطاء بن يسار عن أبي هريرة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ: «كَانَ الْبَدَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ بَادِلْنِي امْرَأَتَكَ وَأُبَادِلُكَ بِامْرَأَتِي، أَنْ تَنْزَلَ عَنْ امْرَأَتِكَ، وَأَنْزَلَ لَكَ عَنْ امْرَأَتِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْ تُبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾».

قَالَ: فَدَخَلَ عُمَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَعِنْدَهُ عَائِشَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، فَدَخَلَ بِغَيْرِ إِذْنٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَيْنَ الْإِسْتِئْذَانُ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا اسْتَأْذَنْتُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ مُضَرٍّ مُنْذُ أَدْرَكْتُ ثُمَّ قَالَ: مَنْ هَذِهِ الْحُمَيْرَاءُ الَّتِي جَنَبَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: أَفَلَا أَنْزِلُ لَكَ عَنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ؟! قَالَ: يَا عُمَيْنَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ تَعَالَى قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَحَمَقُ مُطَاعٌ، وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرَيْنَ، لَسَيِّدُ قَوْمِهِ» (106).

وَسَوَاءٌ عَلَيْنَا أَصَحَّ ذَلِكَ الْمَوْقِفُ أَمْ لَمْ يَصِحَّ، فَإِنَّ سِيرَةَ الْمُصْطَفَى ﷺ لَمْ تَخُلْ مِنْ حِمَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَسَفَاهَتِهِمْ، وَمِنْ ثَمَّ رَأَى الْإِمَامُ الْبَنَّا، مُهْتَدِيًا بِسُنَّةِ نَبِيِّنا الْكَرِيمِ أَنَّ (الْعَمَلَ) وَحْدَهُ غَيْرُ كَافٍ، وَلِهَذَا أَضَافَ أَرْكَانًا أُخْرَى يَقْتَضِيهَا مِثْلُ هَذَا (الْعَمَلِ) كَالْجِهَادِ وَالتَّضَحِّيَةِ وَالثَّبَاتِ، وَالطَّاعَةِ، وَالثِّقَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ الْعَشْرَةِ، الَّتِي لَا يَكْتَمِلُ رُكْنُهَا الرَّئِيسُ (الْعَمَلُ) إِلَّا بِهَذِهِ الْأَرْكَانِ.

وَمَنْ يَقْرَأْ ثَرَاثَ الْإِمَامِ الْبَنَّا يَجِدُهُ يُصَارِحُ إِخْوَانَهُ بِمَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ تَضَحِّيَّاتٍ، حَتَّى يُبَايِعَ الْأَخَ عَلَى الْعَمَلِ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَهُوَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فِي رِسَالَةٍ (بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ)، يَسْرُدُ الْإِمَامُ الْبَنَّا (كَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ

(106) أخرجه البزار في مسنده (275 / 15) والدارقطني في سننه (218 / 3)، وقال البزار: «وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُهُ يُرَوَّى إِلَّا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَرَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَإِسْحَاقُ كَيْنُ الْحَدِيثِ جَدًّا».. إسناده ضعيف جداً، لكن طريق الدعوات لا تخلو من أحقق مُطَاع.

هَذِهِ الْأَيَّامَ الَّتِي نَحْيَاهَا)، مَا يَنْتَظِرُ إِخْوَانَهُ مِنْ عَقَبَاتٍ، وَفَتَنٍ وَاخْتِبَارَاتٍ،
فَيَقُولُ: «أَحِبُّ أَنْ أُصَارَ حَكْمٌ أَنْ دَعَوَتُكُمْ لَا زَالَتْ مَجْهُولَةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ
النَّاسِ، وَيَوْمَ يَعْرِفُونَهَا وَيُدرِكُونَ مَرَامِيهَا سَتَلْقَى مِنْهُمْ خُصُومَةً شَدِيدَةً
وَعَدَاوَةً قَاسِيَةً، وَسَتَجِدُونَ أَمَامَكُمْ كَثِيرًا مِنَ الْمَشَقَّاتِ، وَسَيَعْتَزُّكُمْ
كَثِيرٌ مِنَ الْعَقَبَاتِ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ وَحْدَهُ تَكُونُونَ قَدْ بَدَأْتُمْ تَسْلُكُونَ
سَبِيلَ أَصْحَابِ الدَّعَوَاتِ. أَمَّا الْآنَ فَلَا زِلْتُمْ مَجْهُولِينَ تُمَهِّدُونَ لِلدَّعْوَةِ
وَتَسْتَعِدُّونَ لِمَا تَطْلُبُهُ مِنْ كِفَاحٍ وَجِهَادٍ. سَيَقِفُ جَهْلُ الشَّعْبِ بِحَقِيقَةِ
الْإِسْلَامِ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكُمْ، وَسَتَجِدُونَ مِنْ أَهْلِ التَّدْيِينِ وَمِنَ الْعُلَمَاءِ
الرَّسْمِيِّينَ مَنْ يَسْتَعْرِبُ فَهْمَكُمْ لِلْإِسْلَامِ، وَيُنْكِرُ عَلَيْكُمْ جِهَادَكُمْ فِي سَبِيلِهِ،
وَسَيَحْقِدُ عَلَيْكُمْ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ، وَذَوُو الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ، وَسَتَقِفُ فِي
وَجْهِكُمْ كُلِّ الْحُكُومَاتِ عَلَى السَّوَاءِ، وَسَتَحَاوِلُ كُلُّ حُكُومَةٍ أَنْ تَحُدَّ مِنْ
نَشَاطِكُمْ، وَأَنْ تَضَعَ الْعِرَاقِيلَ فِي طَرِيقِكُمْ.

وَسَيَتَذَرُّعُ الْغَاصِبُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ لِمُناهِضَتِكُمْ وَإِطفَاءِ نُورِ دَعْوَتِكُمْ،
وَسَيَسْتَعِينُونَ فِي ذَلِكَ بِالْحُكُومَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَالْأَيْدِي الْمُمْتَدَّةِ إِلَيْهِمْ
بِالسُّؤَالِ وَإِلَيْكُمْ بِالْإِسَاءَةِ وَالْعُدْوَانِ. وَسَيُثِيرُ الْجَمِيعُ حَوْلَ دَعْوَتِكُمْ
غُبَارَ الشُّبُهَاتِ وَظُلْمَ الْاِتِّهَامَاتِ، وَسَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَبْصُقُوا بِهَا كُلَّ نَقِيصَةٍ،
وَأَنْ يُظْهِرُوا هَذَا لِلنَّاسِ فِي أَبْشَعِ صُورَةٍ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ،
وَمُعْتَدِّينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى
اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

وَسَتَدْخُلُونَ بِذَلِكَ - وَلَا شَكَّ - فِي دَوْرِ التَّجَرُّبَةِ وَالامْتِحَانِ، فَتُسَجَّنُونَ
وَتُعْتَقَلُونَ، وَتُنْقَلُونَ وَتُشَرَّدُونَ، وَتُصَادَرُ مَصَالِحُكُمْ، وَتُعْطَلُ أَعْمَالُكُمْ،
وَتُفْتَشَّ بَيُوتُكُمْ، وَقَدْ يَطُولُ بِكُمْ مَدَى هَذَا الْامْتِحَانِ: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ
يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2]. وَلَكِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلِّهِ نُصْرَةَ الْمُجَاهِدِينَ، وَثُوبَةَ الْعَامِلِينَ الْمُحْسِنِينَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ... فَأَيُّدُّنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِرُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف: 10-14).

فَهَلْ أَنْتُمْ مُصْرُونَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ؟» (107).

كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، يُدْرِكُ وَعُورَةَ طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وَأَنَّ هَذِهِ السَّبِيلَ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَخَاطِرِ وَالتَّضَحِّيَّاتِ؛ لِأَنَّهَا طَرِيقُ الْجَنَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ حَرَصَ عَلَىٰ تَبْصِيرِ إِخْوَانِهِ، وَتَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّ تَضَحِّيَّتَهُمْ لَنْ تَذْهَبَ سُدًى، وَقَدْ أَثَرَهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَنْ نَبْذُلَ بَغَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَنْ نُضْحِيَ بِغَيْرِ رِنَجٍ، وَلَنْ نَخْطُو بِغَيْرِ هَدَفٍ، وَلَنْ نَجْرَحَ دُونَ إِصْلَاحٍ، رَائِدُنَا الْمَصْلَحَةُ وَكَفَىٰ»

كَمَا كَتَبَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مَقَالًا بِعُنْوَانِ «مَنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا مَعَنَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ فَلْيَتَجَهَّزْ»، وَنُشِرَ هَذَا الْمَقَالُ فِي جَرِيدَةِ «الإخوان المسلمون»، كَمَا أَكَّدَ ذَلِكَ الْحَاجُّ عَبَّاسُ السَّيِّسِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (فِي قَافِلَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ: «لَسْنَا هَادِثِينَ مَنْ كَانَ مَعَنَا فَلْيَتَجَهَّزْ». نَعَمْ، مَنْ كَانَ مَعَنَا فَلْيَتَجَهَّزْ لِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: (مُتَطَلِّبَاتِ الدَّعَوَاتِ، وَحُمُقِ الْغَيْرِ).

يَبْقَى أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ التَّضَحِّيَةَ الَّتِي أَرَادَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَتْ تَضَحِّيَةً مُنْضَبِطَةً؛ ذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَمَا تَحَدَّثَ عَنِ التَّضَحِّيَةِ نَأَىٰ بِهَا أَنْ تَكُونَ تَحْدِيًا لَمْ يَأْتِ وَقْتُهُ بَعْدُ، وَتَحَدَّثَ عَنْ تَضَحِّيَةٍ عَزِيزَةٍ غَالِيَةٍ لَا يَقِفُ دُونَهَا بُخْلٌ وَلَا طَمَعٌ. إِنَّهَا شَيْءٌ مُخْتَلِفٌ تَمَامًا عَنِ الْمُقَامَرَةِ بِالْجُهْدِ أَوِ الْمُغَامَرَةِ بِالشَّعَارِ.

قَالَ مُعَلِّقًا عَلَىٰ تَصَرُّفِ الشَّبَابِ الْغَاضِبِ عِنْدَمَا ثَارُوا فِي شَوَارِعِ مِصْرَ وَكَسَّرُوا الْحَوَانِيتَ، قَالَ: «إِنَّهُ تَحَدَّى لَمْ يَأْتِ وَقْتُهُ بَعْدُ، فَقَدْ كَانَ

(107) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة بين الأمس واليوم]، ص 515، وما بعدها.



يَنْبَغِي اخْتِيَارُ الظَّرْفِ الْمُنَاسِبِ، وَاسْتِخْدَامُ مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ فِيهِ، وَإِنْفَاذُهُ عَلَى نَحْوِ أَخْفَ ضَرَرًا وَأَبْلَغَ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصِدِ، فَوَضَعَ بِذَلِكَ ضَوَابِطَ لِلتَّضْحِيَةِ تَنَآيَ بِهَا أَنْ تَكُونَ نَوْعًا مِنَ الْمُقَامَرَةِ بِالْجُهْدِ أَوِ الْمُغَامَرَةِ بِالشُّعَارِ، أَوْ تَبْدِيدًا لِلْجُهْدِ، وَلِذَلِكَ كَانَ دَائِمًا مَا يَقُولُ: «إِنَّ تَجَارِبَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ تُؤَكِّدُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا فِي خُطَّتِكُمْ فَاعْمَلُوا وَاللَّهُ مَعَكُمْ، وَلَنْ يَتْرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ» (108).



رُكْنُ الطَّاعَةِ

اعْلَمْ أَخِي الْكَرِيمَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ، أَرَادَ بِرُكْنِ (الطَّاعَةِ) أَنْ يَحْمِيَ إِخْوَانَهُ مِمَّا تُحَدِّثُهُمْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، أَوْ مَا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِعْلِهِ دُونَ مَا حَرَجَ؛ مَا دَامَتِ الطَّاعَةُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، فَلَا طَّاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ - الْإِمَامَ الْبَنَّا - أَدْرَكَ أَنَّهُ رُغِمَ اخْتِيَارُهُ لِلْعَمَلِ السَّلْمِيِّ الْهَادِي الْمُتَعَدِّلِ فَإِنَّ الْقُوَى الْمُهِيمَنَةَ وَالنَّافِذَةَ سَوْفَ تُلْجِئُهُ إِلَى الْمُوَاجَهَةِ؛ لِأَنَّهُ خَارِجٌ عَلَى سِيَاسَتِهَا، مُهَدِّدٌ لِمَصَالِحِهَا، مِمَّا يُوَقِّعُهُ فِي مَا زِقٍ قَدْ يُضْطَرُّ فَصِيلُهُ الْمُجَاهِدُ مَعَهُ إِلَى الْعُنْفِ أَوْ إِلَى تَفْضِيلِ اسْتِخْدَامِهِ؛ وَلِذَلِكَ أَخَذَ مِنْهُمْ بَيْعَةً عَلَى الطَّاعَةِ بِمَا تَعْنِيهِ مِنْ تَنْفِيذِ الْمَطْلُوبِ لَا مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، (وَأَنْ تُنْفِذَ مَا يُطْلَبُ مِنْكَ لَا مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ)، وَهُنَاكَ فَارَقٌ كَبِيرٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَلَفَى الْأَخْطَارَ وَيَتَفَادَى الصَّرَاعَاتِ؛ فَلَا يَقَعُ فِي جِهَادٍ عَشِيِّ زَائِدٍ عَنِ الْحَاجَةِ، أَوْ فِي تَضَحِيَةٍ هِيَ تَحَدُّ لَمْ يَأْتِ وَقْتُهِ بَعْدُ.

عِنْدَمَا أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّحَابِيَّ الْجَلِيلَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لِيَأْتِيَهُ بِخَبَرِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، هَمَّ حُذَيْفَةُ أَنْ يَقْتُلَ أَبَا سَفْيَانَ، لَكِنَّهُ تَذَكَرَ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ «أَذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعِرْهُمْ عَلَيَّ»، فَلَمْ يَفْعَلْ طَّاعَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (أَي لَمْ يَفْعَلِ الْقَتْلَ).

فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ أَنَّهُ قَالَ: «...لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذْتُنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَسَكَتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِيَ



يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَسَكْتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا رَجُلٌ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللَّهُ مَعِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَسَكْتْنَا، فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ. فَقَالَ: قُمْ يَا حَذِيفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ. فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا إِذْ دَعَانِي بِاسْمِي أَنْ أَقُومَ، قَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ. فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ، فَرَأَيْتُ أَبَا سُفْيَانَ يَصْلِي ظَهْرَهُ بِالنَّارِ، فَوَضَعْتُ سَهْمًا فِي كِبِدِ الْقَوْسِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْمِيَهُ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ. وَلَوْ رَمَيْتُهُ لَأَصَبْتُهُ، فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَفَرَعْتُ فُرْرْتُ، فَالْبَسَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ فَضْلِ عِبَادَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ يُصَلِّي فِيهَا، فَلَمْ أَزَلْ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحْتُ، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُمْ يَا نَوْمَانُ» (109).

وقد شهدتُ بنفسِي حَادِثَةً فِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ، تَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِ الْإِمَامِ الْبَنَّا بُرْكَانِ (الطَّاعَةِ)، وَكَيْفَ رَبَّى عَلَيْهِ أَتْبَاعَهُ وَمُرِيدِيهِ؛ إِذْ كَانَ مَعَنَا فِي مَجْمُوعَتِنَا فِي تَنْظِيمِ (1965م) الْحَارِسُ الشَّخْصِيُّ لِلرَّئِيسِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ مَعَهُ فِي غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ، شَابٌّ فِي الْعِشْرِينِيَّاتِ مِنْ عُمْرِهِ هُوَ الْأَخُ إِسْمَاعِيلُ الْفَيُومِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَسْكَنَهُ فَسِيحَ جَنَاتِهِ -، وَكَانَ يَحْضُرُ مَعَنَا اللَّقَاءَاتِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَعَارُفٌ فِي اللَّقَاءَاتِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَتَعَامَلُ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ.

وَكَانَ الْأَخُ إِسْمَاعِيلُ الْفَيُومِيُّ مِنْ أَمْهَرِ الرَّمَاةِ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي اعْتُقِلَ فِيهِ الْإِخْوَانُ جَمِيعًا عَامَ (1965م)، وَاسْتَمَرَّتِ الْأَعْتِقَالَاتُ أُسْبُوعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، اعْتُقِلَ فِيهَا كُلُّ الْإِخْوَةِ، حَتَّى قِيَادَاتِ التَّنْظِيمِ، وَكَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ

(109) انظر صحيح مسلم: حديث رقم (1788)، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: (وَلَا تَذَعْرَهُمْ عَلَيَّ): لَا تُفَزِّعْهُمْ وَلَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيَّ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: لَا تُفَزِّعْهُمْ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَعْنَى الْأُولَى، وَالْمَعْنَى: لَا تُحَرِّكْهُمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُمْ إِنْ أَخَذُواكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيَّ لِأَنَّكَ رَسُولِي وَصَاحِبِي .. وَيُفْهِمُ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ النَّوَوِيِّ أَنَّ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِحَذِيفَةَ كَانَتْ جَرِصًا عَلَى حَذِيفَةَ فِي الْمَقَامِ الْأَوَّلِ.

الفتاح إسماعيل هُوَ الْمَسْئُولُ عَنْ هَذَا الْأَخِ الْفَاضِلِ (إِسْمَاعِيلُ الْيَوْمِيَّ).

وَأَعْلَنَ جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ مِنْ مُوسِكُو فِي نِهَايَةِ أَغْسُطُسَ أَنَّهُ اكْتَشَفَ
تَنْظِيمًا لِلْإِخْوَانِ، وَأَنَّهُ سَيَفْعَلُ بِهِ كَذَا وَكَذَا، وَكَانَ (إِسْمَاعِيلُ الْيَوْمِيَّ) فِي
اسْتِقْبَالِهِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ مُوسِكُو، وَيُؤَدِّي لَهُ التَّحِيَّةَ عِنْدَ نُزُولِهِ مِنْ سُلَمِ
الطَّائِرَةِ، وَيَصْحَبُهُ حَتَّى مَكْتَبِهِ وَغُرْفَةِ نَوْمِهِ وَهُوَ بِسِلَاحِهِ، وَلَا يَدْفَعُهُ ذَلِكَ
أَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يُطْلَبْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ.

فَكَانَ كَمَا عَلَّمَهُ الْإِخْوَانُ أَنَّ: «الطَّاعَةَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، وَإِنْفَادُهُ تَوْأَمٌ مِنْ
غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا مُرَاجَعَةٍ، وَلَا جَدَلٍ، وَلَا انْتِقَاصٍ، وَلَا تَحْوِيرٍ»،
فَامْتَثَلَ الرَّجُلُ.

وَبَعْدَ أَنْ اعْتَرَفَ عَلَيْهِ مَنْ اعْتَرَفَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ، جَاءُوا بِهِ إِلَى
السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ وَهُمْ مُنْدَهَشُونَ، وَعَذَّبُوهُ عَذَابًا شَدِيدًا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ
يَتَكَلَّمَ عَنِ الَّذِينَ مَعَهُ مِنْ أَفْرَادِ الْحَرَاسَاتِ فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، يَقُولُ
عَنْهُ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي حَلَقَاتِ التَّعْذِيبِ أَنَّهُ لَمْ يُجِبْ عَنْ سُؤَالٍ وَاحِدٍ مِنْ
أَسْئَلَتِهِمْ، حَتَّى السُّؤَالِ عَنْ اسْمِهِ أَوْ سِنِّهِ لَمْ يُجِبْ عَلَيْهِ، وَاسْتَمَرُّوا فِي
تَعْذِيبِهِ حَتَّى لَقِيَ رَبَّهُ شَهِيدًا بَعْدَ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ التَّعْذِيبِ.

مَضَى إِلَى رَبِّهِ يَحْمِلُ أَسْرَارَهُ فِي صَدْرِهِ.
وَبَعْدَ وَفَاتِهِ غَيَّرَ النِّظَامُ كُلَّ قُوَّةِ الْحَرَسِ الْجُمْهُورِيِّ وَعَدَّدَهُمْ خَمْسَةً
آلَافٍ لَخَوْفِهِمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَنْتَمِي إِلَى هَذِهِ الْفِكْرَةِ.

وَهَذِهِ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الطَّاعَةِ الَّتِي رَبَّى عَلَيْهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا أَتْبَاعَهُ، وَلَوْ
فَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا خَطَرَ بِبَالِهِ، أَوْ حَدَّثَتْهُ بِهِ نَفْسُهُ، أَوْ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَانْتَهَى
الْأَمْرُ إِلَى الْفَوْضَى وَالْانْحِرَافِ.

وَفِي مُتَنَصِّفِ السَّبْعِينَاتِ عِنْدَمَا كَتَبَ الْأُسْتَاذُ صَلَاحُ شَادِي رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابًا حَمَلَ فِيهِ عَلَى النِّظَامِ الْخَاصِّ ، وَأَدَانَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي صَدَرَتْ مِنْهُمْ ، فَذَهَبَ بَعْضُ رِجَالِ النِّظَامِ الْخَاصِّ الْقُدَامِيِّ إِلَى الْأُسْتَاذِ أَحْمَدَ حَسَنِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَدِ قَادَةِ النِّظَامِ الْخَاصِّ فِي حِينِهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَسْئُولًا عَنْ دَارِ النُّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَطَلَبُوا مِنْهُ نَشْرَ كِتَابٍ يَرُدُّونَ فِيهِ عَلَى كِتَابِ اللِّوَاءِ صَلَاحُ شَادِي.

قَالَ لَهُمْ: هُوَ يَكْتُبُ وَأَنْتُمْ تَرُدُّونَ، ثُمَّ هُوَ يَرُدُّ ثُمَّ أَنْتُمْ تَرُدُّونَ وَنُشِيرُ مَا نُرِيدُ أَنْ نَنْسَاهُ وَلَا نَشْغُلَ بِهِ النَّاسَ، وَلَا تَخْلُو تَجَرِبَةً بَشَرِيَّةً مِنْ أخطاءٍ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ تَكُونَ بَدَايَةُ عَمَلِنَا (فِي مُتَنَصِّفِ السَّبْعِينَاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ الْمِيلَادِيِّ) الْحَدِيثَ عَنِ الْأخطاءِ، مِمَّا نَفَقِدُ مَعَهُ جُزْءًا مِنْ أُمْتِنَا، فَسَأَلُوهُ عَنْ رَأْيِهِ. فَقَالَ لَهُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا رَأْيِي أَمْ تُنْفِذُوهُ؟ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نُنْفِذَهُ. (إِنَّهُمْ رِجَالُ النِّظَامِ الْخَاصِّ وَالرَّجُلُ كَانَ مَسْئُولًا عَنْهُمْ، وَرُغْمَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ كَانَ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الرُّوحَ مَا زَالَتْ تَسْرِي فِي نَفُوسِهِمْ).

فَقَالَ لَهُمْ: «تَحْرِقُونَ هَذَا الْوَرَقَ». فَأَخَذُوا الْكِبْرِيَّةَ مِنْ أَمَامِهِ وَأَحْرَقُوهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ! إِنَّ أَعْظَمَ مَا انتَصَرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ قَدِيمًا الْحُبُّ وَالْوَحْدَةُ، وَأَعْظَمُ مَا ابْتُلُوا بِهِ الْفُرْقَةُ وَالْخِلَافُ.

لَقَدْ رَبَّى الْإِمَامُ الْبَنَّا أَتْبَاعَهُ عَلَى مِنْهَجٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ: «صُوفِيٌّ بَحَثٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَعَسْكَرِيٌّ بَحَثٌ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ، وَشِعَارُ هَاتَيْنِ النَّاحِيَتَيْنِ (أَمْرٌ وَطَاعَةٌ) مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا مُرَاجَعَةٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا حَرَجٍ»⁽¹¹⁰⁾.

(110) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم، ص 275.

شَبَهَاتٌ حَوْلَ الطَّاعَةِ فِي دَعْوَتِنَا

وَرُبَّمَا ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ مِمَّنْ عَمِيَتْ عَلَيْهِمْ دَعْوَةُ (الإخوان المسلمين) وَلَمْ يَفْهَمُوا حَقِيقَتَهَا، أَنَّ رُكْنَ (الطَّاعَةِ) فِيهَا يَجْعَلُ أَبْنَاءَهَا أَشْبَهَ بِقَطِيعٍ يُطِيعُ دُونَ بَيْنَةٍ أَوْ بَصِيرَةٍ، فَهِيَ طَاعَةٌ عَمِيَاءُ. وَيَسُسُ مَا ظَنُّوا وَمَا زَعَمُوا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُدْرِكُوا أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ تُصْلِحُ مَا فَسَدَ، وَتُقِيمُ الْمَعْوَجَّ وَتُقَاوِمُ الظُّلْمَ، وَأَنَّهَا مِنْ ثَمَّ تُقْضَى مَضَاجِعُ الظُّلْمَةِ وَالْمُفْسِدِينَ، وَأَنَّ آفَةَ مُقَاوِمَةِ الظُّلْمِ الْعِنَادُ، فَالظُّلْمَةُ وَالْمُسْتَبِدُّونَ مَعَانِدُونَ، لَا يَتَصَالِحُونَ وَلَا يَتَقَارَبُونَ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ أَبْنَاءَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَكُلَّ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ، وَاقِعُونَ لَا مُحَالَةَ فِي مَا زِقُوا، وَهُمْ يُقَاوِمُونَ الظُّلْمَ وَالْفَسَادَ، وَأَنَّ طَرِيقَهُمْ سَيْتَهِي بِهِمْ - وَلَا بُدَّ - إِلَى الْإِرْتِطَامِ وَالصِّرَاعِ، وَقَدْ يَدْخُلُونَ بِذَلِكَ فِي نَفَقٍ مَسْدُودٍ، وَذَلِكَ مَا كَانَ يُدْرِكُهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، مِنْ اسْتَفْرَائِهِ تَارِيخَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَسِيرَةِ الدَّعَاةِ وَالْمُصْلِحِينَ. أَلَمْ يَقُلْ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَخْبَرَهُ خَبَرَ مَا رَأَى: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا» (111).

وَقَدْ يَظُنُّ آخَرُونَ أَنَّ (الطَّاعَةَ) فِي دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ تُنَافِي الْحُرِّيَّةَ أَوْ تُقَيِّدُ الْوُسْعَ، وَتُحْجِمُ مَنْ كَانَ عَالِيِ الْهَمَّةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ مَطْلُوبَةٍ، أَوْ لَمْ يَحِنْ وَقْتُهَا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا أَوْ تَصَوَّرُوا؛ فَالطَّاعَةُ فِي دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ تَنْظِيمٌ لِلْوُسْعِ وَلَيْسَتْ تَقْيِيدًا لَهُ، وَمِمَّا يَنْسَبُ لِلْإِمَامِ الْبَنَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْحُرِّيَّةَ السَّلِيمَةَ لَا تَجَافِي الْقِيُودَ السَّلِيمَةَ بَلْ تَزِيدُهَا قُوَّةً وَاعْتِبَارًا، بِاحْتِرَامِ النَّظَامِ، وَاحْتِرَامِ السُّلْطَانِ، وَهُوَ الْقِيَادَةُ الَّتِي يَرْفَعُ

(111) أخرجه البخاري (3)، ومسلم (160). (جذعًا: شاب قوي فتي).



حُكْمُهَا الْخِلَافَ، أَمَّا الْحَرِيَّةُ الرَّخِيصَةُ فَهِيَ مُخَالَفَةُ الْقِيَادَةِ.

وَمِنْ مَقَاصِدِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ رُكْنِ (الطَّاعَةِ)، أَنْ يَنْسَجِمَ الصَّفُّ مَعَهُ فِي الْحَرَكَةِ وَالتَّنْفِيدِ، فَلَا تَجِدُ مَنْ يَشُدُّ أَوْ يَتَقَدَّمُ لِشِدَّةِ حِمَاسِهِ فَيَعْجَلُ الصَّدَامَ وَالْإِرْتِطَامَ قَبْلَ اكْتِمَالِ الْبِنَاءِ، وَإِلَّا فَحَدِّثُونِي بِرَبِّكُمْ: أَمَّا كَانَ أَخُونَا الشَّهِيدُ إِسْمَاعِيلُ الْفَيُومِيُّ الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ عَنْهُ مِنْ قَبْلُ قَادِرًا عَلَى قَتْلِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ، وَهُوَ حَارِسُهُ الشَّخْصِيُّ، وَمُلَازِمُهُ فِي غَدَوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ، وَفِي عَمَلِهِ وَرَاحَتِهِ، حَتَّى فِي حُجْرَةِ نَوْمِهِ، وَلَا سِيَّمَا أَنْ إِخْوَانَهُ قَدْ اعْتَقَلُوا جَمِيعًا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا هُوَ؟!

نَعَمْ، لَقَدْ كَانَ قَادِرًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِفِعْلِهِ يُؤْذِي الْجَمِيعَ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ نَهْجِ الْإِخْوَانِ وَلَا مِنْ خُطَّتِهِمْ، مِمَّا قَدْ يُوَثِّرُ فِيهِمْ تَأْثِيرًا جَوْهَرِيًّا، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ إِذْنًا بِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَإِنَّمَا ظَلَّ مَنْضَبًا بِمَنْهَجِ الصَّفِّ مُتَلَئِمًا مَعَهُ، يَفْعَلُ مَا يُطَلَّبُ مِنْهُ لَا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ؛ حَتَّى اعْتَقَلَ وَلَقِيَ رَبَّهُ شَهِيدًا أَثْنَاءَ التَّحْقِيقَاتِ.

وَاعْتَمَدَ الْإِخْوَانُ عَلَى هَذَا النَّمُودَجِ الْمَشْرِفِ؛ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يُسَوِّغُوا لَأَنْفُسِهِمْ سَفْكَ الدَّمَاءِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مَقْصِدُهُمْ أَوْ غَايَتُهُمْ؛ لَكَانَ اغْتِيَالُ عَبْدِ النَّاصِرِ أَسْهَلَ شَيْءٍ فِي مُتَنَاوَلِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ اعْتَقَلَ فِيهِ الْإِخْوَانُ.

وَلِذَلِكَ جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ الطَّاعَةَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ، فَلِمَاذَا؟

حَتَّى لَا يَكُونَ الْأَخُ الْعَامِلُ صَاحِبَ حِمَاسٍ، أَوْ هَائِجًا يُعْطِلُ كُلَّ خُطْوَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ تَتَقَدَّمُ بِهَا الدَّعْوَةُ، وَيَرْفُضُ كُلَّ خُطَوَاتِ التَّقَارُبِ وَالتَّصَالِحِ وَالتَّوَسُّطِ.



وفي سيرة رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَاتَلَ وَفَاوَضَ، وَصَالَحَ وَهَادَنَ، وَلَمْ تَكُنْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا قِتَالًا، وَمِنْ ثَمَّ فَالَّذِينَ يَبْغُونَهَا قِتَالًا أَبَدِيًّا لَا يَعْرِفُ صُلْحًا أَوْ مُهَادَنَةً، إِنَّمَا يُحَرِّكُهُمُ الْحَمَاسُ الْهَائِجُ، مِمَّا يَجْعَلُهُمْ فِي صَدَامٍ دَائِمٍ يَحُولُ دُونَ تَقَدُّمِ دَعْوَتِهِمْ، وَهُنَا تَكُونُ الطَّاعَةُ ضَابِطَةً لِحَرَكَةِ الْأَخِ وَرُؤْيِيَةٍ، وَتَصَوُّرَاتِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا يَرَاهُ أَوْ يَتَصَوَّرُهُ يُسَمِّحُ لَهُ بِفِعْلِهِ أَوْ يُمَكِّنُ فِعْلَهُ، فَلَرَبَّمَا ضَرَّ تَصَوُّرُهُ أَكْثَرَ مِمَّا نَفَعُ، وَهُنَا تُلْزِمُهُ الطَّاعَةُ، فَتَلْجِمُ نَزَوَاتِ حَمَاسِهِ الْهَائِجِ، وَعَلَى كُلِّ أَخٍ أَنْ يَتَدَبَّرَ مَلِيًّا كَلِمَاتِ الْإِمَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَيُنْصِتَ إِلَى حِكْمَتِهِ وَبَصِيرَتِهِ؛ إِذْ يَقُولُ: «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ: أَلْجَمُوا نَزَوَاتِ الْعَوَاطِفِ بِنَظَرَاتِ الْعُقُولِ، وَأَيِّرُوا أَشْعَةَ الْعُقُولِ بِلَهَبِ الْعَوَاطِفِ، وَأَلْزِمُوا الْخِيَالَ صِدْقَ الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ، وَاکْتَشِفُوا الْحَقَائِقَ فِي أَضْوَاءِ الْخِيَالِ الزَّاهِيَةِ الْبَرَّاقَةِ، وَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ، وَلَا تُصَادِمُوا نَوَامِيسَ الْكُونِ فَإِنَّهَا غَلَابَةٌ، وَلَكِنْ غَالِبُوهَا وَاسْتَخْذُمُوهَا، وَحَوِّلُوا تَيَّارَهَا وَاسْتَعِينُوا بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، وَتَرَقَّبُوا سَاعَةَ النُّصْرِ وَمَا هِيَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ» (112).

فَلِإِخْوَانِ خُطَّةٍ وَمِنْهَاجٍ يَسِيرُونَ وَفَقَهُمَا، وَقَدْ يُضْطَرُّونَ إِلَى خُصُومَةٍ مَرَّةً، وَقَدْ يُصَالِحُونَ وَيَتَقَارَبُونَ مَرَّةً أُخْرَى، وَالَّذِي يَحَدِّدُ هَذِهِ الْمَوَاقِفَ، وَيُؤَازِنُ وَيَخْتَارُ مِنْهَا مَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَةَ الدَّعْوَةِ؛ الْقِيَادَةُ الْمَعْرُوفَةُ الصِّفَةِ؛ حَيْثُ يَرْفَعُ قَرَارُهَا وَحُكْمُهَا الْخِلَافَ؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَخْتَارُ الرُّخْصَةَ، أَوْ تَخْتَارُ الْعَزِيمَةَ. فَالْتَشَدُّدُ يَحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ أَمَا الرُّخْصَةُ فَتَحْتَاجُ إِلَى فُقَيْهِ.

وَقَفَاتٌ مَعَ رُكْنِ الطَّاعَةِ

رُكْنِ (الطَّاعَةِ)، في بيعتنا، رُكْنٌ مِهِمٌّ وَمِحْورِيٌّ، وَمِنْ الْغَرِيبِ أَنَّ الْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ أَفْرَدَ لَهُ سَطُورًا لَمْ يُفْرِدْهَا لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَرْكَانِ كَمَا أَفْرَدَ لِلْفَهْمِ وَكَمَا أَفْرَدَ لِلْعَمَلِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَرْكَانَ تُعَدُّ أَرْكَانًا مِحوْرِيَّةً مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ فَالْخَلْلُ فِي رُكْنِ (الفَهْمِ). وَهُوَ الرُّكْنُ الْمَعْنِيُّ بِمُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِيْمَانِ كَمَا يُكْرَرُ الْإِمَامُ النَّبَا دَائِمًا هِيَ حَقِيقَةُ الْفَهْمِ عَنْهُ، فَالْخَلْلُ الطَّارِئُ عَلَى هَذَا الرُّكْنِ يُؤَدِّي إِلَى بَاطِلٍ وَضَلَالٍ فِي فَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ التَّكْلِيفِ، بَلْ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى مُرُوقٍ مِنَ الدِّينِ، أَوْ يُؤَدِّي إِلَى حَالَةٍ مِنَ الضَّعْفِ الْإِيْمَانِيِّ الشَّدِيدِ، وَكَذَلِكَ الْخَلْلُ الطَّارِئُ فِي رُكْنِ (الْعَمَلِ) يُؤَدِّي إِلَى تَضْيِيعِ (فَقْهِ الْأَوَلِيَّاتِ)، أَوْ مَا قَالَ عَنْهُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي إِحْيَائِهِ: «وَتَرَكَ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الْخَيْرَاتِ مِنْ جُمْلَةِ الْغُرُورِ، بَلْ قَدْ يَتَعَيَّنُ عَلَى الْإِنْسَانِ فَرْضَانِ: أَحَدُهُمَا يَفُوتُ، وَالْآخَرُ لَا يَفُوتُ، أَوْ فَضْلَانِ أَحَدُهُمَا يَضِيقُ وَقْتَهُ، وَالْآخَرُ يَتَسَّعُ وَقْتَهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْفَظِ التَّرْتِيبَ فِيهِ كَانَ مَغْرُورًا» (113).

ثُمَّ يُفَصِّلُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فَيَذْكُرُ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَرَائِضِ تَقْضِي التَّرْتِيبَ، وَتَقْضِي تَقْدِيمَ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ، فَيَقُولُ: «وَنَظَائِرُ ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ ظَاهِرَةً وَالطَّاعَةَ ظَاهِرَةً. وَإِنَّمَا الْغَامِضُ تَقْدِيمُ بَعْضِ الطَّاعَاتِ عَلَى بَعْضٍ. كَتَقْدِيمِ الْفَرَائِضِ كُلِّهَا عَلَى النِّوَافِلِ. وَتَقْدِيمِ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ عَلَى فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ، وَتَقْدِيمِ فَرْضِ كِفَايَةِ لَا

(113) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ط 1، دار المنهاج، جدة - السعودية، 1432 هـ - 2011 م، 6/

قَائِمَ بِهِ عَلَى مَا قَامَ بِهِ غَيْرُهُ. وَتَقْدِيمِ الْأَهَمِّ مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ عَلَى مَا دُونَهُ. وَتَقْدِيمِ مَا يَفُوتُ عَلَى مَا لَا يَفُوتُ، وَهَذَا كَمَا يَجِبُ أَنْ يُقَدَّمَ حَاجَةُ الْوَالِدَةِ عَلَى حَاجَةِ الْوَالِدِ.. وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَفِي مَالُهُ بِنَفَقَةِ الْوَالِدَيْنِ وَالْحَجِّ، فَرَبَّمَا يَحْجُجْ وَهُوَ مَغْرُورٌ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَدَّمَ حَقُّهُمَا عَلَى الْحَجِّ، وَهَذَا مِنْ تَقْدِيمِ فَرَضٍ أَهَمَّ عَلَى فَرَضٍ هُوَ دُونُهُ» (114).

والحقُّ أنَّ كلامَ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرٌ مُتَنَوِّعٌ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْفِرَقِ الَّتِي تَعْتَرِ بِبَعْضِ الطَّاعَاتِ، وَلَا تُدْرِكُ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهَا وَأَحَقُّ بِالتَّقْدِيمِ، مِثْلَمَا أَشَارَ إِلَى فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ «رُبَّمَا يَخْرُصُونَ عَلَى إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي الْحَجِّ، فَيَحْجُّونَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَرُبَّمَا تَرَكُّوا جِيرَانَهُمْ جِيَاعًا، وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): (فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكْثُرُ الْحَاجُّ بِلَا سَبَبٍ، يَهُونُ عَلَيْهِمُ السَّفَرُ، وَيُسَيِّطُ لَهُمْ فِي الزَّرَقِ، وَيَرْجِعُونَ مَحْرُومِينَ مَسْلُوبِينَ، يَهْوِي بِأَحَدِهِمْ بَعِيرُهُ بَيْنَ الرَّمَالِ وَالْقِفَارِ، وَجَارُهُ مَأْسُورٌ إِلَى جَنْبِهِ لَا يُوَاسِيهِ» (115).

إِنْ تَرَكَ التَّرْتِيبَ فِي فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، هُوَ مَا نَرَاهُ كَثِيرًا فِي الْفَصَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَيُؤَدِّي إِلَى النَّتِيجَةِ الَّتِي قَالَهَا أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ كَذَلِكَ: «وَقَدْ كَانَ الَّذِي خِفْنَا أَنْ يَكُونَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ؛ إِذْ قَدْ ائْتَدَرَسَ مِنْ هَذَا الْقُطْبِ عَمَلُهُ وَعِلْمُهُ، وَانْمَحَقَ بِالْكُلِّيَّةِ حَقِيقَتُهُ وَرَسْمُهُ، فَاسْتَوْلَتْ عَلَى الْقُلُوبِ مُدَاهِنَةُ الْخَلْقِ، وَانْمَحَتْ عَنْهَا مُرَاقِبَةُ الْخَالِقِ، وَاسْتَرْسَلَ النَّاسُ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ، اسْتَرْسَلَ الْبَهَائِمُ، وَعَزَّ عَلَى بَسَاطِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ صَادِقٌ لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ» (116).

(114) السابق: الصفحة نفسها.

(115) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، 6 / 703.

(116) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، 4 / 537.

لأنَّ صُورَ التَّربِيَةِ الَّتِي نَرَاهَا الْيَوْمَ، قَدْ يُخْرَجُ بَعْضُهَا دَرْوِشًا، يَتَحَمَّلُ الظُّلْمَ وَيَرْضَاهُ، وَلَا تُخْرَجُ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ الَّذِي يُدْرِكُ مُرَادَ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ وَاسْتِخْلَافِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلِذَلِكَ فَصَّلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي رُكْنِ (الْعَمَلِ) تَفْصِيلًا وَاسِعًا. وَلَعَلَّ الْأُسْتَاذَ سَعِيدَ حَوَّيْ، قَدْ عَلَّلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ حِينَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَكْثَرِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ غُمُوضًا بَابَ (التَّكْلِيفِ الْإِلَهِيِّ)، وَقَلِيلُونَ هُمْ الَّذِينَ يَفْطِنُونَ لِمَجْمُوعِ مَا هُمْ مُكَلَّفُونَ بِهِ كَأَفْرَادٍ، وَمَا هُمْ مُكَلَّفُونَ بِهِ مَعَ غَيْرِهِمْ كَأَبْنَاءٍ لِأُمَّةٍ وَاحِدَةٍ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ بَيَانًا» (117).

كَمَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ عَنِ الْجِهَادِ، وَرَأَى أَنَّ الْخَلَلَ فِي فَهْمِهِ كَذَلِكَ يُلْحِقُ الْعَنْتَ بِالْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ، وَذَلِكَ أَنَّ نُصُوصَ الْجِهَادِ كَثِيرَةٌ، لَكِنْ قِرَاءَتُهَا دُونَ مُرَاعَاةِ الْمَرَا حِلِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ قَدْ يُؤَدِّي إِلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَقَدْ جَمَعَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِسَالَةِ (الْجِهَادِ) مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْمَاضِيَّةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ (الْجِهَادِ)؛ مَا يُؤَكِّدُ فَرَضِيَّتَهَا مِنْ: آيَاتٍ قُرْآنِيَّةٍ، وَأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ ﷺ، وَأَقْوَالَ لِلْعُلَمَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ، بَلْ أَشَارَ إِلَى كُتُبٍ عُنِيَتْ بِجَمْعِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي (الْجِهَادِ)، لَكِنَّهَا قَدْ تُحَدِّثُ كَثِيرًا مِنَ الْخَلْطِ وَالْإِرْبَاكِ، إِذَا قَرَأَهَا مُسْلِمٌ لَا يُحَسِّنُ فَهْمَ النُّصُوصِ فِي ضَوْءِ الْمَقَاصِدِ الْعَامَّةِ لَشَرِيعَتِنَا، وَلَا يُحَسِّنُ فِقْهَ وَاقِعِنَا الْمَعَاصِرِ الْمَعِيشِ.

وَلِذَلِكَ لَمْ يَكْتَفِ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِحَشْدِ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى فَرَضِيَّةِ الْجِهَادِ وَفَضْلِهِ، وَلَكِنَّهُ بَصَّرَ بِضُرُورَةِ مُرَاعَاةِ وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «فَهَا أَنْتَ تَرَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَيْفَ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ مُجْتَهِدِينَ وَمُقَلِّدِينَ، سَلَفِيِّينَ وَخَلْفِيِّينَ، عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ فَرَضٌ كِفَايَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ،

لنُشْرِ الدَّعْوَةَ، وَفَرَضَ عَيْنٍ لِدَفْعِ هُجُومِ الْكُفَّارِ عَلَيْهَا» (118).

ثُمَّ نَزَلَ مِنْ هَذِهِ الْقِمَّةِ الْكَبِيرَةِ؛ لِيَضَعَ الْقِيُودَ الشَّرْعِيَّةَ حَتَّى لَا يَتَحَمَّسَ أَحَدٌ يَقْرَأَ هَذِهِ النُّصُوصَ، فَيُسَارِعَ إِلَى خُطْوَةٍ لَمْ يَحِنْ أَوَانُهَا، فَيُوقِعَ بِنَزَقِهِ وَتَسْرُعِهِ الدَّعْوَةَ وَالْحَرَكَةَ فِي حَرَجٍ حَرِيجٍ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمُسْلِمُونَ الْآنَ كَمَا تَعْلَمُ مُسْتَذَلُّونَ لِغَيْرِهِمْ مَحْكُومُونَ بِالْكَفَّارِ، قَدْ دَيْسَتْ أَرْضُهُمْ، وَانْتَهَكَتْ حُرْمَاتُهُمْ، وَتَحَكَّمَ فِي شُؤْنِهِمْ خَصْمُهُمْ، وَتَعَطَّلَتْ شَعَائِرُ دِينِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ، فَضَلَّ عَنْ عَجْزِهِمْ عَنْ نُشْرِ دَعْوَتِهِمْ، فَوَجَبَ وَجُوبًا عَيْنِيًّا لَا مَنَاصَ مِنْهُ أَنْ يَتَجَهَّزَ كُلُّ مُسْلِمٍ، وَأَنْ يَنْطَوِيَ عَلَى نِيَةِ الْجِهَادِ وَإِعْدَادِ الْعِدَةِ لَهُ، حَتَّى تَحِينَ الْفُرْصَةُ وَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» (119).

وَالْحَقُّ أَنَّ رُكْنَ (الطَّاعَةِ) لَيْسَ بِنَجْوَةٍ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَخْطَاءِ وَالشُّبُهَاتِ، فَمَنْ يَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ النِّقْدِ الَّذِي وُجِّهَ إِلَى الْجَمَاعَةِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الرُّكْنِ، حَتَّى لَقَدْ كَتَبَ عَنْهُ بَعْضُ أَبْنَاءِ الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْفُسِهِمْ، أَوْ مَنْ انْتَمَوْا إِلَيْهَا فِي فِتْرَةٍ مِنَ الْفِتَرَاتِ، فَقَدْ لَمَزَ د. عَبْدُ اللَّهِ النَّفِيسِيَّ هَذَا الرُّكْنَ خِلَالَ تَوَطُّعِهِ كِتَابَ (الْحَرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، رُؤْيَا مُسْتَقْبَلِيَّةً) (120) الَّذِي حَرَّرَهُ، وَاسْتَكْتَبَ فِيهِ بَعْضُ كِبَارِ الْإِخْوَانِ الْقُدَامَى، وَبَعْضُ الْمَحْسُوبِينَ عَلَى الْحَرَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ أَمْثَالِ الدُّكْتُورِ حَسَّانِ حَتُّوْتِ، وَالدُّكْتُورِ فَرِيدِ عَبْدِ الْخَالِقِ، وَالدُّكْتُورِ تَوْفِيقِ الشَّائِوِي، وَعَدَنَانَ سَعْدِ الدِّينِ، وَمُنِيرِ شَفِيقِ،

(118) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 609.

(119) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة الجهاد]، ص 610.

(120) انظر د. عبد الله النفيسي: الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية (أوراق في النقد الذاتي)، ط 2، مكتبة آفاق، الكويت 2013م، ص 26، حيث يقول د. النفيسي: «عِنْدَمَا يَكْسِبُ تَنْظِيمٌ مَا عَضُوءًا يَدِينُ بِالطَّاعَةِ وَلَا يُنَاقِشُ وَيُتَابِعُ الْأَمْرَ، فَهَذَا يُعْتَبَرُ مُتَمِيمًا وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ، وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ التَّرْبُويَّةِ أَنَّهُ خَرَجَ جِيلٌ أَوْ مَجْمُوعَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الشَّبَابِ تَنْتَظِرُ الْأَمْرَ فَقَطْ، وَبِذَلِكَ حُرِمَتْ مِنْ مِيزَةِ الْإِبْدَاعِ وَالْحَرَكَةِ الْذَاتِيَّةِ، وَالْإِبْدَاعُ هُوَ سِرٌّ تَفُوقُ الدَّعَوَاتِ، وَعَلَى الْعَكْسِ خَسِرَتْ بَعْضُ التَّنْظِيمَاتِ أَهَمَّ عُنَاصِرِهَا وَأَنْشِطَتِهَا وَأَكْثَرَهَا إِبْدَاعًا».



والدكتور طارق البشري، والدكتور محمد عمارة، وغيرهم، وقد تناول بعضهم ركن (الطاعة)، أو خصه ببعض العناية والتركيز.

كما كتب الأستاذ صلاح شادي في كتابه (أوراق من التاريخ: حصائد العمر)، عن ركن (الطاعة)، وتناوله بشيء من النقد والتمحيص.

ويتصور بعض الناس أن ركن (الطاعة) يمثل في دعوتنا، سلباً للعقل وكتباً للحريّة، أو أنه نوع من الاستسلام والخنوع، والحقيقة أن من يقرأ ما كتبه الإمام البنا في ركن (الطاعة) تحديداً، وما فصله فيه؛ يجد أن الإمام البنا رحمه الله كان بعيد النظر عندما أفرده هذه الشطور، حتى ينفي عنه تلك الشبهات التي أحاطت به.

ولسنا نماري في أن (الطاعة) تكليف شاق؛ لأن معناه اتهام العقل عند اختلاف الاجتهادات، والضغط على الرغبات عند إبداء الآراء. معناه: أن تنزل على رأي غيرك وإن كنت تخالفه، وكثير من الناس يتجنبون العمل الجماعي لعدم فهمهم لهذا المعنى فهمًا كافيًا فيتصورون أنهم بمجرد أن يعطوا الطاعة من أنفسهم، فمعنى هذا سلب حريتهم وعقولهم، وتقيد لإرادتهم، وهو تكليف شاق على النفس بلا ريب.

وأذكر أن أحاً في سنة (1965م)، كان معنا قبل أن نباع ونلتحق بالصف، وكان له فضله وسبقه، وكان عابداً ورعاً محباً للعلم، ومُجِداً مُجتهداً، ولكن لما عرّض عليه الانضمام إلى التنظيم كان الشيء الوحيد الذي يمنعه من الانضمام إلى عمل حركي تنظيمي؛ هو أنه لا يستطيع أن يسمع كلام أحد لا يعرفه، وأن يكون هذا الرأي الذي يجب عليه أن يسمعه، أو يمثل له وينفذه، يؤثر على حياته أو استقراره، ويؤثر على أسرته ومستقبله، ولذلك لم يستطع أن يباع وينضم إلى الصف رغم أن

الصورة العامة المُجملة مِنْ بعيدِ صورةٍ مُضيئةٍ، وصورةٍ طيبةٍ وكريمةٍ لكنَّ هَذَا الْجَانِبَ بِالذَّاتِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ أَبَدًا، وَقَالَ هَذَا الْكَلَامَ صَرَاحَةً لِلشَّهِيدِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَحَسَّ بِمَا فِي رُكْنِ (الطَّاعَةِ) مِنْ مَشَقَّةٍ وَثَقُلَ عَلَى النَّفْسِ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ هَذَا الرُّكْنَ وَوَضَّحَهُ حَتَّى يُيسِّرَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ، وَهَذِهِ وَلَا شَكَّ مُهِمَّتُنَا إجمالًا، وَلَا سِيَّمًا مَنْ هُمْ فِي مَوْقِعِ الْمَسْئُولِيَّةِ، أَنْ يُيسِّروا هَذَا التَّكْلِيفَ الشَّاقَّ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْعَرِيضَةِ، وَمِنْ عَوَامِلِ التَّيسِيرِ فِي فَقْهِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّهُ جَعَلَ الدَّعْوَةَ مَرَّاحِلَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ مُسْتَوًى مِنَ الطَّاعَةِ مَطْلُوبًا لِدَاتِهِ، وَهَذِهِ صُورَةٌ مِنْ صُورِ التَّيسِيرِ لِهَذَا التَّكْلِيفِ الشَّاقِّ.

فَالطَّاعَةُ لَيْسَتْ مَطْلُوبًا قَائِمًا بَذَاتِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِيمَانِ، وَمَبْنِيَّةٌ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ الرَّاشِدُ فِي كِتَابِهِ (العَوَائِقُ) وَاصِفًا أُخَوَّتَنَا بِأَنَّهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَصِفُ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ: «(قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ)»⁽¹²¹⁾، فَهِيَ طَاعَةٌ تَبْغِي أَنْ تُصِيبَ هَذَا الصِّفَاءَ، وَتَنْسَبَ صَاحِبَهَا إِلَى هَذِهِ الزُّمَرَةِ الْفَائِزَةِ، مِنْ الْإِيمَانِ تَنْطَلِقُ، وَبِقَوَاعِدِهِ تَسْتَرْشِدُ، وَإِلَيْهِ تَعُودُ، وَلَيْسَتْ هِيَ اسْتِكَانَةً خَاضِعَ رَاهِبٍ، وَلَا تَمْلُقَ مَصْلُحِيٍّ رَاغِبٍ. إِنَّهَا طَاعَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ مُمَيَّزَةٌ، لَيْسَتْ كَكُلِّ طَاعَةٍ، يَعْتَبِرُهَا الدُّعَاءُ رُكْنًا فِي إِيْمَانِهِمْ، لَا كَمَا لَهْ بَدُونِهَا، وَيَعْتَوِرُهُ النِّقْصُ بِفَقْدَانِهَا.

قَوْمٌ يَرَوْنَ الْحَقَّ نَضْرَ أَمِيرِهِمْ وَيَرَوْنَ طَاعَةَ أَمْرِهِ إِيْمَانًا
وَلِذَلِكَ يَسُوعُ مِنْ أَجْلِهَا اتِّهَامُ الْعَقْلِ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْجِهَادِ، وَالضَّغْطِ

(121) أخرجه البخاري (3246)، ومسلم (2834) باختلاف يسير.

عَلَى الْقَلْبِ عِنْدَ نَدَاءَاتِ الرَّغْبَةِ، حِفْظًا لِهَذَا الْإِيمَانِ مِنْ أَنْ يَنْثَلِمَ»⁽¹²²⁾.
وَتَرْتَبِطُ الطَّاعَةُ بِالْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهَا رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهِ، وَهَذِهِ أَوَّلُ صُورَةٍ مِنْ
صُورٍ تَقْيِيدِهَا، وَتَسِيرِهَا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ عَلَى السَّامِعِ، يَقُولُ الشَّيْخُ سَعِيدُ
حَوَّي: «مَا مِنْ رَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا وَقَدْ طَالَبَ قَوْمَهُ بِأَمْرَيْنِ: بِالتَّقْوَى
وَالطَّاعَةِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: 50، الشعراء: 108، الزخرف: 63]
، فبدون طاعةٍ لا تكون جماعةٌ، ولا حركةٌ ولا نظامٌ ولا تنظيمٌ ولا زكاةٌ
للنفس، ولا مُسارعةٌ نحو مَرْضَاةِ اللَّهِ وَلَا جِهَادٌ، وَلَا هَدَفٌ يَتَحَقَّقُ»⁽¹²³⁾.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الطَّاعَةَ فِي دِينِنَا ارْتَبَطَتْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْوَاهُ،
وَهَذَا أَوَّلُ قَيْدٍ لَهَا، فَهِيَ لَيْسَتْ طَاعَةً مُطْلَقَةً لِذَاتِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ طَاعَةٌ
مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَحِينَ طَلَبَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)
إِلَى النَّاسِ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي خُطْبَةِ الْخِلَافَةِ؛ رَبَطَ طَاعَتَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى،
فَقَالَ: «أَطِيعُونِي مَا أَعْطَى اللَّهُ فِيكُمْ»، وَهَذَا أَوَّلُ شَيْءٍ يُرِيحُ السَّامِعَ بِأَنَّ
الطَّاعَةَ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةً لِذَاتِهَا، وَلَا يُفْهَمُ مِنْ جَعْلِهَا رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ بَيْعَتِنَا
أَنْ يَسْمَعَ الْأَخُ وَيُطِيعَ دُونَ وَعِيٍّ أَوْ بَصِيرَةٍ، وَلَكِنَّهَا طَاعَةٌ مُقَيَّدَةٌ بِمَطَالِبِ
الْإِيمَانِ بِاللَّهِ.

وَالْمَعْنَى الْآخَرُ الْعَمِيقُ وَرَاءَ ارْتِبَاطِ الطَّاعَةِ بِالْإِيمَانِ أَنَّ الْإِيمَانَ فِي ذَاتِهِ
إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى الْحُرِّيَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْاخْتِيَارِ؛ فَهُوَ كَسْبٌ إِنْسَانِيٌّ وَاسْتِجَابَةٌ
لِتَعَالِيمِ الْوَحْيِ وَمُغَالَبَةٌ لَشَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَعِنَادُ الْبَيْئَةِ؛ فَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِتَعَالِيمِ
الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ الطَّاعَةُ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، قَبْلَ
أَنْ تَكُونَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ بَيْعَتِنَا، أَيَّ أَنَّهَا تَقُومُ عَلَى مَا يَقُومُ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ
مِنْ (حُرِّيَةٍ وَاخْتِيَارٍ وَإِرَادَةٍ)، فَحِينَمَا يَنْحَازُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْإِيمَانِ وَيَخْتَارُهُ

(122) محمد أحمد الراشد: العوائق، دار المنطلق، 1415 هـ / 1994 م، ص 6.

(123) سعيد حوي: في آفاق التعاليم، مكتبة وهبة، ص 134.



عَلَى مَا سِوَاهُ ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: 9]. وَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ (عَنِ الْأَنْصَارِ): «.. وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ.. أَي دَارَ الْهَجْرَةِ، يَثْرِبَ مَدِينَةَ الرُّسُولِ ﷺ، وَقَدْ تَبَوَّأَهَا الْأَنْصَارُ قَبْلَ الْمُهَاجِرِينَ. كَمَا تَبَوَّأُوا فِيهَا الْإِيمَانَ، وَكَأَنَّهُ مَنْزِلٌ لَهُمْ وَدَارٌ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ ذُو ظُلَالٍ، وَهُوَ أَقْرَبُ مَا يُصَوِّرُ مَوْقِفَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْإِيمَانِ. لَقَدْ كَانَ دَارَهُمْ وَوَطَنُهُمُ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ قُلُوبُهُمْ، وَتَسْكُنُ إِلَيْهِ أَرْوَاحُهُمْ، وَيُثَوِّبُونَ إِلَيْهِ وَيَطْمَئِنُّونَ لَهُ، كَمَا يَثُوبُ الْمَرْءُ وَيَطْمَئِنُّ إِلَى الدَّارِ» (124).

اخْتَارُوا الْإِيمَانَ لَهُمْ مَنْزِلًا وَدَارًا، فَهَذَا الْاِخْتِيَارُ هُوَ اخْتِيَارٌ لِمَطَالِبِ الْإِيمَانِ.

وَلِلْإِيمَانِ مَطَالِبُ: مِنْهَا ١ - الصَّفُّ الْوَاحِدُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُيُوتٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4]، وَمِنْهَا 2 - الْأَمْرُ الْجَامِعُ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: 62]، وَمِنْهَا 3 - الْقِيَادَةُ الرَّاشِدَةُ ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾. وَهَذِهِ الْقِيَادَةُ الرَّاشِدَةُ يَرْفَعُ حُكْمَهَا الْخِلَافَ، كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا. «وَتَمَّ أَمْرٌ آخَرٌ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ؛ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا رَجَعُوا إِلَى (الْخَلِيفَةِ)، وَشَرْطُهَا الْإِمَامَةُ، فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ وَيَرْفَعُ حُكْمَهُ الْخِلَافَ، أَمَّا الْآنَ فَأَيْنَ الْخَلِيفَةُ؟ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَوْلَى بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْحَثُوا عَنِ الْقَاضِي، ثُمَّ يَعْرِضُوا قَضِيَّتَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ اخْتَلَفَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَرَجِعٍ لَا يَرُدُّهُمْ إِلَّا إِلَى خِلَافٍ آخَرَ» (125). وَحِينَمَا وَلِيَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخِلَافَةَ، دَعَا الْخَوَارِجَ أَنْ يَنْزِلُوا دِمَشْقَ الَّتِي هِيَ عَاصِمَةُ الْخِلَافَةِ وَأَنْ يَتَعَدُّوا عَنِ التَّفَرُّدِ حَتَّى يَنْعَمُوا بِتِلْكَ النِّعْمَةِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَهِيَ الْجَمَاعَةُ وَالْخَلِيفَةُ.

(124) سيد قطب: في ظلال القرآن، مكتبة الشروق، 6/ 3526.

(125) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 139.



وَجَلِيٌّ أَنْ هَذِهِ الْأُمُورَ مُسَلَّمَاتٌ عَقْلِيَّةٌ؛ فَمَتَى كَانَ صَفٌّ، وَأَمْرٌ جَامِعٌ، وَهِيَ مِنْ مَطَالِبِ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ الْقِيَادَةَ الرَّاشِدَةَ مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ الْإِيمَانِ كَذَلِكَ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْأَخَّ حِينَ يَخْتَارُ الْإِيمَانَ، فَإِنَّهُ يَخْتَارُ مَطَالِبَهُ كَذَلِكَ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَرِمَ تِلْكَ الْمَطَالِبَ.

وَحَتَّى الْإِمَامُ الْبَنَّا نَفْسَهُ لَمْ يَدْعُ إِلَى (الطَّاعَةِ) دُونَ قِيُودٍ، وَأَوَّلُ قِيُودِ الطَّاعَةِ فِي دَعْوَتِنَا أَنَّ لَهَا مَرَجِعِيَّةً حَاكِمَةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا الْجَمِيعُ؛ فَقَدْ قَسَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا الدَّعْوَةَ ثَلَاثَ مَرَّاحِلَ، لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ مَرَجِعِيَّةٌ وَدَرَجَةٌ مَطْلُوبَةٌ مِنَ الطَّاعَةِ؛ فَمَرَحَلَةُ (التَّعْرِيفِ)، وَهِيَ أَوَّلَى مَرَّاحِلِ الدَّعْوَةِ، مَرَجِعِيَّتُهَا قَوْلُ الْإِمَامِ الْبَنَّا: «وَيُنَظِّمُهَا الْقَانُونُ الْأَسَاسِيُّ، وَتَشْرَحُهَا رِسَائِلُ الْإِخْوَانِ وَجَرِيدَتُهُمْ، وَالدَّعْوَةُ فِي هَذَا الطَّوْرِ عَامَّةٌ»⁽¹²⁶⁾، وَأَمَّا دَرَجَةُ الطَّاعَةِ الْمَطْلُوبَةُ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ فَيُمَثِّلُهَا قَوْلُ الْإِمَامِ الْبَنَّا: «وَلَيْسَتْ الطَّاعَةُ التَّامَّةُ لَازِمَةً فِي هَذَا الطَّوْرِ، بِقَدْرِ مَا يَلْزِمُ احْتِرَامُ النُّظْمِ وَالْمَبَادِي الْعَامَّةِ لِلْجَمَاعَةِ»⁽¹²⁷⁾.

فَلَمَّا كَانَتْ الدَّعْوَةُ عَامَّةً فِي طَوْرِ (التَّعْرِيفِ) لَمْ يَشْتَرِطِ الْإِمَامُ الْبَنَّا طَاعَةً تَامَةً، وَرَضِيَ بِأَنْ يَحْتَرِمَ الْأَخُ نُظْمَ الدَّعْوَةِ، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَبَادِيهَا، وَلَمَّا كَانَتْ الدَّعْوَةُ فِي مَرَحَلَتِي (التَّكْوِينِ وَالتَّنْفِيزِ) خَاصَّةً، فَقَدْ اشْتَرَطَ الْإِمَامُ الْبَنَّا طَاعَةً كَامِلَةً، حَتَّى يَنْجَحَ الْعَمَلُ، لِأَنَّ الْأَخَّ فِي هَاتَيْنِ الْمَرَحَلَتَيْنِ يَكُونُ قَدْ وَصَلَ إِلَى دَرَجَةِ الْقَنَاعَةِ التَّامَّةِ بِالْعَمَلِ مَعَ هَذَا الصِّفِّ، أَيْ أَنَّهُ اخْتَارَ الْعَمَلَ مَعَ هَذَا الصِّفِّ بِكَامِلِ حَرِيَّتِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَحْتَرِمَ مَا اخْتَارَهُ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ يَسَعُهُ رَفُضُ الْعَمَلِ مَعَ هَذَا الصِّفِّ ابْتِدَاءً، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ طَوْرِ (التَّكْوِينِ): «وَالدَّعْوَةُ فِيهِ خَاصَّةٌ، لَا يَتَّصِلُ

(126) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 275.

(127) السابق: الصفحة نفسها.



بَهَا إِلَّا مَنْ اسْتَعَدَّ اسْتِعْدَادًا تَامًّا حَقِيقِيًّا لِتَحْمُلِ أَعْبَاءَ جِهَادٍ طَوِيلِ الْمَدَى كَثِيرِ التَّبَعَاتِ، وَأَوَّلُ بَوَادِرِ هَذَا الاسْتِعْدَادِ كَمَالُ الطَّاعَةِ⁽¹²⁸⁾. ثُمَّ يَقُولُ عَنْ طُورِ (التَّنْفِيزِ): «وَالدَّعْوَةُ فِي هَذَا الطُّورِ جِهَادٌ لَا هَوَادَةَ فِيهِ، وَعَمَلٌ مُتَوَاصِلٌ فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى الْغَايَةِ، وَامْتِحَانٌ وَابْتِلَاءٌ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِمَا إِلَّا الصَّادِقُونَ، وَلَا يَكْفُلُ النِّجَاحَ فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ إِلَّا كَمَالُ الطَّاعَةِ كَذَلِكَ وَعَلَى هَذَا بَايَعَ الصَّفُّ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ فِي يَوْمِ 5 ربيع الأول سنة 1359 هـ»⁽¹²⁹⁾.

وَلَعَلَّكَ تَلَحَّظُ فِقْهَ الْإِمَامِ الْبَنَّا؛ حَيْثُ أَطْلَعَ إِخْوَانَهُ عَلَى طَبِيعَةِ كُلِّ مَرَحَلَةٍ، وَدَرَجَةِ الطَّاعَةِ الْمَطْلُوبَةِ فِيهَا، كَيْ يَكُونُوا عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ. وَمِنْ كَمَالِ فِقْهِهِ كَذَلِكَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ (فِقْهُ التَّدْرِجِ)؛ حَيْثُ تَدْرَجُ فِي الْمَرَاهِلِ، وَتَدْرَجُ فِي دَرَجَةِ الطَّاعَةِ كَذَلِكَ، لِأَنَّ الطَّاعَةَ التَّامَّةَ شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ، وَلَا بَدَّ مِنْ تَدْرِيبٍ مُتَدَرِّجٍ عَلَيْهَا، فَلَا يَلْغُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْعَمَلَ مَعَ هَذَا الصَّفِّ عَنْ حُرِيَّةٍ وَإِرَادَةٍ، وَقَنَاعَةٍ وَرَغْبَةٍ، وَاسْتَعَدُّوا لَتَكَالِيفِهِ، وَمِنْ ثَمَّ وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْتَرِمُوا مَا اخْتَارُوهُ وَإِلَّا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ مَعَ أَنْفُسِهِمْ.

هَذَا، وَقَدْ خَتَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَامَهُ عَنْ رُكْنِ (الطَّاعَةِ)، بِمَا يُؤَكِّدُ ضَرُورَةَ أَنْ يَحْتَرِمَ الْأَخُ اخْتِيَارَهُ الْحُرِّ، وَأَنْ يَفِي بِمَطَالِبِهِ، إِذْ يَقُولُ: «وَأَنْتَ بِانْضِمَامِكَ إِلَى هَذِهِ الْكُتَيْبَةِ، وَتَقَبُّلِكَ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ، وَتَعَهُدِكَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ، تَكُونُ فِي الدَّوْرِ الثَّانِي [التَّكْوِينِ]، وَبِالْقُرْبِ مِنَ الدَّوْرِ الثَّلَاثِ [التَّنْفِيزِ]، فَقَدَّرِ التَّبِعَةَ الَّتِي التَزَمْتَهَا وَأَعَدَّ نَفْسَكَ لِلْوَفَاءِ بِهَا»⁽¹³⁰⁾، وَبِهَذَا يَحْتَرِمُ الْأَخُ

(128) السابق: الصفحة نفسها.

(129) السابق: الصفحة نفسها.

(130) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 275.



نَفْسَهُ وَعَقْلَهُ وَإِرَادَتَهُ، وَيَحْتَرِمُ مَا اخْتَارَهُ عَنْ طَوَاعِيَةٍ.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ كَلِمَاتِهِ: «وَلَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْ صَدِيقٍ دَعَوْتُهُ إِلَيَّ جَمَاعَتَنَا أَنَّهُ كَانَ يُرَاجِعُنِي فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، وَيَقِفُ أَمَامَ كُلِّ عِبَارَةٍ، وَيُنَاقِشُ كُلَّ وَسِيلَةٍ، حَتَّى إِذَا افْتَنَعَتْ نَفْسُهُ قَالَ كَلِمَتَهُ، فَمَا زَالَتْ مَرَعِيَّةُ الْجَانِبِ، مُحَقَّقَةً الْمَعْنَى، وَاضِحَةً الْأَثَرِ، وَمَا زَالَ هُوَ الْعَامِلُ الْمُجِدِّ إِلَى الْآنِ، وَأَرْجُو أَنْ يَظَلَّ كَذَلِكَ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى» (131).

وأذكر أن الأستاذ محمد حامد أبو النصر أثناء التحقيقات سنة (1954م)، كان يحكي لنا، أن جمال عبد الناصر أرسل إليه - لأنه من بلده منفلوط من بني مُرّ - رسولا خاصا يطلب إليه مجرد التوقيع على ورقة بالاعتذار عما صدر منه، ليخفف الحكم الصادر في حقه من المؤبد إلى أن تطوى القضية تماما، ويفرج عنه فورا، فأبى السيد حامد أبو النصر، وقال للمحقق: «لقد بايعت الرجل (يقصد الإمام البنا) وأنا رجل موفور الرجولة». وحين تحسب عمر الأستاذ حامد أبو النصر في تلك الفترة، هو من مواليد (1913م)، وبايع سنة (1933م)، أي أن عمره كان عشرين عاما، ويقول عن نفسه: وأنا رجل موفور الرجولة فكيف أنقص تلك البيعة لتعرضي لمحنة أو أذى يقع عليّ، فأنا مبايع على هذا، وقد فعلت هذا وأنا رجل موفور الرجولة؛ بمعنى: بايعت باختيارى وإرادتي، فأنا أحترم ذلك، ولذلك ظل الأستاذ حامد أبو النصر وفيا لهذا العهد الذي أخذه على نفسه، بهذه البيعة، وركن (الطاعة) فيها، ظل وفيا لها طوال محنة ظلت عشرين عاما، وبعد ذلك أيضا إلى أن لقي ربه راضيا مرضيا بإذن الله.

(131) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة هل نحن قوم عمليون]. ص 78.



فالإحساس بهذا المعنى أنها مبادرة منك، والأخ في حاجة إلى التذكير دائماً بهذه المبادرة ولذلك كانت هذه الإشارة أو التنويه من الأستاذ الإمام البناء، وهو يتكلم في هذا الركن «وأنت بانضمامك إلى هذه الكتبة، وتقبل لك لهذه الرسالة، وتعهّدك بهذه البيعة، تكون في الدور الثاني، وبالقرب من الدور الثالث، فقدّر التبعة التي التزمتموها وأعدّ نفسك للوفاء بها».

ولذلك أشار الأستاذ سيد قطب رحمه الله في فصل الإيجابية في كتابه [خصائص التصور الإسلامي] إلى أن التصور الإسلامي من أكبر عوامل الإيجابية؛ حين يعلم المسلم أنه مكلف، وأنه مُعانٍ على التكليف كذلك، فإن ذلك يستخرج كل ما لديه من مواهب وقدرات وملكات وأخلاق، ويوظفها كلها لينجز مُراد الله تعالى منه. يقول الأستاذ سيد رحمه الله: «وفي طبيعة التصور الإسلامي ذاته ما يحفز الإنسان لمحاولة الحركة الإيجابية، لتحقيق هذا المنهج في صورة واقعية. فالمسلم يعرف من تصوره الإسلامي، أن (الإنسان) قوة إيجابية فاعلة في هذه الأرض، وأنه ليس عاملاً سلبياً في نظامها، فهو مخلوق ابتداءً ليُستخلف فيها. وهو مُستخلف فيها ليُحقق منهج الله في صورته الواقعية: لينشئ ويعمر، وليُغيّر ويُطوّر، وليُصلح ويُنمي. وهو مُعانٍ على هذه الخلافة؛ مُعانٍ من الله سبحانه بجعل النواميس الكونية وطبيعة الكون الذي يعيش فيه مُعاونةً له» (132).

ولذلك فمهمتنا أن نُيسر هذا التكليف الشاق، وهو تكليف (الطاعة) على كل من معنا في الصف، وهذا يبدأ أولاً كما ذكر الإمام البناء رحمه الله بالآيِزُضُم إلى هذا الطور من أطوار الجماعة إلا من استعدّ استعداداً حقيقياً

(132) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، ص 165.

لِتَحْمِلَ أَعْبَاءَ جِهَادٍ طَوِيلٍ الْمَدَى بَعِيدِ الْمَرَحِلِ، كَثِيرِ الْعَقَبَاتِ، وَأَقْلُ مَا يَجِبُ فِي هَذَا الطَّوْرِ هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ، وَمُهِمَّةُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ وَمُهِمَّةُ الصَّفِّ أَنْ يُسَاعِدَ الْأَخَ عَلَى بُلُوغِ دَرَجَةِ الْإِسْتِعْدَادِ الْحَقِيقِيِّ؛ لِيَتَحَمَّلَ - كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا - أَعْبَاءَ طَرِيقٍ طَوِيلٍ الْمَدَى، بَعِيدَةِ الْمَرَاكِحِ، كَثِيرَةِ الْعَقَبَاتِ (133).

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ الْأَخُ إِلَى هَذَا الْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ (كَمَالِ الطَّاعَةِ، أَوْ تَمَامِ الطَّاعَةِ) دُونَ تَرْبِيَةِ إِيْمَانِيَّةٍ، وَصَفِّهَا الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالتَّرْبِيَةِ الْإِيْمَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ طَوِيلَةِ الْأَمَدِ عَمِيقَةِ الْأَثَرِ، حَتَّى تَسْتَطِيعَ أَنْ تُتَبَّحَ أَخًا لَدَيْهِ هَذَا الْإِسْتِعْدَادُ الَّذِي يَجْعَلُ طَاعَتَهُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «الطَّاعَةُ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، وَإِنْفَاذُهُ تَوًّا مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا مُرَاجَعَةٍ، وَلَا جَدَلٍ، وَلَا انْتِقَاصٍ، وَلَا تَحْوِيرٍ». هَذَا هُوَ مُسْتَوَى الْإِسْتِعْدَادِ أَوْ صُورَةُ كَمَالِ الطَّاعَةِ فَكَيْفَ نَحْقُقُ فِي الصَّفِّ تِلْكَ الصُّورَةَ؟ وَهَذَا الْمُسْتَوَى؟

مُهِمَّتُنَا نَحْنُ إِجْمَالًا هِيَ إِعْدَادُ هَذَا الصَّفِّ بِالتَّرْبِيَةِ الْإِيْمَانِيَّةِ الْعَالِيَةِ عَمِيقَةِ الْأَثَرِ طَوِيلَةِ الْأَمَدِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يُؤَدِّيَ هَذَا الرُّكْنَ الشَّاقَّ عَلَى النَّفْسِ؛ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ اخْتِلَافِ الْأَرَءِ وَالْإِجْتِهَادَاتِ، وَالرَّغَبَاتِ؛ إِذْ يَجِدُ الْأَخُ نَفْسَهُ فِي مَا زَقَّ حِينَ يَمْتَثِلُ لِأَمْرٍ يُنْفِذُهُ عَلَى الْفَوْرِ وَهُوَ غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُ، أَوْ غَيْرُ مُوَافِقٍ عَلَيْهِ، وَهَذِهِ مُهِمَّةٌ شَاقَّةٌ تَحْتَاجُ إِلَى إِعْدَادٍ وَتَرْبِيَةٍ تَنْفِي التَّرَدُّدَ بَوْضُوحِ الْغَايَةِ وَالْمَقْصِدِ وَوُضُوحِ السَّلَامَةِ وَالصِّحَّةِ فِيهِمَا؛ لِأَنَّهُ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ، فَغَايَةُ الْجَمَاعَةِ وَالصَّفِّ غَايَةُ شَرْعِيَّةٌ.

وَوُضُوحُ الطَّرِيقِ أَوْ الْقَصْدُ نِصْفُ النُّصْرِ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ تَعْلِيْقًا عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ

مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ إِنَّا بُعِثْنَا مِنْكُمْ وَإِنَّا مُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالُوا هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿246﴾ [البقرة: 246]؛ بَلْ سَمِىَ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ وَضُوحُ الْقَصْدِ وَالْهَدَفِ انْتِفَاضَةً إِيْمَانِيَّةً تُهَوِّنُ التَّكَالِيفَ الشَّاقَّةَ، فَقَالَ: «وَهَذَا التَّحْدِيدُ مِنْهُمْ [يقصد الملاء من بني إسرائيل] لَطَبِيعَةُ الْقِتَالِ، وَأَنَّهُ فِي (سَبِيلِ اللَّهِ) يَشِي بِانْتِفَاضَةِ الْعَقِيدَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَقْظَةُ الْإِيْمَانِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَشُعُورِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ دِينٍ وَعَقِيدَةٍ وَحَقٍّ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ وَكُفْرٍ وَبَاطِلٍ، وَوُضُوحِ الطَّرِيقِ أَمَامَهُمْ لِلْجِهَادِ.. وَهَذَا الْوُضُوحُ وَهَذَا الْحَسْمُ هُوَ نَصْفُ الطَّرِيقِ إِلَى النُّصْرِ. فَلَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَّضِحَ فِي حِسِّهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّ عَدُوَّهُ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ فِي حِسِّهِ الْهَدَفِ (فِي سَبِيلِ اللَّهِ). فَلَا يُغَشِّهِ الْغَبْشُ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ إِلَى أَيْنَ يَسِيرُ. وَقَدْ أَرَادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ صِدْقِ عَزِيمَتِهِمْ، وَثَبَاتِ نِيَّتِهِمْ، وَتَضَمُّمِهِمْ عَلَى الْهُوُضِ بِالتَّبَعَةِ الثَّقِيلَةِ، وَجِدِّهِمْ فِيمَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ» (134).

فَوُضُوحُ الْقَصْدِ وَالْهَدَفِ أَمْرٌ مِنْهُمْ جِدًّا، وَحِينَ يَكُونُ الْهَدَفُ ضَيِّلًا فَسَتَكُونُ الْهَمَّةُ أَوْ الْعَزِيمَةُ عَلَيْهِ ضَعِيفَةً بَاهِتَةً شَاحِبَةً كَذَلِكَ، وَقَدْ يَعْتَرِيهَا التَّرَدُّدُ فِي أَوَّلِ مِحْنَةٍ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْهَدَفُ وَاضِحًا، وَالْمُهْمَّةُ وَاضِحَةً وَالْغَايَةُ وَاضِحَةً، فَإِنَّ الْعَزِيمَةَ بَلَا شَكٍّ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْإِمْتِثَالِ وَالتَّنْفِيزِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ؛ سَتَكُونُ قُوَّةً جِدًّا.

وَأَنَا أَذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ إِخْوَانِنَا فِي مِحْنَةِ (1965) اهْتَزَّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا أَوَّلَ أَيَّامِ الْإِعْتِقَالِ؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ لَمْ تَكُنْ وَاضِحَةً أَمَامَهُ، وَلِأَنَّ التَّرْبِيَّةَ لَمْ تَأْخُذْ



حَقَّهَا مِنْ طُولِ الْأَمَدِ، وَعُمَقِ الْأَثَرِ؛ لِأَنَّ الْفَتْرَةَ كَانَتْ قَصِيرَةً، وَاللِّقَاءَاتِ كَانَتْ مَحْدُودَةً، وَالْكَلَامُ عَنِ الْغَايَةِ وَالْهَدَفِ لَمْ يَكُنْ وَافِيًا كَذَلِكَ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ هُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الْغُمُوضِ أَوْ التَّشْوِشِ وَاللَّبْسِ لَدَى بَعْضِنَا، حَتَّى كَانَ هُنَاكَ مَنْ يَتَصَوَّرُ أَنَّ سَنَتَكُمْ لِلْإِخْوَانِ نَتِيجَةٌ لِمَا حَدَثَ لَهُمْ سَنَةَ (1954م)، وَقَدْ يُصَرِّحُونَ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ كَانَتْ فِتْرَةً مِنْ فِتَرَاتِ الْإِعْدَادِ اسْتَمَرَّتْ عَلَى هَذَا النِّحْوِ؛ إِلَى أَنْ التَّقَتِ الْمَجْمُوعَةُ الَّتِي كَانَتْ مَسْؤُولَةً عَنِ الصِّفِّ بِالْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ، فَغَيَّرَ هَذَا الْهَدَفَ وَحَوْلَهُ تَمَامًا، وَقَالَ لَهُمْ بِأَنَّ هَذَا هَدَفٌ غَيْرُ جَدِيرٍ بِهَذَا الْعَمَلِ الْمُضْنِي، وَأَنَّ الْإِعْدَادَ لِكِتَابَةِ صِدَامٍ أَوْ لِفِرْقَةٍ انْتِحَارِيَّةٍ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنِ الْإِعْدَادِ لِتَغْيِيرِ عُرْفِ الْأُمَّةِ وَتَهْيِئَتِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا لِتَقُومَ بِالْوَاجِبِ الَّذِي غَفَلَتْ عَنْهُ مِنْ أَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ قُطْبُ الدِّينِ الْأَعْظَمِ وَالْمُهَمَّةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَرْسَلَ اللَّهُ الْأَنْبِيَاءَ وَبَعَثَ الْمُرْسَلِينَ.

وَفَرَّقَ كَبِيرٌ جَدًّا بَيْنَ الْغَايَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ أَحْدَثَ عَدَمَ التَّصَوُّرِ الصَّحِيحِ لِلْغَايَةِ فِي النُّفُوسِ نَوْعًا مِنَ التَّرَدُّدِ وَنَوْعًا مِنَ التَّفَلُّتِ، وَنَوْعًا مِنَ النُّكُولِ⁽¹³⁵⁾ فِي الْإِرَادَةِ أَوْ التَّقَاعُسِ؛ لِأَنَّهُ فَرَّقَ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ تُكُونَ فَرِيقًا لِيَكُونَ كِتَابَةُ صِدَامٍ، وَأَنْ تُكُونَ رِجَالًا يَحْمِلُونَ عِبَاءَ دَعْوَةٍ وَعِبَاءَ جِهَادٍ طَوِيلِ الْمَدَى، بَعِيدِ الْمَرَا حِلٍ كَثِيرِ الْعَقَبَاتِ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ.

فَطَرِيقُ الدَّعْوَةِ الطَّوِيلُ يَحْتَاجُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ، وَمِنْ السُّلُوكِ، وَمِنْ الْمَوَاهِبِ، وَمِنْ الْمَدَارِكِ، وَمِنْ الطَّاقَاتِ وَمِنْ الْاسْتِعْدَادِ الْحَقِيقِيِّ وَيَحْتَاجُ إِلَى تَرْبِيَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ عَالِيَةٍ عَمِيقَةٍ الْأَثَرِ، طَوِيلَةِ الْأَمَدِ، غَيْرِ الْإِعْدَادِ الْعَاجِلِ السَّرِيعِ الْقَصِيرِ لِكِتَابَةِ صِدَامٍ أَوْ فِرْقَةٍ انْتِحَارِيَّةٍ.

(135) مادة: نكل: النُّكُولُ: الجُّبْنُ وَالتُّكُوصُ عَنْ الْأَمْرِ. المعجم الوسيط. وَنَكَلَ عَنِ الْحَرْبِ: جَبْنٌ وَتَرَجَّعَ وَلَمْ يَقْدِرْ. معجم الغني.



لَكِنْ أَنْ تُخْرِجَ الْأُمَّةَ مِنْ وَقُوعِهَا فِي أَسْرِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعُدْوَانِ، وَأَنْ تُهَيِّئَ النُّفُوسَ لِتَحَرَّرَ مِنَ الْإِلْفِ وَالْعَادَةِ، وَلِتَزَكِّي الْأَخْلَاقُ، وَتَقْوَى الْإِرَادَاتُ، فَتَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ بِوَاجِبِهَا فَهَذَا أَمْرٌ شَاقٌّ طَوِيلٌ يَحْتَاجُ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْإِعْدَادِ يَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ هَذَا النَّوعِ السَّابِقِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَحْتَمِلْ بَعْضُ الْإِخْوَةِ الْمُوَاجَهَةَ الشَّرَسَةَ الْعَنِيفَةَ أَثْنَاءَ الْإِعْتِقَالِ وَالتَّحْقِيقَاتِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَصَوَّرْ أَنْ يُوَاجِهَ تِلْكَ الشَّرَاسَةَ فِي التَّحْقِيقَاتِ، وَفِي التَّعْذِيبِ، وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ الْقَاسِيَةُ الَّتِي صَدَرَتْ فِي حَقِّ الْبَعْضِ، وَلِأَنَّ الْإِعْدَادَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِ هَذَا الْمُسْتَوَى الْعَالِي مِنَ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَةِ. وَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبَ رَحْمَةُ اللَّهِ: أَمَامَ الْهَوْلِ الْحَيِّ تَتَهَاوَى الْعَزَائِمُ، وَتَتَزَلُّزُ الْقُلُوبُ.

وَهَذَا حَقٌّ، لِأَنِّي أَذْكُرُ أَنَّ أَحَدَ إِخْوَانِنَا كَانَ رَائِعًا جَدًّا، وَكَانَ مَعَنَا فِي آخِرِ لِقَاءٍ، حَيْثُ التَّقِينَا فِي شَقَّةِ الْأَخِ مُرْسِي، وَاعْتَقَلْنَا بَعْدَهَا بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، وَكَانَتْ رُوحُهُ عَالِيَةً، وَحِمَاسُهُ فَائِرَةً، ثُمَّ التَّقِيْتُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ فِي السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا لِي: مَا هَذِهِ الْمُصِيبَةُ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا يَا أَخَ صَلَاحُ؟! إِنَّهُ: الْاهْتِرَازُ أَمَامَ الْهَوْلِ الْحَيِّ تَتَهَاوَى الْعَزَائِمُ وَتَتَزَلُّزُ الْقُلُوبُ، فَلَمْ يَكُنْ مُتَصَوِّرًا أَبَدًا أَنْ يَحْدُثَ كُلُّ هَذَا لَنَا، وَإِنْ لَمْ يُسْعِفِ الْأَخُ وَضُوحُ الْهَدَفِ، وَسَلَامَةُ الْقَصْدِ فِي نَفْسِهِ، وَصِحَّتُهُ وَشَرْعِيَّتُهُ؛ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَبَدًا أَنْ يَصُمِدَ أَمَامَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَكِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ، بِفَضْلِ تَعَهُدِ الْإِخْوَةِ لَهُ وَلَنَا فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَجْتَازَ تِلْكَ الْعَقَبَةَ الْكُؤُودَ الَّتِي وَاجَهْتُنَا، وَتَهَاوَتْ فِيهَا الْعَزَائِمُ وَزُلْزَلَتِ الْقُلُوبُ أَمَامَ الْهَوْلِ الْحَيِّ، وَرُغِمَ أَنَّ هَذَا الْأَخَ قَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ لِمُدَّةٍ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، قُضِيَ مِنْهَا عَشْرَ سِنِينَ فِي السَّجْنِ، فَإِنَّهُ ظَلَّ مِثَالًا لِلصَّبْرِ وَالتَّجَرُّدِ وَالثَبَاتِ وَالْجِهَادِ وَالتَّضَحِّيَةِ.

وحدوث الزلزلة طبيعة بشرية كما يقول الأستاذ سيد، وقد زلزل

صحابه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَامَ الْهَوْلِ الْحَيِّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11)﴾ [الأحزاب]. فَالزَّلْزَلَةُ أَمْرٌ وَارِدٌ مُّمَكِّنُ الْحُدُوثِ، لَكِنْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى هَزِيمَةٍ أَوْ فِرَارٍ أَوْ تَفَلُّتٍ مِّن طَاعَةٍ، أَوْ نُكْثٍ فِي عَهْدٍ، أَوْ نَقْضٍ لِّوَعْدٍ. يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ، تَعْلِيْقًا عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: «لَقَدْ كَانُوا نَاسًا مِّنَ الْبَشَرِ، لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ مَّشَاعِرِ الْبَشَرِ، وَضَعْفِ الْبَشَرِ. وَلَيْسَ مَطْلُوبًا مِنْهُمْ أَنْ يَتَجَاوَزُوا حُدُودَ جِنْسِهِمُ الْبَشَرِيِّ، وَلَا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ إِطَارِ هَذَا الْجِنْسِ، وَيَفْقِدُوا خَصَائِصَهُ وَمُمِيزَاتِهِ. فَلِهَذَا خَلَقَهُمُ اللَّهُ. خَلَقَهُمْ لِيَبْقُوا بَشَرًا، وَلَا يَتَحَوَّلُوا جِنْسًا آخَرَ. لَا مَلَائِكَةً وَلَا شَيَاطِينَ، وَلَا بِهِمَةً وَلَا حَجَرًا.. كَانُوا نَاسًا مِّنَ الْبَشَرِ يَفْزَعُونَ، وَيَضِيقُونَ بِالشَّدَةِ، وَيُزْلَزُونَ لِلْخَطَرِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الطَّاقَةَ. وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا - مَعَ هَذَا - مُرْتَبِطِينَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي تَشُدُّهُمْ إِلَى اللَّهِ وَتَمْنَعُهُمْ مِنَ السَّقُوطِ، وَتَجَدِّدُ فِيهِمُ الْأَمَلَ، وَتَحْرُسُهُمْ مِنَ الْقُنُوطِ.. وَكَانُوا بِهَذَا وَذَلِكَ نَمُودَجًا فَرِيدًا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ لَمْ يُعْرِفْ لَهُ نَظِيرٌ».

وَعَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَ هَذَا لِنُدْرِكَ ذَلِكَ النَّمُودَجَ الْفَرِيدَ فِي تَارِيخِ الْعُصُورِ. عَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا بَشَرًا، لَمْ يَتَخَلَّوْا عَنِ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، بِمَا فِيهَا مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ. وَأَنَّ مَنَشَأَ امْتِيَازِهِمْ أَنَّهُمْ بَلَغُوا فِي بَشَرِيَّتِهِمْ هَذِهِ أَعْلَى قِمَّةٍ مُّهِيَاةٍ لِّبَنِي الْإِنْسَانِ، فِي الْإِحْتِفَاطِ بِخَصَائِصِ الْبَشَرِ فِي الْأَرْضِ مَعَ الْاسْتِمْسَاكِ بِعُرْوَةِ السَّمَاءِ.

وَحِينَ نَرَانَا ضَعُفْنَا مَرَّةً، أَوْ زُلْزَلْنَا مَرَّةً، أَوْ فَزَعْنَا مَرَّةً، أَوْ ضِيقْنَا مَرَّةً بِالْهَوْلِ وَالْخَطَرِ وَالشَّدَةِ وَالضِّيقِ.. فَعَلَيْنَا أَلَّا نَيَّأَسَ مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَلَّا نَهْلَعَ وَنَحْسَبَ أَنَّنَا هَلَكْنَا، أَوْ أَنَّنَا لَمْ نَعُدْ نَصْلُحْ لَشَيْءٍ عَظِيمٍ أَبَدًا! وَلَكِنْ عَلَيْنَا

فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَلَّا نَقِفَ إِلَى جَوَارِ صَعْفِنَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ فِطْرَتِنَا الْبَشَرِيَّةِ! وَنُصِرَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يَقَعُ لِمَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنَّا! هُنَالِكَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى. عُرْوَةُ السَّمَاءِ. وَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَمْسِكَ بِهَا لِنَنْهَضَ مِنَ الْكِبُورَةِ، وَنَسْتَرِدَّ الثِّقَةَ وَالطَّمَأِينَةَ، وَنَتَّخِذَ مِنَ الزَّلْزَالِ بَشِيرًا بِالنَّصْرِ. فَثَبَّتْ وَنَسْتَقِرَّ، وَنَقْوَى وَنَطْمِئَنَ، وَنَسِيرَ فِي الطَّرِيقِ..

وَهَذَا هُوَ التَّوَازُنُ الَّذِي صَاغَ ذَلِكَ النَّمُودَجَ الْفَرِيدَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ. النَّمُودَجُ الَّذِي يَذْكُرُ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَوَاقِفَهُ الْمَاضِيَةَ وَحُسْنَ بَلَائِهِ وَجِهَادِهِ، وَثَبَاتِهِ عَلَى عَهْدِهِ مَعَ اللَّهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَقِيَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ أَنْ يَلْقَاهُ ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23] (136).

وَلِهَذَا نَصَحَ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْقِيَادَاتِ فِي تَعَامُلِهَا مَعَ الصُّفُوفِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيَّةِ بِأَنْ تَحَذَرَ مِثْلَ تِلْكَ الْحِمَاسَاتِ الْفَائِرَةِ الَّتِي تَسْمَعُهَا مِنَ الصَّفِّ بَعِيدًا عَنِ الْهَوْلِ الْحَيِّ تَسْمَعُ حِمَاسَةً فَائِرَةً وَرَغْبَةً ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، لَكِنْ أَمَامَ الْهَوْلِ الْحَيِّ تَخْتَلِفُ الْأُمُورُ تَمَامًا، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْاِغْتِرَارَ بِتِلْكَ الْحِمَاسَةِ الْفَائِرَةِ مَعْنَاهُ نَقْصُ فِي الْإِعْدَادِ وَالتَّرْبِيَةِ؛ مِمَّا يَجْعَلُ الْاِسْتِعْدَادَ الْمَوْجُودَ غَيْرَ حَقِيقِيٍّ، وَلَا يَصِحُّ الْاِعْتِمَادُ عَلَيْهِ فِي اتِّخَاذِ قَرَارٍ، أَوْ الْإِقْدَامَ عَلَى خُطْوَةٍ تَنْفِيزِيَّةٍ؛ وَالصَّفُّ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَوَى الْمَأْمُولِ، وَلِذَلِكَ أَذْكَرُ أَنَّ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نِهَايَةِ الْمِحْنَةِ وَقَبْلَ إِعْدَامِهِ بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، قَالَ لِإِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَخَفَّفَ عَنْهُمْ الْحُكْمَ فِي اللَّحْظَاتِ الْآخِرَةِ إِلَى الْمَوْبِدِّ؛ مِثْلَ الْأَخِ صَبْرِي عَرَفَةَ، قَالَ لَهُمْ: [لَقَدْ كُنَّا فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَوَى الْمَطْلُوبِ مِنَّا، وَلَا مُسْتَوَى التَّضَحِّيَةِ اللَّائِقِ.. عَلَيْنَا أَنْ



نَعْتَرَفُ بِأَخْطَائِنَا حَتَّى تَتَذَارَكَهَا الْأَجْيَالُ.. حَسْبُنَا أَنَّ لَمْ نَكُنْ سَبِيًّا فِي هَذِهِ الْمِخْنَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ مِنْ قَدْرِ اللَّهِ وَفِعْلِهِ الْحَكِيمِ]. لَأَنَّهُ أَحْسَنُ أَنَّ الصَّفَّ لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْإِعْدَادِ الْإِيمَانِي وَالتَّرْبُوي الْعَمِيقِ مَا يُوْهِلُّهُ لِتَحْمُلِ أَعْبَاءِ جِهَادٍ طَوِيلِ الْمَدَى، كَثِيرِ الْعُقَبَاتِ، بَعِيدِ الْمَرَا حِلِّ، رَغْمَ أَنَّ مَسْتَوَى الْأَدَاءِ، فِي تَقْدِيرِ بَعْضِنَا، لَا يُقَارَنُ.

وَقَدْ أَرَادَ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ رَحْمَتِهِ بِقَوْلِهِ «بَعْضِنَا» أَمْثَالَنَا مِنْ ذَوِي النَظَرِ الْمَحْدُودِ، أَوْ مَنْ يَتَأَثَّرُ بِالْحِمَاسَاتِ الْفَائِرَةِ وَالْفَلَتَاتِ الْعَارِضَةِ، لَكِنْ صَاحِبَ التَّفَكِيرِ وَالنَظَرِ الْعَمِيقِ مِثْلَ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ رَحْمَتِهِ أَدْرَكَ أَنَّ الْمُسْتَوَى لَمْ يَكُنْ عَلَى قَدْرِ الْمَطْلُوبِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إِعْدَادٌ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ لَكِنَّهُ قَدَّرَ اللَّهُ وَفِعْلُهُ الْحَكِيمُ.

وَهَذِهِ مُهِمَّتُنَا نَحْنُ إِجْمَالًا: أَنْ نُهَيِّئَ النُفُوسَ لِاخْتِيَارِ مَطَالِبِ الْإِيمَانِ، وَالْإِمْتِثَالِ لِهَذِهِ الْمَطَالِبِ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ طَاعَةٍ وَاسْتِعْدَادٍ نَفْسِيٍّ هَائِلٍ لِتَحْمُلِ تِلْكَ الْأَعْبَاءِ فَلَا يَحْدُثُ التَّرَدُّدُ؛ لِأَنَّ الْهَدَفَ وَاضِحٌ، وَالْقَصْدُ سَلِيمٌ، وَالْغَايَةُ وَالْمُهِمَّةُ شَرِيعِيَّةٌ، وَالْأَدَلَّةُ عَلَى ذَلِكَ قَائِمَةٌ، كَمَا كَانَ يَكْرُرُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: فِكْرَتُنَا إِسْلَامِيَّةٌ صَمِيمَةٌ.

رَفْعُ الْحَرَجِ وَجَلْبُ التَّيْسِيرِ

أَذْكُرُ أَنَّي رَأَيْتُ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطْبِ رَحْمَتِهِ، وَنَحْنُ مَعَهُ فِي قَفْصِ الْإِتْهَامِ فِي الْقَضِيَّةِ الْأُولَى، وَأَنَّهُ هَمَسَ لِلَاخِ الَّذِي بِجَوَارِهِ أَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَرَى الْجَمِيعَ، وَكَانَ يَرَانَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، فَنَظَرَ خَلْفَهُ - وَكَانَ الْكَلَامُ وَالسَّلَامُ مَمْنُوعَيْنِ أَثْنَاءَ الْمُحَاكَمَاتِ - فَرَأَى أَرْبَعِينَ شَابًّا، كُلُّهُمْ أَعْمَارُهُمْ مَا بَيْنَ الْعِشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ، فَهُمْ قَلِيلُو الْخِبْرَةِ وَالتَّجَرِبَةِ مِنْ نَظَرَتِهِ لَهُمْ، وَهُوَ رَجُلٌ مُعَلِّمٌ وَمُرَبٍّ، فَأَدْرَكَ أَنَّ الْهَوْلَ الَّذِي سَيُوجِّهُونَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ؛ وَلِذَلِكَ

لَمَّا وَقَفَ أَمَامَ رِجَالِ التَّحْقِيقَاتِ قَالُوا لَهُ: انْظُرْ إِلَى الشَّبَابِ الَّذِينَ رَبَّيْتَهُمْ
اعْتَرَفُوا جَمِيعًا، فَكَانَ رَدُّهُ: إِنَّ مَا يَحْدُثُ هُنَا فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ، وَنَرَاهُ هُنَا
رَفَعَ الْحَرْجَ بِغَيْرِ مُسَوِّغٍ وَلَا مُرَاجَعَةٍ وَلَا تَرَدُّدٍ وَلَا حَرْجٍ.

هَذَا الْمَوْقِفُ مَوْقِفٌ مُعْطَاءٌ فِي قِيَمِهِ وَمَعَانِيهِ، وَالْيَوْمَ نَخْرُجُ بِمَعْنَى
مُهِمٍّ جِدًّا، وَهُوَ: أَنْ تَرَفَعَ الْحَرْجَ عَمَّنْ أَمَامَكَ؛ بَأَنْ تُكَلِّفَهُ مَا فِي مَقْدُورِهِ
وَوُسْعِهِ، فَتَرَفُعَ عَنْهُ الْحَرْجُ، فَتُعِينَهُ عَلَى الطَّاعَةِ، لِأَنَّهَا تَكْلِيفٌ، وَالْإِنْسَانُ
يَنْبَغِي أَنْ يُعَانَ عَلَى التَّكْلِيفِ. وَهَذَا مِنْهُجٌ قُرْآنِيٌّ فَرِيدٌ، فَالْإِنْسَانُ مُكَلَّفٌ
وَمُعَانَ عَلَى التَّكْلِيفِ كَذَلِكَ.

وَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطُب رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَانَ بِمَا فِيهِ مِنْ
مَوَاهِبَ وَقُدْرَاتٍ، وَأَنَّهُ «مُعَانَ عَلَى هَذِهِ الْخِلَافَةِ؛ مُعَانَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ
بِجَعْلِ النِّوَامِيسِ الْكُونِيَّةِ وَطَبِيعَةِ الْكَوْنِ الَّتِي يَعْيشُ فِيهِ مُعَاوَنَةً لَهُ» (137)،
بِغَيْرِ أَجْرٍ كَمَا يَقُولُونَ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى السُّخْرَةِ (الْخِدْمَةِ بِغَيْرِ أَجْرٍ)،
نَاهِيكَ بِأَنَّهُ مُعَانَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الرِّسَالَاتِ لِلْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ،
فَهُوَ مُكَلَّفٌ وَمُعَانَ عَلَى التَّكْلِيفِ كَذَلِكَ؛ فَأَيُّ تَكْلِيفٍ شَرْعِيٍّ قَائِمٌ عَلَى
التَّيْسِيرِ وَرَفْعِ الْحَرْجِ، لَا عَلَى التَّعْسِيرِ وَإِيقَاعِ الْمَشَقَّةِ. فَالْمَشَقَّةُ تَجْلِبُ
التَّيْسِيرَ. كَمَا يَقُولُ الْفُقَهَاءُ¹³⁸.

وَيَعْنِي مَا سَبَقَ أَنَّ مُهِمَّةَ الْقِيَادَةِ، أَنْ تَرَفَعَ الْحَرْجَ عَنْ إِخْوَانِهَا فِي
الصِّفِّ، فَلَا تَكْلِفُهُمْ بِمَا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ أَوْ وَسْعِهِمْ، فَتُعَسِّرَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ
الطَّاعَةِ؛ إِذَا طَلَبَتْ إِلَى الصِّفِّ فِعْلَ شَيْءٍ يَصْعَبُ تَحْقِيقُهُ، وَلَا سِيَّمَا
أَبْنَاءَ الصِّفِّ الَّذِينَ لَمْ يَأْخُذُوا قِسْطًا وَافِرًا مِنَ التَّرْبِيَةِ، وَتَطْلُبُ إِلَيْهِمْ أَلَّا

(137) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، ص 165.

(138) ابن نُجَيْم، الأَشْبَاهُ وَالنِّظَائِرُ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ، ج 1، ص 245: «القاعدة الرابعة: «المشقة تجلب التيسير».

يَشْكُوا وَلَا يُرَاجِعُوا وَلَا يَتَحَرَّجُوا. وَذَلِكَ مَا رَعَاهُ الْأَسْتَاذُ سَيِّدُ رَحْمَتِهِ، وَمَنْ
ثُمَّ هَمَسَ فِي أُذُنِ مَنْ كَانَ بِجَوَارِهِ وَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ: مَنْ تَضَعُطُ عَلَيْهِ
الْحُكُومَةُ حَتَّى يُؤَيَّدَ فَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَمْ يَفْعَلْهَا أَحَدٌ إِلَّا عَلِيٌّ عَشَمَاوِي.
وَفِي ذَلِكَ دِلَالَةٌ عَلَى بُعْدِ نَظَرِهِ، وَثَاقِبِ فَهْمِهِ رَحْمَتِهِ؛ حَيْثُ رَاعَى قُدْرَاتِ
النَّاسِ الْمَوْجُودَةَ وَطَاقَتَهُمْ، فَلَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ شَيْئًا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَاقٌّ
عَلَيْهِمْ.

وَحِينَ تَرْفُقُ الْقِيَادَةُ بِأَبْنَاءِ الصَّفِّ، وَلَا تُحْمَلُهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ،
فَإِنَّهَا بِذَلِكَ تَهْتَدِي بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ كَانَ رَحِيمًا بِأَصْحَابِهِ، يُبَايِعُهُمْ
فَلَا يَشْقُ عَلَيْهِمْ، بَلْ يُلَقِّنُهُمْ (قُلْ مَا اسْتَطَعْتُ)، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:
« كُنَّا نُبَايِعُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَيُلَقِّنُنَا: فِيمَا اسْتَطَعْتُ » (139).
يَقُولُ الْإِمَامُ النُّوويُّ: « هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسخِ (فِيمَا اسْتَطَعْتُ)؛ أَيْ
قُلْ (فِيمَا اسْتَطَعْتُ)، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ شَفَقَتِهِ ﷺ، وَرَأْفَتِهِ بِأُمَّتِهِ، يُلَقِّنُهُمْ أَنْ
يَقُولَ أَحَدُهُمْ: (فِيمَا اسْتَطَعْتُ) لِئَلَّا يَدْخُلَ فِي عُمُومِ بَيْعَةٍ مَا لَا يُطِيقُهُ،
وَفِيهِ أَنَّهُ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانَ مَنْ يَلْتَزِمُ مَا لَا يُطِيقُهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لَهُ: لَا تَلْتَزِمْ
مَا لَا تُطِيقُ فَيَتْرَكَ بَعْضَهُ وَهُوَ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ ﷺ: عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا
تُطِيقُونَ » (140)، وَهَذَا مُسْتَوًى عَالٍ جِدًّا مِنَ التَّرْبِيَةِ الْإِيمَانِيَّةِ، أَوْ مِنَ التَّحْمَلِ
الْإِيمَانِيِّ.

وَقَدْ رَفَقَ الْأَسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ رَحْمَتُهُ بِإِخْوَانِهِ؛ إِذْ آتَاهُ بَعْضُهُمْ يَطْلُبُونَ مِنْهُ
أَنْ يُؤَيِّدُوا، فَقَالَ لَهُمْ: أَيَّدُوا، وَكَانَ بَعْضُ الْإِخْوَانِ يَعْيُونَ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛
وَيَلُومُونَهُ: كَيْفَ تَقُولُ لَهُمْ هَذَا؟ أَتُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكَ؟ فَكَانَ
يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: إِنَّ هَذَا إِكْرَاهٌ، أَوْ مُسْتَوًى الْإِكْرَاهِ هُنَا مَوْجُودٌ وَقَائِمٌ وَلَا كَهْنُوتَ

(139) أخرجه أبو داود (2940) واللفظ له، وأخرجه البخاري (7202)، ومسلم (1867) باختلاف يسير.

(140) الإمام أبو زكريا النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط 2، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 1392 هـ، 13 / 11.

فِي الْإِسْلَام، أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ هَذَا؟ يَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ: حَسَنٌ، لِمَاذَا أَنْتُمْ ثَابِتُونَ؟ ثُمَّ هُمْ يَرَوْنِي قَاعِدًا وَثَابِتًا لَمْ أَتَزَحَّجْ، وَلِذَلِكَ قَامَ وَنَشَرَ مَنَشُورَهُ هَذَا الَّذِي جَاءَ فِيهِ إِنَّ الْإِكْرَاهَ مُسْتَوَاهُ كَذَا وَكَذَا.. وَاسْتَدَلَّ بِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي مُسْتَوَى الْإِكْرَاهِ، وَمِمَّا قَالَهُ فِي هَذَا الْمَنَشُورِ الَّذِي وُزِعَ عَلَى الْإِخْوَةِ فِي السَّجْنِ: وَالتَّهْدِيدُ مِمَّنْ يَمْلِكُ تَنْفِيذَهُ إِكْرَاهٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]. وَهَذَا يَمْلِكُ تَهْدِيدُهُ وَيَمْلِكُ تَنْفِيذُهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَاكِمُ وَمَعَهُ السُّلْطَةُ، فَمُجَرَّدُ التَّهْدِيدِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِكْرَاهِ، وَمَتَى تَحَقَّقَ الْإِكْرَاهُ، فَهَذَا مَوْضِعُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]. فَبَعْدَمَا ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ حُدُودَ الْإِكْرَاهِ، عَلَّقَ وَكَتَبَ فِي آخِرِ الْمَنَشُورِ: «... إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ صَفٌّ عَلَى رُخْصَةٍ، وَقَدْ نَدَبْنَا أَنْفُسَنَا لِلْأَخْذِ بِالْعَزِيمَةِ، وَنَأْمُرُ إِخْوَانَنَا بِالْأَخْذِ بِهَا؛ فَالصَّبْرُ أَوْلَى وَأَحَبُّ». وَكَانَ عُنْوَانُ الْمَنَشُورِ: (الصَّبْرُ أَوْلَى وَأَحَبُّ).

التربية الإيمانية العالية

وَمِنْ ثَمَّ فَهَذِهِ هِيَ الطَّاعَةُ الرَّاضِيَّةُ كَمَا يُعَبِّرُ عَنْهَا الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الظَّلَالُ يَقُولُ: إِنَّ الطَّاعَةَ الرَّاضِيَّةَ أَنْ يَكُونَ التَّابِعُ وَالْمَتَّبِعُ كِلَاهُمَا يُطِيعَانِ بِالْمُسْتَوَى نَفْسِهِ مِنَ الرِّضَى وَالْإِتْيَاحِ.

بِمَعْنَى: أَنَّنِي لَا أَخْفِي عَمَّنْ يَسِيرُ مَعِيَ شَيْئًا مِنْ رُخْصِ الشَّرْعِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ حَدًّا يَجُوزُ فِيهِ التَّرَخُّصُ، ثُمَّ أَكْثَمُهُ عَنِ الصَّفِّ؛ لِئَلَّا يَنْصَرِفُوا عَنِّي، فَأَكْلَفَهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ فِي مُتَهَيِّهِ الْخُطُورَةِ.

وَلِذَلِكَ قَالَ الْأُسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ: لَا كَهْنُوتَ فِي الْإِسْلَامِ - أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ هَذَا - فَكُلُّ وَاحِدٍ يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ مَعَ رَبِّهِ، يَتَعَامَلُ مَعَ رَبِّهِ بِالصُّورَةِ الَّتِي



يَرْتَا حُ إِلَيْهَا يَعْرِفُ مَا هِيَ حَدُودُ اللَّهِ وَشَرْعُهُ؟ وَمَا رُخْصُهُ وَعَزَائِمُهُ؟ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُ بِالرُّخْصَةِ أَوْ بِالْعَزِيمَةِ، وَمَنْ يَأْخُذُ بِالْعَزِيمَةِ يَكُونُ عَنْ رِضَى وَارْتِيَا حُ، لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ لَهُ تَوَابِعُهُ، وَلَهُ آثَارُهُ الْمُرْتَبَةُ عَلَيْهِ، وَلَهُ نَتَائِجُهُ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ لَمْ يَتَقَبَّلْ ذَلِكَ بِالْإِرتِيَا حِ وَالرِّضَى سَيَعِيشُ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ.

وَلِذَلِكَ مِنْ كَلِمَاتِ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطُبِ رَحْمَتِهِ: إِنَّ التَّشَدُّدَ لَا يَزِيدُ الْمُتَحَرِّجِينَ إِلَّا تَحَرُّجًا، فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَفَلَّتَ فَلَا خَيْرَ فِيهِ مِنْذُ الْبَدْءِ.

إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَتَشَدَّدَ لِكَي تَبْقِيَ عَلَى النَّاسِ مَعَكَ، فَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَتَفَلَّتَ لَنْ يَنْفَعَهُ هَذَا التَّشَدُّدُ إِنَّمَا سَيُضُرُّ الْمُتَحَرِّجِينَ أَصْلًا فَإِنَّ التَّشَدُّدَ لَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا تَحَرُّجًا.

وَلِذَلِكَ، فَإِنَّهُ إِذَا تَوَافَرَتِ التَّرْبِيَةُ الْإِيمَانِيَّةُ الْعَالِيَةُ، طَوِيلَةُ الْأَمَدِ، عَمِيقَةُ الْأَثَرِ، تَيَسَّرَ أَمْرُ الطَّاعَةِ، فَلَا يَكُونُ ثَمَّ حَرَجٌ وَأَنْتَ تَوَدِّيْهَا؛ إِذْ لَا تُكَلِّفُ بِمَا لَيْسَ فِي مَقْدُورِكَ إِلَّا إِذَا أُعِنْتَ عَلَيْهِ، وَعِنْدَئِذٍ يَكُونُ مَا تُكَلِّفُ بِهِ دَاخِلًا فِي وُسْعِكَ: فَإِنْ كَانَ مَوْضِعُهُ الرُّخْصَةُ بَيَّنَّتْ لَكَ الرُّخْصَةَ، وَإِنْ كَانَ مَوْضِعُهُ الْعَزِيمَةُ بَيَّنَّتْ لَكَ الْعَزِيمَةَ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ الْقُدْرَةُ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ مَا يَرَاهُ أَقْرَبَ إِلَى حَالِهِ، فَيَتَحَمَّلُ نَتَائِجَ هَذَا الْإِخْتِيَارِ بِرِضَا وَارْتِيَا حِ، كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا.

الْمُرَاجَعَةُ بَيْنَ الْقَائِدِ وَالْجُنْدِيِّ

قَدْ يَتَصَوَّرُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ أَنَّ الْمُرَاجَعَةَ غَيْرُ مَطْلُوبَةٍ تَمَامًا، وَأَنَّ الْأَمْرَ مَا هُوَ إِلَّا: طَاعَةٌ بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا مُرَاجَعَةٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا حَرَجٍ! لَكِنَّا نَجِدُ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُرَاجِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، حَتَّى الْمَوَاقِفِ الْحَاسِمَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ ﷺ مَزْلُهُ بَيَّنَّ قَالَهُ الْحَبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ؟ أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَ اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ

وَلَا تَتَأَخَّرَ عَنْهُ؟ أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ فَقَالَ: بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ، قَالَ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضُ بِالنَّاسِ، حَتَّى نَأْتِيَ أَذْنَى مَنْزِلٍ مِنَ الْقَوْمِ فَتَنْزِلُهُ، ثُمَّ نَغُورَ مَا وَرَاءَهُ مِنَ الْقَلْبِ، وَنَبْنِي لَكَ حَوْضًا فَنَمْلَأُهُ مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ النَّاسَ، فَشَرَبَ وَلَا يَشْرَبُونَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أَشْرَتْ بِالرَّأْيِ» (141).

وَلَكِنَّ شَابَ الْقِصَّةِ السَّابِقَةَ ضَعْفٌ، لَقَدْ صَحَّ أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رَاجَعَتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حِينَ اسْتَخْلَفَ أَبَاهَا عَلَى الصَّلَاةِ بِالنَّاسِ، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتُ عُمَرَ!! فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ فَلَوْ أَمَرْتُ عُمَرَ!! فَقَالَتْ لَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّكَ لَأَنْتَنَ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَةً، فَقَامَ يَهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ وَرِجَالَهُ تَخْطَانِ فِي الْأَرْضِ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُمْ مَكَانَكَ. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمًا يَقْتَدِي

(141) هَذِهِ رَوَايَةٌ مَشْهُورَةٌ لَكِنَّهَا ضَعِيفَةٌ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ هَذِهِ الْقِصَّةَ فِي مُسْتَدْرَكِهِ، كِتَابُ (مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)، بَابُ ذِكْرِ مَنَاقِبِ الْحُبَابِ بْنِ الْمُنْذِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدِيثٌ رَقْمُ (5856)، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ، وَسَنَدُهُ وَاهٍ، وَأَخْرَجَهَا ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ (2/ 232) بِإِسْنَادٍ مُنْقَطِعٍ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ مُخَالِفَةٌ لِلرِّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي اخْتَارَ النُّزُولَ عَلَى أَفْضَلِ مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ بَيْتِ بَدْرٍ أَوَّلَ مَا نَزَلَ.

أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْتَدِي النَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ» (142).

وَقَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلًا قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَلَا كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ» (143).

بَلْ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا: «كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قَالَتْ: فَقَالَ إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابُ يَهْلِكُ» (144).

وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ بِالْمُرَاجَعَةِ - كَمَا يَذْكُرُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ - الْمُمَاحَكَةُ وَالتَّسْوِيفُ وَالرَّغْبَةُ فِي التَّقَاعُسِ، إِنَّمَا هُوَ الْأَخْذُ وَالرَّدُّ أَوْ (الشُّورَى)، لِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْجَمِيعُ وَيَشْتَرِكُونَ كَذَلِكَ فِي آثَارِهِ وَنَتَائِجِهِ الْمُتَرْتِبَةِ عَلَيْهِ. وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ مَجَالَ الْمُنَاقَشَةِ وَإِبْدَاءِ، بَلْ يَطْلُبُ مِنْهُمْ الْمَشُورَةَ، قَبْلَ اتِّخَاذِ الْقَرَارِ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُصَالِحَةَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ وَالْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرِّيِّ، حِينَ حَصَرَهُ الْأَحْزَابُ فِي الْخَنْدَقِ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ ثَلَاثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَا عَنِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَشَارَ السَّعْدَيْنِ (سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ)، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَهْوَأُ أَمْرٌ تُحِبُّهُ فَنَصْنَعُهُ، أَمْ شَيْءٌ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ لَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْعَمَلِ بِهِ، أَمْ شَيْءٌ تُصْنَعُهُ لَنَا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ

(142) أخرجه البخاري (713)، ومسلم (418)، والنسائي (833) وابن ماجه (1232)، وأحمد (25876).

(143) أخرجه البخاري في: 64 كتاب المغازي: 83 باب مرض النبي ﷺ ووفاته.

(144) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَرَجَعَ حَتَّى يَعْرِفَهُ.

رَمَتَكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدٍ وَكَالْبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرِ مَا. قَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشَّرِكِ بِاللَّهِ لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً وَاحِدَةً إِلَّا قَرِئَ أَوْ بِيَعَا، أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَانَا إِلَيْهِ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا؟ مَا لَنَا بِهِذَا مِنْ حَاجَةٍ، وَاللَّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنْتَ وَذَلِكَ (145).

وَكثِيرًا مَا نَتَعَرَّضُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، فَقَدْ يَكُونُ أَحَدُنَا مَسْئُولًا عَنْ فَصِيلٍ أَوْ مَجْمُوعَةٍ، ثُمَّ يُسْأَلُ فِي أَمْرِ مَا، فَيُصَادِرُ آراءَ الْآخَرِينَ، وَيُجِيبُ زَاعِمًا أَنْ قَوْلَهُ هُوَ رَأْيُ الْجَمَاعَةِ، وَهَذَا مَسْلُكُ مَرْفُوضٍ، وَمِنْ الْأَمَانَةِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا رَأْيِي أَنَا، أَوْ أَنَا أَرَى كَذَا، وَلَا يَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُرَاجِعَ أَوْ يُنَاقِشَ أَوْ يَنْصَحَ، وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ جِدًّا وَلَا حَرَجَ فِيهِ، بَلْ هُوَ مَطْلُوبٌ أَنْ يَكُونَ ضِمْنُ تَصَوُّرِنَا، وَنَحْنُ نُرَبِّي الصِّفَّ عَلَى مَعْنَى (الطَّاعَةِ) بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ وَلَا شَكٍّ وَلَا مُرَاجَعَةٍ وَلَا حَرَجٍ؛ فَذَلِكَ مِمَّا يُسَهِّلُ أَمْرَ (الطَّاعَةِ) وَيُعِينُ عَلَيْهَا.

قِيَادَةُ تَسْبِقُ وَصَفٌ يُطِيعُ

وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تُسَيِّرُ أَمْرَ (الطَّاعَةِ) عَلَى النُّفُوسِ؛ هُوَ تَمِيزُ الْقِيَادَةِ بِصِفَةِ السَّبْقِ، وَكَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الرَّاشِدُ فِي (العَوَائِقِ): «وَلَا شَكَّ أَنَّهُ وَاجِبٌ مُزْدَوِّجٌ وَحَرَصُ يَنْبَغِي أَنْ يَصْدُرَ عَنْ كِلَا الطَّرَفَيْنِ: قِيَادَةُ تَسْبِقُ، وَدَاعِيَةُ يُطِيعُ. فَالْقِيَادَةُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ سَابِقَةً لِمَجْمُوعِ الدُّعَاةِ فِي طَرَحِهَا لِلاِجْتِهَادِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ تَطَوُّرُ الْأَوْضَاعِ، وَفِي تَنْسِيقِهَا لِدُرُوسِ التَّجَرِبَةِ، فَإِنْ لَمْ تُسَعِّفْهُ بِفَقْهِهِ وَاضِحٍ سَيَدُورُ مَعَ الْخَطَأِ، وَيُرَاوِجُ فِي مَكَانٍ مَحْصُورٍ،

وَلَيْسَ لَكَ مِنْ سَبِيلِ لَوْمٍ، وَإِلَّا أَرْهَقْتَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا» (146).

يَنْبَغِي أَنْ يَرَى الصَّفُّ الْقِيَادَةَ سَبَاقَةً فِي الرُّؤْيَةِ وَالتَّفَكِيرِ، سَبَاقَةً فِي التَّخْطِيطِ وَتَوَقُّعِ الْعَوَاقِبِ، فَإِنَّ هَذَا يُعْطِي الصَّفَّ نَوْعًا مِنَ الثِّقَةِ، يَسْتَشْعِرُ مَعَهَا صَوَابِيَّةَ الْفِكْرِ وَالْقَرَارِ، فَيَسْتَسْهِلُ (الطَّاعَةَ)، بَلْ يُسَارِعُ إِلَيْهَا. أَمَّا الصَّفُّ الَّذِي يَرَى قِيَادَتَهُ تَدَوُّرٌ فِي دَائِرَةِ الْخَطَا؛ فَإِنَّ ثِقَتَهُ فِيهَا وَفِي قَرَارَاتِهَا تَضَعُفُ حَتَّى تَتَلَاشَى، وَلَا مُسَوِّغَ حِينِيذٍ لِأَنْ تُطَالِبَهُ تِلْكَ الْقِيَادَةُ بِطَاعَةٍ!

وَالْقِيَادَةُ بِخَيْرٍ مَا دَامَتْ تَأْخُذُ بِالشُّورَى، وَتَجْهَدُ لِإِخْوَانِهَا وَتَنْصَحُ لَهُمْ، عَمَلًا بِمَا رَوَاهُ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ» (147). ويقول الشيخ سعيد حوى: «إِنَّا لَا نَقُولُ: إِنَّ الْجَمَاعَةَ مَعْصُومَةٌ، وَلَكِنَّا لَا نَقْبَلُ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ (أَنْ تُحْمَلَ الْجَمَاعَةُ أَخْطَاءَ لَمْ تَرْتَكِبْهَا). وَنَحْنُ لَا نَقُولُ: إِنَّ قِيَادَاتِ الْجَمَاعَةِ مَعْصُومَةٌ، وَلَكِنَّا لَا نَقْبَلُ أَنْ تُنْقَدَ الْقِيَادَةُ بِاسْتِهْتَارٍ. إِنَّ الْأَصْلَ فِي الْجَمَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عَلَى صَوَابٍ، وَالْخَطَأُ عَارِضٌ، فَعِنْدَمَا يُصْبِحُ الْأَخُ يَتَصَوَّرُ أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْخَطَأُ، وَالصَّوَابُ عَارِضٌ، فَعِنْدَئِذٍ تَكُونُ كَارِثَةً» (148).

فَبَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَاضِيًا عَنْ هَذَا الصُّلْحِ، إِلَّا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْحُزْنُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَهُمْ لَا يَشْكُونَ فِي دُخُولِهِمْ مَكَّةَ، وَطَوَافِهِمْ بِالْبَيْتِ لِلرُّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْا مِنَ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ،

(146) محمد أحمد الراشد: العواثق، دار المنطلق، 1415هـ / 1994م، ص 9.

(147) أخرجه البخاري (7150) بمعناه، ومسلم (142).

(148) سعيد جوى: المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين، دار عمار - بيروت، ص 176.

وَعَدَمَ الْعُمْرَةِ هَذَا الْعَامَ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ⁽¹⁴⁹⁾، بَلْ جَعَلَ بَعْضُهُمْ يُجَادِلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى لِيَقُولَ لَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بَعْدَ نَزُولِ سُورَةِ الْفَتْحِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفْتَحْ هُو؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، فَطَابَتْ نَفْسُ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)»⁽¹⁵⁰⁾.

وَفِي مَغَازِي الْوَاقِدِيِّ: «وَقَالَ عُمَرُ وَرِجَالٌ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ؟ وَهَدَيْنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا نَحْنُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟ قَالَ عُمَرُ: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَآخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَحْلِقُ رَأْسِي وَرَأْسَكُمْ بِطَنْ مَكَّةَ، وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمُعَرِّفِينَ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ فَقَالَ: أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ أَحَدٍ؟ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ؟ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ؟ أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُهُمْ أُمُورًا - أَنْسَيْتُمْ يَوْمَ كَذَا؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا فَكَّرْنَا فِيمَا فَكَّرْتَ فِيهِ، لَأَنْتَ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ مِنَّا! فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْقَضِيَّةِ وَحَلَقَ رَأْسَهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي وَعَدْتُكُمْ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ أَخَذَ الْمِفْتَاحَ فَقَالَ: ادْعُوا لِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ! فَقَالَ: هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ. فَلَمَّا كَانَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعْرِفَةً فَقَالَ: أَيُّ عُمَرُ، هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكُمْ! قَالَ: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ فَتَحَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ صَلَاحِ الْحُدَيْبِيَّةِ! وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: مَا كَانَ فَتَحَ فِي الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ مِنْ فَتَحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَلَكِنْ

(149) انظر موسى بن راشد العازمي: اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، ط 1، المكتبة العامرية - الكويت، 1432هـ - 2011م، 3/ 327.

(150) انظر السابق، 1432هـ - 2011م، 3/ 329.

النَّاسَ يَوْمَئِذٍ قَصَرَ رَأْيُهُمْ عَمَّا كَانَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَرَبِّهِ، وَالْعِبَادُ يَعْجَلُونَ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَعْجَلُ كَعَجَلَةِ الْعِبَادِ حَتَّى تَبْلُغَ الْأُمُورُ مَا أَرَادَ اللَّهُ⁽¹⁵¹⁾.

نَلَحَظُ هُنَا سَبْقَ الْقِيَادَةِ فِي التَّفْكِيرِ، وَرُؤْيَا الْعَوَاقِبِ وَنَتَائِجِهَا، وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ هَذَا رَسُولُ يُوْحَى إِلَيْهِ. وَهَذَا حَقٌّ؛ لَكِنَّ الْقِيَادَةَ الرَّاشِدَةَ الْمَوْصُولَةَ بِاللَّهِ الْحَرِيصَةَ عَلَى الشُّورَى مُوَفَّقَةٌ مُسَدَّدَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمَعَانَةٌ فِي قَرَارِهَا، وَلَنْ يَخْذُلَهَا رَبُّهَا؛ فَحِينَ اسْتَشَارَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصَّحَابَةَ فِي قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ، وَرُغِمَ رَفُضُ الصَّحَابَةِ رَأْيَ أَبِي بَكْرٍ فِي قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ، لَكِنَّهُ مَا زَالَ يُقْنِعُهُمْ، وَيُقَدِّمُ لَهُمُ الْأَدْلَةَ عَلَى ضَرُورَةِ قِتَالِهِمْ، حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُمْ لِرَأْيِهِ وَقَاتَلُوهُمْ مَعَهُ، وَانْظُرْ مَا يَقُولُهُ ابْنُ حَجَرٍ: «وَمَنْ ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لَوْلَا أَبُو بَكْرٍ مَا عَبْدَ اللَّهُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ أَيْ لِأَنَّهُ الَّذِي رَأَى قِتَالَ الْمُرْتَدِّينَ مَعَ مُخَالَفَةِ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ لَهُ، حَتَّى أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْأَدْلَةَ الْوَاضِحَةَ عَلَى قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ وَمَانِعِي الزَّكَاةِ إِلَيْهِ أَنْ رَجَعُوا إِلَيْهِ وَقَاتَلُوهُمْ بِأَمْرِهِ فَكَشَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِهِمْ تِلْكَ الْغُمَّةَ وَأَزَالَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ تِلْكَ الْمِخْنَةَ»⁽¹⁵²⁾.

فَسَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) نَمُودِجٌ فَذٌّ لِلْقِيَادَةِ الرَّاشِدَةِ السَّابِقَةِ إِلَى رُؤْيَا الْعَوَاقِبِ وَالْمَالَاتِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَفْقَهُ الصَّحَابَةِ بِكَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يُدْرِكُ مِنْهُ مَا لَا يُدْرِكُونَ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجَبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولَ اللَّهِ

(151) انظر محمد بن عمر الواقدي: المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، جامعة أكسفورد - لندن، ١٩٦٦م، 2/ 609، وما بعدها.

(152) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط، ط 1، مؤسسة الرسالة - لبنان، 1417هـ - 1997م، 1/ 137.



عَنْ عَبْدِ خَيْرِهِ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمُنَا بِهِ» (153).

لَقَدْ تَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ مِنْ قَوْلِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وَبُكَائِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يَسْتَدْعِي هَذَا الْقَوْلَ أَوْ ذَلِكَ الْبُكَاءَ، فَلَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَهَمُّوا النَّاسَ مَقْصِدَهُ ﷺ مِنْ كَلَامِهِ، وَأَدْرَكُوا فِطْنَةَ أَبِي بَكْرٍ وَفِرَاسَتَهُ.

فَكُلَّمَا تَوَفَّرَتْ فِي الْقِيَادَةِ مَظَاهِرُ السَّبْقِ وَالْإِزْيَادِ، وَالْبَصَرِ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ، كَانَ ذَلِكَ مَبْعَثَ ثِقَةٍ وَاطْمِئْنَانٍ لَدَى الصَّفِّ، وَمِنْ ثَمَّ تُصْبِحُ طَاعَةُ الصَّفِّ لِقَرَارَاتِ الْقِيَادَةِ أَيْسَرَ مَا تَكُونُ.

التَّشْعِيبُ وَالتَّكْوِينُ

يقول الأستاذ محمود عبد الحليم: «وَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ (يقصد الإمام البنا) بَثَاقِبِ فِكْرِهِ، وَمُرْهَفِ حِسِّهِ، وَبِخَاصِيَّةٍ أودَعَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا - يَتَحَدَّثُ إِلَى النَّاسِ عَنْ أُمُورٍ يَرَاهَا هُوَ وَاقِعَةً لَا مَحَالَةَ، وَهِيَ فِي خَوَاطِرِنَا شَيْءٌ مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ، وَأَوْهَامِ الْخِيَالِ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَعُدُّ مِنْ حَيَاطَاتِ الْحَذَرِ مِنْ أخطَارٍ يَتَوَقَّعُهَا وَلَا نُكَادُ نَصُدِّقُ، وَهُوَ يُحَذِّرُنَا مِنْهَا .. ثُمَّ لَا تَقَعُ هَذِهِ الْأخطَارُ إِلَّا بَعْدَ سَنَوَاتٍ ... وَعِنْدَمَا تَوَاجَهْنَا، نَرَى أَسْبَابَ الْحَيْطَةِ الَّتِي اتَّخَذَهَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ - دُونَ مُبَرَّرٍ فِي نَظَرِنَا إِذْ ذَاكَ - هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُحَصِّنُنَا إِزَاءَ هَذِهِ الْأخطَارِ» (154)، مِثْلَمَا حَدَّثَ إِخْوَانَهُ عَنْ فِتْرَةٍ مَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ وَكَانَ حَدِيثُهُ، ذَلِكَ أَثْنَاءَ الْحَرْبِ سَنَةِ (1939م)

(153) أخرجه البخاري (3904).

(154) محمود عبد الحليم: الإخوة المسلمون: أحداثٌ صنعت التاريخ، ط 5، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1414هـ - 1994م، 1/ 161.

وَنَصَحَهُمْ أَنْ يَغْتَنِمُوا هَذِهِ الْفِتْرَةَ؛ حَيْثُ إِنَّ الْمُسْتَعْمَرَ وَالْحُكُومَةَ الْمِصْرِيَّةَ مَشْغُولَانِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ؛ فَعَلَى الْإِخْوَانِ أَنْ يَسْتَكْمِلُوا عَنَاصِرَ الْقُوَّةِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ بِالتركيزِ عَلَى أَمْرَيْنِ: التَّشْعِيبِ، وَالتَّكْوِينِ.

أَمَّا التَّشْعِيبُ فَهُوَ الْعَمَلُ عَلَى أَنْ تَصِلَ الْفِكْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى كُلِّ فَرْدٍ فِي أَنْحَاءِ مِصْرَ، وَأَنْ يَصِلَ صَدَاهَا إِلَى الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ لِلدَّعْوَةِ شُعْبَةٌ فِي كُلِّ حَاضِرَةٍ وَمَدِينَةٍ وَقَرْيَةٍ وَعَزْبَةٍ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ مِصْرَ.

وَأَمَّا التَّكْوِينُ، فَيَكُونُ بِالْعَمَلِ عَلَى رَبْطِ الْمُتَمَيِّنِ إِلَى الدَّعْوَةِ مَعَ رَوَابِطِ مِنَ الْأُخُوَّةِ وَالْحُبِّ وَالتَّعَاوُنِ فِي ظِلِّ أُسْلُوبٍ عَمَلِيٍّ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ (155).

كَمَا نَصَحَهُمُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سَبِيلِ إِنْجَازِ هَاتَيْنِ الْغَايَتَيْنِ الْعُظْمَايَيْنِ، بَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِمْ - خِلَالِ فِتْرَةِ الْحَرْبِ - أَنْ يَغْضُوا الطَّرْفَ عَنِ الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَّةِ، فَيَتَجَنَّبُوا مَا اسْتَطَاعُوا اتِّخَاذَ مَوَاقِفَ سِيَاسِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ مُكَتَفِينَ بِالْأُمُورِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ، وَوَعْدَهُمُ الْإِمَامُ الْبَنَّا - إِذَا سَلَكَوا ذَلِكَ الْمَسْلَكَ - بِأَنْ دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ سَتَفَاجِئُ الْعَالَمَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ (156). وَقَدْ صَدَقَ حَدْسُهُ، فَمَا إِنْ انْتَهَتْ الْحَرْبُ حَتَّى كَانَتْ جَمَاعَةُ الْإِخْوَانِ هِيَ أَقْوَى الْجَمَاعَاتِ أَوْ الْأَحْزَابِ الْمَوْجُودَةِ عَلَى السَّاحَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُرْهِقْ نَفْسَهَا بِأَيِّ دُخُولٍ فِي مَعَارِكٍ جَانِبِيَّةٍ أَوْ حِزْبِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ، وَالتَفَتَتْ إِلَى التَّكْوِينِ الدَّاخِلِيِّ الْإِدَارِيِّ وَإِلَى نَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَلَمَّا عُرِضَ عَلَيْهِ التَّرْشِيحُ، وَعَرِضَ عَلَيْهِ النِّحَاسُ بِأَنَّهُ يَتَنَازَلُ فِي سَبِيلِ أَنْ يَتْرُكَ لَهُ الْمَجَالَ وَاسِعًا فَيَنْشُرَ الدَّعْوَةَ، وَافَقَ الْإِمَامُ رُغْمَ أَنْ كَثِيرًا مِنْ

(155) انظر السابق، 1 / 219، وما بعدها.

(156) انظر السابق، 1 / 220.



الإخوان عاتبوه على ذلك، ولكن صدق حديثه للجميع عندما وافق أن يتنازل من أجل مكسب آخر، وضمن بأوقات الإخوان ودمائهم أن يدخلوا في معارك جانيبة.

وقد عرف عن الإمام البنا رحمه الله أنه إذا رأى مندوحة أسرع إليها حتى يضمن بدماء إخوانه وأوقاتهم، أن يدخلوا في معارك خاسرة، ولذلك نجحت الدعوة فعلاً في ذلك العهد عندما وعده النحاس باشا بأنه سيطلق له يده يكتب وينشر، ويجول في القرى ويتحدث، ويكون الشعب والكتائب، ويبقى النشاط مسموحاً به في تلك الأوقات العصيبة، في مقابل أن يترك الإمام عملية الانتخاب والترشيح، وقد وافق الأستاذ البنا رحمه الله على ذلك، وكانت هذه نظرة بعيدة منه.

وتتضح تلك النظرة البعيدة المدى في قول الإمام البنا رحمه الله، عندما تسأل الناس عن موقف الإخوان من الحكم، فقرر أن النبي ﷺ جعل الحكم عروة من عرى الإسلام، وأن الحكم معدود في كتبنا الفقهية من الأصول، وأن الإخوان لا يطلبون الحكم لأنفسهم، بل هم جنود لمن حكم بمنهاج الإسلام، ثم كانت قولته الدالة على ثاقب فكره، ورؤيته البعيدة المدى: «ومع هذا فالإخوان المسلمون أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة على هذا الحال، فلا بد من فترة تتشرب فيها مبادئ الإخوان وتسود، ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة»⁽¹⁵⁷⁾؛ فقد كان بعيد النظر في قراره ألا يتقدم إلى تلك المهمة العسيرة الشاقة، وتضيع فيها جهود الإخوان، وتكون النتائج محدودة في الوقت الذي تحتاج فيه الأمة إلى التربية وإلى الإعداد.

(157) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، ص 351.

وكذلك كَانَ الْأَسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَا نَظَرَةٍ ثَاقِبَةٍ بَعِيدَةٍ الْمَدَى، عِنْدَمَا قَالَ عَنِ الْحَرَكَةِ الَّتِي قَامَتْ سَنَةَ (1952)؛ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ وَرَائِهَا أَيُّ خَيْرٍ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَكَانَتْ هَذِهِ نَظَرَةٌ بَعِيدَةً جِدًّا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْإِخْوَانِ يَعْقِدُونَ عَلَيْهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْأَمَالِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: الْأَخُّ جَمَالٌ وَالْأَخُّ فُلَانٌ، وَالْأَخُّ فُلَانٌ، وَكَانَ الْأَسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ يَرَى أَنَّ الْأُمُورَ لَنْ تَسِيرَ كَمَا يَهْوَى هَؤُلَاءِ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ عَوَاقِبَ لَمْ تَكُنْ يَتَصَوَّرُهَا الْكَثِيرُونَ، وَلَمْ يَتَصَوَّرْ أَحَدٌ أَنَّ تِلْكَ الْمِحْنَةَ الْعَصِيْبَةَ الَّتِي نَزَلَتْ بِالِدَعْوَةِ، كَانَ يُمَكِّنُ حُدُوثَهَا. لَكِنْ صَدَقَ حَدْسُ الْأَسْتَاذِ الْهُضَيْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. فَالْقِيَادَةُ تَسْبِقُ وَالْجَنْدِيُّ يُطِيعُ، وَشُعُورُ الصِّفِّ بِتِلْكَ الْمِصْدَاقِيَّةِ وَهَذِهِ الثِّقَةُ يُعِينُ وَلَا شَكَّ عَلَى الطَّاعَةِ.

المُعِينَاتِ عَلَى الطَّاعَةِ

حُسْنُ اخْتِيَارِ الْمُعَلِّمِ

وَلَا رَيْبَ أَنَّ اخْتِيَارَ الْمُعَلِّمِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تُعِينُ عَلَى الطَّاعَةِ كَذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70)﴾ [سورة الكهف].

وَذَلِكَ مَا نَبَّهَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كُلَّ أَخٍ مِنْ إِخْوَانِهِ؛ فَقَالَ: «وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ يَسْأَلَ الْأَخُ الصَّادِقُ نَفْسَهُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ لِيَتَعَرَّفَ عَلَى مَدَى ثِقَتِهِ بِقِيَادَتِهِ: هَلْ تَعَرَّفَ إِلَى قَائِدِهِ مِنْ قَبْلُ وَدَرَسَ ظُرُوفَ حَيَاتِهِ؟ هَلْ اطمأنَّ

إِلَى كِفَايَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ؟» (158).

دَعْوَةٌ وَمُطَالَبَةٌ لِلصَّفِّ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى النَخْبَةِ فِيهِ، وَهَذَا هُوَ مَا يُعِينُ عَلَى الاختِيَارِ الدَّقِيقِ بِمَعَايِيرِهِ الشَّرْعِيَّةِ الدَّقِيقَةِ الْعَالِيَةِ الرَّاقِيَةِ، وَلَا يُوجَدُ فِيهَا مَجَالٌ لِلْهَوَى وَلَا لِحِظِّ النَّفْسِ وَلَا لِلشَّلَالَةِ وَلَا لِلْجُبُوبِ؛ إِنَّمَا الاختِيَارُ يَكُونُ بِمَعَايِيرِ دَقِيقَةٍ يُعِينُ عَلَيْهَا جَوْ التَّعَارُفِ الْعَامِّ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِي الصَّفِّ، فَكُلُّ وَاحِدٍ يَعْرِفُ أَخُوهُ مَعْرِفَةً جَيِّدَةً يَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ فِي الْعَمَلِ الْيَوْمِيِّ الْمُسْتَمِرِّ، عَلَى مَدَى كِفَايَتِهِ، وَعَلَى مَدَى إِخْلَاصِهِ، وَيَدْرُسُ ظُرُوفَ حَيَاتِهِ، وَهَذَا يُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ الطَّاعَةِ وَلَا شَكَّ، وَيَجْعَلُهَا أَمْرًا مَيْسُورًا؛ لِأَنَّ مَنْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَّقَ بِهِ؛ فَإِنَّكَ تَتَّقُ فِي رَجَاحَةِ فِكْرِهِ، وَنَظَرَتِهِ الثَّاقِبَةِ، كَمَا تَتَّقُ فِي جِهَادِهِ وَكِفَايَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ.

فَحِينَ ارَادَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنْ يَسْتَخْلِفَ سَيِّدَنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مِنْ بَعْدِهِ جَمَعَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَسَأَلَهُمْ عَنْهُ. فَقَدْ أَخْرَجَ الْوَاقِدِيُّ مِنْ طَرِيقٍ: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا ثَقُلَ دَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُمَرَ، فَقَالَ: مَا تَسْأَلُنِي عَنْ أَمْرٍ إِلَّا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، قَالَ: وَإِنْ، فَقَالَ: هُوَ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مِنِّي رَأْيِكَ فِيهِ، ثُمَّ دَعَا عُثْمَانَ فَسَأَلَهُ عَنْ عُمَرَ، فَقَالَ: عَلِمِي فِيهِ أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنِّي عَلَانِيَتِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيْنَا مِثْلُهُ، فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَاللَّهِ لَوْ تَرَكْتُهُ مَا عَدَوْتُكَ، وَشَاوَرَ مَعَهُمَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ وَغَيْرُهُمَا، فَقَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا سَأَلَكَ عَنْ اسْتِخْلَافِ عُمَرَ وَقَدْ تَرَى غِلْظَتَهُ؟ فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، أَبَا اللَّهِ تُخَوِّفُونِي! أَقُولُ: اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أَهْلِكَ» (159).

(158) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة التعاليم (ركن الثقة)، ص 278.

(159) شمس الدين الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية - القاهرة،

1427 هـ - 2006 م، 3 / 11.

فَانْظُرْ كَيْفَ يَزِنُ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الرِّجَالَ، وَكَيْفَ يَخْتَارُهُمْ وَيَسْتَقْصِي
 آرَاءَ الْعُدُولِ فِيهِمْ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي اخْتِيَارِهِ سَيِّدَنَا عُمَرَ خَلِيفَةَ بَعْدَهُ، فَقَدْ
 كَانَ الْإِسْلَامُ فِي عَهْدِ الْفَارُوقِ قَوِيًّا عَزِيزًا مَهِيْبًا، وَتَوَسَّعَتْ الْفُتُوحَاتُ فِي
 عَهْدِهِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ الرِّعْيَةِ لَهُ كَانَتْ عَنْ رِضَى. وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَعَلَّمَ مِنْ هَذَا
 الْمَوْقِفِ الْاِخْتِيَارَ الْجَيِّدَ لِلْأَفْرَادِ، وَفَقَّ مَعَايِيرَ سَلِيمَةٍ، نَاتِجَةٍ عَنْ مَعْرِفَةِ
 دَقِيقَةِ بِهِمْ؛ فَهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الدَّقِيقَةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْأَكَارِمِ فِي
 صَدَارَةِ الْأُمَّةِ، وَفِي صَفِّهَا الْأَوَّلِ يَتَقَدَّمُونَ الْجَمِيعَ، وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الدَّقِيقَةُ
 هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ يَقْدَمَانِ أَبَا
 بَكْرٍ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ أَحَدٌ؛ إِذْ كَانَ عُمَرُ فَتَكَلَّمَ
 قَبْلَ أَبِي بَكْرٍ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي
 قَدْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ مِمَّا وَجَدْتُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ،
 وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهْدَهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 سَيَذُبُّ أَمْرَنَا - يَقُولُ: يَكُونُ آخِرَنَا - وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُمْ كِتَابَهُ الَّذِي بِهِ
 هَدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ اِعْتَصَمْتُمْ بِهِ هَذَاكُمْ اللَّهُ لِمَا كَانَ هَدَاهُ لَهُ، وَإِنْ
 اللَّهُ قَدْ جَمَعَ أَمْرَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ؛ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ
 هُمَا فِي الْغَارِ فَقُومُوا فَبَايَعُوهُ. فَبَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ بَيْعَةَ الْعَامَّةِ بَعْدَ بَيْعَةِ
 السَّقِيفَةِ (160).

وَقَدْ أَشَارَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ إِلَى غِيَابِ سَادَةِ قُرَيْشٍ عَنْ اجْتِمَاعِ
 سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا
 أَنَّهُمْ لَنْ يَتِمَّ كُنُوزُهُمْ مِنْ تَكْوِينِ أَغْلَبِيَّةٍ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ تَقِفُ أَمَامَ

(160) ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط 1، دار هجر للطباعة
 والنشر والتوزيع والإعلان، 1420 هـ، 8 / 89.

قُوَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَبِي عُبَيْدَةَ⁽¹⁶¹⁾؛ فَقَدْ أَوْجَدَ الْإِسْلَامُ مَقَائِسَ جَدِيدَةً تُخَالِفُ مَقَائِسَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي تَقْوِيمِ الرِّجَالِ وَوَزْنِهِمْ بِالتَّقْوَى، وَسَبَقَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَسَهَمَتِهِمْ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى. فَلَا يَسْتَوِي مَنْ قَاتَلَ رَسُولَ اللَّهِ مَعَ مَنْ قَاتَلَ مَعَهُ، وَصَحِيحٌ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ يَوْمَئِذٍ، لَكِنَّ رَصِيدَهُ فِي الْإِسْلَامِ لَا يَبْلُغُ رَصِيدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَبَقِيَّةُ الصَّحْبِ الْكَرَامِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْاِخْتِيَارَ الَّذِي يُرَاعِي أَقْدَارَ الرِّجَالِ وَيُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، فَلَا يُحَابِي وَلَا يُجَامِلُ، يَجْعَلُ الصَّفَّ مُطْمَئِنًّا إِلَى صِحَّةِ اخْتِيَارِ الْقِيَادَةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَسَهَّلَ عَلَيْهِ (الطَّاعَةُ)؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اجْتِمَاعَ السَّقِيفَةِ قَدْ تَمَخَّصَ عَنِ اخْتِيَارِ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِاجْتِمَاعِ الْحَاضِرِينَ الَّذِينَ انْقَادُوا لِهَذِهِ الْبَيْعَةِ وَأَطَاعُوهَا، وَإِنْ جَرَى بَيْنَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْجِدَالِ، وَضُرِبَ مَنْ الْحَدَّةِ فِي النِّقَاشِ، فَإِنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ حَسَمَتِ الْخِلَافَ، بَلْ بُوِيَعَ الصَّدِيقُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) بِالْخِلَافَةِ مَرَّتَيْنِ:

أَوَّلَاهُمَا فِي اجْتِمَاعِ السَّقِيفَةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَهُوَ يَوْمُ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَيْثُ حَسَمَ عُمَرُ الْخِلَافَ، فَقَالَ: «وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ حَتَّى فَرِقْتُ مِنَ الْاِخْتِلَافِ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؛ فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعْتَهُ وَبَايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ، ثُمَّ بَايَعْتَهُ الْأَنْصَارُ»⁽¹⁶²⁾.

وَتَأْنِيهِمَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي (الثَّلَاثَاءِ)، حَيْثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ،

(161) انظر د. فالح حسين: بحث في نشأة الدولة الإسلامية، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010م، ص 93.

(162) أخرجه البخاري في صحيحه (6830)، والإمام أحمد في مسنده (391).



فَكَانَتْ الْبَيْعَةُ الْعَامَّةُ؛ إِذْ بَايَعَ النَّاسُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْعَةً عَامَّةً، بَعْدَ بَيْعَةِ السَّقِيفَةِ، أَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَدْ بَايَعَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، أَوْ ثَانِي يَوْمٍ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفَقًا لِلرَّوَايَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي رَوَاهَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ⁽¹⁶³⁾.

وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي تُسَرُّ أَمْرَ الطَّاعَةِ كَذَلِكَ أَنْ يَتَقَبَّلَ الْقَائِدُ ذُهُولَ التَّابِعِ، إِذَا ارْتَبَكَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، أَوْ اضْطَرَبَ فِي اسْتِجَابَتِهِ لِلْأَمْرِ، فَاتَتْ طَاعَتُهُ عَلَى غَيْرِ الصُّورَةِ الْمَطْلُوبَةِ أَوْ الْمَرْجُوءَةِ مِنْهُ، وَقَدْ حَدَّثَ مِثْلُ ذَلِكَ مَعَ سَيِّدِنَا مُوسَى (عليه السلام)، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: 73]؛ فَهَذَا نَلْحِظُ ذُهُولَ التَّابِعِ، وَهُوَ يَرَى أَمَامَهُ أَشْيَاءَ لَا يَسْتَطِيعُ فَهْمَهَا.

حَتَّى سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَدْ ذُهِلَ أَوَّلَ الْأَمْرِ فِي صَلَاحِ الْحُدَيْيَةِ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَعْطَوْا الدِّيَّةَ فِي دِينِهِمْ، وَكَانَ أَشَدَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتِيَاءً وَحُزْنًا مِنْ هَذَا الصُّلْحِ؛ بَلْ رَاجَعَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَأَلَهُ مُسْتَكْرِئًا: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟» قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَلَى»، فَقَالَ عُمَرُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَكُنْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تَحَدِّثُنَا أَنَا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بَلَى»، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قَالَ عُمَرُ: لَا. فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطُوفٌ بِهِ»، ثُمَّ يَفْعَلُ عُمَرُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ

(163) فَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فَعَدَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمُنِيرِ نَظَرَ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ، فَلَمْ يَرَ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلَ عَنْهُمْ، فَقَامَ نَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَاتَّوَابَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَخَتَنَهُ، أَرَدْتُ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا تُتْرِبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَايَعَهُ، ثُمَّ لَمْ يَرَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، فَسَأَلَ عَنْهُ حَتَّى جَاؤُوا بِهِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَحَوَارِيَّهُ، أَرَدْتُ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِ عَلِيٍّ لَا تُتْرِبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَايَعَهُ». أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، رَقْم (4514)، وَأَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي (الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ) حَدِيثَ رَقْم (261 / 5)، وَقَالَ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ

مَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَيَسْأَلُهُ الْأَسْئَلَةَ ذَاتَهَا، فَيَقُولُ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرَزِهِ (164) فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ (165).

وَرُغِمَ أَنْ سَيِّدَنَا عُمَرَ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى اسْتِيعَابِ الْمَوْقِفِ، حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عُمَرَ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفْتَحْ هُوَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ»، فَطَابَتْ نَفْسُ عُمَرَ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَتَصَوَّرَ هَذَا الْأَمْرَ؛ إِنَّهُ ذُهُولُ التَّابِعِ.

وَلِذَلِكَ يَرْبُطُونَ (الطَّاعَةَ) بِالْإِيمَانِ، فَهِيَ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ، مِثْلَ الْإِيمَانِ، فَلَمَّا هَدَأَتْ نَفْسُ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) جَعَلَ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ، وَيَفْعَلُ الصَّالِحَاتِ، يَتَّبِعِي أَنْ يُكْفِّرَ بِهَا عَنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي ارْتَابَ فِيهِ، وَتَرَدَّدَ فِي (طَاعَةِ) النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ الْأَمْرِ، فَكَانَ عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ، مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا» (166).

وَيَدُلُّنَا مَا سَبَقَ عَلَى أَنَّ الْأَخَّ يَحْتَاجُ مِنْ مَسْئُولِهِ أَوْ قَائِدِهِ بَعْضَ الْحِلْمِ وَالْإِنَاءَةِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ؛ بَأَنْ يَتَقَبَّلَ هَذَا الْإِرْبَاكَ، وَهَذَا الْعَجْزَ، وَهَذَا الْجُنُوحَ؛ يَتَقَبَّلُهُ وَيَتَحَمَّلُهُ مِنْهُ.

وَكُلُّنَا يَعْرِفُ مَا فَعَلَهُ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ قَبِيلَ فَتَحِ مَكَّةَ، لَقَدْ أَتَى فِعْلًا إِذَا لَا يُنَافِي مَفْهُومَ (الطَّاعَةِ) فَحَسْبُ، بَلْ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَأْتِيَ صَحَابِيٌّ

(164) الْغَرَزُ: رِكَابُ الرَّحْلِ مِنْ جِلْدِ مَخْرُوزٍ، وَالْغَرَزُ لِلنَّاقَةِ مِثْلُ الْجَزَامِ لِلْفَرَسِ، وَمِنْ الْمَجَازِ: الزَّمْ غَرَزَ فُلَانٌ، أَيَّ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ. وَاسْتَمْسَكَ بِغَرَزِهِ، أَيَّ اعْتَلَقَ بِهِ وَأَمْسَكَهُ وَاتَّبَعَ قَوْلَهُ وَفِعْلَهُ، وَلَا تُخَالِفُهُ فَاسْتَعَارَ لَهُ الْغَرَزَ، كَالَّذِي يُمَسِّكُ بِرِكَابِ الرَّكَّابِ، وَيَسِيرُ بِسَيْرِهِ.

(165) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمَ (2731) (2732)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، رَقْمَ (1785)، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، رَقْمَ (18910) (18928).

(166) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ رَقْمَ (18910)، وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

مِثْلَ هَذَا الْفِعْلِ الَّذِي قَدْ يَضَعُهُ فِي زُمْرَةِ الْخَائِنِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ؛ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا يُعَاجِلُهُ حَتَّى يَرَى دَوَافِعَهُ إِلَى هَذَا الْفِعْلِ الشَّنِيعِ، وَخَبَرَ مَا فَعَلَهُ حَاطِبٌ أَنَّهُ: لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ كِتَابًا إِلَى قُرَيْشٍ يُخْبِرُهُمْ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهُ امْرَأَةً مِنْ مَزَيْنَةَ، وَجَعَلَ لَهَا جُعْلًا عَلَى أَنْ تُبَلِّغَهُ قُرَيْشًا. وَقَدْ أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ عَلِيٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَأَبَا مَرْثَدَ الْغَنَوِيِّ وَكُلُّنَا فَارِسٌ، فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخَ فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأَتُونِي بِهَا». قَالَ عَلِيٌّ: فَانْطَلَقْنَا عَلَى أَفْرَاسِنَا حَتَّى أَدْرَكْنَاهَا حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، تَسِيرُ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكَ؟

قَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ، فَأَنَخْنَا بِهَا بَعِيرَهَا، فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا، فَلَمْ نَجِدْ فِيهِ شَيْئًا، فَقَالَ صَاحِبَايَ: مَا نَرَى مَعَهَا الْكِتَابَ، فَقُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُمَا مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي أَحْلَفُ بِهِ لَيْسَ لَمْ تُخْرِجِي الْكِتَابَ لِأَجْرَدَنِّكَ، فَأَهْوَتْ إِلَى حُجْزَتِهَا، وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ، فَأَخْرَجْتُ الصَّحِيفَةَ، فَانْطَلَقْنَا بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ لِحَاطِبٍ: يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ - أَيْ كَانَ حَلِيفًا لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا -، وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا، وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكَفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ.

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَدَعَنِي
أَضْرِبُ عَنْقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
اللَّهُ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ، فَدَمَعَتْ
عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ... الْآيَةَ﴾ (167).

تَأْمَلْ حِلْمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمَامَ زَلَّةٍ لِصَحَابِيٍّ جَلِيلٍ، فَلَا يُطَارِدُهُ بِزَلَّتِهِ
وَلَا يَدْعُ أَحَدًا يُطَارِدُهُ بِهَا، بَلْ يُعِينُهُ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ كَبَوْتِهِ، وَيَذْكُرُ لَهُ
سَابِقَةً فِي الْإِسْلَامِ (وَهِيَ شُهُودُهُ غَزْوَةَ بَدْرٍ)، فَتَكُونُ شَفِيعًا لَهُ فِي اغْتِفَارِ
الزَّلَّةِ. إِنَّهُ الذُّهُولُ الَّذِي يَحْدُثُ أحيانًا، لِمَاذَا؟ لَأَنَّ الْأُمُورَ حِينَئِذٍ تَكُونُ
فَوْقَ الطَّاقَةِ، أَوْ فَوْقَ الْإِدْرَاكِ، وَمِنْ هُنَا تَأْتِي ضَرُورَةُ تَسْوِيعِ الْفِعْلِ،
وَتَعْلِيلِ الْأَمْرِ، وَشَرْحِ ضَوَابِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ، فَذَلِكَ مِمَّا يُيسِّرُ أَمْرَ (الطَّاعَةِ)
كَذَلِكَ. فَتَقْبُولُ هَذَا الذُّهُولُ أَمْرٌ مُهِمٌّ جَدًّا، وَتَعْلِيلُهُ أَيْضًا، وَأَنْ يَسْعَهُ صَدْرُ
الْحَلِيمِ الْقَائِدِ الْمَسْئُولِ، وَكَذَلِكَ الْأَنَاءُ وَالرَّأْيُ الصَّائِبُ، وَالْوَقَارُ وَالرَّزَانَةُ
تَقْدِيرًا لِلظُّرُوفِ.

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْأَسْتَاذُ يُوسُفُ هَوَاشَ، يُسَلِّمُ عَلَى (عَلِيِّ عَشْمَاوِي)،
وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَيُلْقِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَنَحْنُ فِي قَفْصِ الْاِتِّهَامِ فِي الْقَضِيَّةِ
الْأُولَى، فِي حِينٍ كَانَ الْإِخْوَانُ يُعْرَضُونَ عَنْهُ، فِينَهَانَا الْأَسْتَاذُ هَوَاشَ عَنْ
ذَلِكَ، وَيَقُولُ لَنَا: لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ عَلَى أَخِيكُمْ، رُغْمَ مَا فَعَلَهُ (عَلِي
عَشْمَاوِي)، وَهُوَ الَّذِي سَلَّمَ الْقَضِيَّةَ كُلَّهَا، وَلِهَذَا لَمْ يَنْسَ الْأَسْتَاذُ عَلِيَّ
عَشْمَاوِي لَهُ هَذَا الْمَوْقِفَ، وَكَتَبَ ذَلِكَ فِي مُذَكِّرَاتِهِ، فَقَالَ: كَانَ أَحْسَنَ
اِثْنَيْنِ يُعَامِلُونَنِي سَيِّدَ قُطْبٍ وَيُوسُفُ هَوَاشَ، رُغْمَ أَنَّهُ كَانَ سَبِيًّا فِي
تَسْلِيمِهِمَا لِحَبْلِ الْمَشْنَقَةِ، وَمُذَكِّرَاتِهِ مَوْجُودَةٌ فِي السُّوقِ وَيُمْكِنُ لِأَيِّ أَحَدٍ



أَنْ يَقرَأَهَا؛ حَيْثُ يُكْمِلُ فيقول: وَكُنْتُ أَسْمَعُهُمَا وَهُمَا يَقُولَانِ لِلْإِخْوَانِ:
لَا تُعَامِلُوهُ بِهَذَا الشَّكْلِ، سَلِّمُوا عَلَيْهِ، أَلْقُوا عَلَيْهِ السَّلَامَ، لَا تُعِينُوا الشَّيْطَانَ
عَلَى أَخِيكُمْ.

فَهَذِهِ مَعَانٍ دَقِيقَةٌ، قَلَّ مَنْ يُدْرِكُهَا مِنَ النَّاسِ، وَيَتَحَلَّى بِصِفَاتِ الْحِلْمِ
وَالْإِنْفَاءِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَيُرَاعِي طَاقَاتِ النَّاسِ.

وَهَذَا مَا جَعَلَ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطْبٍ يُجِيزُ لِمَنْ أَنْهَكَهُ التَّعْذِيبُ، وَلَمْ
يَقْوِ عَلَى احْتِمَالِهِ، أَنْ يُؤَيِّدَ تَقْدِيرًا لِلظُّرُوفِ وَالْأَوَاضَاعِ وَالطَّاقَاتِ، فَقَدْ
وَضَعْتَ شَرِيعَتَنَا لِلْمُكَلَّفِ رُخْصَةً وَعَزِيمَةً، وَتَرَكْتُهُ يَخْتَارُ مَا فِي وَسْعِهِ،
حَتَّى تُصْبِحَ طَاعَتُهُ رَاضِيَةً، وَلَا تُحْجِرَ عَلَيْهِ وَاسِعًا فَتَضَعُهُ فِي حَرَجٍ،
وَلَنْ يَزِيدَ التَّشَدُّدَ مَعَ الْأَخِ إِلَّا تَحَرُّجًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَفَلَّتَ فَلَا خَيْرَ فِيهِ مُنْذُ
الْبَدْءِ.

إِظْهَارُ الْامْتِنَانِ وَالتَّقْدِيرِ

وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْمُعِينَاتِ عَلَى (الطَّاعَةِ) كَذَلِكَ؛ أَنْ تُقَدَّرَ الْقِيَادَةُ الْأَخْ
إِذَا أَحْسَنَ، وَتُجَبَّرَ عَنْ فَرْحِهَا وَسُرُورِهَا؛ إِذَا أَنْجَزَ أَمْرًا مَا، وَلَوْ كَانَ يَسِيرًا
أَوْ صَغِيرًا، وَهُوَ مَنِهْجُ قُرْآنِي ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: 26]. وَسَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
كَانَ يَحْفَرُ الْخَنْدَقَ، وَيَنْظُرُ إِلَى الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ
الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ». وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ إِظْهَارِ
التَّقْدِيرِ وَالْامْتِنَانِ لَهُمْ، وَأَوْصَى بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا فِي أَحَادِيثَ، مِنْهَا مَا رَوَاهُ
الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: صَعِدَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَنْبَرَ، وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ
قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرَّشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ،

وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» (168)، أَدَّوْا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُبَايَعَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْجِهَادِ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ وَالْكَرَامَةِ، وَالْجَنَّةِ، لِأَنَّهُمْ بَايَعُوا النَّبِيَّ ﷺ عَلَى النُّصْرَةِ، وَجَرَّأُوهُمْ الْجَنَّةَ، وَقَدْ وَقَّوْا فَلَهُمُ الْجَنَّةُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّهُ قَالَ - وَهُوَ يُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِهِ، وَهَذَا الْكَلَامُ قَالَهُ لَمَّا طُعِنَ - : «... وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ».

والتقى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بوفد من طيء فيهم عدي بن حاتم الطائي، فرأى عدي منه جفوة فتعجب، وقد كان عدي بن حاتم أحد الركائز التي تبتت الإيمان في قلوب قبيلة طيء لما أرادت أن ترتد، فمنعها من الردة عدي بن حاتم الطائي (رضي الله عنه)، فعن عدي بن حاتم قال: «أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسمّيهم، فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين، قال: بلى أسلمت إذ كفرُوا، وأقبلت إذ أدبرُوا، ووفيت إذ غدرُوا، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي: فلا أبالي إذا» (169). لقد شمخ بها عدي بن حاتم الطائي، فلا يعاب بعد ذلك أعرفه الناس أم أنكروه.

وعلى هذا النهج سار الإمام البنّا رحمه الله، فكان يعرف لإخوانه فضلهم، ويحرص أشد الحرص على إظهار الفرح بهم، واللفتة إلى لقائهم، ولما

(168) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (3799)، ومسلم في صحيحه، رقم (2510)، ومعنى كَرَّشِي: بطائني وخاصتي الذين أئتم بهم وأعتدّهم في أموري. والعبيّة: وعاء معروف يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه، ويصونها، ضربها ﷺ مثلاً لأنهم أهل سرّه وخفيّ أحواله.
(169) أخرجه البخاري، رقم (4394).

سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «أَنْتُمْ رَأْسُ الْمَالِ وَهُوَ قَلِيلٌ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يُرِيَنِي
الْفَجِيعَةَ فِيكُمْ، وَأَنْ يَجْعَلَ نِهَائِيَّتَكُمْ أَفْضَلَ مِنَ الْبَدَايَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَ حَقِيقَتَكُمْ
أَفْصَحَ مِنَ الظَّنِّ». كُلُّ هَذَا يُمَثِّلُ نَوْعًا مِنَ الْاِمْتِنَانِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ
السُّرُورِ، وَهَذَا يُسَرُّ أَمْرَ (الطَّاعَةِ)، وَتَكَالَيْفَهَا الشَّاقَّةَ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنَ
الْاِمْتِنَانِ وَالتَّنْفِيزِ.

وَقَدْ حَدَّثَكُمْ عَنْ نَظَرَةِ الْأَسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبِ الْإِنَّا، وَنَحْنُ فِي قَفْصِ
الْاِتِّهَامِ، وَالسَّلَامِ وَالْكَلامِ فِيهِ مَمْنُوعَانِ، لَكِنَّ الرَّجُلَ يَمْلِكُ نَظَرَةَ عَيْنِهِ؛
فَجَالَ بَطْرَفِهِ فِينَا جَمِيعًا، وَكُنَّا أَرْبَعِينَ فَرْدًا، وَكَانَ كُلُّ صَفٍّ يَقُولُ: لِلَّذِي
قَبْلَهُ: أَنْخَفِضْ قَلِيلًا حَتَّى يَنْظُرَ الْأَسْتَاذُ إِلَى الَّذِي وَرَاءَكَ، وَفِي لَحْظَةٍ
صَمْتٍ، يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِّنَّا رُبْعَ دَقِيقَةٍ فَقَطْ، مُحَدِّثًا نَوْعًا مِنَ التَّعْبِيرِ
عَنِ الْاِمْتِنَانِ وَالتَّقْدِيرِ لَهُؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ آمَنُوا بِفِكْرَتِهِ، وَوَقَفُوا مَعَهُ
فِي تِلْكَ الظُّرُوفِ الْعَصِيبَةِ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُمْ جَمِيعًا، وَكَانَ هَذَا أَقْصَى مَا
يَسْتَطِيعُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّعْبِيرُ عَنْ الْاِمْتِنَانِ بِنَظَرَةِ الْعَيْنِ!

الْاِتِّفَاقُ وَعَدَمُ التَّنَافُرِ فِي الصَّفِّ

فَالْتَّقْدِيرُ وَالْاِمْتِنَانُ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ السُّرُورِ مَشَاعِرُ تُسَرُّ أَمْرَ (الطَّاعَةِ) وَلَا
شَكَّ، وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى (الطَّاعَةِ) كَذَلِكَ وَيُسَرُّهَا أَنْ تَسُودَ الصَّفَّ رُوحُ
الْاِتِّفَاقِ وَالْاِتِّفَاقِ، وَأَنْ يَقِلَّ بَيْنَ الْإِخْوَةِ التَّنَافُرِ وَالْاِخْتِلَافِ، فَإِذَا تَنَافَرَتِ
الْقُلُوبُ دَاخِلَ الصَّفِّ تَصَدَّعَ وَتَشَقَّقَ، وَاِخْتِلَافُ الْقُلُوبِ يُورِثُ فَقْدَانَ
الْحِمَاسَةِ، فَالْوَهْنُ فَالْتَّرَاجُعُ، وَعِنْدَئِذٍ تَكُونُ (الطَّاعَةُ) مُحْكُومَةً بِالْهَوَى،
يُسَارِعُونَ إِلَى الطَّاعَةِ فِيمَا يُحِبُّونَ، وَيُبْطِئُونَ فِيمَا يَكْرَهُونَ. فَإِنْ اِمْتَحَنُوا
بَأَمْرِ يَكْرَهُونَهُ وَفِيهِ صَلَاحُ الْجَمَاعَةِ عَذَّرُوا وَوَلَّوْا، أَوْ أَطَاعُوا كَارِهِينَ،
وَامْتَثَلُوا سَاحِطِينَ... وَقَدْ يُوَوِّلُ الْأَمْرُ بَعْضَ الْإِخْوَةِ إِلَى الْاِعْتِزَالِ، وَلَا



سَيِّمًا أَنْ يَكُونَ ثَمَّةً إِشْكَالٌ أَوْ إِرْهَاقٌ أَوْ دِمَاءٌ؛ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ الرَّاشِدُ⁽¹⁷⁰⁾.

وهذا أمرٌ له خطورته التي تتمثل في: عموم الفوضى، وعموم البلوى، واضطراب القرار واضطراب الخطط، وفوضى التوجيه. أمورٌ ينبغي أن يحِرِّصَ الصفُّ كُلُّهُ عَلَى ألاَّ تَحْدُثَ بَيْنَنَا أَبَدًا، لأنَّ هَذَا سَيُؤَدِّي إِلَى الإشْكَالِ، أَوْ إِلَى الإِرْهَاقِ، أَوْ الدِّمَاءِ لَا قَدَّرَ اللَّهُ؛ مِثْلَ فَتْرَةِ الْمِحْنَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي عَاشَهَا الصَّحْبُ الْكِرَامُ، وَقَدْ اعْتَزَلَهَا بَعْضُهُمْ وَابْتَعَدُوا عَنْهَا؛ لِأَنَّ هُنَاكَ إِشْكَالًا وَإِرْهَاقًا وَدِمَاءً، أَدَّى إِلَى اعْتِزَالِ بَعْضِهِمْ، وَلَمْ يَعِْبْ أَحَدٌ عَلَى مَنْ اعْتَزَلَ، بَلْ قَالُوا: مَنْ اعْتَزَلَ أَفْضَلُ مِمَّنْ شَارَكَ، لِأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ جَمَاعَةٌ وَلَمْ يَكُنْ إِمَامٌ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ عُلَمَاءُ الْإِدَارَةِ: إِنَّ الْقَرَارَ الْخَاطِئَ خَيْرٌ مِنْ غِيَابِ الْقَرَارِ؛ لِأَنَّ غِيَابَهُ يُوَدِّي إِلَى الْفَوْضَى. وليس المقصودُ بِالْقَرَارِ الْخَاطِئِ اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ الْقَرَارُ الْمَبْنِي عَلَى الْجَهْدِ وَالنَّصَحِ وَبِذَلِكَ الْوُسْعِ. فَإِنْ جَاءَ الْقَرَارُ غَيْرَ صَوَابٍ، كَانَ الْمَجْتَهِدُ مَاجُورًا وَإِنْ أَخْطَأَ.

والرَّسُولُ ﷺ يُوضِّحُ خُطُورَةَ تَرْكِ الْإِمَامِ النَّصْحَ لِرِعِيَّتِهِ فِي حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، الَّذِي أَشْرَنَا إِلَى بَعْضِهِ مِنْ قَبْلِ، وَتَمَامُهُ: «أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ دَخَلَ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ لَوْ لَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»⁽¹⁷¹⁾. عَقَابٌ وَحَرْمَانٌ لِأَنَّ الدُّورَانَ فِي دَائِرَةِ الْخَطَا أَمْرٌ لَهُ خُطُورَتُهُ، لَكِنْ حِينَمَا يُتَّخَذُ قَرَارٌ عَنِ اجْتِهَادٍ وَنُصَحٍ، ثُمَّ يَكُونُ ثَمَّةً خَطَاً،

(170) انظر محمد أحمد الراشد: العوائق، دار المنطلق، ص 12، 20.

(171) أخرجه البخاري (7150) بمعناه، ومسلم (142).



فالا جتماع عليه خير من الافتراق على عدمه (لا قرار)، لأن الخطأ يمكن استدراكه وتصحيحه، ويمكن تفادي آثاره، وهذا أفضل بكثير جداً من التفرق والفوضى التي ينتج عنها العزلة، أو ينتج عنها الاعتزال، وهذا أخطر ما في الأمر؛ لأنه مفارقة للجماعة، أو خلع يد من طاعة، يقع في مخالفة لأحاديث رسول الله ﷺ، ومنها قوله ﷺ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقِيَّ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ»⁽¹⁷²⁾؛ أي لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه. وقد روي عن الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: «يَا مَعْشَرَ الْعَرِيبِ، الْأَرْضُ الْأَرْضُ، إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةٍ إِلَّا بِإِمَارَةٍ، وَلَا إِمَارَةٍ إِلَّا بِطَاعَةٍ، فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفَقْهِ، كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فَقْهِ، كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ»⁽¹⁷³⁾.

أوتاد الدعوة مبعث ثقة الصف واطمئنانه

ثمة قول قديم مشهور سمعته كثيراً، عنيت قول سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «أَمَرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ». وسبب هذه المقولة أن سيدنا أبا عبيدة أرسل خالد بن الوليد إلى قنسرين.. وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه، فقال: لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم، ولم يزل بهم حتى فتحها الله عليه، ولله الحمد. فلما بلغ عمر صنيع خالد قال: «أَمَرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ، يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ هُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِالرَّجَالِ مِنِّي، وَقَدْ كَانَ عَزَلَهُ وَالْمُنَى بْنُ حَارِثَةَ.

وقال: إنني لم أعزلهما عن ربيبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن

(172) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (1851).

(173) أخرجه الدارمي موقوفاً، 13 / 260.

يُوكَلُّوا إِلَيْهِمَا» (174).

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمَائِهِ؛ إِذْ يَقِيضُ لِدِينِهِ وَدَعْوَتِهِ رَجَالًا كَأَمْثَالِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَلَمْ يَخُلْ صَفٌّ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الَّذِينَ نُسَمِّيهِمْ (الْأَوْتَادَ)، فَهُمْ يَرُدُّونَ الثِّقَةَ إِلَى الصَّفِّ، وَيُؤَمِّنُونَ وَحْدَتَهُ، وَيُسِّرُونَ عَلَيْهِ أَمْرَ الطَّاعَةِ، فَلَا خَوْفَ عَلَى صَفٍّ يَضُمُّ أَمْثَالَهُمْ.

وَأَذْكُرُ أَنَّنِي رَأَيْتُ مِنْ رَجَالِ الدَّعْوَةِ مَنْ زَيَّنَهُمُ اللَّهُ بِصِفَاتٍ وَفَضَائِلَ يَجْتَمِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، وَيَصْدُقُ عَلَيْهِمْ قَوْلُ سَيِّدِنَا عُمَرَ: «أَمَرَ خَالِدٌ نَفْسَهُ». وَكَانَ مِنْهُمْ: الْحَاجُّ مُحَمَّدُ أَبُو رِيَّةَ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْمُقْصُودِ الْعَزَبُ، وَالْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عِمَادُ الدِّينِ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ الشَّرِيفُ، وَالْأَخُ مُحَمَّدُ سَلِيمُ مُصْطَفَى. كَانَ النَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِمْ، وَيُحِبُّونَهُمْ، وَيَسْمَعُونَ لَهُمْ، وَيَسْتَشِيرُونَهُمْ، فَيُؤَكِّدُونَ مَعَانِي الثِّقَةِ وَالْأَطْمِئْنَانِ، وَيَحْفَظُونَ لِلصَّفِّ هُدُوءَهُ وَتَنَاعُمَهُ، بَعِيدًا عَنِ السُّلَالَةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ وَالْانْعِزَالِيَّةِ.

وَقَدْ كَانَ وَجُودُ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ بَيْنَنَا فِي السُّجُونِ مَصْدَرِ ثِقَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّا كُنَّا، إِذَا حَدَثَ شَيْءٌ مِنْ إِخْوَانِ الْمَحَلَّةِ فِي سَجْنِ الْقَنَاطِرِ أَوْ طُرَّةَ، حَكَمْنَا الشَّيْخَ عَبْدَ الْوَهَّابِ الشَّاعِرِ، فَيُصْلِحُ بَيْنَ الْإِخْوَةِ لِمَا يَحْطِئُ بِهِ مِنْ مَكَانَةٍ وَهَيْبَةٍ.

وَمِثْلُهُ أَخُونَا بَسْيُونِي بَطْنِيَّةً؛ كَانَ مُجَرَّدُ النَّظَرِ فِي عَيْنَيْهِ يَبْعَثُ الرَّاحَةَ وَالطُّمَأْنِينَةَ، حَتَّى كَانَ الْأُسْتَاذُ حَامِدُ أَبُو النَّصْرِ يَقُولُ: «الْأَخُ بَسْيُونِي بَطْنِيَّةً يُرَبِّنَا بَعِيْنَهُ». فَكَانُوا يَتَعَهَّدُونَ إِخْوَانَهُمْ بِالتَّرْبِيَةِ وَالْإِعْدَادِ وَالنُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ.

(174) انظر عز الدين ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ، ط 1، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1417هـ / 1997م، ٢ / 324. وانظر كذلك ابن كثير: البداية والنهاية، 650 / 9.

مَهَابَةُ الْقِيَادَةِ تُيسِّرُ الطَّاعَةَ

وَقَدْ ذَكَرْتُ لَكُمْ مِثَالَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَكَانَ فِي اسْتَطَاعَةِ أَحَدٍ أَنْ يَرِدَّ قَبِيلَةَ طَيٍّ كُلَّهَا إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). قَالَ الْوَاقِدِيُّ: «وَهَمَّتْ قَبَائِلُ طَيٍّ أَنْ يَرْتَدُّوا عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَقَامَ سَيِّدُهُمْ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِي، فَقَالَ: (يَا مَعْشَرَ طَيٍّ، إِنَّكُمْ إِنْ أَقَمْتُمْ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ أَصَبْتُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَإِنْ رَجَعْتُمْ عَنْهُ خَسِرْتُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ قَبَضَ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ... وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُوجِّهَ إِلَيْهِمْ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَكُونُوا سَيْفَهُ الْقَاطِعَ، وَرُمْحَهُ النَّافِذَ، وَسَهْمَهُ الصَّائِبَ)، فَأَجَابَتْهُ قَبَائِلُ طَيٍّ إِلَى جَمِيعِ مَا أَحَبَّ (175).

وَفَعَلَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ، مَا فَعَلَهُ عَدِيُّ مَعَ قَبِيلَتِهِ طَيٍّ؛ «لَمَّا تُوَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَوَصَلَ خَبَرُهُ إِلَى مَكَّةَ، وَعَامِلِهِ عَلَيْهَا عَتَّابُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيَّةَ، اسْتَخْفَى عَتَّابُ وَارْتَجَّتْ مَكَّةُ، وَكَادَ أَهْلُهَا يَرْتَدُّونَ، فَقَامَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ وَصَاحَ بِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، لَا تَكُونُوا آخِرَ مَنْ أَسْلَمَ وَأَوَّلَ مَنْ ارْتَدَّ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ... إلخ» (176).

وَهَذَا سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، يَسْأَلُهُ بَعْضُ مَنْ رَأَاهُ يَأْخُذُ بِرَأْيِ عُمَرَ: «وَاللَّهِ مَا نَذَرِي أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ؟» فَقَالَ: بَلْ هُوَ، وَلَوْ شَاءَ كَانَ. وَقِصَّةُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الشُّيُوطِيُّ عَنْ عُبَيْدَةَ قَالَ: جَاءَ عَيْنَةُ

(175) انظر محمد بن عمر الواقدي: الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المشي بن حارثة الشيباني، تحقيق يحيى الجبوري، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1410هـ - 1990م، ص 63، وما بعدها.

(176) انظر عز الدين ابن الأثير (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، 2/ 186.

بْنُ حِصْنٍ وَالْأَفْرَعُ بْنُ حَابِسٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّ عِنْدَنَا أَرْضًا سَبَخَةً لَيْسَ فِيهَا كَلَأٌ وَلَا مَنَفَعَةٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُقْطِعَنَاهَا لَعَلَّنَا نَحْرُثُهَا وَنَزْرُعُهَا؟ فَأَقْطَعَهَا إِيَّاهُمَا، وَكَتَبَ لَهُمَا عَلَيْهِ كِتَابًا وَأَشْهَدَ فِيهِ عُمَرَ، وَلَيْسَ فِي الْقَوْمِ، فَانْطَلَقَا إِلَى عُمَرَ لِيُشْهَدَاهُ، فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ مَا فِي الْكِتَابِ تَنَاوَلَهُ مِنْ أَيْدِينَا، ثُمَّ تَفَلَّ فِيهِ وَمَحَاهُ، فَتَذَمَّرَا، وَقَالَا لَهُ مَقَالَةٌ سَيِّئَةٌ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَأَلَّفُكُمَا وَالْإِسْلَامُ يَوْمَئِذٍ ذَلِيلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، فَاذْهَبَا فَاجْهَدَا جُهْدَكُمَا، فَأَقْبِلَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُمَا يَتَدَامِرَانِ، فَقَالَا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ؟ فَقَالَ: بَلْ هُوَ، وَلَوْ شَاءَ كَانَ (177).

يقول سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ ذَلِكَ فِي حَقِّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ لَنْ يُحْدِثَ فِتْنَةً دَاخِلَ صَفِّ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَلَنْ يَتَّخِذَ بَطَانَةً، أَوْ (جِيًّا)، وَلَا حِزْبًا وَلَا شِلَّةً، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ ذَوِي الْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ فِي نَفُوسِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي نَفُوسِ الرِّعْيَةِ مِنْ بَعْدِهِ، لَكِنَّهُ مَعَ هَيْبَتِهِ وَوَقَارِهِ يُبْصِرُ أَخَاهُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ يَمْشِي فَيُشْهَدُ لَهُ بِالْهَيْبَةِ. «رَوَى ضَمْرَةُ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ عُمَرَ نَظَرَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ يَمْشِي فَقَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا أَمِيرًا» (178)؛ وَكَانَ مَعْرُوفًا عَنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ أَنَّ فِيهِ هَيْبَةَ السِّيَادَةِ وَالْإِمَارَةِ، ثُمَّ يَأْتِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَيُشْهَدُ لِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالسِّيَادَةِ؛ «رَوَى الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ، عَنْ جَبَلَةَ بْنِ سُحَيْمٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ. قُلْتُ: وَلَا عُمَرُ؟ قَالَ: كَانَ عُمَرُ خَيْرًا مِنْهُ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ أَسْوَدَ مِنْهُ» (179)؛ أَيُّ فِيهِ سِيَادَةٌ وَهَيْبَةٌ. أَرَأَيْتَ

(177) انظر الجلال السيوطي: الجامع الكبير، 2/ 1322.

(178) انظر شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، 3/ 70.

(179) انظر شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، 3/ 152. (أسود منه: يعني أكثر في السيادة).



كَيْفَ يُقَدَّرُ الصَّحَابَةُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ مَا أَحْوَجَ الصَّفِّ إِلَى هَذِهِ الْأَخْلَاقِ
النَّبِيلَةِ!

رئيس تنظيم السُّجُونِ

وَأَذْكُرُ الْحَاجَّ عَبْدَ الرَّزَّاقِ عِمَادِ الدِّينِ، وَكَانَ يُعَدُّ شَيْخَ إِخْوَانِنَا فِي
الْمُنُوفِيَّةِ، وَرئيسَ مكتبِ إداريِ المُنُوفِيَّةِ قَدِيمًا، وَكَانَ قَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ
بِالسُّجْنِ عَشْرَ سِنِينَ فِي سَنَةِ (1954م)، وَخَرَجَ سَنَةَ (1964)، ثُمَّ اعْتُقِلَ
مَرَّةً أُخْرَى سَنَةَ (1965م)، وَسُجِنَ بِحُكْمٍ آخَرَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ رَئِيسَ تَنْظِيمِ
السُّجُونِ كَمَا كَانُوا يَتَهَمُونَهُ، وَهَذَا الرَّجُلُ كُنْتُ أُحِبُّ جِدًّا أَنْ أَجْلِسَ
إِلَيْهِ وَأَنْ أَسْكُنَ مَعَهُ، وَكَانَتْ إِدَارَةُ السُّجْنِ تَتْرُكُ لِلْإِخْوَانِ حُرِّيَّةَ تَسْكِينِ
الرِّزَازِينَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأْخُذُ مِنْهُمْ الْأَسْمَاءَ الَّتِي سَكَنْتُ، فَطَلَبْتُ مِنَ الْأُخُوَّةِ
الْمَسْئُولِينَ أَنْ أَسْكُنَ مَعَ الْحَاجِّ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عِمَادِ الدِّينِ حَتَّى أُسْتَفِيدَ مِنْهُ،
فَهُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ وَفَاضِلٌ وَعَابِدٌ وَفِيهِ رُوحَانِيَّاتٌ عَالِيَةٌ، مُرَبِّ فَاضِلٌ فِعْلًا؛
فَرَفَضُوا وَقَالُوا: نَحْنُ سَنُسَكِّنُكَ بِطَرِيقَتِنَا، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: طَلَبْتُ
مِنَ الْإِخْوَانِ أَنْ يُسَكِّنُونِي مَعَكُمْ فَرَفَضُوا، فَقَالَ لِي: اذْهَبْ وَقُلْ لَهُمْ:
الْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ يَقُولُ لَكُمْ: اجْعَلُوا صَلاَحَ مَعِي فِي التَّسْكِينِ، عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْمَسْئُولَ فِي الْقَنَاظِرِ، بَلْ كَانَ هُنَاكَ أَخٌ آخَرُ،
فَذَهَبْتُ وَقُلْتُ لَهُمْ: الْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ يَقُولُ لَكُمْ: كَذَا وَكَذَا، فَقَالُوا:
لَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَنْ تَسْكُنَ مَعَهُ، فَارْجِعْتُ وَقُلْتُ لَهُ هَذَا الْكَلَامَ فَضَحِكَ،
وَقَالَ لِي: أَقُلْتَ لَهُمْ: إِنِّي قُلْتُ لَكَ هَذَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَضَحِكَ وَقَالَ:
إِذْنُ تَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، لِأَنَّ كَلَامَهُمْ فِيهِ بَرَكَةٌ.

وَفِعْلًا كَانَتْ وَجْهَةٌ نَظَرِهِمْ أَنَّهُ رَجُلٌ كَبِيرٌ وَمَعْرُوفٌ وَخَطِيرٌ، إِنَّهُ رَئِيسُ
تَنْظِيمِ السُّجُونِ، أَسَّسَ تَنْظِيمًا دَاخِلَ السُّجْنِ، وَلَيْسَ خَارِجَهُ، بِحَيْثُ

تَكُونُ كُلُّ هَذِهِ الْعَشَرَاتِ مَتَوَزَّعَةً عَلَى الْأَقَالِيمِ، يَبْدَأُ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ فَوْرَ أَنْ يَخْرُجَ، وَكَانُوا قُرَابَةَ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ أَخًا، وَهُوَ رِئِيسُهُمْ، وَاعْتَرَفَ عَلَيْهِمْ عَلَيَّ عَشْمَاوِي كَذَلِكَ، فَحُكِمُوا كُلُّهُمْ، وَصَدَرَ فِي حَقِّهِمْ أَحْكَامٌ جَدِيدَةٌ، وَلِهَذَا اعْتَقَلُوا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى.

صَدِيقُ الزَّنَانَةِ

وَالْأُسْتَاذُ هَوَّاشُ أُعْدِمَ، وَلَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا أَبَدًا، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ مَعَ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ فَقَطْ فَأَعْدَمُوهُ! الْأُسْتَاذُ هَوَّاشُ لَمْ يُقَابِلْ أَحَدًا مِنْ تَنْظِيمِ (1965)، وَلَمْ يَتَوَلَّ أَيَّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا أَيَّ مُهِمَّةٍ أَبَدًا، كُلُّ التَّهْمَةِ الَّتِي وَجَّهَتْ إِلَيْهِ أَنَّهُ جَالِسٌ مَعَ سَيِّدِ قُطْبٍ لِمُدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ، فَأَصْبَحَ يَحْمِلُ أَفْكَارَهُ وَمُتَأَثِّرًا جَدًّا بِهَا، وَبِشَخْصِيَةِ سَيِّدِ قُطْبٍ بَوْصَفِهِ شَخْصِيَّةً قِيَادِيَّةً ذَاتَ عَقْلٍ رَاجِحٍ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّ لَدَيْهِ هَذَا الْإِسْتِعْدَادَ، وَالْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قَالَ لَهُ: لَوْ حَدَّثْتَ لِي شَيْءٌ تَكُونُ أَنْتَ بَعْدِي قَالَ: نَعَمْ، رُغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَرِ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَمْ يَرَوْهُ، وَلَكِنَّهُمْ أَعْدَمُوهُ فَقَطْ لِهَذَا السَّبَبِ! وَقَدْ كَانَ الْوَحِيدَ مِنَ الْإِخْوَانِ الَّذِي مَكَثَ الْمُدَّةَ كُلَّهَا، مَعَ أَنَّ النَّاسَ كَانَتْ تَأْتِي إِلَى السَّجَنِ مَرْضَى ثُمَّ تَخْرُجُ، إِنَّمَا الَّذِي كَانَ مُلَازِمًا لَهُ وَعَلَى السَّرِيرِ الَّذِي بِجَوَارِهِ عَشْرَ سِنِينَ كَامِلَةً هُوَ يَوْسُفُ هَوَّاشُ فَأَعْدِمَ مِنْ أَجْلِ هَذَا، فَهَؤُلَاءِ الْإِخْوَانُ رَأَيْهِمْ فِيهِ بَرَكَةٌ فِعْلًا، قَالُوا لِي: أَنْتَ لَوْ جَلَسْتَ مَعَهُ سَتَوْضَعُ فِي دَائِرَةٍ شَدِيدَةِ الْخُطُورَةِ، وَنَحْنُ نُرِيدُ لَكَ عُمُرًا أَطْوَلَ فِي الدَّعْوَةِ.

وَصَدَّقُوا حَقًّا، إِذْ كَانَ أَوَّلُ قَرَارٍ بِالْإِفْرَاجِ عَنِ الْإِخْوَانِ بَعْدَ الْحَرْبِ وَأَحْدَاثِهَا فِي نِهَايَاتِ سَنَةِ (1974)، أَفْرَجُوا عَنْ عَشْرَةٍ مِنَ الْمُعْتَدِلِينَ كُنْتُ أَنَا عَلَى رَأْسِهِمْ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يُسْكِنُونِي مَعَ أَخٍ كَبِيرٍ، وَقَالُوا لِي: أَنْتَ مُمَكِّنٌ تَسْتَفِيدُ مِنْهُ فِي وَقْتٍ آخَرَ، كَانَ لَهُ بَرَامُجٌ وَكَانَ يَجْلِسُ يُدْرِّسُ زَادَ الْمَعَادِ، وَهُوَ نَفْسُهُ كَانَ يَعْرِفُنِي جَيِّدًا، وَهُوَ نَفْسُهُ طَلَبَ مِنِّي وَنَحْنُ فِي

السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ أَنْ أَمْشِيَ مَعَهُ لِكَيْ يَحْكِيَ لِي تَارِيخَ الدَّعْوَةِ، وَأَرْسَلَ إِلَيَّ مَعَ أَنِّي لَا أَعْرِفُهُ، وَإِنَّمَا جَاءَنِي أَحَدُ الْإِخْوَةِ وَقَالَ الْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ يُرِيدُكَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ الْحَاجُّ عَبْدُ الرَّزَّاقِ؟ قَالَ: رَئِيسُ تَنْظِيمِ السُّجُونِ، فَقُلْتُ لَهُ: تَنْظِيمٌ وَنَحْنُ فِي السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ، فَقَالَ لِي: أَلَا تَعْرِفُهُ، قُلْتُ لَهُ: لَا أَعْرِفُهُ، فَقَالَ: هُوَ يَعْرِفُكَ وَيُرِيدُكَ أَنْ تَقَابَلَهُ فِي طَابُورِ الْيَوْمِ، قُلْتُ: وَكَيْفَ أَعْرِفُهُ؟ قَالَ: هُوَ لَدَيْهِ بُهَاقٌ وَسَتَجِدُهُ وَاقِفًا فِي السَّرِيَّةِ رَقَمَ كَذَا فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فِيهَا.

وَفِعَلًا جَلَسْتُ أَنْظُرَ حَتَّى رَأَيْتُهُ فَذَهَبْتُ أَجْرِي نَحْوَهُ لِأَقِفَ بِجَوَارِهِ، وَكَانُوا قَدْ نَظَّمُوا لَنَا طَوَائِيرَ وَتَعْذِيبًا وَأَشْيَاءَ أُخْرَى فِي تِلْكَ الطَوَائِيرِ، فَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ، وَوَقَفْتُ بِجَوَارِهِ فَوْرًا أَمْسَكَ يَدِي وَقَالَ لِي: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَخَ صَلاَح؟ تَأْمَلُ سَبَقَ الْقِيَادَةِ الْحَكِيمَةِ وَنَحْنُ فِي السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ أَثْنَاءَ الطَوَائِيرِ الَّتِي لَا أَحَدٌ فِيهَا يَعْرِفُ مَنْ بِجَوَارِهِ، وَقَالَ لِي: تَمْشِي بِجَوَارِي فِي كُلِّ طَابُورٍ، حَتَّى أَحْكِيَ لَكَ تَارِيخَ الدَّعْوَةِ؛ لِأَنِّي أَعْلَمُ عَنْكَ أَنَّكَ تَحْفَظُ جَيِّدًا، أَنْظُرْ! كَيْفَ يَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ عَنِّي وَنَحْنُ لَمْ نَمُكُثْ فِي السَّجْنِ الْحَرْبِيِّ إِلَّا مُدَّةً قَلِيلَةً؟ لَكِنَّهُ رَئِيسُ تَنْظِيمِ السُّجُونِ فِعَلًا، كَانَ يَسْتَحِقُّ هَذَا اللَّقَبَ، بَرَكَةٌ فِعَلًا فِي الرَّأْيِ فَاسْتَمَعْتُ إِلَيْ رَأْيِهِمْ فِعَلًا، فَهَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَ الشَّلِيلَةَ. بَلْ وَجُودُ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةِ أَوْ (الْأَوْتَادِ) دَاخِلُ الصَّفِّ يُؤْمِنُ الْعَمَلَ وَالْمَسِيرَ، وَيُيَسِّرُ أَمْرَ (الطَّاعَةِ)، وَمَا أَشَقُّهُ عَلَى النَفُوسِ.

رُكْنُ الثَّبَاتِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا وَأُرِيدُ بِالثَّبَاتِ: «أَنْ يَظَلَ الْأَخُ عَامِلًا مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ غَايَتِهِ، مَهْمَا بَعْدَتْ الْمُدَّةُ، وَتَطَاوَلَتِ السَّنُونَ وَالْأَعْوَامُ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، وَقَدْ فَازَ بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ: فِيمَا الْغَايَةُ، وَإِمَّا الشَّهَادَةُ فِي النَّهَايَةِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الْأَحْزَابُ: 23].

وَالْوَقْتُ عِنْدَنَا جُزْءٌ مِنَ الْعِلَاجِ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلَةٌ الْمَدَى، بَعِيدَةُ الْمَرَاحِلِ، كَثِيرَةُ الْعُقَبَاتِ، وَلَكِنَّهَا وَحْدَهَا الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى الْمَقْصُودِ، مَعَ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَجَمِيلِ الْمُثُوبَةِ.

وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ مِنْ وَسَائِلِنَا السَّتِّ تَحْتَاجُ إِلَى حُسْنِ الْإِعْدَادِ، وَتَحْيِينِ الْفُرْصِ، وَدِقَّةِ الْإِنْفَازِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَرهُونٌ بِوَقْتِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: 51] ⁽¹⁸⁰⁾.

الثَّبَاتُ زَادٌ فِي الْمَحْنِ الطَّوَالِ

الْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِ أَنْ يُؤَثِّرَ الْعَافِيَّةَ وَيَحْرِصَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يَتَجَنَّبَ الصَّدَامَ مَعَ خُصُومِهِ، مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَإِنْ دَعَا «الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ» لَتَأْخُذَ أَبْنَاءَهَا بِذَلِكَ النَّهْجِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حِينَ سَارَ إِلَى الْحَرُورِيَّةِ يُخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا



الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ. ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» (181).

لَكِنْ قِيَادَةُ الْإِخْوَانِ لَا تَضْمَنُ أَنْ تَدُومَ الْعَافِيَةُ، وَأَنْ تَسِيرَ كُلُّ أُمُورِهَا هِينَةً لِينَةً، وَقَدْ تَضَطَّرُّ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ أَنْ تَأْخُذَ بِالْعَزِيمَةِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ دَعْوَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ لَا تَلْقَى تَرْحِيبًا مِنَ الْحُكَّامِ أَوْ الْمُسْتَبِدِّينَ، بَلْ هُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْهَا، يُسَانِدُهُمْ فِي ذَلِكَ نِظَامُ دَوْلِيٍّ جَائِرٍ، يَكْرَهُ كُلَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ، وَيُعَادِي كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ رَايَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى تَحْكِيمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

فَإِذَا اضْطُرَّتْ الْقِيَادَةُ إِلَى الْأَخْذِ بِالْعَزِيمَةِ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهَا، فَعَلَى أَبْنَاءِ الصَّفِّ أَنْ يُطِيعُوا، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ وَرَاءَ هَذِهِ الطَّاعَةِ مِحْنَةٌ رُبَّمَا تَطُولُ وَلَا يَعْلَمُ مَدَاهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَهُنَا يَأْتِي دَوْرُ الثَّبَاتِ لِيَكُونَ زَادَ الْإِخْوَةِ الْعَامِلِينَ فِي تَجَاوُزِ أَيِّ مِحْنَةٍ تُلَمُّ بِهِمْ، وَكَأَيِّنْ مِنْ مِحْنَةٍ تَجَاوَزَتَهَا دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ بِثَبَاتِ أَبْنَائِهَا الْكَرَامِ. وَطَرِيقُ الدَّعَوَاتِ لَيْسَ مَفْرُوشًا بِالْوُرُودِ.

وَلَمْ يَغِبْ عَنِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنْ أَصْحَابَ هَذِهِ الطَّرِيقِ عَلَى سَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهِمْ لَا مَحَالَةَ مُبْتَلُونَ، وَلِهَذَا جَعَلَ «الثَّبَاتُ» الرُّكْنَ السَّابِعَ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ، مُهْتَدِيًّا فِي ذَلِكَ بِسُنَّةِ رَسُولِنَا الْكَرِيمِ، فَقَدْ ثَبَتَ بَنُو هَاشِمٍ مُسْلِمُهُمْ وَكَافِرُهُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِصَارِ قُرَيْشٍ لَهُمْ، حَتَّى جَاءَهُمُ الْفَرَجُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ ثَلَاثِ سَنَاتٍ مِنَ الْحِصَارِ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي زَادِ الْمَعَادِ: «ثُمَّ أَسْلَمَ حَمْرَةُ عَمُّهُ وَجَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ، وَفُشِيَ الْإِسْلَامُ،



فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشُ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي عُلُوِّ وَالْأُمُورِ تَتَزَايِدُ، أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَتَعَاقَدُوا عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ وَبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْ لَا يُبَايِعُوهُمْ، وَلَا يُنَاكِحُوهُمْ، وَلَا يَكَلِّمُوهُمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ صَحِيفَةً وَعَلَّقُوهَا فِي سَقْفِ الْكَعْبَةِ يُقَالُ: كَتَبَهَا: مَنصُورُ بْنُ عِكْرَمَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ هَاشِمٍ، وَيُقَالُ: النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ بَغِيضُ بْنُ عَامِرِ بْنِ هَاشِمٍ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَشَلَّتْ يَدُهُ، فَانْحَازَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ إِلَّا أَبَا لَهَبٍ، فَإِنَّهُ ظَاهَرَ قُرَيْشًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ، وَحُبَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ فِي الشَّعْبِ شَعْبُ أَبِي طَالِبٍ لَيْلَةَ هِلَالِ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْبُعْثَةِ، وَعُلِّقَتِ الصَّحِيفَةُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَبَقُوا مَحْبُوسِينَ وَمَحْضُورِينَ مُضَيَّقًا عَلَيْهِمْ جِدًّا، مَقْطُوعًا عَنْهُمْ الْمِيرَةُ وَالْمَادَّةُ نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِينَ، حَتَّى بَلَغَهُمُ الْجَهْدُ وَسُمِعَ أَصْوَاتُ صِبْيَانِهِمْ بِالْبُكَاءِ مِنْ وَرَاءِ الشَّعْبِ، وَهَنَّاكَ عَمَلُ أَبُو طَالِبٍ قَصِيدَتُهُ اللَّامِيَّةُ الْمَشْهُورَةُ، أَوَّلُهَا:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوَفَلًا
عُقُوبَةً شَرًّا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ

وَكَانَتْ قُرَيْشُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ رَاضٍ وَكَارِهِ، فَسَعَى فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ مَنْ كَانَ كَارِهَا لَهَا، وَكَانَ الْقَائِمُ بِذَلِكَ هِشَامُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ نَضْرِ بْنِ مَالِكٍ، مَشَى فِي ذَلِكَ إِلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، ثُمَّ أَطْلَعَ اللَّهُ رَسُولُهُ عَلَى أَمْرِ صَحِيفَتِهِمْ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهَا الْأَرْضَةَ فَأَكَلَتْ جَمِيعَ مَا فِيهَا مِنْ جَوْرِ وَقَطِيعَةٍ وَظَلَمٍ إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَمَّهُ، فَخَرَجَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ ابْنَ أَخِيهِ قَدْ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا خَلَيْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا رَجَعْتُمْ عَنْ قَطِيعَتِنَا وَظُلْمِنَا، قَالُوا: قَدْ أَنْصَفْتَ، فَأَنْزَلُوا الصَّحِيفَةَ،



فَلَمَّا رَأَوْا الْأَمْرَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْدَادُوا كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ» (182).

وَمِنْ ثَمَّ فَالْتَبَاتُ فِي دَعْوَتِنَا ضَرُورَةٌ؛ لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مُجَاهِدَةٌ، ذَاتُ طَابَعٍ خَاصٍّ وَفِقَةٍ خَاصَّةٍ، وَلَا يَسْتَسْهِلُ أَعْبَاءُهَا أَوْ يَتَرَاجَعُ عَنْهَا إِلَّا مَنْ ضَعُفَتْ عَزِيمَتُهُ وَقَصُرَ نَظَرُهُ، وَهُوَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى التَّشْيِيتِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالصَّبْرِ. أَمَّا الَّذِينَ يَقْفُونَ فِي وَجْهِ الدَّعَوَاتِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُمْ الصَّنْفُ الَّذِي وَاجَهُ الرُّسُلَ الْكِرَامَ، وَسَعَى إِلَى عَرْقَلَةِ رِسَالَتِهِمْ وَصَدَّ النَّاسَ عَنْهَا.

حَتَّى وَجَدْنَا نَبِيًّا كَرِيمًا كَنَبِيَّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ (عليه السلام) يَتَخَلَّصُ مِنَ الْخِيُولِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ طُفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33)﴾ [سورة: ص]. لَمْ يَجِدْ مَنْ يَنْهَضُ مَعَهُ بِتَكَالِيفِ الدَّعْوَةِ وَالرِّسَالَةِ. وَقَدْ اسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْكُتَّابِ مِنْ مَوْقِفِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الدَّاعِيَةَ قَدْ يَتْرُكُ بَعْضُ الْوَسَائِلِ أَوْ الْمُبَاحَاتِ إِذَا شَغَلَتْهُ عَنْ مُهِمَّتِهِ الْأَصْلِيَّةِ (غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ التَّفْسِيرَ الْمَشْهُورَ لِلآيَةِ).

أَمَّا دَعْوَتُنَا فَهِيَ دَعْوَةٌ مُجَاهِدَةٌ عَلَى خَطَى رُسُولِنَا الْأَمِينِ، وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِحَرَكَةِ أَبْنَائِهَا ضَابِطٌ، حَتَّى لَا يَسْتَسْهِلُوا النُّكُوصَ وَالتَّرَاجُعَ، وَهَذَا الضَّابِطُ هُوَ «التَّابَاتُ»، وَانْظُرُوا إِلَى مَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ الْهَظْصِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ظُرُوفِ مَيُّوسٍ مِنْهَا، وَهِيَ ظُرُوفُ الْمِحْنَةِ فَقَدْ جَاءَهُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ يَطْلُبُونَ التَّرْخُصَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّا دَعْوَةٌ مُجَاهِدَةٌ، لَا يَجْتَمِعُ صَفٌّ عَلَى رَخْصَةٍ، فَالصَّبْرُ أَوْلَى وَأَحَبُّ، وَقَدْ أَخَذْنَا أَنْفُسَنَا بِالْعَزِيمَةِ.

هَذَا فِقَهُ الدَّعَوَاتِ الْمُجَاهِدَةِ، وَهُوَ فِقَهُ خَاصٍّ، ثَقِيلُ التَّبَعَةِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الدُّعَاةِ، وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ، أَوْ لَمْ يَجِدْ

في نفسه قدرة على الوفاء به، فخير له أن يترك هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات، أو يدعو إلى الله منفرداً، وحينئذ يسعه ما يسع عوام الناس وأفرادهم، فلمثل هؤلاء وضعت هذه القاعدة: «يسع الفرد ما لا يسع الجماعة»، فالفرد السائب غير الفرد العامل، والفرد السائب يسعه ما لا يسع الفرد العامل في جماعة⁽¹⁸³⁾. وقد أذن للأفراد بالرخصة عند الإكراه، أما الدعوات المجاهدة والصف العامل، فإن فقهاء الخاص قد يلزمه بأن يأخذ بالعزيمة عند الإكراه.

نماذج من الصبر والثبات

لم يكتشف الإمام البنا رحمه الله الطاقات المذخورة في أبناء جيله فحسب، ولم يطلقها للعمل والبناء خدمة لهذا الدين فحسب، ولكنه علمهم كذلك كثيراً من الفضائل الخلقية التي لا يعلم وفرتها إلا الله، فرباهم على معاني الصبر والزهد والتوكل والثبات، وغيرها من المعاني التي أصبحت باهتة في النفوس، ولا يستغني عنها العاملون لدين الله تعالى، فإنهم لا محالة مبتلون، ولن يعينهم في المحن والشدائد إلا مثل هذه الأخلاق، ومنها الصبر الذي وصفه رسول الله ﷺ بقوله: «.. والصبر ضياء...»⁽¹⁸⁴⁾. يري الإنسان طريق الحق من الباطل، وتعلم به الأمة الحق من الباطل، فيصبر المسلم على الحق الذي معه ويتحمل في سبيل ذلك الابتلاء والمعاناة. وقد رأيت ذلك بنفسني إخوة بسطاء، لكن اقتناعهم بالحق الذي معهم والثقة فيه جعلتهم يواجهون أعتى الجاهلييات وأشدّها بأساً وصلابة، بسبب فضائلهم الخلقية. لقد قدموا صورا من الصبر كانت ضياء في الحقيقة، ونورا فارقا بين الحق والباطل؛ لأنهم قدموا مثلاً وقُدوة تُغري بالاعتداء. كما كان الإمام البنا يقول في تعريف القدوة: «إن الناس لا

(183) انظر د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ط 9، مؤسسة الرسالة، 1421 هـ - 2001 م ص 466.

(184) رواه مسلم من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري (رضي الله عنه).

يُؤْمِنُونَ لِأَحَدٍ حَتَّى يَرَوْا أَنَا مِثْلَهُمْ يُؤْمِنُونَ، ثُمَّ يَمْضُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَكْتَرِثُونَ بِمَا يُصِيبُهُمْ».

وأذكر من هذه النماذج الشهيد عبد الفتاح إسماعيل، وهو رجل بسيط شبه أمي (لا يعرف القراءة والكتابة)، لكنه قدم في سنة (1965) صورة من الصبر والجلادة والتحمل لا توصف إلا بأنها نور وضياء، رأيناها بأم أعيننا، وهم يجرونه للتعذيب ويحلقون نصف رأسه ونصف لحيته ونصف شاربه (يريدون السخرية منه) أمامنا وأمام تلك المجموعات التي كان مسؤولاً عنها، وعددهم قرابة ثلاثين أخصاً متحلقين وهو واقف في المنتصف، ويجعلونه يدور بيننا، بحيث نشاهده فيكون ذلك ترويعاً للشباب، وضرباً من السخرية والاستهزاء به، لكنه يصرخ بهم وهو واقف وسطنا، ويتلو في وجه هؤلاء العتاة قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (38) فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (39) ﴿[سورة هود]؛ فإذا به يجدد - بصره وثباته - العزم في نفوسنا، لأنك حينما ترى ذلك وأنت ما زلت شاباً صغيراً، قد تلين عزيمة، وبخاصة إن رأيت قدوتك ينهار، ولقد رأيت أناساً كانوا يشغلون مناصب كبيرة، ومنهم من بكى بكاء الأطفال، وهم يؤذونه أو يستهزئون به. أمّا الرجل البسيط (الشهيد عبد الفتاح إسماعيل) فقد واجه سخريتهم بما فيه من فضائل خلقية لا يعلم وفرتها إلا الله، فأغرى غيره بالافتداء والثبات، ولهذا ثبتنا بفضل الله تعالى؛ لأننا رأينا إنساناً يؤمن ثم يبتلى فيصبر ويثبت؛ كأنه يتمثل موقف الصحابي الجليل خبيب الأنصاري، وقوله لما خرجوا من الحرم ليقتلوه، فقال خبيب:

عَلَيَّ أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
يُبَارِكُ عَلَيَّ أَوْصَالِ شَلْوِي مُمَزَّعٍ

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ

كما ثبتته الله أثناء الحكم عليه بالإعدام، لما جمّعونا في مجلس إدارة



الثورة، حَتَّى نَسْمَعَ النُّطْقَ بِالْحُكْمِ، وَقَفْنَا صَفًّا وَاحِدًا، ثُمَّ نُودِيَ عَلَى الشَّهَدَاءِ وَأُولَهُمُ الثَّلَاثَةُ: سَيِّدُ قُطْبٍ وَيُوسُفُ هَوَّاشٍ وَعَبْدُ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلُ، بَرَزُوا ثَلَاثَتُهُمْ رِجَالًا مِنَ الصَّفِّ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ كُلُّنَا فِي الْقَاعَةِ سَنَةَ (١٩٦٥)، نُودِيَ عَلَيْهِمْ وَأَوَّلُ مَنْ نَادَا عَلَيْهِ الشَّهِيدُ سَيِّدُ قُطْبٍ، وَهُمْ يُطْلَعُونَهُ عَلَى الْحُكْمِ الصَّادِرِ فِي حَقِّهِ بِالْإِعْدَامِ شَنْقًا فَقَالَ:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شُعَاعًا
مِنَ الْأَبْطَالِ وَيَحَكَ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ
عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي

ثم نُودِيَ عَلَى الشَّهِيدِ عَبْدِ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ فَبَرَزَ، فَقَالَ لَهُ: (إِعْدَامَ شَنْقًا)، فَإِذَا بِهِ يَصِيحُ فِي وَجْهِهِ الْقَضَاءِ وَالْجَلَادِينَ: فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ وَنَحْنُ جَمِيعًا نَسْمَعُ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. إِنَّهَا فَضَائِلُ خُلُقِيَّةٌ لَا يَعْلَمُ وَفَرْتَهَا إِلَّا اللَّهُ؛ تَجَلَّتْ فِيهَا مَعَانِي التَّرْبِيَةِ وَالْإِعْدَادِ، وَالرَّعَايَةِ وَالتَّعْهُدِ.

ثِمَارُ التَّعْهُدِ وَالتَّرْبِيَةِ

إِنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ النَّمَاذِجِ الْفَذَّةِ الَّتِي رَبَّاهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا لِمَ تَأْتِ طَفَرَةً، وَلَكِنَّهَا ثَمَرَةٌ غَرَسَ وَتَرْبِيَةً وَتَعْهُدًا، وَقَدْ أَدْرَكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ حَاجَةَ هَذَا الْجِيلِ إِلَى مَحْضَنِ تَرْبِيٍّ فِيهِ هَذِهِ الْفَضَائِلُ، فَأَوْجَدَ ذَلِكَ الْكِيَانَ أَوْ التَّنْظِيمَ الْقَوِيَّ (الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ) لِتَرْبِيٍّ فِيهِ هَذِهِ الْفَضَائِلُ.

وَقَدْ نَصَحَ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، الدَّعَاةَ بِتَعْهُدِ الْفَضَائِلِ وَحِرَاسَتِهَا، وَنَهَاهُمْ عَنْ تَرْكِ الْمُجْتَمَعِ لِلشَّيْطَانِ فِيْفْسِدُهُ؛ وَذَلِكَ فِي مَقَالٍ لَهُ بِعُنْوَانِ [صُمُودُ الدَّعَاةِ]، وَهُوَ مُحَاوَرَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَجُلٍ يُؤَثِّرُ الْعُزْلَةَ وَالْانْسِحَابَ

مِنْ هَذَا الْوَاقِعِ الْبَيْسِ، يَقُولُ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَاعَتَزُلْ
النَّاسَ، وَأَحْيَا بَعِيدًا عَنْهُمْ كَيْ أُرِيحَ وَأَسْتَرِيحَ! إِنَّ لَغَطِ النَّاسِ وَسَعِيهِمْ
وَأَمَلِهِمْ وَلُغُوبِهِمْ يُثِيرُ الضَّجَرَ وَالْمَقْتَ! بَلْ إِنَّهُ يَضْعُ حِجَابًا عَلَى بَصَرِي
وَبَصِيرَتِي فَلَا أَكَادُ أَرَى وَجْهَ رَبِّي! وَلَا أَكَادُ أَشْعُرُ بِلَذَّةِ الْمُنَاجَاةِ وَالتَّأَمُّلِ.

قُلْتُ لَهُ: أَمَّا أَنْكَ سَتُرِيحَ وَتَسْتَرِيحُ فَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنَّكَ سَتُرِيحُ الشَّيْطَانَ،
وَتَسْتَرِيحُ مِنْ مُقَاوَمَتِهِ، وَتَتْرَكَهُ يُؤَدِّي رِسَالَتَهُ دُونَ وَجَلٍ! وَأَمَّا لَذَّةُ الْمُنَاجَاةِ
الَّتِي تَنْشُدُهَا فَهِيَ لَذَّةُ الشَّاعِرِ الَّذِي يَصُوغُ قَصِيدَةً رَائِعَةً يَهْيِجُ بِهَا الْمَشَاعِرَ
ضَدَّ الْأَعْدَاءِ، أَوْ يُثِيرُ بِهَا الْحَنِينَ لَا سَتَرِ جَاعِ الْمَجْدِ الْمَفْقُودِ، ثُمَّ تَبْقَى عَنْدهُ
قَصِيدَتُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهَا نَاشِرًا! أَخْشَى يَا صَاحِبِي أَنْ يَكُونَ فِرَارُكَ مِنَ
الْمُجْتَمَعِ فِرَارًا مِنَ الزَّحْفِ، وَنُكُوصًا عَنِ الْجِهَادِ!

إِنَّ الْعِبَادَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلَّهِ أَنْ تَحْرُسَ الْفِطْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَأَنْ تَشْتَبِكَ فِي
حَرْبٍ دَائِمَةٍ مَعَ الْبَيْئَةِ الَّتِي تُرِيدُ تَشْوِيحَهَا أَوْ تَغْيِيرَهَا! أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ
مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، أَيَّ عَلَى حَقَائِقِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ التَّقَالِيدَ الْفَاسِدَةَ
وَالْعَقَائِدَ الزَّائِفَةَ هِيَ الَّتِي تَتَلَقَّفُ الْأَجْيَالُ النَّاشِئَةَ وَتَنَحْرِفُ بِهَا يَمَنَةً
وَيَسْرَةً بَعِيدًا عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. فَكَيْفَ تُتْرَكُ الْمُجْتَمَعَاتُ يَسْتَقِرُّ فِيهَا
الْبَاطِلُ؟ وَيَتَلَاشَى مِنْهَا الْحَقُّ؟ وَيَحِلُّ الْخَنَا مَحَلَّ الطُّهْرِ! وَالْكُفْرُ مَكَانَ
الْإِيمَانِ، وَالْجَوْرُ بَدَلَ الْعَدَالَةِ؟

مَا يَجُوزُ أَبَدًا الْانْسِحَابُ مِنَ الْمِيدَانِ فَيَخْلُو الْجَوُّ لِلشَّيْطَانِ» (185).

وَلِهَذَا لَا يَثْبُتُ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، مَنْ لَمْ يُتَعَهَّدْ بِالتَّرْبِيَةِ،
صَحِيحٌ أَنَّهُ قَدْ يَثْبِتَ مَرَحَلَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُكْمِلَ مِثْلَ
إِخْوَةِ آخَرِينَ أَفْضَلَ ظَلُّوا عِشْرِينَ سَنَةً وَهُمْ وَرَاءَ الْأَسْوَارِ، تَارِكِينَ كُلَّ

مُتَعِ الحَيَاةَ وَكُلَّ المُسْتَقْبَلِ الَّذِي كَانَ مَفْتُوحًا أَمَامَهُمْ، وَفِيهِمْ مَنْ تَرَكَ
أَوْلَادَهُ وَوَضِيفَتَهُ، وَمَنْ تَرَكَ حَيَاةَ هَيْئَةٍ وَادِعَةٍ، وَرَاحَةً وَاسْتِقْرَارًا ثُمَّ تَرَاهُ
يَسْتَقِلُّ كُلَّ ابْتِلَاءٍ وَمَشَقَّةٍ وَمُكَابَدَةٍ فِي جَنْبِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ نَمَازِجِ الثَّبَاتِ الْفَذَّةِ فِي دَعْوَتِنَا مَا فَعَلَهُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ،
وَالْمَعْرُوفُ عَنِ الْأُسْتَاذِ سَيِّدٍ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ اعْتُقِلَ فِي يُولْيُو سَنَةِ (1965م)،
إِذْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ السِّجْنَ فِي تِلْكَ الْمَحْنَةِ، وَمَارَسُوا عَلَيْهِ كُلَّ أَنْوَاعِ
الضُّغُوطِ؛ لِكَيْ يَتَكَلَّمَ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ وَهُوَ رَجُلٌ كَبِيرٌ، تَجَاوَزَ السِّتِينَ مِنْ
عُمُرِهِ، وَوَضَعَهُ الْمَشِيبُ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْعِلَلُ وَالْأَمْرَاضُ؛ إِذْ كَانَ يَعِيشُ
بِرُئَةٍ وَاحِدَةٍ، وَيَشْكُو مِنْ ذَبْحَةِ صَدْرِيَّةٍ، وَضَغْطٍ عَالٍ، وَكَانَ مَرِيضًا بِالسَّلِّ،
وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَضْعُفْ، وَلَمْ تَلِنْ قَنَاتُهُ أَمَامَ الضُّغُوطِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي مُورِسَتْ
مَعَهُ كَيْ يَذْكَرَ أَسْمَاءَ إِخْوَانِهِ، فَلَمْ يَفْعَلْ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فِي حَقِّ
الْمُسْلِمِ؛ أَنْ يَدُلَّ عَلَى مَقَاتِلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَنْ يَكْشِفَ عَوْرَتَهُمْ، وَبَعْدَمَا
اكتُشِفَ التَّنْظِيمُ بِطَرِيقٍ آخَرَ، وَاتَّضَحَ أَمَامَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَ ثَلَاثَةِ شُهُورٍ
اسْتَدْعَوْهُ وَقَالُوا لَهُ: انْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ وَانْكَشَفَ، وَهَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ
مَعَكَ تَكَلَّمُوا وَقَالُوا كُلُّ شَيْءٍ، وَقَالُوا: إِنَّكَ كُنْتَ الرَّأْسَ الْمُدَبِّرَ، فَقَالَ:
الآنَ أَتَكَلَّمُ لَيْسَ مِنْ أَجْلِ التَّخْفِيفِ عَنِ نَفْسِي لِأَنِّي أَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ عَنِ
هَؤُلَاءِ جَمِيعًا، فَالآنَ أَتَكَلَّمُ وَقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ أَتَكَلَّمْ لِأَنَّهُ حَرَامٌ أَنْ أُدْلَّ عَلَى
مَقَاتِلِهِمْ أَوْ أَنْ أَكْشِفَ عَوْرَاتِهِمْ، أَمَّا الْآنَ فَأَنَا أَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً عَنِ
هَؤُلَاءِ؛ لِأَنِّي أَرَاهُمْ خَيْرَ شَبَابٍ حَمَلَتْهُ الْأَرْضُ فِي هَذَا الْجِيلِ، فَكَيْفَ أُدْلَّ
عَلَيْهِمْ، وَإِذَا كَانُوا قَدْ اعْتَرَفُوا عَلَيَّ جَمِيعًا، فَأَنَا أَتَحَمَّلُ الْمَسْئُولِيَّةَ عَنْهُمْ.

لَقَدْ أَثَّرَ الشَّهِيدُ إِخْوَانَهُ، وَرَضِيَ بِأَنْ يُقَدَّمَ رَأْسُهُ فِدَاءً لِحُرْكَةِ إِسْلَامِيَّةٍ،
سَتَكُونُ قَاعِدَةً لِقِيَامِ نِظَامٍ إِسْلَامِيٍّ، وَقَالَ: أَنَا الَّذِي بَدَأْتُ وَأَنَا الَّذِي
تَكَلَّمْتُ، وَأَنَا الَّذِي اقْتَرَحْتُ وَأَنَا الَّذِي نَظَّرْتُ، وَأَنَا الَّذِي فَهَّمْتُ، فَأَنَا

أَتَحْمِلُ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً؛ وَلَكِنْ وَاجِبِي الْآنَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْهُمْ، كَمَا كَانَ وَاجِبِي مِنْ قَبْلُ أَنْ أُحْمِيَهُمْ.

والأستاذ يوسف هَوَّاش رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا يَقُولُ عَنْهُ عَلِي عَشَمَاوِي فِي مُذَكِّرَاتِهِ - وَعَلَيَّ هَذَا كَانَ لَهُ حُظُوءٌ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ، لِأَنَّهُ اعْتَرَفَ كَثِيرًا وَتَكَلَّمَ كَثِيرًا - وَهُوَ نَفْسُهُ يَقُولُ بِأَنَّ: الْإِخْوَانَ أَثْنَاءَ التَّحْقِيقَاتِ يَكُونُونَ مَعزُولِينَ بِحَيْثُ لَا أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ مَعَ الْآخَرِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنِّي لِكَيْ أُحَاوِلَ أَنْ أُخَفِّفَ عَنْهُ الدَّوْرَ الَّذِي قَامَ بِهِ؛ لِأَنَّ كَلَامِي كَانَ مُصَدِّقًا عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ بَعْدَ الْاعْتِرَافَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي أَذْلَيْتُ بِهَا عَنِ التَّنْظِيمِ، إِلَّا وَاحِدًا فَقَطْ هُوَ الْأُسْتَاذُ يَوْسُفُ هَوَّاش؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ أَيَّ شَيْءٍ أَبَدًا، وَالْأُسْتَاذُ يَوْسُفُ هَوَّاش كَانَ مَسْجُونًا مَعَ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ، وَكَانَ مَحْكُومًا عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ سَنَةَ (1954م)، وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ خَمْسَةً وَخَمْسِينَ سَنَةً لِعِدَّةِ قَضَايَا لُفَّتْ لَهُ، وَظَلَّ بِجَوَارِ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ يَنَامَانِ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ فِي زِنَانَةٍ وَاحِدَةٍ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَاتٍ، ثُمَّ خَرَجَا مَعًا، وَكَانَ هَوَّاشُ يَحْمِلُ أَفْكَارَ الشَّهِيدِ سَيِّدِ قُطْبٍ وَكُلَّ دَوْرِهِ أَنَّهُ اعْتُقِلَ لِأَنَّ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطْبٍ قَالَ لَهُ: إِنَّنِي أَشْعُرُ أَنَّي سَأُعْتَقَلُ، فَلَوْ اعْتُقِلْتُ تَكُونُ أَنْتَ مَكَانِي وَأَنَا أَخْبَرْتُ إِخْوَانَكَ، قَالَ لَهُ: لَا مُشْكِلَةَ. فَهُمْ لَمْ يَرَوْهُ وَهُوَ لَمْ يَرَهُمْ وَهَذَا هُوَ كُلُّ دَوْرِهِ (الْجِدِّيَّةُ وَالِاسْتِعْدَادُ لِتَحْمِيلِ الْمَسْئُولِيَّةِ)، وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ. فَهَذَا الرَّجُلُ بَعْدَمَا حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ عَشْرَ سَنَاتٍ وَصُدِّقَ عَلَى الْحُكْمِ، وَكَانَ قَدْ اعْتُقِلَ وَعُمُرُهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَانَ رَجُلًا بَسِيطًا مَسْتَوَاهُ التَّعْلِيمِيُّ شَهَادَةُ دُبْلُومِ صِنَاعِيٍّ، لَكِنَّهُ كَانَ شَخْصِيَّةً فَذَّةً، وَكَانَ يَمْتَلِكُ طَاقَاتٍ هَائِلَةً اكْتَشَفَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَأَطْلَقَهَا لِلْعَمَلِ وَالْبِنَاءِ.

وَقَدْ حَكَّى بِنَفْسِهِ بَعْضَ مَوَاقِفِهِ مَعَ الْإِمَامِ الْبَنَّا فَقَالَ: نَادَاهُ الْأُسْتَاذُ



الْبَنَّا فِي أَحَدِ لِقَاءَاتِ (حَدِيثُ الثَّلَاثَاءِ) أَمَامَ الْجُمُوعِ الْجَالِسَةِ، وَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ هُنَا ثُمَّ اتَّبِعْنِي بَعْدَ نِهَايَةِ الْحَدِيثِ، وَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّنْدِيِّ، وَقَدَّمَهُ لَهُ، وَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ أَعْطِ يَوْسُفَ مَزِيدًا مِنَ الْاهْتِمَامِ، فَلَا يُوْجَدُ مِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ فَرِحَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قِيلَتْ فَحَفِظَهَا وَحَكَاهَا.

يَقُولُ عَلِي عَشْمَاوِي: هُوَ الْوَحِيدُ الَّذِي لَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنِّي، فَلَمَّا التَّقَى بِي قَالَ لِي كَلِمَةً سَتَتَعَجَّبُونَ حِينَمَا تَسْمَعُونَهَا؛ قَالَ لَهُ: كُلُّ دَوْرٍ قَامَتْ بِهِ حَمِيدَةُ فُطْبَحَمْلُهُ عَلَيَّ!! وَكَانَتْ مَسْجُونَةً مَعَنَا فِي السَّجْنِ وَكَانَتْ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمرِهَا، وَكَانَتْ تَمْشِي تَعَثِّرُ، لِأَنَّهَا وَسَطُ الرِّجَالِ، وَهُمْ يُحِيطُونَ بِهَا. يَقُولُ عَشْمَاوِي: قَالَ لِي كُلُّ دَوْرٍ قَامَتْ بِهِ حَمِيدَةُ فُطْبَحَمْلُهُ عَلَيَّ، وَقَدْ كَانَ فَنَجَتْ هِيَ، وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالْإِعْدَامِ، لِيَلْقَى رَبَّهُ شَهِيدًا.

وَكَانَ مَعِيَ أَخٌ اسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ عَبْدُ الْعَالِ فِي زِنَانَةٍ وَاحِدَةٍ فِي بَدَايَةِ اعْتِقَالِي، وَكَانَ يَعْمَلُ بَائِعًا لِلْبُنِّ، فَسَأَلْتُهُ: يَا أَخُ إِسْمَاعِيلُ، مَا الْأَحْكَامُ الَّتِي تَتَوَقَّعُ أَنْ تَصْدُرَ فِي تِلْكَ الْقَضِيَّةِ؟ فَقَالَ لِي: مَاذَا تَتَظَرُّ؟ فَمَنْ بَذَلَ مَا لَا لَيْسَ كَمَنْ بَذَلَ نَفْسَهُ. وَكَانَ نَقِيبًا لِأُسْرَةٍ فِي كَفْرِ الْغَابِ وَكَانَ يَقُولُ لِي: وَاللَّهِ يَا أَخُ صَلَاحٌ لَوْ حُكِمَ عَلَيَّ بِسِتْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَخْجَلٍ أَنْ أُرَى النَّاسَ وَجْهِي، هَلْ أَنَا سَارِقٌ عَنَزَةٌ؟!، صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَقَهُ اللَّهُ، وَحَكُمُوا عَلَيْهِ بِالْمُؤَبَّدِ، تَخَيَّلُوا وَاحِدًا نَقِيبَ أُسْرَةٍ فِي كَفْرِ الْغَابِ، مَا الَّذِي فَعَلَهُ حَتَّى يَحْكُمَ عَلَيْهِ النِّظَامُ بِالْمُؤَبَّدِ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً (رُبْعَ قَرْنٍ)، وَلَكِنَّهَا مُهِمَّةُ التَّجْدِيدِ وَالْإِحْيَاءِ.

وَهَذِهِ مُهِمَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، وَنَحْنُ نَذْبَنُ أَنْفُسَنَا لِنَكُونَ عَلَى قَدَمِ

الأنبياء، وَلِتَقُومَ بِتِلْكَ الْمُهِمَّةِ. وَكَمَا يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الْأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وَهُوَ الْمُهْمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللَّهُ لَهُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ». وَلَيْسَ هَذَا الْوَصْفُ مِنَ الْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ مُبَالَغَةً فِي بَيَانِ فَضْلِهِ، بَلْ تُوَيِّدُهُ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ؛ إِذْ قَدَّمَ اللَّهُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ فِي وَصْفِ خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، تَنْبِيْهَا إِلَى عَظِيمِ أَثَرِهِ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَحِفْظِهِ، وَإِظْهَارِ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ.

وَيُذَكِّرُنِي ذَلِكَ بِأَحَدِ الْعَسَاكِرِ فِي السَّجَنِ الْحَرْبِيِّ، وَكَانَ عَدَدُ الْإِخْوَانِ قُرَابَةَ أَلْفِي وَاحِدٍ يَقِفُونَ فِي السَّاحَةِ، وَهَذَا الْعَسْكَرِيُّ يَقِفُ أَمَامَنَا وَيَقُولُ لَنَا: «أَنْتُمْ تَظُنُّونَ أَنْفُسَكُمْ أَنْبِيَاءَ يَا أَوْلَادَ الْكَلْبِ؟!»، هَكَذَا كَانَ يَقُولُ لَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: طَيْبٌ.. أَنْبِيَا صَفَا.. أَنْبِيَا انْتَبَاه.. أَنْبِيَا لِلْخَلْفِ دُرْ!

إِنَّ أَمْرَ الثَّبَاتِ لَيْسَ بِالشَّيْءِ الْهَيِّنِ، بَلْ هُوَ عِمَادُ الدَّعَوَاتِ وَسِرُّ بَقَائِهَا؛ فِيهِ تَقُومُ وَتُسْتَمِرُّ وَتَبْلُغُ غَايَتَهَا، مَهْمَا عَظُمَتِ التَّحْدِيَّاتُ وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنُ. وَمَا بَلَغَتْ دَعْوَةُ غَايَتَهَا بِكَثْرَةِ أَتْبَاعِهَا وَلَا بِوَفَرَةِ إِمْكَانَاتِهَا، وَلَكِنْ بِثَبَاتِ رِجَالِهَا وَصِدْقِهِمْ وَصَبْرِهِمْ.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى هَذَا الثَّبَاتِ صِدْقُ الصَّلَاةِ بِاللَّهِ؛ فَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ: «كُلُّ أَمْرٍ عَظِيمٍ يَخْتَاجُ إِلَى حَيَاةٍ مَوْصُولَةٍ بِاللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ»، وَدَوَامُ الذِّكْرِ، وَالثِّقَةُ بِالْقِيَادَةِ وَطَاعَتُهَا فِي الْمَشْطِ وَالْمَكْرَهِ، وَمُلَازِمَةُ الْجَمَاعَةِ، وَاسْتِحْضَارُ الْغَايَةِ، وَالْيَقِينُ بِأَنَّ النَّتَاجَ بِيَدِ اللَّهِ. فَمَنْ صَدَقَ مَعَ اللَّهِ ثَبَّتَهُ، وَكَانَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23].

رُكْنُ التَّجَرُّدِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَأُرِيدُ بِالتَّجَرُّدِ: أَنْ تَتَخَلَّصَ لِفِكْرَتِكَ مِمَّا سِوَاهَا مِنَ الْمَبَادِي وَالْأَشْخَاصِ؛ لِأَنَّهَا أَسْمَى الْفِكْرِ وَأَجْمَعُهَا وَأَعْلَاهَا: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْتَغْفَرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الْمُمْتَحَنَةِ: 4]».

وَالنَّاسُ عِنْدَ الْأَخِ الصَّادِقِ وَاحِدٌ مِنْ سِتَّةِ أَصْنَافٍ: مُسْلِمٌ مُجَاهِدٌ، أَوْ مُسْلِمٌ قَاعِدٌ، أَوْ مُسْلِمٌ آثِمٌ، أَوْ ذِمِّيٌّ مُعَاهَدٌ، أَوْ مُحَايِدٌ، أَوْ مُحَارِبٌ، وَلِكُلِّ حُكْمُهُ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ، وَفِي حُدُودِ هَذِهِ الْأَقْسَامِ تُوزَنُ الْأَشْخَاصُ وَالْهَيْئَاتُ، وَيَكُونُ الْوَلَاءُ أَوْ الْعَدَاءُ⁽¹⁸⁶⁾.

التَّجَرُّدُ أَمَارَةٌ وَلَا عِلَّةٌ

لَا يَصْلَحُ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَلَا يَنْهَضُ بِهَا إِلَّا مَنْ تَجَرَّدَ لَهَا رُؤْيَا وَعَمَلًا، وَآمَنَ بِأَنَّهَا أَوْلَى الدَّعَوَاتِ بِالتَّبَاعِ، وَأَحَقُّهَا بِأَنْ يَمْنَحَهَا وَقْتَهُ وَجَهَادَهُ وَعَوَاطِفَهُ وَفِكَرَهُ، وَلَا يَحْسُنُ بِمَنْ اخْتَارَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ، وَارْتَضَاهَا سَبِيلًا لِنَهْضَةِ أُمْتِنَا وَعِزَّتِهَا، وَبَايَعَ عَلَى الْعَمَلِ مَعَ إِخْوَانِهِ وَفَقَّ مِنْهَا جَهَا؛ أَنْ يُخْدَعَ بِغَيْرِهَا مِنَ الدَّعَوَاتِ أَوْ الْأَحْزَابِ أَوْ الْهَيْئَاتِ الَّتِي تَمْلَأُ السَّاحَةَ؛ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ دَعْوَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ تَعَادِي الدَّعَوَاتِ

(186) رسالة التعاليم - ركن التجرد. ص 276.

الْأُخْرَى، أَوْ أَنَّ الْعَصِيَّةَ تُعْمِيهَا فَتَغْمِطُ الْآخِرِينَ حَقَّهُمْ، أَوْ تَبَخَسُهُمْ فَضْلَهُمْ؛ فَكُلُّ جُهْدٍ يُبْذَلُ لِنَهْضَةِ أُمَّتِنَا مَشْكُورٌ مَأْجُورٌ، وَاحْتِرَامُ الْهَيْئَاتِ الْاُخْرَى وَالْإِقْرَارُ بِفَضْلِهَا وَاجِبٌ، وَالْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ الْآخِرِينَ بَعَيْنِ مُرْشِدِهِمُ الْإِمَامِ النَّبَا ﷺ؛ حِينَ وَصَفَ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ - أَوْ قُلَّ أَمْرُهُمْ - بِأَنَّهُمْ: «أَوْسَعُ النَّاسِ صَدْرًا مَعَ مُخَالَفِهِمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّ مَعَ كُلِّ قَوْمٍ عِلْمًا، وَفِي كُلِّ دَعْوَةٍ حَقًّا وَبَاطِلًا، فَهُمْ يَتَحَرَّوْنَ الْحَقَّ وَيَأْخُذُونَ بِهِ، وَيُحَاوِلُونَ فِي هَوَادَةٍ وَرَفَقٍ إِقْنَاعَ الْمُخَالَفِينَ بِوَجْهَةِ نَظَرِهِمْ. فَإِنْ اقْتَنَعُوا فَذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يَقْتَنَعُوا فَإِخْوَانٌ فِي الدِّينِ، نَسَأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ» (187).

وَفِي ظَنِّي أَنَّ مَا وَصَفَ بِهِ الْإِمَامُ النَّبَا ﷺ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ فِي كَلَامِهِ السَّالِفِ، لَا يُفْهَمُ عَلَى أَنَّهُ خَبْرٌ، بَلْ هُوَ إِنْشَاءٌ وَطَلَبٌ جَاءَ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ، فَكَأَنَّهُ ﷺ يَطْلُبُ إِلَى إِخْوَانِهِ أَنْ يَتَحَقَّقُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ مُخَالَفِهِمْ أَوْ مَنْ آثَرَ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا أُخْرَى فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا ﷻ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[البقرة: 148].

وَالْتَجَرُّدُ فِي دَعْوَتِنَا ضَرُورَةٌ؛ لِأَنَّ اقْتِحَامَ الْمُجْتَمَعِ مِنْ أَجْلِ اسْتِثْمَارِهِ لَا مِنْ أَجْلِ تَدْمِيرِهِ يَحْتَاجُ إِلَى تَجَرُّدٍ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ، وَسَوْفَ يَرَى الْأَخُ الْعَامِلُ مَعَنَا دُعَاءَ وَاتِّجَاهَاتٍ، وَأَحْزَابًا وَجَمَاعَاتٍ؛ وَإِذَا لَمْ يَتَجَرَّدْ لِدَعْوَتِهِ تَخَطَّفَتْ هَذِهِ الدَّعَوَاتُ وَتَوَزَّعَتْ، فَأَوْرَثَتْ حَيْرَةً وَتَشْتُّتًا، وَقَدْ تَنْتَهِي بِهِ إِلَى كَرَاهِيَةِ الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ جُمْلَةً؛ لِأَنَّهُ سَيَرَى بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَحْزَابِ اخْتِلَافَاتٍ وَرُبَّمَا خُصُومَاتٍ تَصِلُ إِلَى حَدِّ التَّكْفِيرِ، وَقَدْ أَرَادَ الْإِمَامُ النَّبَا ﷺ أَنْ يَسْتَنْقِذَكَ مِنْ حَيْرَةٍ أَوْ تَشْتُّتٍ، وَأَنْ يَحْمِيكَ مِنْ أَنْ تَبْذُلَ جُهْدَكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تُضَيِّعَ طَاقَتَكَ فِي طَرِيقٍ غَيْرِ مَأْمُونَةٍ وَلَا مَضْمُونَةٍ، فَلَا

وَقَتَّ أَمَامَ أُمَّتِنَا لِتَجْرِيبِ الطُّرُقِ وَالْبَدَائِلِ، وَالْإِمَامُ الْبَنَّا يَقُولُ لِكُلِّ رَاغِبٍ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ: الطَّرِيقُ هَا هُنَا، وَيَجْزِمُ بِأَنَّ طَرِيقَ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) أَقْوَمُ سَبِيلَ وَأَهْدَاهُ، وَأَسْرَعُهُ وَأَنْجَعُهُ، وَأَنَّ التَّجَارِبَ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُتَكَرِّرٌ كَثِيرًا فِي رِسَائِلِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، فَهُوَ مُتَيَقِّنٌ مِنْهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: «أَيُّهَا الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ: إِنَّكُمْ تَبْتَغُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَتَحْصِيلَ مَثُوبَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ مَكْفُولٌ لَكُمْ مَا دُمْتُمْ مُخْلِصِينَ. وَلَمْ يُكَلِّفْكُمْ اللَّهُ نَتَائِجَ الْأَعْمَالِ، وَلَكِنْ كَلَّفَكُمْ صِدْقَ التَّوَجُّهِ وَحُسْنَ الْأَسْتِعْدَادِ، وَنَحْنُ بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا مُخْطِئُونَ فَلَنَّا أَجْرُ الْعَامِلِينَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَإِمَّا مُصِيبُونَ فَلَنَّا أَجْرُ الْفَائِزِينَ الْمُصِيبِينَ. عَلَى أَنَّ التَّجَارِبَ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ قَدْ أَثْبَتَتْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ إِلَّا فِي طَرِيقِكُمْ، وَلَا إِنْتِاجَ إِلَّا مَعَ خُطَّتِكُمْ، وَلَا صَوَابَ إِلَّا فِيْمَا تَعْمَلُونَ، فَلَا تُغَامِرُوا بِجُهْدِكُمْ وَلَا تُقَامِرُوا بِثَمَارِ نَجَاحِكُمْ. وَاعْمَلُوا وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ، وَالْفَوْزُ لِلْعَامِلِينَ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]» (188).

وَيَبْقَى عَلَيْكَ أَخِي الْمُسْلِمِ أَمَامَ كَلَامِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، أَنْ تَكُونَ أَحَدَ رَجُلَيْنِ: فإِمَّا أَنْ تَرَاهُ مُخْطِئًا فَتَرْفُضَ نَهْجَهُ وَتَأْبَاهُ، وَمِيدَانُ الْعَمَلِ حِينَئِذٍ أَمَامَكَ فَسِيحٌ، فَلتَجْرِبْ طَرِيقًا أُخْرَى، وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَإِمَّا أَنْ تَرَاهُ مُصِيبًا وَتُحِبُّ أَنْ تَلْحَقَ بِكَيْسَةِ الْعَامِلِينَ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِخْوَانُكَ حِينَئِذٍ يَبْسُطُونَ أَيْدِيَهُمْ لَكَ، وَيَدْعُونَكَ: هَلُمَّ فَبَايِعْ عَلَيَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ مُتَجَرِّدًا لَهَا، غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَى سِوَاهَا بَعْدَمَا اخْتَرْتَ؛ وَأَنْصِتْ مِلِيًّا إِلَى الْإِمَامِ الْمَجْدِّدِ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ، وَهُوَ يَهْمِسُ فِي أُذُنِكَ: «أُرِيدُ بِالتَّجَرُّدِ: أَنْ تَتَخَلَّصَ لِفِكْرَتِكَ مِمَّا سِوَاهَا مِنَ الْمَبَادِي وَالْأَشْخَاصِ؛ لِأَنَّهَا أَسْمَى الْفِكْرِ وَأَجْمَعُهَا وَأَعْلَاهَا: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾

[البقرة: ١٣٨]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: 4]» (189).

إنَّ الإمامَ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ آمَنَ إِيْمَانًا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ شَكٌّ بِأَنَّ السَّبِيلَ الَّتِي اخْتَارَهَا هِيَ أَهْدَى السُّبُلِ، وَأَنْجَعُهَا وَأَسْرَعُهَا (وَإِنْ بَدَتْ طَوِيلَةً شَاقَّةً) لِنَهْضَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ غَرِيبًا عَلَى مَنْ بَلَغَ هَذَا الْيَقِينَ أَنْ يَطْلُبَ إِلَى إِخْوَانِهِ الْمُبَايَعِينَ عَلَى الْعَمَلِ مَعَهُ أَنْ يَتَجَرَّدُوا لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ دُونَ سِوَاهَا. وَقَدْ تَسَاءَلَ الْإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ بِمَا قَدْ يُسَاوِرُ أَيَّ أَخٍ أَوْ يَجُولُ بِخَاطِرِهِ لَطُولِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ: «هَلْ هُنَاكَ طَرِيقٌ أُخْرَى غَيْرَهَا؟» ثُمَّ كَانَتْ إِجَابَتُهُ الْحَاسِمَةُ الْجَازِمَةُ «بِأَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ مَهْمَا طَالَتْ فَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهَا فِي بِنَاءِ النُّهَضَاتِ بِنَاءً صَحِيحًا، وَقَدْ أُثْبِتَتِ التَّجَرُّبَةُ صِحَّةَ هَذِهِ النُّظَرَةِ» (190).

وَمِنْ حَقِّ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَرْتَابَ فِي كَلَامِ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَيَرْفُضَهُ، وَيَسْعُهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمَا يَرَاهُ أَفْضَلَ وَأَنْجَعَ، أَمَّا مَنْ آثَرَ طَرِيقَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ وَمِنْهَا جُهِمَ، وَاخْتَارَ هَذِهِ السَّبِيلَ دُونَ سِوَاهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَجَرَّدَ لَهَا، وَأَنْ يَضَعَ نُضْبَ عَيْنِهِ كَلِمَاتِ مُؤَسَّسِهَا الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ تَكْوِينَ الْأُمَمِ، وَتَرْبِيَةَ الشُّعُوبِ، وَتَحْقِيقَ الْأَمَالِ، وَمُنَاصَرَةَ الْمَبَادِي: تَحْتَاجُ مِنَ الْأُمَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ هَذَا أَوْ الْفَيْئَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى الْأَقْلِ، إِلَى (قُوَّةِ نَفْسِيَّةٍ عَظِيمَةٍ) تَتِمَثَّلُ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ: إِرَادَةُ قُوَّةٍ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا ضَعْفٌ، وَوَفَاءٌ ثَابِتٌ لَا يَعْدُو عَلَيْهِ تَلَوُّنٌ وَلَا غَدْرٌ، وَتَضَحِيَّةٌ عَزِيزَةٌ لَا يَحُولُ

(189) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 139.

(190) السابق، [رسالة إلى أي شيء ندعو الناس]، ص 69.



دُونَهَا طَمَعٌ وَلَا بُخْلٌ، وَمَعْرِفَةٌ بِالْمَبْدَأِ وَإِيمَانٌ بِهِ وَتَقْدِيرٌ لَهُ يَعْصُمُ مِنَ الْخَطَا فِيهِ وَالانْحِرَافِ عَنْهُ وَالْمُسَاوَمَةِ عَلَيْهِ، وَالْخَدِيعَةِ بغيره. عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ الْأَوَّلِيَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ خُصُوصِ النُّفُوسِ وَحَدِّهَا، وَعَلَى هَذِهِ الْقُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ الْهَائِلَةِ، تُبْنَى الْمَبَادِي وَتَتَرَبَّى الْأُمَمُ النَّاهِضَةُ، وَتَتَكَوَّنُ الشُّعُوبُ الْفَتِيَّةُ، وَتَتَجَدَّدُ الْحَيَاةُ فِيمَنْ حُرِّمُوا الْحَيَاةَ زَمَنًا طَوِيلًا» (191).

وَلَعَلَّكَ بِمَا سَبَقَ تُدْرِكُ لِمَ جَعَلَ الْإِمَامُ النَّبَا ﷺ «التَّجَرُّدَ» رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ؟ لِأَنَّهُ أَرَادَ لِإِخْوَانِهِ أَنْ يَسْتَفْرِغُوا طَاقَتَهُمْ، وَيُخْلِصُوا جُهْدَهُمْ وَعَمَلَهُمْ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَأَلَّا تَتَوَزَّعَهُمُ الْأَهْوَاءُ أَوْ تَتَفَرَّقَ بِهِمُ السُّبُلُ. وَلَعَلَّهُ رَأَى مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِهِ حَمَاسًا أَوْ نُزُوعًا إِلَى اتِّخَاذِ الْعُنْفِ سَبِيلًا لِلْإِصْلَاحِ، فَأَرَادَ أَنْ يَضَعِ الْأُمُورَ فِي نَصَابِهَا، وَأَنْ يَعْلَمَ إِخْوَانُهُ أَنَّ الْعُنْفَ الْجَامِحَ لَا يَتَّفِقُ مَعَ مَشْرُوعِنَا، فَهُوَ مَشْرُوعٌ طَوِيلُ الْأَمَدِ، وَالْعُنْفُ لَيْسَ مِنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِهِ.. وَمَا يَتَحَقَّقُ بِغَيْرِ الْقُوَّةِ مِنْ هَذَا الْمَشْرُوعِ، يَجْعَلُ اسْتِخْدَامَ الْقُوَّةِ فِي تَحْقِيقِهِ حَرَامًا، وَهَذَا مَوْقِفُ الْإِمَامِ النَّبَا ﷺ مِنَ التَّغْيِيرِ بِالْقُوَّةِ.

فالتَّجَرُّدُ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَحْفَظُ صِفَاءَ الْفِكْرَةِ وَنَقَاءَ الْإِتِمَاءِ، وَيُحَرِّرُ الْعَامِلَ مِنْ سُلْطَانِ الْهَوَى، وَمِنْ التَّعَصُّبِ لِلْأَشْخَاصِ أَوْ الْمَصَالِحِ أَوْ الْمَكَاسِبِ الْعَاجِلَةِ. وَهُوَ لَا يَعْنِي الْإِغَاءَ الْعَقْلِ أَوْ إِهْدَارَ الْجَهْدِ، وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ لِلْحَقِّ، وَالْمِيزَانُ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَذُوبَ حَظُّ النَّفْسِ فِي خِدْمَةِ الرِّسَالَةِ. وَتَمْتَلِكُ تَحَقُّقُ هَذَا الْمَعْنَى فِي النُّفُوسِ، اسْتَطَاعَتِ الدَّعَوَاتِ أَنْ تَحَافِظَ عَلَى وَحْدَتِهَا، وَأَنْ تَتَجَاوَزَ الْخِلَافَاتِ، وَأَنْ تَمْضِيَ فِي طَرِيقِهَا ثَابِتَةً الْخَطَى، لَا تُحَرِّكُهَا الْأَهْوَاءُ، وَلَا تُفَرِّقُهَا الْعَصَبِيَّاتِ، وَإِنَّمَا يَجْمَعُهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ، وَالتَّجَرُّدُ لِلْحَقِّ، وَالْإِلْتِمَازُ بِمَنْهَجِهِ الْقَوِيمِ.

رُكْنُ الْأُخُوَّةِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَأُرِيدُ بِالْأُخُوَّةِ: أَنْ تَرْتَبِطَ الْقُلُوبُ وَالْأَرْوَاحُ بِرِبَاطِ الْعَقِيدَةِ، وَالْعَقِيدَةُ أَوْثَقُ الرِّوَابِطِ وَأَعْلَاهَا، وَالْأُخُوَّةُ أُخْتُ الْإِيمَانِ، وَالتَّفَرُّقُ أَخُو الْكُفْرِ، وَأَوَّلُ الْقُوَّةِ: قُوَّةُ الْوَحْدَةِ، وَلَا وَحْدَةَ بغيرِ حُبٍّ، وَأَقْلُّ الْحُبِّ: سَلَامَةُ الصَّدْرِ، وَأَعْلَاهُ: مَرْتَبَةُ الْإِيثَارِ، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

وَالْأَخُ الصَّادِقُ يَرَى إِخْوَانَهُ أَوْلَى بِنَفْسِهِ مِنْ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِمْ، فَلَنْ يَكُونَ بغيرِهِمْ، وَهُمْ إِنْ لَمْ يَكُونُوا بِهِ كَانُوا بغيرِهِ، (وَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ)، (وَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]، وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ نَكُونَ» (192).

الْأُخُوَّةُ سِيَاحٌ لِصَفْنَا

لَمْ يَنْسَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَرْكَانِ بَيْعَتِهِ أَنْ يُضَمِّنَهَا مَا يَحْمِي وَحْدَةَ الصَّفِّ، وَيُوثِّقُ رَابِطَةَ الْإِخْوَانِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، فَإِذَا كَانَتْ بَعْضُ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ كَالْفَهْمِ وَالتَّجَرُّدِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّصْحِيحَةِ تَضَبُّطُ مَسَارِ الْعَمَلِ، وَتَضَمَّنُ اسْتِمْرَارَهُ وَدَوَامَهُ؛ فَإِنَّ بَعْضَهَا يُمَثِّلُ سِيَاحًا لِصَفِّ الْإِخْوَانِ يَحْمِيهِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّشَرُّدِ، وَيُوثِّقُ رَابِطَةَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْإِخْوَانِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ الرُّكْنُ التَّاسِعُ هُوَ رُكْنُ الْأُخُوَّةِ؛ لِأَنَّ الْأُخُوَّةَ مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ الْإِيمَانِ،



وَالْأَصْلُ أَنَّهَا رَابِطَةٌ بَيْنَ كُلِّ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَكَيْفَ بِإِخْوَةٍ جَمَعَتْهُمْ بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ، وَغَايَةٌ وَاحِدَةٌ؟

إِنَّ دَرَجَةَ الْحُبِّ وَالْإِخْوَةِ هُنَا لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ أَقْوَى وَأَوْثَقَ، وَيَعْرِفُ كُلُّ مَنْ انْتَمَى إِلَى الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ رَابِطَةَ الْإِخْوَةِ بَيْنَهُمْ قَدْ تَتَفَوَّقُ أحيانًا عَلَى رَابِطَةِ النَّسَبِ، وَالْحَقُّ أَنَّ أَيَّ فِتْنَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ تَجْمَعُهَا غَايَةٌ وَاحِدَةٌ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْجَحَ مَتَى تَنَافَرَتِ الْقُلُوبُ، وَدَبَّتْ بَيْنَهَا الشَّخَنَاءُ وَالْبَغْضَاءُ، وَلِهَذَا حَذَرْنَا رَسُولُنَا الْكَرِيمُ مِنْ فُسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَسَمَّاهُ (الْحَالِقَةُ)، فَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أَدْلُكُمْ عَلَى أَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فُسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ. لَا أَقُولُ: إِنَّهَا تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ» (193).

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ أَنْ وَفَّقَ الْإِمَامَ الْبَنَّا إِلَى دُعَاءٍ يَهْزُجُ بِهِ الْإِخْوَانُ كُلَّ يَوْمٍ صَبَاحًا وَمَسَاءً، فَكُلُّ الْإِخْوَانِ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ وَبِلَادِهِمْ لَهُمْ كُلُّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ زَجَلٌ بِوَرْدِ الرَابِطَةِ؛ حَيْثُ يَسْتَحْضِرُ الْأَخُ فِي صَبَاحِهِ وَمَسَائِهِ مَنْ يُحِبُّ مِنْ إِخْوَانِهِ، ثُمَّ يَتَرَنَّمُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَى مَحَبَّتِكَ، وَالتَقَتْ عَلَى طَاعَتِكَ وَتَوَحَّدَتْ عَلَى دَعْوَتِكَ، وَتَعَاهَدَتْ عَلَى نُصْرَةِ شَرِيعَتِكَ. فَوَثِّقِ اللَّهُمَّ رَابِطَتَهَا وَأَدِّمْ وَدَّهَا، وَاهْدِهَا سُبُلَهَا وَأَمْلَأْهَا بِنُورِكَ الَّذِي لَا يَخْبُو. وَأَشْرَحْ صُدُورَهَا بِفَيْضِ الْإِيمَانِ بِكَ وَجَمِّلِ التَّوَكُّلَ عَلَيْكَ، وَأَحْيِهَا بِمَعْرِفَتِكَ، وَأَمِتْهَا عَلَى الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِكَ، إِنَّكَ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ. اللَّهُمَّ آمِينَ. وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ،

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ» (194).

وَمِنْ ثَمَّ تُمَثَّلُ عَاطِفَةُ الْحُبِّ وَالْأُخُوَّةِ الَّتِي يَتِمَّتُ بِهَا صَفُّ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ)؛ دِرْعًا وَاقِيَةً لِهَذَا الصَّفِّ، تَتَأَلَّفُ بِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ الْقُلُوبُ وَلَا تَخْتَلِفُ، وَإِنَّمَا الْقُوَّةُ فِي الْمَحَبَّةِ وَالتَّالَفِ وَتَرْكِ التَّنَازَعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، وَفَسَّرَ الطَّبْرِيُّ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بِقَوْلِهِ: «وَتَذْهَبَ قُوَّتُكُمْ وَبَأْسُكُمْ، فَتَضَعُفُوا وَيَدْخُلُكُمْ الْوَهْنُ وَالْخَلَلُ».

وَكُنَّا نَعْلَمُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِصَحَابَتِهِ الْكِرَامِ، وَرَحْمَتَهُ بِهِمْ، فَقَدْ كَانَ يَتَقَدَّمُهُمْ إِلَى الْمَخَاطِرِ، وَيُؤَثِّرُهُمْ فِي الْعَطَاءِ، يَقُولُ سَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْهُ» (195)، وَيَقُولُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ: وَقَدْ فَزَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، سَمِعُوا صَوْتًا، قَالَ: فَتَلَقَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِيٍّ، وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ سَيْفَهُ، فَقَالَ: لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَجَدْتُهُ بَحْرًا»، يَعْنِي: الْفَرَسَ» (196).

وَلِهَذَا بَادَلَهُ صَحَابَتُهُ الْكِرَامُ حُبًّا بِحُبٍّ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَمَاتِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَقَدْ تَجَلَّى ذَلِكَ الْحُبُّ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، فَأَمَّا أَقْوَالُهُمْ فَيَكْفِينَا مِنْهَا شَهَادَةُ أَبِي سُفْيَانَ، قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، إِذَا كَانَ مِمَّنْ شَهِدَ مَقْتَلَ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ زَيْدِ بْنِ الدَّثَنَةِ، يَوْمَ

(194) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة المأثورات، ص 223.

(195) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (1347)، والحاكم في المستدرک، رقم (2680)، وإسناده صحيح.

(196) أخرجه البخاري (3040)، ومسلم (2307).



أَخْرَجَتْهُ قُرَيْشٌ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ، وَاجْتَمَعَ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قُدِّمَ لِيُقْتَلَ: أُنْشِدُكَ اللَّهَ يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الْآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ زَيْدٌ: وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ هُوَ فِيهِ تَصِيْبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنْتَ جَالِسٌ فِي أَهْلِي. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، ثُمَّ قُتِلَ زَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ» (197).

وَأَمَّا أَفْعَالُهُمْ فَيَكْفِينَا مِنْهَا حِرْصُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ عَلَى سَلَامَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَثْنَاءَ الْهَجْرَةِ، لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ هَارِبًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ خَرَجَ لَيْلًا، فَتَبِعَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَرَّةً أَمَامَهُ، وَمَرَّةً خَلْفَهُ، وَمَرَّةً عَنْ يَمِينِهِ، وَمَرَّةً عَنْ يَسَارِهِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا هَذَا يَا أَبَا بَكْرٍ؟ مَا أَعْرِفُ هَذَا مِنْ فِعْلِكَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَذْكُرُ الرِّصْدَ فَأَكُونُ أَمَامَكَ، وَأَذْكُرُ الطَّلَبَ فَأَكُونُ خَلْفَكَ، وَمَرَّةً عَنْ يَمِينِكَ، وَمَرَّةً عَنْ يَسَارِكَ، لَا أَمْنُ عَلَيْكَ. فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِهِ حَتَّى حَفِيتْ. فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ أَنَّهَا قَدْ حَفِيتْ حَمَلَهُ عَلَى عَاتِقِهِ، حَتَّى أَتَى بِهِ فَمِ الْغَارِ، فَأَنْزَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تَدْخُلُهُ حَتَّى أَدْخُلَهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ فَيَبْدَأُ بِي قَبْلَكَ، فَلَمْ يَرِ شَيْئًا يَسْتَرِيْبُهُ، فَحَمَلَهُ فَأَدْخَلَهُ، وَكَانَ فِي الْغَارِ خَرَقٌ فِيهِ حَيَاتٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ أَلْقَمَهُ عَقْبَهُ، فَجَعَلَ يَلْسَعُهُ أَوْ يَضْرِبُنُهُ، وَجَعَلَتْ دُمُوعُهُ تَتَحَادَرُ عَلَى خَدِّهِ مِنْ أَلَمٍ مَا يَجِدُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَحْزَنْ يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ وَطُمَأْنِينَتَهُ لِأَبِي بَكْرٍ» (198).

بِمِثْلِ هَذَا الْحُبِّ الْمُتَبَادَلِ بَيْنَ الْقَادَةِ وَاتِّبَاعِهِمْ، أَوْ التَّلَامِيذِ وَأُسْتَاذِهِمْ

(197) انظر سيرة ابن هشام (3/ 191)، والطبقات الكبرى لابن سعد (2/ 277).

(198) انظر ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1406 هـ - 1986 م، 4/ 158.

تَنْجَحُ الدَّعَوَاتُ، لِأَنَّ هَذَا الْحُبَّ يَحْمِي الدَّعْوَةَ وَيَحْفَظُهَا، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَمَكُّنِ رُوحِ (الْأُخُوَّةِ) دَاخِلِ الصَّفِّ؛ وَإِنَّمَا تَنْجَحُ الدَّعَوَاتُ بِأَصْحَابِهَا الَّذِينَ يَتَبَنُّونَهَا وَيَحْمِلُونَهَا، وَمِمَّا يَنْسَبُ إِلَى الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: إِنَّا أَصْحَابُ دَعْوَةٍ هَادِيَةٍ، الْجَهْرُ بِهَا وَدَعْوَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا فَرِيضَةٌ عَلَيْنَا، وَحِمَايَتُهَا وَالذُّودُ عَنْهَا فَرِيضَةٌ عَلَيْنَا كَذَلِكَ.

وَلَقَدْ أَلَمَّتْ بَعْضُ الْأُخُوَّةِ لِحِظَةً ضَعِيفٍ، وَهَتْ فِيهَا رَابِطَةُ الْأُخُوَّةِ، فَاعْتَقَرَهَا إِخْوَانُهُمْ، وَالتَّمَسُّوا لَهُمُ الْأَعْدَارَ، وَيَحْضُرُنِي فِي هَذَا السِّيَاقِ الْمَوْقِفُ النَّبِيلُ لِلْأَسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبِ رَحِمَهُ اللَّهُ، لَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ اعْتَقَلَ جِرَاءَ اعْتِرَافٍ بِعُضِّ الْأُخُوَّةِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ آخِرَ مَنْ تَكَلَّمَ، وَكَتَبَ فِي اعْتِرَافَاتِهِ: الْآنَ أَتَكَلَّمُ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ أُخَفِّفَ عَلَى نَفْسِي، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنْ أَتَحْمَلَ الْمَسْئُولِيَّةَ كَامِلَةً عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرَاهُمْ خَيْرَ شَبَابٍ حَمَلَتْهُ هَذِهِ الْأَرْضُ فِي هَذَا الْجِيلِ، أَمَّا قَبْلَ هَذِهِ اللَّحْظَةِ بَعْدَ أَنْ أَذْلَى كُلَّ مِنْهُمْ بِدَلْوِهِ، أَقُولُ بِأَنِّي الْمَسْئُولُ عَنْهُمْ «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرَضُهُ» (199).

وَلْيَعْلَمْ كُلُّ أَخٍ أَنَّ قِوَامَ دَعْوَتِنَا أَمْرَانِ: بَذْلٌ وَحُبٌّ، فَالْبَذْلُ مِنْ أَجْلِ الْفِكْرَةِ الَّتِي تُبَذَّلُ مِنْ أَجْلِهَا التَّضَحِّيَاتُ، وَالْحُبُّ لِحِمَايَةِ الْحَرَكَةِ، وَقَدْ كُنْتُ مِمَّنْ اعْتَقَلَ مَعَ أ. سَيِّدِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَجَمَعْنَا قَفْصُ اتِّهَامٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ كُلُّ فِتْرَةٍ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، وَنَحْنُ جَالِسُونَ خَلْفَهُ فِي زِنَانَةٍ جَمَعَتْ أَرْبَعِينَ أَخًا، وَالْأَسْتَاذُ سَيِّدُ يَرْمِقُنَا بِنَظَرَةٍ عَاطِفَةٍ حَانِيَةٍ؛ كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ لَنَا عِنْدَمَا وَقَفَ يُدَافِعُ عَنَّا: أَنْتُمْ خَيْرُ شَبَابٍ حَمَلَتْهُ الْأَرْضُ فِي هَذَا الْجِيلِ. وَلَمَّا

قَالُوا لَهُ: اعْتَرِفُوا عَلَيْكَ، أَجَابَهُمْ: إِنَّ مَا يَحْدُثُ هُنَا فَوْقَ طَاقَاتِ الْبَشَرِ، إِنَّهُمْ مَعذُورُونَ إِذِ اعْتَرَفُوا عَلَيَّ، وَأَنَا مُسَامِحُ الْجَمِيعِ.

لَقَدْ مَنَحْنَا الرَّجُلَ حُبَّهُ واحترامَهُ وعَظْفَهُ، رُغْمَ مَا ارْتَكَبْنَاهُ فِي حَقِّهِ مِنْ خَطَاٍ وَحُمَقٍ، وَرَأَيْنَا هَذَا الْحُبَّ الْعَاطِفَ فِي عَيْنَيْهِ، وَنَظَرَاتِهِ الْحَانِيَةِ الْوَدُودِ. بَلْ كَانَ يَقُولُ: لَنْ أَفْرُطَ فِيكُمْ وَلَا فِيمَا تُمَثِّلُونَهُ، لَنْ أَفْرُطَ فِي الْفِكْرَةِ وَلَا فِيكُمْ. وَسَوْفَ أَسْتَشْهَدُ وَأُوثِرُكُمْ بِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ عَشْنَا وَمَا زِلْنَا نَعِيشُ وَهُوَ مُتَأَلِّقٌ فِي قُلُوبِنَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَضَى شَهِيدًا إِلَى رَبِّهِ.

وَعِنْدَمَا بَايَعْنَا الشَّهِيدَ عَبْدَ الْفَتَاحِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَامَ (1964م)، بَايَعَنَا هُوَ بَيْعَةً غَرِيبَةً، لَقَدْ عَاهَدْنَاهُ عَلَى نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ أَمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ أَدَيْتُمْ مَا عَلَيْكُمْ، وَأَمَّا أَنَا فَأُعَاهِدُكُمْ أَنْ لَا أُدِلَّ عَلَيْكُمْ، سَوْفَ أَحْمِيكُمْ لِأَخِرِ قَطْرَةٍ فِي دِمَائِي، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي السَّجَنِ الْحَرْبِيِّ، وَلَمْ يَدُلَّ عَلَيْنَا وَهُوَ يَرَانَا أَمَامَهُ، وَقَدْ أَحْضَرُوهُ بَيْنَنَا وَجَمَعُوا حَوْلَهُ كُلَّ أَفْرَادِ الْأُسْرِ الَّتِي كَانَ مَسْئُولًا عَنْهَا، كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ أَخًا، ثُمَّ أَخَذُوا يُهَيِّنُونَهُ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ أَمَامَنَا، وَهُوَ يَصْرُخُ فِي وُجُوهِهِمْ مُتَمَثِّلًا قَوْلَ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39)﴾ [هود].

كَمَا اعْتَرَفْنَا عَلَى الشَّهِيدِ إِسْمَاعِيلِ الْفَيَّومِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَتَقَبَّلَهُ فِي الشَّهَدَاءِ، لَقِيَ رَبَّهُ دُونَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ وَاحِدٍ مِنَّا، وَقَدْ كَانَ فِي اسْتَطَاعَةِ هَذَا الشَّهِيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَقْتُلَ جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ؛ إِذْ كَانَ حَارَسَهُ الْخَاصَّ يَدْخُلُ مَعَهُ غُرْفَةً نَوْمِهِ بِالسَّلَاحِ مُعَبَّأً بِالذَّخِيرَةِ، وَلَوْ فَعَلَهَا لَقَتَلُونَا جَمِيعًا فِي السَّجَنِ الْحَرْبِيِّ.

وَاعْتَرَفْنَا عَلَى الشَّهِيدِ مُحَمَّدٍ عَوَّادٍ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ تَحَمَّلَ الْعَذَابَ

الشَّديد، دُونَ أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ وَاحِدٍ مِنَّا، وَأَذْكَرُ أَنَّنَا زُرْنَا أَخَانَا الشَّهيدَ مُحَمَّدَ عَوَّادَ هَذَا، وَكَانَ أَيْضًا مِنَ الْأُسْرِ الَّتِي كَانَ الشَّهيدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ مَسْئُولًا عَنْهَا، وَقَدْ ذَهَبْنَا يَوْمًا فِي رِحْلَةٍ كَشْفِيَةٍ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى قَرِيَّتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَبْعُدُ عَنِ الْقَاهِرَةِ (45) كِيلُو مِتْرًا، وَاسْتَضَافَنَا فِي بَيْتِهِ، وَكَانَ لَا يَعْرِفُنَا، ثُمَّ طَلَبَ مِنَّا الشَّهيدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلَ أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِتَرَدُّدِنَا وَخَوْفِنَا، قَالَ: أَتَخَافُونَ؟ أَنَا لَنْ أَدُلَّ عَلَيْكُمْ. وَبِالْفِعْلِ قُبِضَ عَلَيْنَا جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ فِي يَوْمٍ (19) أَغْصُطُسَ سَنَةِ (1965م)، وَأَحْضَرُوهُ أَمَامَنَا وَسَأَلُونَا: هَلْ تَعْرِفُونَهُ؟ وَمِنْ شِدَّةِ التَّعْذِيبِ قُلْنَا: نَعَمْ نَعْرِفُهُ. هَلْ ذَهَبْتُمْ إِلَى بَيْتِهِ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. فَيَسْأَلُونَهُ: هَلْ تَعْرِفُهُمْ؟ فَيَقُولُ: لَا أَعْرِفُهُمْ. فَيَسْأَلُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: أَلَمْ تَسْمَعْهُمْ؟ فَيَقُولُ: انْظُرُوا مَاذَا فَعَلْتُمْ بِهِمْ حَتَّى يَكْذِبُوا عَلَيَّ هَذِهِ الْكَذْبَةَ، وَمَا زَالُوا يُعَذِّبُونَهُ، حَتَّى سَقَطَ بَيْنَ أَيْدِينَا شَهِيدًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، تَقَبَّلَهُ اللَّهُ فِي الشُّهَدَاءِ.

تِلْكَ مَعَالِمُ الْأُخُوَّةِ الَّتِي أَحْسَّهَا هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، وَكَانَ اسْتِشْهَادُ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ، هُوَ نَقْطَةُ الانْطِلَاقِ الْحَقِيقِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ، فَإِنَّ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مِنْ أَجْلِ حِمَايَةِ الْآخَرِينَ يَعتَبِرُهُمُ الْجَمِيعُ شُهَدَاءَ بِحَقٍّ.

رُكْنُ الثِّقَةِ

الثِّقَةُ تَأْجُ الْأَرْكَانَ وَخِتَامُهَا

أَمَّا آخِرُ رُكْنٍ فِي أَرْكَانِ هَذِهِ الْبَيْعَةِ، فَهُوَ رُكْنُ «الثِّقَةِ»، وَهُوَ مِنَ الْأَرْكَانِ الَّتِي تُوثِّقُ رَابِطَةَ الصِّفِّ، فَإِذَا زِدَادَتِ الثِّقَةُ بَيْنَ أَبْنَاءِ الصِّفِّ، قَوِيَ الشُّعُورُ بِالْأَطْمِنَانِ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ قَالَ: «وَأُرِيدُ بِالثِّقَةِ: أَطْمِنَانَ الْجُنْدِيِّ إِلَى الْقَائِدِ فِي كِفَائِهِ وَإِخْلَاصِهِ أَطْمِنَانًا عَمِيقًا يُتَّبِعُ الْحُبَّ وَالتَّقْدِيرَ وَالْاحْتِرَامَ وَالطَّاعَةَ» (200).

وَالثِّقَةُ شُعُورٌ وَلَيْسَ أَمْرًا، شُعُورٌ يَتَرَاكَمُ بِالصُّحْبَةِ وَالْمُعَايِشَةِ، حَيْثُ يُعَاشُ الْأَخُ إِخْوَانَهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ لِقَاءَاتِ الدَّعْوَةِ، بَلْ يُعَاشُهُمْ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْعَسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْفَرَحِ وَالْحُزْنِ وَالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَالْمَنْشِطِ وَالْمَكْرَهِ، حَتَّى إِذَا ابْتُلُوا بِالْإِعْتِقَالِ، كَانَ السَّجْنُ اخْتِبَارًا لِعَاطِفَةِ الْأُخُوَّةِ وَقَتِ الْمِحْنَةِ، وَلَكُمْ ضَرْبُ الْإِخْوَانِ فِي ذَلِكَ أَرْوَعُ الْأَمْثِلَةِ، وَهُمْ خَلْفَ جِدْرَانِ السُّجُونِ، وَكَانَتْ لَهُمْ قِصَصٌ وَمَوَاقِفُ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْإِيثارِ وَالْفِدَاءِ، تَصْلُحُ لِتَأْلِيفِ كُتُبٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَفِي مُذَكَّرَاتِ بَعْضِهِمْ مَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمُعَايِشَةِ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَبْنِيَ ثِقَةً بَيْنَ الْقُلُوبِ تَعْصِمُهَا مِنْ سُوءِ الظَّنِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ سُوءَ الظَّنِّ أَوَّلُ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ لِإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَتَوْهِينِ رَابِطَةِ الْأُخُوَّةِ، وَزَعَزَعَةِ الثِّقَةِ.



تَأْمَلُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُحَذِّرُنَا مِنْ سُوءِ الظَّنِّ وَيَجْعَلُهُ مَدْرَجَةً لِإِضْعَافِ رَابِطَةِ الْأَخَوَةِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» (201).

وَلَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ نُمُودَجًا لِلثِّقَةِ الَّتِي أُسِّسَتْ عَلَى التَّقْوَى وَالْمَحَبَّةِ؛ إِذْ كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُكِنُّ لِإِخْوَانِهِ عَاطِفَةً جَيَّاشَةً، وَمَوَدَّةً صَادِقَةً، كُنَّا نَلْحَظُهَا فِي كَلِمَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ أَمَّا كَلِمَاتُهُ فَتَجَلَّتْ فِي تَعْبِيرِهِ عَنْ شَوْقِهِ إِلَى لِقَاءِ إِخْوَانِهِ، فَعِنْدَمَا نَلْتَقِي بِهِ نَرَى فِي عَيْنِهِ اللَّهْفَةَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، فَنَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ: لِأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ دَعْوَتِنَا التَّجْمُّعَ، فَلْنَحْرِضْ عَلَى اللَّقَاءِ، وَعَلَى التَّشَوُّقِ لِلِقَاءِ، وَكُنَّا نَرَى فِي عَيْنِهِ أَيْضًا اللُّوْعَةَ عِنْدَ فِرَاقِنَا، حَتَّى عِنْدَمَا كَانَ يَفَارِقُنَا تَدْمَعُ عَيْنَاهُ، وَكُنَّا نَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ: وَتَسَاوَرُنِي الظُّنُونُ وَالْحَرَصُ يَوْلِدُ الشَّكَّ وَأَنْتُمْ رَأْسُ الْمَالِ، وَهُوَ قَلِيلٌ أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَا يُرِينِي الْفَجِيعَةَ فِيكُمْ.

لَقَدْ بَنَى الْإِمَامُ الْبَنَّا مُؤَسَّسَ الدَّعْوَةِ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ ثِقَةً أَثَبَتْ مِنَ الشُّمِّ الرُّوَاسِي، فَلَيْسَ يَعْرِوْهَا شَكٌّ، أَوْ تُزَعِرُهَا رَيْبَةٌ؛ لِأَنَّ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْقَنَ أَنَّ الْهَدَايَاتِ الْكُبْرَى تَحْتَاجُ إِلَى شَخْصِيَّاتٍ كُبْرَى، تَأْخُذُ بِيَدِ الْجُمُوعِ الْهَادِرَةِ، وَتَتَعَاهَدُهَا بِالنُّصْحِ وَالتَّوَجِيهِ، وَقَدْ نَدَبَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ، فَضَحَّى - كَمَا أَشْرْنَا مِنْ قَبْلُ - بَبْعَةِ دَرَاكِيهِ كَانَتْ مِنْ حَقِّهِ؛ إِذْ كَانَ تَرْتِيبُهُ الْأَوَّلَ عَلَى زُمَلَائِهِ فِي دَارِ الْعُلُومِ، وَتَخَلَّى عَنْ وَظِيفَةٍ كَانَ يَرْتَزِقُ مِنْهَا، وَرَضِيَ بِرَاتِبِ تَقَاعُدِي ضَيْلٍ، وَانْتَقَصَ مِنْ مُتْعَةِ عَيْشِهِ؛ حَتَّى يَظْفَرَ إِخْوَانُهُ بِجُهِدِهِ كُلِّهِ غَيْرَ مَنَقُوصٍ، وَلَا مَظْنُونٍ فَارْتَقَى فَوْقَ

مَوَاطِنِ الشُّبُهَاتِ وَالظُّنُونِ؛ وَلَأنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ تَوَاجُدَهُ الشَّخْصِيَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ وَيُرْشِدَهُمْ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ وَيَرَعَاهُمْ، ثُمَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُنَظِّمَهُمْ وَيُرَاقِبَهُمْ؛ هُوَ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِلْهَدَايَاتِ الْكُبْرَى، أَوِ الْغَايَةِ الْكُبْرَى الَّتِي أَمَّهَا.

كيف يبني القائد الثقة في نفوس إخوانه؟

لَا تَجِدُ أَخَا عَاصِرَ الْإِمَامِ الْبَنَّا وَتَعَامَلَ مَعَهُ عَنْ قُرْبٍ، وَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ أَثَرًا، وَلَقَدْ حَرَصَ كَثِيرٌ مِنَ الْإِخْوَانِ الَّذِينَ عَاصَرُوا عَلَى أَنْ يَذْكُرُوا بَعْضَ مَوَاقِفِهِمْ مَعَهُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ تَشْهَدُ بِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ قُدُورَةً لِإِخْوَانِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَلَيْسَتْ كَلِمَاتُهُمْ فِي هَذَا السِّيَاقِ إِلَّا شَهَادَةٌ حَقٌّ، وَدَلِيلٌ صَدَقَ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ بَنَى الثِّقَةَ فِي نَفُوسِ إِخْوَانِهِ وَمَا طَلَبَهَا، فَرَفَعُوهُ فَوْقَ الرِّيبِ وَالظُّنُونِ، وَمَا طَلَبَ إِلَيْهِمْ - بَعْدَ أَنْ وَثَقُوا بِهِ - أَمْرًا فَتَأَخَّرُوا فِي تَنْفِيزِهِ، لِأَنَّهُمْ خَبَرُوهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، وَعَامَلُوهُ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، فَوَجَدُوهُ نَمُودَجًا لِلْقَائِدِ الْجَدِيرِ بِأَنْ يُتَّبَعَ وَيُحْتَذَى، وَمَا ذَلِكَ بِغَرِيبٍ عَلَى إِمَامٍ عَرَفَ قَدْرَ الْقَائِدِ وَدَوْرَهُ فِي بِنَاءِ الثِّقَةِ وَتَأْسِيسِهَا فِي نَفُوسِ أَتْبَاعِهِ وَمُرِيدِيهِ، كَمَا عَرَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْخُطَطَ مَهْمَا كَانَتْ مُحْكَمَةً، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُنْفِذِينَ، وَعِنْدَ التَّنْفِيزِ إِذَا كَثُرَتِ الْأَرَاءُ وَالْاجْتِهَادَاتُ فَسَدَ التَّدْبِيرُ، فَلَا بُدَّ مِنْ جِهَةٍ مَعْرُوفَةٍ الصِّفَةِ يَنْقَطِعُ بِهَا الْخِلَافُ وَهِيَ الْقِيَادَةُ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَالْقَائِدُ جُزْءٌ مِنَ الدَّعْوَةِ وَلَا دَعْوَةَ بِغَيْرِ قِيَادَةٍ، وَعَلَى قَدْرِ الثِّقَةِ الْمُتَبَادَلَةِ بَيْنَ الْقَائِدِ وَالْجُنُودِ تَكُونُ قُوَّةُ نِظَامِ الْجَمَاعَةِ، وَإِحْكَامُ خُطَطِهَا، وَنَجَاحُهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى غَايَتِهَا، وَتَغْلِبُهَا عَلَى مَا يَعْتَرِضُهَا مِنْ عَقَبَاتٍ وَصِعَابٍ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد: 20، 21]» (202).

وَلِهَذَا حَرَصَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَلَى أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ قَائِدٍ يُرْسَخُ مَعْنَى بِسْלוِكِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَمِنْ أَجْلِ هَذَا دَفَعَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ حَيَاتِهِ وَرَاحَتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ الْأُسْرِيَّ ثَمَنًا بَاهِظًا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ شَخْصِيَّتُهُ أَوَّلَ قِيَادَةٍ تَزْرَعُ الثِّقَةَ فِي النُّفُوسِ، وَلِكِنِّي يَتَعَلَّمُ تَلَامِيذُهُ كَذَلِكَ كَيْفَ يَكُونُونَ مِثْلَهُ شَخْصِيَّاتٍ جَدِيدَةٍ بِالثِّقَةِ، وَكَيْفَ يَبْنُونَ هِيَآكِلَ تَحْطِي بِالثِّقَةِ وَالْإِحْتِرَامِ. وَتِلْكَ الْمَعَايِيرُ الَّتِي يُوزَنُ بِهَا الْأَشْخَاصُ فَيَسْتَحِقُّونَ تِلْكَ الصِّفَةَ وَيَأْخُذُونَهَا بِحَقِّهَا، وَفِي أَسَالِيبَ وَطُرُقٍ يَصْدُرُ عَنْهَا الْحُكْمُ فَيُطَمِّئْنَ الْجَمِيعَ إِلَى صِحَّتِهِ، وَهِيَ الشُّورَى الَّتِي تُوحِي بِالثِّقَةِ كَذَلِكَ.

يَقُولُ الْأُسْتَاذُ أَحْمَدُ عَادِلُ كَمَالٍ فِي كِتَابِهِ (النُّقْطُ فَوْقَ الْحُرُوفِ.. الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ وَالنِّظَامُ الْخَاصُّ): «مَا كُنْتُ تُحِبُّ أَنْ تَرَاهُ بَيْنَنَا يَوْمًا إِلَّا رَأَيْتُهُ.. يُصَلِّيُ بِنَا الْجُمُعَ، يَخْطُبُ لَنَا الْعِيدِينَ، يَوْمُنَا فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ خِلَالَ شَهْرِ رَمَضَانَ، يَعْقِدُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ عِنْدَ زَوَاجِهِمْ، وَيَسْتَقْبِلُ مَوَالِيدَهُمْ، وَيُسَمِّيهِمْ، وَيَدْعُو لَهُمْ، يَتَفَقَّدُ الْغَائِبَ، وَيَعُودُ الْمَرِيضَ، وَيَتَعَهَّدُ الْمُنْقَطِعَ وَيَمْشِي فِي جَنَائِزِنَا وَيَحْضُرُ كِتَابِنَا، وَيَبِيتُ فِي مُعْسَكَرَاتِنَا، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْ اجْتِمَاعَاتِنَا إِلَّا لِعُذْرٍ قَاهِرٍ؛ إِذَا كَانَ فِي خَارِجِ الْبِلَادِ فَقَطْ. وَكَانَ يُؤَثِّرُنَا بِمُودَتِهِ وَحُبِّهِ دَائِمًا، فَكُنَّا نُبَادِلُهُ الْحُبَّ مِنْ أَعْمَاقِ قُلُوبِنَا». وَلِذَلِكَ فَرَضَ الرَّجُلُ حُبَّهُ وَاحْتِرَامَهُ عَلَى الْجَمِيعِ. وَمِنْ ثَمَّ حَازَ الثِّقَةَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَانِهِ.

لَقَدْ دَفَعَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ هَذَا الثَّمَنَ الْبَاهِظَ مِنْ حَيَاتِهِ لِتَرْسِيخِ مَعْنَى (الثِّقَةِ) فِي نَفُوسِ إِخْوَانِهِ، وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا طَلَبَ مِنْهُمْ: أَنْ تَفَرِّضَ فِي نَفْسِكَ الْخَطَأَ وَفِي الْقِيَادَةِ الصَّوَابَ، قَالُوا: صَدَقْتَ.

وَلَمَّا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ تَعْتَبِرَ الْأَوَامِرَ الصَّادِرَةَ إِلَيْكَ مِنَ الْقِيَادَةِ - فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ قَطْعًا - لَا مَجَالَ فِيهَا لِلتَّخْوِيرِ وَلَا لِلْجَدَلِ وَلَا الْإِتْقَاصِ، قَالُوا: صَدَقْتَ.



وَلَمَّا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَضَعَ كُلُّ مِنْهُمْ ظُرُوفَ حَيَاتِهِ تَحْتَ تَصَرُّفِ قِيَادَتِهِ،
قَالُوا: صَدَقْتَ.

وَلَمَّا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ تُحِيطَ الْقِيَادَةُ عِلْمًا بِكُلِّ ظُرُوفِكَ، وَأَنْ لَا تُقَدِّمَ
عَلَى عَمَلٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا تَأْثِيرًا جَوْهَرِيًّا إِلَّا بِإِذْنٍ، قَالُوا: صَدَقْتَ.

لَمْ يَطْلُبِ الْإِمَامُ الْبَنَّا الثِّقَةَ مِنْ إِخْوَانِهِ طَلَبًا مُبَاشِرًا؛ فَلَمْ يَقُلْ لَهُمْ:
ثِقُوا دُونَ أَنْ تَخْتَبِرُوا كَفَاءَتِي وَحِكْمَتِي وَإِخْلَاصِي وَجِدَارَتِي، لَمْ يَفْعَلِ
الْإِمَامُ الْبَنَّا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ (الثِّقَةَ) شُعُورٌ يُغْرَسُ أَوْ يُبْنَى فِي النُّفُوسِ،
وَلَا يُطَلَّبُ مُبَاشَرَةً، وَلَكِنَّهُ يُوَلَّدُ فِي النَّفْسِ بِكَثْرَةِ اخْتِلَاطِ الْأَخِ بِقَائِدِهِ
وَرُؤْيِيهِ لَهُ فِي مَوَاقِفِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَتَوَلَّدُ لَدَيْهِ شُعُورٌ بِأَنَّ هَذَا الْقَائِدَ
جَدِيرٌ بِأَنْ يُتَّبَعَ، وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُوثَّقَ فِي قَرَارَاتِهِ وَرُؤْيِيَتِهِ. وَلَعَلَّكَ تَلَحَّظُ
أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ اسْتَعْدَمَ كَلِمَةً دَقِيقَةً جِدًّا فِي تَعْرِيفِهِ رُكْنَ (الثِّقَةَ)،
وَهِيَ (الاطْمِئْنَانُ)؛ حَيْثُ قَالَ: «وَأُرِيدُ بِالثِّقَةِ: اطمِئْنَانُ الْجُنْدِيِّ إِلَى الْقَائِدِ
فِي كَفَاءَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ اطمِئْنَانًا عَمِيقًا يُنْتِجُ الْحُبَّ وَالتَّقْدِيرَ وَالْاِحْتِرَامَ
وَالطَّاعَةَ»⁽²⁰³⁾، ثُمَّ يَسْتَشْهَدُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

وَالثِّقَةُ فِي رُؤْيِيَةِ الْإِمَامِ الْبَنَّا شُعُورٌ مُتَبَادِلٌ، وَلَيْسَ شُعُورًا أُحَادِيًّا
مِنْ طَرَفٍ وَاحِدٍ، وَلِهَذَا جَعَلَ الْقَائِدَ بِمِثَابَةِ الْوَالِدِ أَوْ الْأُسْتَاذِ أَوْ الشَّيْخِ
لِإِخْوَانِهِ، وَعَلَى كُلِّ طَرَفٍ أَنْ يُؤْهَلَ نَفْسُهُ لِيَكُونَ أَهْلًا لِهَذَا الشُّعُورِ، وَمِنْ
ثُمَّ فَإِذَا لَمْ يَشْعُرِ الْأَخُ بِأَنَّ قَائِدَهُ مِثْلُ أَبِيهِ أَوْ شَيْخِهِ أَوْ أُسْتَاذِهِ، فَثَمَّةٌ خَلَلٌ
عَظِيمٌ، وَإِذَا لَمْ يَشْعُرِ الْقَائِدُ بِأَنَّ إِخْوَانَهُ مِثْلُ أَبْنَائِهِ أَوْ تَلَامِيذِهِ وَمُرِيدِيهِ،
فَثَمَّةٌ خَلَلٌ عَظِيمٌ كَذَلِكَ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَلِلْقِيَادَةِ فِي دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ

(203) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 277.

حَقُّ الْوَالِدِ بِالرَّابِطَةِ الْقَلْبِيَّةِ، وَالْأُسْتَاذِ بِالْإِفَادَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالشَّيْخِ بِالتَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَّةِ، وَالْقَائِدِ بِحُكْمِ السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ لِلدَّعْوَةِ، وَدَعَوْتُنَا تَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي جَمِيعًا، وَالثَّقَةُ فِي الْقِيَادَةِ هِيَ كُلُّ شَيْءٍ فِي نَجَاحِ الدَّعَوَاتِ»⁽²⁰⁴⁾.

وَأَيُّ نِظَامٍ يُحَاوِلُ عَمَلَ تَغْيِيرٍ اجْتِمَاعِيٍّ، لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

- نِظَامٌ يَحْتَرِمُهُ الْجَمِيعُ.
 - جِهَةٌ مَعْرُوفَةٌ الصِّفَةِ يَرْفَعُ حُكْمُهَا الْخِلَافَ.
 - بُرْهَانٌ (مَرَجِعِيَّةٌ) مِنْ شَرَعٍ وَعَقْلٍ، فَأَمَّا الشَّرْعُ فَهُوَ الضَّابِطُ لَنَا جَمِيعًا، وَفِيهِ الرُّخْصَةُ وَالْعَزِيمَةُ (وَتَخْتَارُ بَيْنَهُمَا الْقِيَادَةُ)، وَأَمَّا الْعَقْلُ فَهُوَ الْعَقْلُ الْعَامُّ رَفِيعُ الشَّانِ، الَّذِي لَا يَخَافُ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيَّ مِنْ أَفْكَارِهِ الَّتِي صَاغَتْهَا الشَّرِيعَةُ بِمَا فِيهَا مِنْ نَقَاءٍ وَطَهَرٍ وَسَلَامَةٍ وَصِحَّةٍ (الشُّورَى). وَبِهَذَا تَكُونُ الشَّخْصِيَّاتُ الَّتِي سَوْفَ تَخْتَارُ قَدْ أَوْحَتْ لَنَا بِالثَّقَةِ لِكِفَائَتِهَا وَإِخْلَاصِهَا وَجِدَارَتِهَا وَحُكْمَتِهَا كَذَلِكَ.
- فَإِنْ أَرَدْتَ نُمُودَاجًا تَحَقَّقَتْ فِيهِ قِيَمُ (الْكِفَاءَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْجِدَارَةِ)، وَهِيَ الْقِيَمُ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَى الثَّقَةِ بِأَيِّ شَخْصٍ يَتَمَتَّعُ بِهَا؛ فَإِنَّ شَخْصِيَّةَ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ الْقِيَمَ فَأَوْعَتْهَا، لَا نَقُولُ ذَلِكَ تَعْصُبًا لَهُ بِوَصْفِهِ مُؤَسَّسَ دَعْوَةِ (الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ) الَّتِي أَحْبَبْنَاهَا وَانْتَمَيْنَا إِلَيْهَا، وَلَكِنَّا نَدْعُ شَهَادَاتِ الْعُلَمَاءِ وَالْإِخْوَانِ الَّذِينَ عَاصَرُوهُ تُحَدِّثُنَا عَنْ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةِ الْفَذَّةِ الَّتِي قَبِضَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِدِينِهِ وَدَعْوَتِهِ فِي عَصْرِنَا الْحَدِيثِ:

يَقُولُ الْإِخْوَةُ الَّذِينَ عَاشُوا الْإِمَامَ الْبَنَّا وَعَاصَرُوهُ: إِنَّهُ كَانَ يُلِمُّ بِالدُّنْيَا عَلَى هَوَادَةٍ، وَهُوَ صَاحِبُ الْمَوَاهِبِ وَالْمَدَارِكِ، كَانَ لَا يَجْمَعُ مِنْهَا وَلَا يَمْنَعُ، وَلَا يَهْتَمُّ لِشَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا بِمَقْدَارٍ، وَلَا يُصِيبُ مِنْهَا إِلَّا لَظَرُورَةٍ، يَأْكُلُ مَا حَضَرَ وَيَلْبَسُ مَا تَيَسَّرَ، وَيَتَخَذُ مِنَ السَّكَنِ مَا قَلَّ وَكَفَى، هُمُّهُ أَنْ يَرَى

دعوته عالية تحيا بين الناس، وأن يعلن إليهم ما في صدره من الأسرار. يقول عنه الأستاذ فريد عبد الخالق: «حضرت معه يوماً مكتب إداري الإسكندرية، فحان وقت الصلاة، فخلع حذاءه وجوربه من أجل أن يتوضأ، فرأيت جوربه مهترًا به ثقبٌ كثيرة (وهو صاحب المواهب والمدارك)، فاستحييت من نفسي وذهبت واشتريت له جوربًا جديدًا ووضعتُه في مكان القديم، فلما عاد من وضوئه وجاء يلبس جوربه ووجده جديدًا نظر إلي من بين الحاضرين، ولا أدري كيف عرف أنني من فعلت ذلك وقال لي بعينه: «إنني أستطيع أن أعيش أفضل من ذلك، ولكنني راضٍ بحالي.. على العموم أشكرك».

سأله روبرج جاكسون: أين تسكن؟ فابتسم ابتسامة المتواضع الذي يعرف قدره وقال: في أحشاء القاهرة في حي الغورية في حارة الروم في سكة الخازن في عطفة سنجر وهو مكان بسيط جدًا يعيش فيه بسطاء الناس.

يقول الأستاذ أحمد أنس الحجاجي: إن الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ كَانَ قَدْ كَلَّفَهُ برعاية شؤون أولاده، وذلك لكثرة غيابه عن المنزل، وكان المصروف المالي في بيت الإمام البنّا رَحِمَهُ اللهُ في يد الأستاذ سعد تاج الدين، وذلك لأنه كان يريد أن يظل فوق الظنون والشبهات.

تقول السيدة آمال العشماوي زوجة الأستاذ منير الدلة أحد أعضاء مكتب الإرشاد: حدثني الأستاذ البنّا رَحِمَهُ اللهُ يوماً وسأل عن الأستاذ منير، فقلت: إنه في المحكمة.

فقال: أخبريه أنني اتصلت به.
فقلت: هل تريد شيئاً فضيلتك؟

فَقَالَ: نَعَمْ، كُنَّا نُرِيدُ قَدْرًا مِنَ الْمَالِ، وَذَكَرَ الْمَبْلَغَ الْكَبِيرَ الَّذِي كَانَ يَطْلُبُهُ لَأُمُورٍ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الدَّعْوَةِ.

تَقُولُ: فَأَخَذْتُ مَصُوغَاتِي وَبِعْتُهَا، وَبَعْضَ الْمَالِ مِنَ الْبَيْتِ، وَعِنْدَمَا عَادَ الْأَسْتَاذُ مُنِيرٌ وَضَعْتُ الْمَالَ فِي يَدَيْهِ، وَبَلَّغْتُهُ رِسَالَةَ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ فَذَهَبَ إِلَيْهِ وَأَعْطَاهُ الْمَالَ.

فَالرَّجُلُ الَّذِي يَأْتِيهِ الْمَالُ بِهَذَا الشَّكْلِ لَا بُدَّ أَنْ يَرْتَفِعَ فَوْقَ مَنَاطِ الطُّنُونِ، وَيَعْرِفُ الْقَاصِي وَالْدَّانِي نَفَقَاتِهِ، وَمَا الَّذِي يَدْخُلُ بَيْتَهُ وَيَخْرُجُ مِنْهُ؛ لِذَلِكَ جَعَلَ نَفَقَاتِ بَيْتِهِ فِي يَدِ الْأَسْتَاذِ سَعْدِ تَاجِ الدِّينِ، لِيَتَّقِيَ مَوَاطِنَ الشَّبَهَاتِ وَالطُّنُونِ وَالرَّيْبِ، حَتَّى لَا يَظُنَّ ظَانَ أَنَّهُ حِينَ نَظَرَ إِلَى هَذَايَةِ النَّاسِ نَظَرَ إِلَى مُتَعَةٍ نَفْسِهِ فَكَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ آمَالِهِ.

يَقُولُ الْأَسْتَاذُ أَحْمَدُ الْبَسَّ عَنْ الْإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ يَنْزِلُ مِنْ عَلَى سُلَّمِ دَارِ الْمَرْكَزِ الْعَامِّ الْجَدِيدِ لِلْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَا مُقْبِلٌ عَلَيْهِ، وَقَابَلَنِي عَلَى الدَّرَجَةِ الْأُولَى مِنْ عَلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ يَضَعُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ يَتَحَسَّسُ نُقُودًا فَلَمْ يَجِدْ، فَقَالَ لِي: اصْعَدْ وَارْجِعْ بِخَمْسَةِ قُرُوشٍ مِنَ الْأَخِ (الطُّوبَجِيِّ) مُرَاقِبِ الدَّارِ فَأَخْرَجْتُ خَمْسَةَ الْقُرُوشِ مِنْ جَيْبِي وَقَدَمْتُهَا لَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ، وَقَالَ: نَفَّذْ مَا أَقُولُ لِأَنِّي مُحْتَاجٌ إِلَى مَشْوَارٍ سَرِيعٍ بِالْتَرَامِ، وَلَيْسَ مَعِيَ نُقُودٌ، فَعَلْتُ وَعَلِمْتُ مِنْ يَوْمِهَا أَنَّهُ لَيْسَ مَشْغُولًا بِالْمَالِ» (205).

وَيُوكِّدُ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْحَلِيمِ هَذَا الْمَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ: «وَلَكِنَّ الْأَسْتَاذَ الْمُرْشِدَ كَانَ لَا يُعِيرُ النَوَاحِيَ الْمَادِيَّةَ اهْتِمَامًا، فَهُوَ يُقَدِّمُ كُلَّ مَا يَمْلِكُ وَيَعْتَقِدُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَهُ، وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ دَائِمًا يُحَقِّقُ

أَمَلَهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ (أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي)» (206).

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَفْعَلَ الْجَمِيعُ ذَلِكَ، فَحَمَلُ النَّفْسِ عَلَى الْعَزَائِمِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ لَيْسَ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْمَعَاشِ، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يُعَلِّمُنَا أَنَّنَا إِذَا دُعِينَا إِلَى وَاجِبٍ لَا نَتَأَخَّرُ عَنْهُ مَهْمَا كَانَتْ الْأَعْدَارُ.

وَحِينَ سَعَى وَزِيرُ الدَّاخِلِيَّةِ فِي زَمَانِهِ مُرْتَضَى بِأَشَا الْمَرَاعِي، لِيُفْسِدَ ذَاتَ بَيْنِهِ وَإِخْوَانِهِ؛ بِأَنْ قَالَ لَهُ: «أَصْحَابُكَ لَا يَفْهَمُونَ مَا تَفْهَمُ»، أَفْحَمَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَدِّهِ: «أَعْلَمُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَصَحِّحُ لَهُمْ، وَهُمْ يَسْتَجِيبُونَ لِي»، كَأَنَّهُ يَقُولُ: ذَرُونِي وَإِخْوَانِي، وَلَا تَتَعَجَّلُوا نِهَائِي.

وَقَدْ شَهِدَ الْأَسْتَاذُ أَبُو الْحَسَنِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَثَرِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْجِيلِ الَّذِي عَاصَرَهُ، فَقَالَ بِأَنَّ الْبَنَّا وَأَمْثَالَهُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ قَدْ ظَهَرُوا فِي «شَعْبٍ أُصِيبَ بِشَلَلِ الْفِكْرِ، وَخَوَاءِ الرُّوحِ، وَخُمُودِ الْعَاطِفَةِ، وَضَعْفِ الْإِرَادَةِ، وَخَوَرِ الْعَزِيمَةِ، وَسُقُوطِ الْهِمَّةِ، وَرَخَاوَةِ الْجِسْمِ وَرَقَّةِ الْعَيْشِ، وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ، وَالْخُضُوعِ لِلْقُوَّةِ، وَالْيَأْسِ مِنَ الْإِصْلَاحِ، وَأَصْبَحَ الْجِيلُ الْمُعَاصِرُ كَأَنَّهُ طَبْعَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ كِتَابٍ وَاحِدٍ» (207).

وَمَنْ يَقْرَأُ كَلَامَ الْأَسْتَاذِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، يَشْعُرُ بِأَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا وَاجَهَ جِيلًا تُودَّعُ مِنْهُ، لَكِنَّ الرَّجُلَ قَدْ اسْتَطَاعَ بِعَزِيمَتِهِ وَهِمَّتِهِ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُ جِيلًا يَحْمِلُ مِشْعَلَ الْهَدَايَةِ وَالْعِزَّةِ لِكُلِّ الْأُمَّةِ، وَذَلِكَ مَا يُوَكِّدُهُ الْأَسْتَاذُ أَبُو الْحَسَنِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ إِذْ يَقُولُ عَنِ الْإِمَامِ الْبَنَّا كَذَلِكَ: «وَقَدْ تَجَلَّتْ عَبَقْرِيَّةُ

(206) محمود عبد الحليم: الإخوان المسلمون: أحداثٌ صنعت التاريخ، ط 5، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1414هـ - 1994م، 1/ 110.

(207) من مقدمة الأستاذ أبي الحسن الندوي لكتاب مذكرات الدعوة والداعية، ص 14.

الدَّاعِي، مَعَ كَثْرَةِ جَوَانِبِ هَذِهِ الْعَبْقَرِيَّةِ وَمَجَالَاتِهَا، فِي نَاحِيَتَيْنِ خَاصَّتَيْنِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ مِنَ الدَّعَاةِ وَالْمُرَبِّينَ وَالزَّعَمَاءِ وَالْمُصْلِحِينَ: أَوَّلُهُمَا شَغْفُهُ بِدَعْوَتِهِ، وَاقْتِنَاعُهُ بِهَا، وَتَفَانِيهِ فِيهَا وَانْقِطَاعُهُ إِلَيْهَا بِجَمِيعِ مَوَاهِبِهِ وَطَاقَاتِهِ وَرِسَائِلِهِ. وَذَلِكَ هُوَ الشَّرْطُ الْأَسَاسِيُّ، وَالسَّمَةُ الرَّئِيسَةُ لِلدَّعَاةِ وَالْقَادَةِ الَّذِينَ يُجْرِي اللَّهُ عَلَى أَيْدِيهِمُ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ. وَالنَّاحِيَةُ الثَّانِيَةُ تَأْثِيرُهُ الْعَمِيقُ فِي نَفُوسِ أَصْحَابِهِ وَتَلَامِيذِهِ، وَنَجَاحُهُ الْمَدْهَشُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالْإِنْتِاجِ؛ فَقَدْ كَانَ مُنْشِئَ جِيلٍ، وَمُرَبِّي شَعْبٍ، وَصَاحِبَ مَدْرَسَةٍ عِلْمِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ خَلْقِيَّةٍ» (208).

لَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ لِأُمْتِنَا جِيلًا فَرِيدًا، كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْحَسَنِ النَّدَوِيُّ بِأَنَّ دَعْوَةَ الْإِخْوَانِ «أَعَادَتْ إِلَى الْجِيلِ الْجَدِيدِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ الثِّقَةَ بِصَلَاحِيَةِ الْإِسْلَامِ وَخُلُودِ رِسَالَتِهِ، وَأَنْشَأَتْ فِي نَفُوسِهِ وَقُلُوبِهِ إِيْمَانًا جَدِيدًا، وَقَاوَمَتْ (مُرَكَّبَ النَّقْصِ) فِي نَفُوسِهِمْ، وَالْهَزِيمَةَ الدَّاخِلِيَّةَ الَّتِي لَا هَزِيمَةَ أَشْنَعُ مِنْهَا وَأَكْبَرُ خَطَرًا، وَالْمُيُوعَةَ وَضَعْفَ النُّفُوسِ، وَالْانْسِيَاقَ تَحْتَ رِبْقَةِ الشَّهَوَاتِ وَالطُّغْيَانِ، وَخَلَقَتْ - كَمَا يَقُولُ شَاعِرُ الْإِسْلَامِ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدٌ إِقْبَالُ: (فِي جِسْمِ الْحَمَامِ الرَّخْوِ الرَّقِيقِ قَلْبَ الصُّقُورِ وَالْأَسُودِ)، حَتَّى اسْتَطَاعَ هَذَا الْجِيلُ أَنْ يَصْنَعَ عَجَائِبَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَسَالَةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالثَّبَاتِ» (209)، فَمِنْهُمْ مَنْ وَاجَهَ الْمَوْتَ لَا يَحْفَلُ بِمُقَاوَمَةِ ذِي بَأْسٍ أَوْ سُلْطَانٍ، وَتِلْكَ مُقُومَاتُ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالتَّكْوِينِ الدَّقِيقِ الْفَعَالِ، وَهَذَا فِي حَدِّ ذَاتِهِ نَجَاحٌ فِي أَسْلُوبِهِ فِي التَّغْيِيرِ وَالْإِصْلَاحِ؛ لِأَنَّهُ وَاجَهَ مُجْتَمَعًا فَقَدْ قُوَّةَ الْإِيْمَانِ وَقُوَّةَ الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُمُ اللَّهُ يُرَبِّيهِ، وَيُعِيدُ تَكْوِينَهُ، عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ هَذَا التَّكْوِينِ الْجَدِيدَ بَدَايَةَ لِمَسِيرَةٍ تَنْتَهِي بِأُسْتَاذِيَّةِ الْعَالَمِ.

(208) السابق، ص 17.

(209) حسن البنّا: مذكرات الدعوة والداعية، ص 19.

إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي أَصُولِ دَعْوَتِنَا وَمَنَاهِجِهَا

لَا شَكَّ أَنَّ الدَّعْوَةَ تَمُرُّ الْآنَ بِظُرُوفٍ صَعْبَةٍ وَمُجْهِدَةٍ، وَهَذِهِ الظُّرُوفُ تَقْتَضِي مِنَّا أَمْرَيْنِ، أَوْ تَسْتَوْجِبُ أَنْ نَسْعَى فِي مَسَارَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا - إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي أَصُولِ دَعْوَتِنَا وَمَنَاهِجِهَا وَأَرْكَانِهَا؛ لِكَيْ تَتَشَرَّعَ الدَّعْوَةُ بَيْنَ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا.

ثَانِيَهُمَا - إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي الْفِكْرَةِ وَسَلَامَتِهَا، فِي الْمِنْهَاجِ وَصَلَاحِيَّتِهِ، فِي الْقِيَادَةِ وَصَوَابِهَا وَرُشْدِهَا، إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي الصِّفِّ وَنَقَائِهِ وَطَهَارَتِهِ، إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي أَنْفُسِنَا وَقُدْرَاتِنَا، إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي الْجَزَاءِ كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي عَدَالَتِهِ وَجَزَالَتِهِ.

كَثِيرًا مَا كُنَّا نَسْمَعُ مِنَ الْأَسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَثْنَاءَ مِحنةِ (٦٥)، عِنْدَمَا سَأَلَهُ بَعْضُنَا: كَيْفَ تَرَى الْغَدَ؟ فَكَانَ يَقُولُ: لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ، وَإِذَا سُئِلَ عَنِ الْقِصَاصِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَتَوْا وَظَلَمُوا، قَالَ: إِنَّ الْآخِرَةَ وَحْدَهَا مَوْعِدٌ لِلْفَضْلِ وَالْجَزَاءِ؛ ثِقَةً مِنْهُ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرِّضَا وَالْمَتَاعِ.

إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي الْفِكْرَةِ وَسَلَامَتِهَا

لَا نَجَاحَ لِأَيِّ دَعْوَةٍ أَوْ حَرَكَةٍ تَبْغِي الْعِزَّةَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؛ دُونَ تَوْفُرِ عُنُصْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: قُدْرَةُ الْمُعَلِّمِ وَإِخْلَاصُ التَّلْمِيزِ، فَأَمَّا قُدْرَةُ الْمُعَلِّمِ، فَتَكُونُ فِي فَهْمِهِ الْوَاسِعِ الْفَسِيحِ لِلْإِسْلَامِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ قُدْرَةُ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي عَرْضِهِ اللَّائِقِ الْكَرِيمِ، وَتَطْبِيقِهِ الْعَادِلِ الْحَكِيمِ، وَمُمَارَسَتِهِ قِيَادَةَ النُّفُوسِ وَالْأَخْطَارِ، وَقَدْ أَشْرَتْ مِنْ قَبْلُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الَّتِي طَرَحَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ كَلَفَتْهُ رَاحَتَهُ وَحَيَاتُهُ؛ لِأَنَّهُ كَمَا يَقُولُونَ طَرَحَ فِكْرًا نَضِيجًا يَصْعُبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ، كَمَا يُقَرَّرُ بِذَلِكَ بَعْضُ

أبناء الغرب، مثل روبر جاكسون وتقارير السفارة البريطانية، وانظروا ما يقوله روبر جاكسون عن الإمام البنا: «لقد لفت هذا الرجل نظري بصورته الفذة، عندما كنت أزور القاهرة بعد أن التقيت بطائفة كبرى من زعماء مصر ورؤساء الأحزاب فيها.. كان هذا الرجل خلّاب المظهر، دقيق العبارة، بالرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية. لقد حاول أتباعه الذين كانوا يترجمون بيني وبينه أن يصوروا لي أهداف هذه الدعوة؛ وأفاضوا في الحديث على صورة لم تُقنعني.. وظلّ الرجل صامتًا، حتى إذا بدت له الحيرة في وجهي، قال لهم: قولوا له شيئًا واحدًا: هل قرأت عن محمد ﷺ؟ قلت نعم. قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قلت: نعم. قال: هو ما نريد.. وكان في هذه الكلمات القليلة ما أغنانني عن الكثير مما حاول بعض أنصار البنا أن يقولوه لي.. لفت نظري إلى هذا الرجل سمته البسيط، ومظهره العادي، وثقته التي لا حد لها بنفسه، وإيمانه العجيب بفكرته.. كنت أتوقع أن يجيء اليوم الذي يسيطر فيه هذا الرجل على الزعامة الشعبية، لا في مصر وحدها، بل في الشرق كله.. وسافرت من مصر بعد أن حصلت على تقارير وأفية ضافية عن الرجل وتاريخه، وأهدافه وحياته، وقد قرأتها جميعًا، وأخذت أقارن بينه وبين جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد أحمد المهدي، والسيد السنوسي، ومحمد عبد الوهاب، فوصل بي البحث إلى أن الرجل قد أفاد من تجارب هؤلاء جميعًا، وأخذ خير ما عندهم، وأمكنه أن يتفادى ما وقعوا فيه من أخطاء» (210).

وإذا أغضينا الطرف عن الغاية التي حملت روبر جاكسون على لقاء الإمام البنا رحمه الله ومحاورته، وهي كتابة تقارير وأفية عنه وعن دعوته

(210) روبر جاكسون: حسن البناء الرجل القرآني، ترجمة أنور الجندي، ط 1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1297 هـ - 1977 م، ص 5، 6.

تُقَدَّمُ إِلَى الْغَرْبِ، لِيَكُونَ عَلَى حَذَرٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ النَّاشِئَةِ فِي الشَّرْقِ، وَيُقَاوِمُهَا إِنْ لَمْ يَقْضَ عَلَيْهَا! أَقُولُ: إِذَا أَغْضَيْنَا الطَّرْفَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّا نَلْحَظُ أَنَّ رُوبِير جَاكُسُون مِلْمٌ بِحَرَكَاتِ الإِصْلَاحِ وَقَادَتِهِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقِيمُ مُقَارَنَةً بَيْنَ فِكْرَةِ الإِمَامِ الْبَنَّا وَأَفْكَارِهِمْ، فَيَشْهَدُ - وَالْحَقُّ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ - بِأَنَّ فِكْرَةَ الإِمَامِ الْبَنَّا أَنْضَجَ مِنْ أَفْكَارِهِمْ؛ لِأَنَّهُ أَفَادَ مِنْهُمْ، وَتَجَنَّبَ أخطاءَهُمْ، وَمِنْ ثَمَ تَوَقَّعَ لِفِكْرَتِهِ أَنْ تَتَشَرَّ وَتَسُودَ، وَفِي هَذِهِ الشَّهَادَةِ مَا يَحْمِلُ أَبْنَاءَ الدَّعْوَةِ عَلَى الْفَخْرِ بِفِكْرَتِهِمْ وَالثِّقَةِ بِهَا.

كَمَا أَنَّا نَلْحَظُ أَنَّ الإِمَامَ الْبَنَّا أَكَّدَ فِي حِوَارِهِ مَعَ رُوبِير جَاكُسُون أَنَّ «فِكْرَتَهُ إِسْلَامِيَّةٌ صَمِيمَةٌ»، تَمَتَّحُ مِمَّا دَعَا إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَتُرِيدُ مَا أَرَادَهُ، وَهَذَا أَهَمُّ عَامِلٍ يُغْرِيكَ بِأَنَّ تَشِقَّ بِفِكْرَتِكَ ثِقَةً لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا شَكٌّ أَوْ رَيْبٌ، وَأَنْ تُوقِنَ بِأَنَّهَا أَصَحُّ الْفِكْرِ، وَإِنْ أَرَادَ لَهَا أَعْدَاؤُهَا غَيْرَ ذَلِكَ.

وَرُبَّمَا تَكُونُ هَذِهِ (الثِّقَةُ) قَدِ اهْتَزَّتْ، جَرَاءَ الظُّرُوفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ، وَالْوَاقِعِ الَّذِي تَحْيَاهُ الْآنَ، وَمِنْ ثَمَ فَوَاجِبُنَا أَنْ نُعِيدَ الثِّقَةَ بِالْفِكْرِ الَّذِي طَرَحَهُ الإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ، أَخِذِينَ فِي الْاِعْتِبَارِ أَنَّ الثِّقَةَ بِأَيِّ فِكْرَةٍ تَقْتَضِي أَنْ يَتَوَقَّرَ لَهَا عُنْصُرَانِ: أَوَّلُهُمَا الْاِعْتِقَادُ فِي صِلَاحِيَّتِهَا، وَثَانِيَهُمَا الشُّعُورُ بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، نَاهِيكَ بِمَا اشْتَرَطْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ ضَرُورَةِ أَنْ يَتَوَقَّرَ فِي كُلِّ دَعْوَةٍ أَمْرَانِ: قُدْرَةُ الْمُعَلِّمِ وَإِخْلَاصُ التَّلَامِيذِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ قُدْرَةُ الإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ فِي اخْتِيَارِهِ لِلصَّوَابِ مِنْ بَيْنِ ثَرَاثِ هَائِلِ مُشْرِقِ مُنِيرٍ، تَأَثَّرَ بِالْعُصُورِ الَّتِي تَقَلَّبَ فِيهَا، وَالشُّعُوبِ الَّتِي عَاشَتْهُ، فَحَرَّرَهُ مِنْ دَخَنِهِ، وَنَفَى عَنْهُ خَبَثَهُ، وَقَدَّمَهُ لَأُمَّتِهِ نَقِيًّا طَيِّبًا، يَشْمَلُ كُلَّ مَا تَحْرِصُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا تَطْمَحُ إِلَيْهِ مِنْ كَمَالٍ. فَكَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَقُولَ عَنْهُ أَعْدَاؤُهُ: إِنَّهُ قَدَّمَ لَأُمَّتِهِ فِكْرًا نَضِيجًا يَصْعُبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ وَهَنًا كَرْنٌ مِنَ الزَّمَانِ يُطِلُّ عَلَيْنَا رُغْمَ مُحَاوَلَاتِ الْهَدْمِ وَالتَّشْوِيهِ.

وَسِرُّ هَذَا النُّضْجِ وَالْاِكْتِمَالِ فِي فِكْرَةِ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ اسْتَرْفَدَهُ وَاسْتَمَدَّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ وَهَذَا مَا كَلَفَهُ رَاحَتَهُ وَحَيَاتَهُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا يَرَوِيهِ السَّيِّدُ حَامِدُ أَبُو النُّصْرِ، وَسَمِعْتُهُ مِنْهُ؛ إِذْ يَقُولُ بَأَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي الْمَرْكَزِ الْعَامِ فِي مَكْتَبِهِ فَوَجَدَ مَجْمُوعَةً مِنَ الشَّبَابِ الَّذِينَ انْفَصَلُوا وَكَوَّنُوا مَا عُرِفَ بِاسْمِ (شَبَابِ مُحَمَّدٍ)، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ مَنَهْجِهِ السَّلْمِيِّ الْمُعْتَدِلِ إِلَى الصَّرَاعِ وَالْارْتِطَامِ، أَوْ يَسْتَقِيلَ مِنْ مَكْتَبِ الْإِرْشَادِ، فَمَا كَانَ مِنَ الْإِمَامِ الْبَنَّا إِلَّا أَنْ كَشَفَ عَنْ صَدْرِهِ وَقَدْ رَفَعُوا فِي وَجْهِهِ السَّلَاحَ، وَقَالَ أَطْلِقُوا الرِّصَاصَ لَنْ أَدْعَ يَقِينِي لِشُكُوكِكُمْ.

إِلَى هَذَا الْحَدِّ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ مُؤْمِنًا بِفِكْرَتِهِ، وَاثِقًا بِهَا، وَنَحْنُ نُرِيدُ إِعَادَةَ الثِّقَةِ وَتَجْدِيدَهَا فِي الْفِكْرَةِ وَسَلَامَتِهَا، وَالْمِنْهَاجِ وَصَلَاحَتِهِ، وَالْقِيَادَةِ وَصَوَابِهَا، وَالصَّفِّ وَطَهَارَتِهِ، وَالْجِزَاءِ وَعَدَالَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَأَنَّ الْآخِرَةَ وَحْدَهَا مَوْعِدٌ لِلْفَضْلِ وَالْجِزَاءِ، وَنُرِيدُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنْ نُعِيدَ الثِّقَةَ فِي أَنْفُسِنَا بِأَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ جَدِيدٍ.

إِنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ اسْتَمَدَّ فِكْرَتَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَاسْتَقَرَّ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ وَمَا رَبَّاهُ مِنْ عَثَرَاتٍ وَنَهَضَاتٍ، فَقَدَّمَ فِكْرَةً وَاضِحَةً تَصِلُ إِلَى النَّاسِ بِلَا عَوَائِقَ، وَقَدَّمَهَا بِسَيْطَةٍ تُنَاسِبُ كُلَّ بَيْئَةٍ: الْأَغْنِيَاءَ وَالْبُسَطَاءَ الْمَغْمُورِينَ. وَقَدْ رَأَيْتُ ذَلِكَ بِنَفْسِي، فَمَا فَهَمَهُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبِ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَدِيبُ الدَّرْعَمِيُّ، كَانَ يَفْهَمُهُ إِسْمَاعِيلُ الْفَيَّومِيُّ الْعَسْكَرِيُّ فِي الْحَرَسِ الْجُمْهُورِيِّ، وَقَدَّمَهَا مُحَدَّدَةً كَذَلِكَ يَسْهُلُ الِاسْتِدْلَالُ عَلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَهُمَا مَرْجِعُ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي فَهْمِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِذَلِكَ نَجَحَتْ دَعْوَةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ وَانْتَشَرَتْ فِي دُولِ الْعَالَمِ كُلِّهِ، وَأَصْبَحَ الْقَضَاءُ عَلَيْهَا صَعْبًا عَسِيرًا. وَصَحِيحٌ أَنَّهَا قَدْ تَكَبُّوْا أَوْ تَتَعَثَّرُوا، لَكِنَّهَا بِفَضْلِ اللَّهِ، ثُمَّ بِإِخْلَاصِ أَبْنَائِهَا وَثَبَاتِهِمْ تَسْتَرِدُّ عَافِيَتَهَا

وَتَنْهَضُ مِنْ جَدِيدٍ، وَالْمَحْنُ فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ خَيْرٌ ذَلِيلٍ.

وَيَسْتَطِيعُ أَيُّ أَخٍ بَلِّ أَيِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَلْحَظَ ارْتِبَاطَ هَذِهِ الدَّعْوَةِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا إِذَا أَلْقَى نَظْرَةً سَرِيعَةً عَلَى رِسَائِلِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، وَهِيَ رِسَائِلٌ وَجِيزَةٌ لَا تَكَادُ بَعْضُ رِسَائِلِهِ تَتَجَاوَزُ عِشْرِينَ صَفْحَةً، لَكِنَّهَا رُغْمَ وَجَازَتِهَا مَلِيَّةٌ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ؛ مِمَّا أَوْرَثَهُ الثِّقَةَ بِهَا وَالْاطْمِئْنَانَ حَتَّى لِمَا يَنْتَجِ عَنْهَا مِنْ مَشَقَّةٍ وَعَذَابَاتٍ.

وَدَعْوَةُ الْإِمَامِ الْبَنَّا بِهَذَا الْاسْتِمْدَادِ أَصِيلَةٌ، لَا اخْتِرَاعَ فِيهَا، وَلَا ابْتِدَاعَ يَخْرِجُهَا عَنْ ثَوَابِتِ أُمْتِنَا أَوْ ذَاكِرَتِهَا، الَّتِي مَا تَزَالُ تَعْبِي رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ وَتُؤْمِنُ بِهِ، وَتَحْفَظُ مَبَادِئَهُ وَأُصُولَهُ وَقِيَمَهُ وَأَخْلَاقَهُ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْغُبَارِ قَدْ رَانَ عَلَى تِلْكَ الْمَعَالِمِ وَالْقِيَمِ، فَجَاءَ حَسَنُ الْبَنَّا وَأَزَالَ ذَلِكَ الْغُبَارَ، وَلِهَذَا يَقُولُ:

«هَذَا كَلَامٌ طَالَ عَهْدُ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِمَاعِهِ فَقَدْ يَكُونُ غَامِضًا عَلَيْهِمْ غَيْرَ مَفْهُومٍ لَدَيْهِمْ، وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: مَا لَهُؤُلَاءِ الْجَمَاعَةِ يَكْتُبُونَ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَحَقَّقَ، وَمَا بِالْهَمِّ يَسْبَحُونَ فِي جَوْ الْخِيَالِ وَالْأَحْلَامِ؟ عَلَى رِسَالِكُمْ - أَيُّهَا الْإِخْوَانُ فِي الْإِسْلَامِ وَالْمِلَّةِ - فَإِنَّ مَا تَرَوْنَهُ الْيَوْمَ غَامِضًا بَعِيدًا كَانَ عِنْدَ أَسْلَافِكُمْ بَدْهِيًّا قَرِيبًا، وَلَكِنْ يُثْمَرُ جِهَادُكُمْ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ عِنْدَكُمْ، وَصَدَّقُونِي إِنَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ فَهَمُّوا مِنَ الْقُرْآنِ لِأَوَّلِ مَا قَرَأُوهُ وَنَزَلَ فِيهِمْ، مَا نُدْلِي بِهِ الْيَوْمَ إِلَيْكُمْ وَنَقُصُّهُ عَلَيْكُمْ»⁽²¹¹⁾. لَقَدْ حَرَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْفِكْرَ مِنْ دَخْنِهِ وَقَدَّمَ لِأُمْتِهِ مَا تَحَرَّصَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ.

(211) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة إلى أي شيء ندعو الناس]، ص 41.

وَقَدْ آمَنَ الْجِيلُ الَّذِي رَبَّاهُ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ بِسَلَامَةِ الْفِكْرَةِ، فَاعْتَقَدُوا صَلَاحِيَّتَهَا، وَآمَنُوا بِفَائِدَةِ الْحِفَاطِ عَلَيْهَا؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا قَدَّمَهُ الْجِيلُ السَّابِقُ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ مِنْ أَوْقَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ، وَوَاجِبُ هَذَا الْجِيلِ أَنْ يُكْمِلَ الْمَسِيرَ.

وَتَمَّةُ أَمْرٍ آخَرُ أَسْهَمَ فِي بَقَاءِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ؛ وَهُوَ الْفَهْمُ الَّذِي جَعَلَهُ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَوَّلَ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ، وَهُوَ فَهْمٌ وَاسِعٌ رَحِيبٌ، يَتَعَدُّ بِالْأُمَّةِ عَنْ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ وَلَا يَفْرُقَ، فَقَالَ: «اعْلَمْ - فَقَهَكَ اللَّهُ - أَوَّلًا: أَنَّ دَعْوَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ دَعْوَةٌ عَامَةٌ لَا تَنْتَسِبُ إِلَى طَائِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَلَا تَنْحَازُ إِلَى رَأْيٍ عُرِفَ عِنْدَ النَّاسِ بِلَوْنٍ خَاصٍ وَمُسْتَلْزَمَاتٍ وَتَوَابِعٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ تَتَوَجَّهُ إِلَى صَمِيمِ الدِّينِ وَلَبِّهِ، وَتَوَدُّ أَنْ تَتَوَحَّدَ وَجْهَةُ الْأَنْظَارِ وَالْهَمَمِ حَتَّى يَكُونَ الْعَمَلُ أَجْدَى، وَالْإِنْتِاجُ أَعْظَمَ وَأَكْبَرَ، فَدَعْوَةُ الْإِخْوَانِ دَعْوَةُ بَيْضَاءٍ نَقِيَّةٍ غَيْرُ مُلَوَّنَةٍ بِلَوْنٍ، وَهِيَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَمَا كَانَ، تُحِبُّ الْإِجْمَاعَ، وَتَكْرَهُ الشَّدُوذَ وَإِنَّ أَعْظَمَ مَا مُنِيَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ الْفُرْقَةُ وَالْخِلَافُ، وَأَسَاسُ مَا انتَصَرُوا بِهِ الْحُبُّ وَالْوَحْدَةُ. وَلَكِنْ يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا» (212).

وَلَمْ يَتَعَدَّ الْبَنَاءُ بِدَعْوَتِهِ عَنْ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ فَحَسَبُ، وَإِنَّمَا عَرَضَهَا عَرَضًا لَا يُقَاكِرُهَا مَعَ رُوحِ الْعَصْرِ، مُتَذَرِّعًا بِمَنَاطِقِ الْقُوَّةِ، وَهِيَ غَايَاتُ الدِّينِ وَعَزَائِمُهُ الْكُبْرَى، وَقَالَ لِإِخْوَانِهِ: «إِذَا قِيلَ لَكُمْ: إِلَامَ تَدْعُونَ؟ فَقُولُوا: نَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْحُكُومَةُ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالْحُرِّيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِهِ، فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: هَذِهِ سِيَاسَةٌ! فَقُولُوا: هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْأَقْسَامَ» (213). اخْتَارَ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ

(212) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، رسالة دعوتنا، ص 137.

(213) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة بين الأُمس واليوم]، ص 517.



مَنْطَقَةً قُوَّتِهِ لِيَبْدُوَ صَاحِبَ قَضِيَّةٍ، وَلَيْسَ مَشَاغِبًا، فَحِينَ أَطْلُبُ الْحُرِيَّةَ لِنَفْسِي، فَأَنَا أَطْلُبُهَا لِلْآخَرِينَ كَذَلِكَ، فَالْفَهْمُ الَّذِي قَدَّمَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ، وَاسِعٌ فَسِيحٌ رَحِيْبٌ، يَجْمَعُ وَلَا يُفَرِّقُ، وَلَا يُضَيِّعُ وَقْتَ الْأُمَّةِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ الْفَرَعِيَّةِ، أَوْ يَشْغُلُ أَبْنَاءَهَا بِمَعَارِكِ هَامِشِيَّةٍ، بَلْ أَنَا زَعِيمٌ بِأَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ قَدَّمَ فِي عِبَارَاتٍ وَجِيزَةٍ دَقِيقَةٍ أَيْسَرَ الْحُلُولِ وَأَنْجَعَهَا لِقَضَايَا الْخِلَافِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي مَزَقَتْ هَذِهِ الْأُمَّةَ شِيعًا؛ حَيْثُ قَالَ فِي الْخِلَافِ الْفِقْهِيِّ: «وَلَا مَانِعَ مِنَ التَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ النَّزِيهِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ فِي ظِلِّ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْرَّ ذَلِكَ إِلَى الْمِرَاءِ الْمَذْمُومِ وَالتَّعَصُّبِ»⁽²¹⁴⁾.

وَقَالَ فِي الْخِلَافِ حَوْلَ الْبِدْعِ التَّرَكِيَّةِ وَالْإِضَافِيَّةِ: «لِكُلِّ فِيهِ رَأْيُهُ، وَلَا بَأْسَ بِتَمْحِيطِ الْحَقِيقَةِ بِالذَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ»⁽²¹⁵⁾.

وَقَالَ فِي الْخِلَافِ الْعَقْدِيِّ: «وَأَيَّاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثُهَا الصَّحِيحَةُ وَمَا يَلْحَقُ بِذَلِكَ مِنَ التَّشَابُهِ، تُؤْمِنُ بِهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا نَتَعَرَّضُ لِمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَيَسْعُنَا مَا وَسِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» [آل عمران: 7]⁽²¹⁶⁾. حَتَّى مَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحْبِ الْكَرَامِ مِنْ خِلَافٍ أَنَّهُاهُ بِقَوْلِهِ: «وَلِكُلِّ مِنْهُمْ فَضْلٌ صُحْبَتِهِ وَجَزَاءُ نِيَّتِهِ وَفِي التَّأْوِيلِ مَنَدُوحَةٌ»⁽²¹⁷⁾.

وَكَذَلِكَ الْخِلَافُ الشَّهِيرُ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ، يَقُولُ فِيهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا:

(214) السابق: الصفحة نفسها.

(215) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 270.

(216) السابق: الصفحة نفسها.

(217) السابق: الصفحة نفسها.

«فَإِنْ كَانَا ظَنَيْنِ فَالنَّظَرُ الشَّرْعِيُّ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ، حَتَّى يَثْبُتَ الْعَقْلِيُّ أَوْ يَنْهَارَ» (218).

كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تُوَكِّدُ حَقًّا سَلَامَةَ الْفِكْرَةِ وَصِحَّتَهَا وَأَنَّ هُنَاكَ جُهْدًا مَبْذُولًا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ وَلِيدَةً أَحْلَامٍ وَأَوْهَامٍ وَإِنَّمَا بَذَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا لِتَأْسِيسِهَا جُهْدًا مُضْنِيًّا فِي قِرَاءَةِ تَرَاثِنَا الْإِسْلَامِيِّ الْهَائِلِ؛ غَيْرَ أَنَّهُ وَجَدَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتُبِ التَّرَاثِ تَلَوْنَتْ بِلَوْنِ الْعَصْرِ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ، وَلِهَذَا تَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَهُمَا الْمَصْدَرَانِ الْبَاقِيَانِ الْخَالِدَانِ الصَّافِيَانِ لِشَرْعِنَا، وَأَبَى أَنْ تَتَقَيَّدَ دَعْوَتُهُ بِقَيْدٍ غَيْرِ قَيْدِ الشَّرْعِ أَوْ تَتَلَوْنَ بِلَوْنٍ يَرْفُضُهُ الْعَصْرُ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «يَعْتَقِدُ الْإِخْوَانُ أَنَّ أَسَاسَ التَّعَالِيمِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَعِينَهَا هُوَ كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اللَّذَانِ إِنْ تَمَسَّكَتَ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلَّ أَبَدًا، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَرَاءِ وَالْعُلُومِ الَّتِي اتَّصَلَتْ بِالْإِسْلَامِ، وَتَلَوْنَتْ بِلَوْنِهِ تَحْمِلُ لَوْنَ الْعُصُورِ الَّتِي أَوْجَدَتْهَا، وَالشُّعُوبِ الَّتِي عَاصَرَتْهَا، وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ نَسْتَقِي النِّظْمَ الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأُمَّةُ مِنْ هَذَا الْمَعِينِ الصَّافِي، مَعِينِ السُّهُولَةِ الْأُولَى، وَأَنْ نَفْهَمَ الْإِسْلَامَ كَمَا كَانَ يَفْهَمُهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ نَقِفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحُدُودِ الرَّبَّانِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ حَتَّى لَا نُقَيِّدَ أَنْفُسَنَا بِغَيْرِ مَا يُقَيِّدُنَا اللَّهُ بِهِ، وَلَا نُلْزِمُ عَصْرَنَا لَوْنِ عَصْرِ لَا يَتَّفِقُ مَعَهُ، وَالْإِسْلَامُ دِينُ الْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا» (219).

يَجِبُ أَنْ يَعْلَمُ شَبَابُ الدَّعْوَةِ وَمَنْ نَهَتْهُمْ بِتَرْبِيَّتِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ كُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي؛ لِأَنَّهُمْ مَهْمَا بَحْثُوا فَلَنْ يَجِدُوا مِثْلَ هَذِهِ الْفِكْرَةِ فِي سَلَامَتِهَا وَصِحَّتِهَا، فَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا - بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ - مُجْتَهِدًا لِقُرُونٍ خَلَتْ، وَقَدْ تَجَمَّعَتْ فِيهِ مَحَاسِنُ تَفَرَّقَتْ فِي غَيْرِهِ، كَمَا أَنَّهُ اسْتَفَادَ مِنْ

(218) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة التعاليم]، ص 271.

(219) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 331.



تَجَارِبِ كُلِّ مَنْ سَبَقُوهُ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَ سَهْلًا أَنْ يَقُولَ هَذَا الرَّجُلُ عَنْ فِكْرَتِهِ: «أَنْ تُوقِنَ بَأْنَ فِكْرَتِنَا إِسْلَامِيَّةً صَمِيمَةً»، فَلَا يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَّا عَالِمٌ مُجْتَهِدٌ بَلَغَ دَرَجَةً مِنَ الْعِلْمِ، وَالْبَحْثِ وَالْقِرَاءَةِ وَالتَّنْقِيبِ، تُجِيزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ مُدَّعِيًا يَهْدِمُ فِكْرَتَهُ بِيَدَيْهِ، وَلَقَدْ قِيلَ إِنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا قَرَأَ قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ (الْأُصُولَ الْعِشْرِينَ) خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ مَرَّجًا فِي أُصُولِ الْفُقْهِ وَالشَّرِيعَةِ (فِيهَا مَرَاجِعٌ تَتَجَاوَزُ عَشْرَةَ أَجْزَاءً)، كَيْ يَسْتَنْبِطَ هَذِهِ (الْأُصُولَ الْعِشْرِينَ) الَّتِي وَصَفَتْ بِأَنَّهَا دُسْتُورٌ وَحْدَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ وَثَقَافِيَّةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ.

هَذَا، وَلَيْسَتْ سَلَامَةُ الْفِكْرَةِ وَقَفًا عَلَى مَا اسْتَنْبَطَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا وَفَهَمَهُ وَعَرَضَهُ فِي يُسْرِ وَسَلَاسَةٍ؛ وَلَكِنْ سَلَامَةُ الْفِكْرَةِ تَتَجَلَّى كَذَلِكَ فِي تَطْبِيقِهِ لَهَا تَطْبِيقًا عَادِلًا حَكِيمًا؛ حَيْثُ عَالَجَ بِهَذَا الْفَهْمِ الرَّحِيبِ نُفُوسًا، وَوَاجَهَ أخطَارًا وَتَحَدِّياتٍ هَائِلَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَكْسِرَ إِرَادَاتٍ، أَوْ تَدْفَعُهُ إِلَى الْانْسِحَابِ وَالْعُزْلَةِ، أَوْ تَحْمِلَهُ عَلَى التَّصَادُمِ وَالْإِزْطَامِ، لَكِنَّ الرَّجُلَ لِفَهْمِهِ الرَّحِيبِ وَعَرَضِهِ السَّلْسِ، وَتَطْبِيقِهِ الْحَكِيمِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُذَلِّلَ الصَّعَابَ، وَيَتَجَاوَزَ الْمَخَاطِرَ وَالْعُقَبَاتِ، وَمِمَّا يُذَكِّرُ فِي هَذَا الصَّدَدِ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا سُئِلَ فِي قَضَايَا شَائِكَةٍ، فَأَبَى أَنْ يَتَوَرَّطَ فِي مَا تَوَرَّطَ فِيهِ غَيْرُهُ، وَأَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ فَهْمُهُ الْوَاسِعُ الْفَسِيحُ وَعَرَضُهُ اللَّائِقُ الْكَرِيمُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْقَضَايَا الشَّائِكَةِ.

فَلَمَّا سَأَلُوهُ عَنِ الْخِلَافَةِ وَكَانَتْ مَصْدَرُ إِزْعَاجٍ لِلشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَلَى السَّوَاءِ، أَجَابَ: إِنَّهَا خُطْوَةٌ تَسْبِقُهَا خُطَوَاتٌ. وَلِهَذَا عَلَّقَ مَنْ سَأَلَهُ عَلَى إِجَابَتِهِ: إِنَّهُ أَجَابَ إِجَابَاتٍ حَذِرَةً مُهَذَّبَةً وَأَحَالَهَا إِلَى مُقَعَدِ الْإِنْتِظَارِ فِي التَّارِيخِ، أَفْسَحَ لِنَفْسِهِ وَدَعْوَتِهِ مَكَانًا وَلَا مَتَهُ إِلَى جَوَارِهِ مَكَانًا تَلْتَحِقُ بِهِ لِسَعْلَمَ وَتَسْتَفِيدَ، إِجَابَاتٌ حَذِرَةٌ أَمَامَ وَقَعِ مُتَرَبِّصٍ، وَمُهَذَّبَةٌ أَمَامَ سُلْطَةِ



الأزهر الفقهية، لأنه لو أخطأ لها جموه، ولو أجاب إجابةً مُستفزةً، فقال مثلاً: إنها واجب الوقت وعلى المسلمين أن يعيدوها أقرب ما يكون؛ لهيج الواقع المتربص الذي يريد أن يلجئه إلى المواجهة، ولعجل بالقضاء عليه وعلى دعوته.

وقد يجيب الإمام البنا إجابات غير مباشرة؛ حيث سأله صحيفة غربية، يوماً عن موقفه من الخلافة وتفضيله لإعادتها فأجاب: إن رغبنا أن نكون بين صفوف هذا الشعب حتى نحصل على حريته كاملةً، فإذا حصل عليها تكون الجماعة حققت هدفها في احترام إرادة الأمة؛ فكأنه يقول لهم: أيها الواهمون، أمةٌ مُستعمرةٌ مُستعبدةٌ غير مُستقلة، كيف تفكر في الخلافة دون تحرير الوطن؟! تنال الأمة حريتها أولاً، فإذا تحقق لها ذلك، فحينئذ تقرر شعوبها ما تريد! إجابات حذرةٌ مَهذبةٌ؛ ولذلك أيضاً علقت الصحيفة عليه: حسن البنا مُدرّسٌ له احترامه شديد الحذر يسير إلى هدفه الذي وضعه لنفسه بخطى حثيثة، دون أن يلفت إليه الانتباه. وهم يعلمون طبعاً ماذا يريد، لكن الإجابات كانت نوعاً من التحييد.

كما سئل الإمام البنا رَحِمَهُ اللهُ عَنْ موقفه من الحاكم، فأجاب إجابات حذرة، قال: ليس من الإسلام مُخاصمة الحاكم وإحراجه في كل الظروف؛ فقد يقف الحاكم أمام عدو قوي للمسلمين يدفعه، ويحول دون غايته منهم، فتكون من الحماقة وليس من الدين أن يحرجه المسلمون، وهو يحول دون وصول عدوهم إلى غايته منهم، إجابة حذرةٌ مَهذبةٌ كذلك.

ولهذا حين كانت الداخلية تمنعه من تنظيم مظاهرة، ويعلم الملك بخبر المنع، يقول لهم اسمحوا له، لكن اشترطوا عليه ألا يهتف ضد الإنجليز، فكان يقود المظاهرة، هاتفاً: يسقط الاحتلال، ولا يذكر الإنجليز.



بَلْ سُئِلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْمَلِكِ، فَقَالَ: الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ احْتِرَامُهُ وَالْوَلَاءُ لَهُ وَاجِبٌ عَلَيْنَا، وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ يُؤَدِّي الْفَرَائِضَ. وَإِفْهَامُ رِجَالِ السَّرَايَا ذَلِكَ، وَاجِبٌ عَلَيْنَا كَذَلِكَ. وَقَدْ كَتَبَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَى الْمَلِكِ مَرَّةً، فَقَالَ: أَتَدْرِي مَاذَا فِي مِصْرَ يَا مَوْلَايَ؟ شَعْبٌ مُسْلِمٌ وَمَلِكٌ غَيُورٌ.

سَأَلُوهُ كَذَلِكَ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْعَالَمِ، فَقَالَ: إِنَّنِي لَسْتُ مِنَ الْحَمَاقَةِ وَضَعْفِ الْإِدْرَاكِ، لِأَتَصَوَّرَ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ بِمَعَزِلٍ عَنِ الْعَالَمِ، أَوْ بِمَنَآئٍ عَنِ تِلْكَ الْوَحْدَةِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَهَيَّأُ لَهَا سَكَانُ الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَالَّتِي بُحَّتْ بِهَا أَصَوَاتُنَا مِنْ قَبْلُ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. إِنَّنِي أَنَاشِدُ أَحْرَارَ الْعَالَمِ أَنْ يُسَانِدُونِي، أَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ قِيَمِ الْقُرْآنِ الَّتِي تُعْطِي لِلْعَالَمِ أَمْنَهُ وَسَلَامَهُ.

لَقَدْ أَفْلَتَ الرَّجُلُ مِنَ تَقْسِيمِ الْعَالَمِ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ: دَارِ الْإِسْلَامِ وَدَارِ الْحَرْبِ، وَهَذَا مَا تَوَرَّطَ فِيهِ غَيْرُهُ، وَأَدْهَشَ النَّاسَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ حَيَاتِهِ.

سَأَلُوهُ كَذَلِكَ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْأَزْهَرِ - بِمَالِهِ مِنْ سُلْطَةِ فَقْهِيَّةٍ - فَقَالَ: إِنَّهُ أَمَلُ الْمُسْلِمِينَ الْبَاقِي، وَمَظْهَرُ الْفِكْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَالْمُحَافَظَةُ عَلَى مَجْدِ الْأَزْهَرِ مُحَافَظَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَالنَّيْلُ مِنْهُ نَيْلٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَعُلَمَاؤُهُ أَوْعِيَةُ الْعِلْمِ، وَمَادَةُ الْإِسْلَامِ وَكَسْبُهُمْ إِلَى جَانِبِ دَعْوَتِنَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ.

وَسُئِلَ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ وَزُعْمَائِهِمْ، فَقَالَ: إِنَّنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى جُهِدِهِمُ الَّذِي بَذَلُوهُ، وَهُمْ أَنْصَارُ الْقَضِيَّةِ الْوَطْنِيَّةِ، إِلَى الْحَدِّ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ، لَا نَبْخُسُهُمْ فِي ذَلِكَ حَقَّهُمْ، وَأَعْلَنَ أَنَّ مِصْرَ لَوْ سَارَتْ كُلُّهَا

في طريق الأفغانِي ومُحمَّد عبْدُه ومُصطفى كَامِل؛ لَوصلتْ إِلَى بُغْيَتِهَا إِنَّهَا حَلَقَاتٌ مُتَّصِلَةٌ تَلْتَقِي كُلُّهَا فِي مِيدَانٍ وَاحِدٍ، وَهُمْ زُعمَاءُ سَبْقُوهُ.

يُثْنِي عَلَى الْجَمِيعِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا قَضَايَا شَائِكَةٌ حَرِجَةٌ، لَكِنْ إِجَابَاتِ الإِمَامِ النَّبَا رَحِمَهُ اللهُ عَنْهَا حَذَرَةٌ حَكِيمَةٌ.

وَيَتَعَرَّضُ الإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللهُ لِقَضِيَّةِ (الاحتلال) خِلَالَ حَدِيثِهِ عَنْ قَضِيَّتِنَا (الوطنية)، فَيَقَرِّرُ أَهَمِّيَّةَ الْجِهَادِ لِحِمَايَةِ الْحُرِّيَّةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «وَمَعَ هَذَا فَقَدْ رَحَّبَ الإِسْلَامُ بِالْوَسَائِلِ السَّلْمِيَّةِ وَإِنْهَاءِ الْخُصُومَةِ مَتَى أَدَّتْ هَذِهِ الْوَسَائِلُ إِلَى الْاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ الْكَامِلِ لِأَصْحَابِهِ، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: 61]. وَمَا خَيْرَ رَسُولٍ لِلَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمًا. وَمِنْ السَّلَامِ الْمَفَاوِضَةُ إِذَا أَوْصَلَتْ إِلَى الْحَقِّ الْكَامِلِ، وَقَدْ فَاوَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحُدُوبِ، وَمِنْ السَّلَامِ التَّحَاكُمُ إِذَا أَدَّى إِلَى هَذَا الْحَقِّ أَيْضًا، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَوْ أَحَدًا مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، رَضِيَ بِتَحْكِيمِ كَافِرٍ، وَلَكِنَّهُ مُقْتَضَى عُمُومِ الْآيَةِ؛ وَلَا زِمَ الْإِتِفَاقُ عَلَى الْخَيْرِ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ الْإِسْلَامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مَتَى كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ»⁽²²⁰⁾؛ يَقْصِدُ الْأَمَمَ الْمُتَّحِدَةَ وَمَجْلِسَ الْأَمْنِ، وَلَيْسَ أَمَامَهُ غَيْرُهُمْ، مَا دَامَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ عَلَيْهِمْ. أُفْقٌ وَاسِعٌ أَمَامَ هَذِهِ الْقَضَايَا الشَّائِكَةِ، وَلِهَذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَجَاوَزَهَا لِيُفْسَحَ لِدَعْوَتِهِ طَرِيقًا وَلَا إِخْوَانَهُ مَكَانًا لِيَلْتَحِقُوا بِهِ وَيَتَعَلَّمُوا وَيَسْتَفِيدُوا مِمَّا أُوتِيَهُ الإِمَامُ النَّبَا رَحِمَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ أَجْمَعَ مَا يُقَالُ فِي وَصْفِهِ: فَهَمَّ وَاسِعٌ رَحِيبٌ وَعَرَضٌ لَا يُقْ كَرِيمٌ، وَتَطْبِيقٌ عَادِلٌ حَكِيمٌ، عِلَاجُ نَفُوسٍ وَقِيَادَةُ أَخْطَارٍ، وَإِعْلَانٌ لِلْحَقِّ، وَإِرْشَادٌ إِلَى الصَّوَابِ مَتَى وَجَبَ ذَلِكَ، مَعَ الْإِحْتِرَامِ وَالْوَلَاءِ.

(220) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]، ص 636.

وَمِنَ الْحَقِّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ أَجْيَالًا كَثِيرَةً فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَنْ تَعْرِفَ حَسَنَ الْبَنَاءِ وَفِكْرَتَهُ وَدَعْوَتَهُ وَأَنْ تَعْرِفَ كَذَلِكَ كُلَّ انْطِلَاقَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ فِكْرِهِ إِمَّا قَاصِرَةً، وَإِمَّا مُسْتَحِيلَةً، فَحَيْثُمَا وَصَلَ نَفْسُ الْأُسْتَاذِ الْبَنَاءِ فَثُمَّ حَيَوِيَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَحَيْثُ انْعَدَمَ وَصُولُ هَذَا النَّفْسِ نَجَدُ اسْتِسْلَامًا رَهْبِيًّا لِلْقُوَى الْعَالَمِيَّةِ الْمَنَاوِئَةِ لِلْإِسْلَامِ، وَلِلْقُوَى الْمَحَلِّيَّةِ الظَّالِمَةِ؛ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَعِيدُ حَوَيٍّ فِي كِتَابِهِ (آفَاقُ التَّعَالِيمِ) (221)، وَلِلذَلِكَ فَمِنْ وَاجِبِنَا أَنْ نَعْرِفَهُمْ عَلَى هَذَا الْفِكْرِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ إِذَا اعْتَقَدُوا صَلَاحِيَّتَهَا شَعَرُوا بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَسَيَبْذُلُونَ الْغَالِي وَالنَّفِيسَ مِنْ أَجْلِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا.

وَنَحْنُ نُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ شَبَابُنَا هَذِهِ النَّمَاذِجَ الْفَرِيدَةَ الَّتِي ذَكَرْتَهَا آنفًا، فِي هَذِهِ الظَّرُوفِ الْعَصِيَّةِ الْمُجْهِدَةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا هَذَا الْجِيلُ، وَالْكَثِيرُ يَسْمَعُ وَيَرَى مَا يُقَالُ هُنَا وَهُنَاكَ فِي وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَعْذُورُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا حَسَنَ الْبَنَاءِ، وَلَمْ يَتَعَرَّفُوا عَلَى فِكْرِهِ كَذَلِكَ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَاءُ الْفَهْمَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ، وَوَاجِبِنَا الْآنَ تَفْعِيلَ هَذَا الرُّكْنِ بِكُلِّ أَصُولِهِ الْعِشْرِينَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُعِينُ عَلَى اخْتِيَارِ الصَّوَابِ وَسَطِّ زِحَامِ الْبَدَائِلِ وَضَجِجِ الْأَصْوَاتِ.

إِعَادَةُ الثِّقَةِ فِي الْمِنْهَاجِ وَصَلَاحِيَّتِهِ

هَذَا مِنْ نَاحِيَةِ الْفِكْرَةِ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَى سَلَامَتِهَا، وَأَمَّا نَاحِيَةُ الْعَمَلِ (الْمِنْهَاجِ وَصَلَاحِيَّتِهِ)، فَالْإِمَامُ الْبَنَاءُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ جَعَلَ (الْعَمَلَ) مَرَاتِبَ، وَكَانَ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ عَقَبَةٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْجُهْدِ، وَلِلذَلِكَ جَعَلَهُ مَرَاتِبَ وَخُطُوبَاتٍ وَخُطُطًا مُحْكَمَةً، وَلَحْظَاتٍ مُؤَقَّتَةً، رُغْمَ أَنَّ الْأَهْدَافَ الَّتِي وَضَعَهَا قَدْ تَبَدُّو مُسْتَحِيلَةً، لَكِنَّهُ وَضَعَهَا فِي إِطَارِ الْمُمَكِّنِ أَوْ

(221) انظر سعيد حوى: في آفاق التعاليم، دار عمار - بيروت، 1408 - 1988م، ص 7، 14.

المُستطاع، وَبَدَأَ بِالْهَدَفِ الْأَقْرَبِ، وَهَذَا مِنْ وَاقِعِيَّتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، رُغْمَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْخِيَالِ. كُلُّ خُطْوَةٍ عِنْدَهُ تُؤَدِّي إِلَى الَّتِي تَلِيهَا، وَلَا وَفَتْ لِلضِّيَاعِ وَلَمْ يَكْتَفِ بِرُكْنِ الْعَمَلِ فَحَسَبُ؛ لِأَنَّكَ بِالْعَمَلِ قَدْ تُنْتِجُ فَائِدَةً، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ إِزَالَةِ الْعَوَاقِقِ وَضَعَ رُكْنَ (الْجِهَادِ)؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ مَعْنَاهُ: أَنْ تُؤَدِّيَ وَاجِبًا، أَمَّا الْجِهَادُ فَمَعْنَاهُ: أَنْ تُزِيلَ عَائِقًا، وَهَذَا مُقْتَضَى النِّجَاحِ، وَخَوْفًا مِنْ أَنْ يَلْتَصِقَ بِلَفْظِ (الْجِهَادِ) بَعْضُ صُورِ الْعُنْفِ الْجَامِحِ الَّذِي لَا غَنَاءَ فِيهِ، رَبَطَهُ بِسُمُومِ الدَّعْوَةِ وَسَعَةِ أَفْقِهَا، وَمَعْنَى سُمُومِ الدَّعْوَةِ: أَنَّهُ أُعْطِيَ لِلْوَسَائِلِ حُكْمَ الْمَقَاصِدِ وَالْغَايَاتِ، وَمَعْنَى سَعَةِ الْأَفْقِ أَنَّهُ رَبَطَ الدَّعْوَةَ بِالْوَاقِعِ عَلَى تَنَوُّعِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ، لِذَلِكَ رَبَطَ الْجِهَادَ بِالسُّمُومِ وَالسَّعَةِ لَتَعْدُدِ أَنْوَاعِهِ؛ ابْتِدَاءً مِنَ الْجِهَادِ بِالْقَلْبِ حَتَّى كَلِمَةِ الْحَقِّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، كَمَا رَبَطَ الْعَمَلَ وَالْجِهَادَ بِالْوَسَائِلِ الشَّرِيفَةِ؛ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ الْخَبِيثَةَ لَا تُؤَدِّي إِلَى غَايَاتٍ شَرِيفَةٍ، وَالْوَسِيلَةُ الدَّنِيئَةُ تُلَوِّثُ أَيَّ هَدَفٍ مَهْمَا سَمَا، وَالْعُنْفُ الْجَامِحُ لَا غَنَاءَ فِيهِ. وَمِنْ كَلِمَاتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ سَيَسْتَخْدِمُونَ الْقُوَّةَ الْعَمَلِيَّةَ حَيْثُ لَا يُجِدِي غَيْرُهَا»؛ فَإِذَا أَجْدَى غَيْرُهَا قَيْدَهَا أَوْ أَلْغَاهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ صَلَاحُ الْحُدَيْيَةِ، لَمَّا عَلِمَتْ قُرَيْشٌ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَاءَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِخُرُوجِهِمْ لِحَرْبِهِ، فَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بِسْنَدٍ حَسَنٍ، قَالَ الْعَيْنُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعَتْ بِمَسِيرِكَ، فَخَرَجَتْ مَعَهَا الْعُودُ الْمَطَافِيلُ، قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثُّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللَّهَ أَنْ لَا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ عَنُودٌ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدَّمُوهَا إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ، دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا،

قَاتِلُوا وَبِهِمْ قُوَّةً، فَمَاذَا تَظُنُّ قُرَيْشُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُهُمْ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ لَهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ لَهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ»، وَيَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ قُرَيْشًا مُنْهَكَةً، وَأَنَّ الْقُوَّةَ وَوَسَائِلَهَا فِي صَفِّ الْمُسْلِمِينَ، وَرُغْمَ هَذَا أَجَابَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى الْمُصَالَحَةِ، فَالرَّسُولُ ﷺ لَمْ يَسْتَخْذِمِ الْقُوَّةَ حِينَ أَجْدَى غَيْرَهَا مِنَ الْمُفَاوَضَةِ وَالْمُصَالَحَةِ وَالتَّقَارُبِ، وَلِلذَلِكَ يُعَلِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَى صَلَاحِ الْحُدَيْيَةِ، وَيُشِيرُ إِلَى الْفَوَائِدِ الْفَقْهِيَّةِ مِنْ هَذَا الصُّلْحِ، فَيَقُولُ: «وَمِنْهَا: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْبِدْعِ وَالْفُجُورِ وَالْبَغَاةِ وَالظَّالِمَةَ إِذَا طَلَبُوا أَمْرًا يُعْظَمُونَ فِيهِ حُرْمَةً مِنْ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، أُجِيبُوا إِلَيْهِ وَأَعْطَوْهُ وَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ مَنَعُوا غَيْرَهُ فَيَعَاوَنُونَ عَلَى مَا فِيهِ تَعْظِيمٌ حُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى كُفْرِهِمْ وَبَغْيِهِمْ، وَيُمْنَعُونَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَكُلُّ مَنْ التَّمَسَّ الْمُعَاوَنَةَ عَلَى مَحْبُوبٍ لِلَّهِ تَعَالَى مُرْضٍ لَهُ، أُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ كَأَنَّا مَنْ كَانَ، مَا لَمْ يَتَرْتَّبْ عَلَى إِعَانَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَحْبُوبِ مَبْغُوضٌ لِلَّهِ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَهَذَا مِنْ أَدَقِّ الْمَوَاضِعِ وَأَضْعَبِهَا وَأَشَقَّهَا عَلَى النَّفُوسِ، وَلِلذَلِكَ ضَاقَ عَنْهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَنْ ضَاقَ» (222).

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ الْحَرْبَ أَوْ الْقُوَّةَ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةً لِذَاتِهَا، فَإِذَا أَغْنَى عَنْهَا غَيْرُهَا قَيْدَهَا أَوْ أَلْغَاهَا، وَلِهَذَا أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» (223)، وَذَلِكَ مَا أَدْرَكَهُ الْإِخْوَانُ خِلَالَ حُكْمِ: عَبْدِ النَّاصِرِ أَوْ السَّادَاتِ أَوْ مُبَارَكٍ؛ لِأَنَّ دُخُولَ جَمَاعَةٍ فِي مُوَاجَهَةٍ عَنِيفَةٍ مَعَ سُلْطَةٍ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّةُ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ أَوْ ضَعْفُهَا، فَهِيَ الْخَاسِرُ فِي النِّهَايَةِ. أَمَّا الشَّعْبُ أَمَامَ دَوْلَةٍ وَإِنْ تَجَبَّرَتْ وَعَتَتْ، فَهُوَ الْمُنْتَصِرُ فِي النِّهَايَةِ، وَهُوَ مَا أَدْرَكَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَلِهَذَا أَعْلَنَ مِنْ بَدَايَةِ دَعْوَتِهِ حَاجَتَهُ إِلَى جُمْهُورٍ يُكَافِحُ بِهِ وَيُسَانِدُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا

(222) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، 3/ 269.

(223) أخرجه البخاري، وهو جزء من حديث طويل، رقم (2731).

أَوْجَدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَاعِلًا فَعَلَهُ، وَإِنْ كَانَ مُتَفَرِّقًا وَحَدَهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَدْرِكُ أَنْ
إِزَاحَةَ الدَّوْلَةِ تَحْتَاجُ إِلَى الْمُطَالَبَةِ الْقَوِيَّةِ وَالْعُصْبَةِ وَالْمَنْعَةِ، وَأَنَّ مَشْرُوعَ قِيَامِ
الدَّوْلَةِ مَشْرُوعٌ طَوِيلُ الْأَمَدِ، وَأَنَّ الْعُنْفَ لَيْسَ مِنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِهِ، وَنَحْنُ
نَهْتَدِي بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَقْنِ الدِّمَاءِ، فَقَدْ حَالَ الْمُشْرَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَمَنْعُوهُ مِنْ أَدَاءِ شَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، فَرَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى فُسْحَةٍ مِنَ الْوَقْتِ.

وَقَدْ عَرَضَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مَنْهَجَهُ فِي الْعَمَلِ فَأَحْسَنَ عَرْضَهُ؛ إِنَّهُ مَنْهَجٌ
سَلْمِيٌّ هَادِيٌّ مُعْتَدِلٌ بَعِيدٌ عَنِ الْعُنْفِ الْجَامِحِ الَّذِي لَا غَنَاءَ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّ
الرَّصَاصَةَ الْأُولَى يُطْلِقُهَا كُلُّ أَحَدٍ، أَمَّا الرَّصَاصَةُ الْأَخِيرَةُ فَيُطْلِقُهَا الْمُتَصَرُّ
فَحَسْبُ، وَهَذَا مَا عَلَّمَهُ لِإِخْوَانِهِ.

وَأَذْكُرُ أَنَّ أَخَانَا إِسْمَاعِيلَ الْفَيُّومِيَّ أَحَدَ حُرَاسِ الْحَرَسِ الْجُمْهُورِيِّ
الْخَاصِّ لِجَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ، وَكَانَ مَعْنَا فِي الْأُسْرَةِ عِنْدَمَا اعْتَقَلُوا الْجَمِيعَ
عَامَ (65)، وَكَانَ يَقِفُ عَلَى رَأْسِ جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ فِي غُرْفَةِ نَوْمِهِ، وَكُنَّا
نَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ أَخِينَا فِي السَّجْنِ، فنَقُولُ: (مِشْ مُمَكِّنْ!)، لَكِنْ
تَأَكَّدْتُ مِنْهُ عِنْدَمَا سَمِعْتُ هُدًى جَمَالِ عَبْدِ النَّاصِرِ فِي إِحْدَى الْفَضَائِلِ
تَرْوِي هَذِهِ الْقِصَّةَ، فَتَقُولُ: وَصَلَ بِهِمُ الْحَدَّ أَنْ كَانَ أَحَدُهُمْ يَحْرُسُ أَبِي
وَهُوَ نَائِمٌ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ تَعَلَّمَ أَنَّ الْقُوَّةَ (وَأَنَّ قُدْرَ عَلَيْهَا) إِذَا أَجْدَى غَيْرَهَا
قَيْدَهَا أَوْ أَلْغَاهَا، وَأَنَّ الْفَصِيلَ أَمَامَ الدَّوْلَةِ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ وَضَعْفُهَا هُوَ
الْخَاسِرُ فِي النِّهَايَةِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَقِفُ أَمَامَ عَبْدِ النَّاصِرِ بِسِلَاحِهِ، وَلَمْ
يُحَرِّكْهُ أَحَدٌ، مَعَ أَنَّهُ فِي هِدَاةِ اللَّيْلِ كَانَ يَسْمَعُ أَنَاتِ النَّاسِ فِي السَّجُونِ،
وَيَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ؛ إِذْ اعْتَرَفَ عَلَيْهِ أَحَدُ الْإِخْوَةِ
فَجَاءُوا بِهِ، وَعَذَّبُوهُ فَقَضَى شَهِيدًا فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ، وَهُوَ يَسْطَعُ وَيَتَأَلَّقُ، لَكِنَّ
الرَّصَاصَةَ كَانَتْ مَا تَزَالُ فِي جَيْبِهِ.

كَمَا سَأَلَ الْقَاضِي الْعَسْكَرِيُّ الْأُسْتَاذَ سَيِّدَ قُطُبَ: أَنْتَ تُخَطِّطُ لِتَقْتُلَ عَبْدَ النَّاصِرِ؛ فَقَالَ لَهُ: حَيَاةُ عَبْدِ النَّاصِرِ أَتَفَهُ مِنْ أَنْ تُكَلِّفَنَا كُلَّ هَذَا الْعَنَاءِ، فَلَوْ كَانَ عَبْدُ النَّاصِرِ قُتِلَ كَانَ قُضِيَ عَلَيْنَا جَمِيعًا، وَهَذَا مِنَ الْفَهْمِ الْوَاسِعِ الْفَسِيحِ، وَمِنَ الْاطْمِئْنَانِ لِلْمِنْهَاجِ كَمَا عَلَّمَنَا الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ الْعُنْفَ الْجَامِحَ لَا غَنَاءَ فِيهِ، وَأَنَّ الْوَسِيلَةَ الدِّنِّيَّةَ لَا تَخْدُمُ غَايَةً شَرِيفَةً، وَلِذَلِكَ رَبَطَ الْجِهَادَ بِسُمُومِ الدَّعْوَةِ عِنْدَمَا أُعْطِيَ لِلْوَسَائِلِ حُكْمَ الْمَقَاصِدِ وَالْغَايَاتِ، كَمَا رَبَطَهُ بِالسَّعَةِ عِنْدَمَا رَاعَى مُقْتَضِيَاتِ الْوَاقِعِ؛ فَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَكِنْ تَفْعِيلُ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي نَفُوسِ كُلِّ مَنْ أَدَّى بَيْعَتَهُ أَوْ التَّحَقُّ بِصَفْنَا مُهِمٌّ جِدًّا فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الصَّعْبَةِ الْآنَ، وَهَذَا دَوْرُنَا وَوَاجِبُنَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي حِيلَ فِيهِ بَيْنَ أَجْيَالٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الشَّبَابِ، وَبَيْنَ أَنْ تَعْرِفَ حَسَنَ الْبَنَّا وَفِكْرَتَهُ وَدَعْوَتَهُ، فَشَكَّ بَعْضُهُمْ فِي سَلَامَةِ الْفِكْرَةِ وَفِي صِحَّةِ الْمِنْهَاجِ الْقَادِرِ عَلَى تَحْقِيقِهَا. وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ فِكْرًا يَصْعَبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهِ قُرَابَةَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ لَهُوَ فِكْرٌ نَاجِحٌ، فَضْلًا عَمَّا ثَبَتَ مِنْ صِلَاحِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَى النَّجَاحِ لِأَنَّ مَا وَصَلْنَا إِلَيْهِ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْرَةِ الطَّوِيلَةِ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ تَجَارِبِ مَنْ سَبَقَ؛ لَا شَكَّ أَنَّهُ حَالَةٌ نَجَاحٍ.

يُؤَكِّدُ الْإِمَامُ الْبَنَّا صِلَاحِيَّةَ هَذَا الْمِنْهَاجِ، بِأَنَّهُ جُرِّبَ مِنْ قَبْلُ وَثَبَّتَ صِلَاحِيَّتَهُ، وَأَنَّ النِّجَاحَ مَكْتُوبٌ لِهَذَا الْمِنْهَاجِ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «الْمِنْهَاجُ الْإِسْلَامِيُّ قَدْ جُرِّبَ مِنْ قَبْلُ، وَشَهِدَ التَّارِيخُ بِصِلَاحِيَّتِهِ، وَأَخْرَجَ لِلنَّاسِ أُمَّةً مِنْ أَقْوَى الْأُمَمِ وَأَفْضَلِهَا وَأَرْحَمَهَا وَأَبْرَهَا وَأَبْرَكَهَا عَلَى الْإِنْسَانِيَةِ جَمِيعًا؛ وَلَهُ مِنْ قُدْسِيَّتِهِ وَاسْتِقْرَارِهِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، مَا يُسَهِّلُ عَلَى الْجَمِيعِ تَنَاوُلَهُ وَفِقْهَهُ وَالْإِسْتِجَابَةَ لَهُ وَالسَّيْرَ عَلَيْهِ مَتَى وَجَّهُوا إِلَيْهِ» (224).

وَيَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْإِمَامَ كَانَ مُطْمَئِنًّا إِلَى أَنَّ الْمِنْهَجَ الَّذِي ارْتَضَاهُ

سَوْفَ يُؤَدِّي إِلَى الْمَقْصُودِ مَعَ عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رُغْمَ طُولِ الطَّرِيقِ، وَلِذَا تَرَاهُ يَجْزِمُ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ رَسَائِلِهِ بِأَنَّ هَذَا الْمِنْهَاجَ هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى النُّهُوضِ بِالْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ كَأَن يُطْرَحَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا السُّؤَالَ: «هَلْ هُنَاكَ طَرِيقٌ أُخْرَى؟»، ثُمَّ يُجِيبُ فَيَقُولُ: «إِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ مَهْمَا طَالَتْ فَلَيْسَ هُنَاكَ غَيْرُهَا فِي بِنَاءِ النَّهْضَاتِ بِنَاءً صَحِيحًا، وَقَدْ أَثْبَتَتِ التَّجَرُّبَةُ صِحَّةَ هَذِهِ النُّظَرِيَّةِ» (225).

وَلَمْ يَكُنْ غَرِيبًا بَعْدَ هَذَا الْيَقِينِ أَنَّ يَتَمَسَّكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِمِنْهَاجِهِ الَّذِي اطمأنَّ إليه، رُغْمَ مَا تَعَرَّضَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، فِي عَامِ (1948م) طَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ الْإِخْوَةِ الْعَائِدِينَ مِنْ فِلَسْطِينَ - عِنْدَمَا حُلَّتِ الْجَمَاعَةُ - أَنْ تَتَغَدَّى بِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَعَشَّوْا بِنَا، فَقَالَ أَسْلِمُوا أَكْتَفِكُمْ لِلْسَّعِدِيِّينَ (الحكومة)، لَنْ أَضِيعَ الْأُمَّةَ مِنْ أَجْلِ الْحُكُومَةِ، وَلَا الْوَطْنَ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ، فَكُلُّ أُمَّةٍ تَسْتَحِقُّ الْحُكْمَ الَّذِي تَصْبِرُ عَلَيْهِ، وَالْعِبْرَةُ بِأَخْلَاقِ الْأُمَمِ وَلَيْسَ بِشَكْلِ الْحُكُومَاتِ.

وَفِي لَحْظَاتِهِ الْأَخِيرَةِ، وَهُوَ يَخْرُجُ مِنْ أَجْلِ التَّفَاوُضِ مَعَ مُمَثِّلِي الْحُكُومَةِ بَعْدَ حُلِّ الْجَمَاعَةِ فِي جَمْعِيَّةِ الشُّبَّانِ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُ لَهُ زَوْجَتُهُ: الْمَسْرُوحُ مُجَهَّزٌ لِإِغْتِيَالِكَ، فَيَقُولُ: أَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ حَتَّى لَا يُقَالَ: إِنَّ هُنَاكَ أَبَا مِنَ الْأَمَلِ لَمْ أَطْرُقْهُ، ثُمَّ نَهَضَ وَقَامَتْ زَوْجَتُهُ تَحْتَضِنُهُ وَهِيَ تُودِّعُهُ وَقَامَتْ ابْنَتُهُ الْكُبْرَى (وَفَاءُ) فَأَخْرَجَتْ مُسَدِّسًا مِنْ مَكْتَبِهِ تُقَدِّمُهُ إِلَيْهِ، وَتَقُولُ: لَعَلَّكَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ يَا أَبِي، فَقَالَ لَهَا: رُدِّيهِ يَا وَفَاءُ، لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، هَلْ تَظْنِينَ أَنَّهُمْ لَوْ أَطْلَقُوا عَلَيَّ الرَّصَاصِ سَارَدُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ:

مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفَرَّ أَيُّومَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرَ (226)

(225) حسن البناء: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة إلى أي شيء ندعو الناس]، ص 69.

(226) يُنسَبُ هَذَا الْبَيْتُ إِلَى سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.



وَأَخْرَجَ وَلَمْ يَعُدْ رَحِمَهُ، فَهُوَ مُطْمَئِنٌّ لِّلْمَنْهَجِ الَّذِي وَضَعَهُ، وَحَيَاتُهُ نَفْسُهَا تَتَعَرَّضُ لِحَظَرٍ أَكِيدُ فَلَا يَتَرَجَعُ أَوْ يَحِيدُ عَنْهُ. وَعِنْدَمَا احْتَدَّ الصَّرَاعُ مَعَ رِجَالِ الثَّوْرَةِ، طَلَبَ بَعْضُ الْإِخْوَةِ مِنَ الْأَسْتَاذِ الْهُضِيِّيِّ الْمُوَاهِجَةِ، فَقَالَ: إِنَّ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنَ الْكِفَاحِ أَمَادٌ بَعِيدَةٌ، يَقْصِدُ لَيْسَ هَذَا وَقْتَهُ ثُمَّ قَالَ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60]. وكان ذلك قبل وقوع المِخْنَةِ الضَّرُوسِ سَنَةِ (1954م).

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ أُمُورًا كَثِيرَةً يُمَكِّنُ أَنْ تُحَلَّ بِالتَّقَارُبِ وَالتَّفَاوُضِ، وَالْهُدْنَةِ، فَلَا سِتَادَ عُمَرُ التَّلْمَسَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، مَثَلًا، أُفْرِجَ عَنْهُ قَبْلُنَا وَنَحْنُ فِي السَّجَنِ، فَبَدَأَ كَمَا يَقُولُونَ رَحَلَاتٍ مَكُوكِيَّةٍ بَيْنَ الْقَصْرِ الرَّئَاسِيِّ وَوَزَارَةِ الدَّخْلِيَّةِ مِنْ أَجْلِ حَسْمِ الْقَضِيَّةِ وَإِخْرَاجِ الْإِخْوَانِ، وَقَدْ عَابَ عَلَيْهِ بَعْضُ الْإِخْوَةِ ذَلِكَ، وَرَأَوْا فِيمَا فَعَلَ نَوْعًا مِنَ التَّرْخُصِ وَالتَّرَاجُعِ غَيْرِ الْجَائِزِ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْمَدَّ الشُّعُورِيَّ الْعَالِيَّ إِنَّمَا هُوَ فِي حَيْزٍ مَحْدُودٍ وَلَوْ فِتٍ مَحْدُودٍ صِلَاحِيَّتِهِ، أَمَّا الْحَيَاةُ فَلَا بَدَأَ أَنْ تَعُودَ إِلَى طَبِيعَتِهَا لِتَسِيرَ فِي هَوَادَةٍ وَيُسِرَ، وَلِذَلِكَ بَدَأَ فِي أَحَادِيثِ التَّفَاوُضِ، لَكِنْ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ طَبْعًا أَنَّ السَّادَاتِ كَانَ هُوَ الْحَاكِمَ حِينَئِذٍ، وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ يُغَارِزُ الْإِخْوَانَ وَيُفْرِجُ عَنْ بَعْضِهِمْ، وَيَلْتَقِي بِالْأَسْتَاذِ التَّلْمَسَانِيِّ، فَالْتَقَطَ الْأَسْتَاذُ التَّلْمَسَانِيُّ الْخِيَطَ بِسُرْعَةٍ، وَأَكْمَلَ هَذَا الطَّرِيقَ، رُغْمَ اعْتِرَاضِ أَغْلِبِ الْإِخْوَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ إِنَّ الْحَيَاةَ يَنْبَغِي أَنْ تَعُودَ لِتَسِيرَ فِي هَوَادَةٍ وَيُسِرَ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ آفَةَ مُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ الْعِنَادُ وَاللَّجَاجُ، اللَّائِاتُ الشَّهِيرَةُ: لَا لِلتَّصَالُحِ، لَا لِلتَّقَارُبِ، لَا لِلتَّفَاوُضِ، فَلَا سِتَادَ عُمَرُ كَانَ يَعْرِفُ مَا يُرِيدُ، وَالتَّجَارِبُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ كُلِّ بِيئَةٍ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

إِسْطَنْبُول، الْخَمِيسَ 24 الْمُحَرَّمِ 1448 هـ، الْمُوَافِقَ 9 يُولْيُو (تَمُوز) 2026 م

فِي ظِلَالِ الرِّسَالِ



لَيْسَ هَذَا الْكِتَابُ شَرْحًا لِأَلْفَافِ رِسَالَةِ
التَّعَالِيمِ، وَلَا تَغْلِيقًا عَلَى عِبَارَاتِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ
وُقُوفٌ فِي ظِلَالِهَا، وَاسْتِكْشَافٌ لِمَا تَخْتَرْنُهُ
أَرْكَانُ الْبَيْعَةِ مِنْ مَعَانٍ تَرْبَوِيَّةٍ وَدَعْوِيَّةٍ
وَحَرَكَيَّةٍ، أَسْهَمَتْ فِي بِنَاءِ أَجْيَالٍ مِنَ الْعَامِلِينَ
لِلْإِسْلَامِ، وَرَبَطَتْ بَيْنَ صَفَاءِ الْفِكْرَةِ، وَصِدْقِ
الْإِيمَانِ، وَحَيَوِيَّةِ الْعَمَلِ، وَصَلَابَةِ النَّبَاتِ.
يَقْرَأُ الْكِتَابُ أَرْكَانَ الْبَيْعَةِ الْعَشْرَةَ:

الْفَهْمُ، وَالْإِخْلَاصُ، وَالْعَمَلُ، وَالْجِهَادُ، وَالتَّضَحِّيَّةُ، وَالطَّاعَةُ، وَالنَّبَاتُ،
وَالْتَّجَرُّدُ، وَالْأُخُوَّةُ، وَالثِّقَّةُ؛ لَا يَوْصِفُهَا عَنَّاوِينَ تُحْفَظُ، بَلْ مَعَالِمُ لِبْنَاءِ
الْإِنْسَانِ، وَتَكْوِينِ الصِّفِّ، وَإِعْدَادِ الْجَمَاعَةِ الْقَادِرَةِ عَلَى حَمْلِ رِسَالَةِ
الْإِسْلَامِ وَمُوَاجَهَةِ تَحْدِيَّاتِ الْوَقَاعِ.

وَقَدْ وُلِدَ هَذَا الْكِتَابُ مِنْ مَجَالِسٍ عِلْمِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ، تَلَاقَى فِيهَا النَّصُّ مَعَ
التَّجَرُّبَةِ، وَالْمَنْهَجُ مَعَ الْوَقَاعِ، ثُمَّ نَضَجَ عِبْرَ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمُعَايشَةِ وَالتَّأَمُّلِ
وَالْمُرَاجَعَةِ؛ لِيُطْرَحَ أَسْئَلَةٌ لَا تَزَالُ حَاضِرَةً: كَيْفَ يُبْنَى الْإِنْسَانُ صَاحِبُ
الرِّسَالَةِ؟ وَكَيْفَ تَصْنُدُ الدَّعَوَاتُ فِي زَمَنِ الْمِحْنِ؟
وَكَيْفَ تَتَحَوَّلُ مَبَادِئُ الْأُخُوَّةِ وَالثِّقَّةِ وَالطَّاعَةِ وَالنَّبَاتِ إِلَى طَاقَةٍ تُحْفَظُ
الصِّفِّ وَتَنْهَضُ بِالْأُمَّةِ؟

إِنَّهُ كِتَابٌ لِلْمُرَبِّيِّ وَالِدَّاعِيَةِ وَالْعَامِلِ لِلْإِسْلَامِ، وَلِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّ نَهْضَةَ
الْأُمَّةِ تَبْدَأُ مِنْ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّ قُوَّةَ الْجَمَاعَاتِ تُقَاسُ بِعُمُقِ تَرْبِيَّتِهَا،
وَوُضُوحِ رُؤْيَيْتِهَا، وَصَلَابَةِ رِجَالِهَا، وَقُدْرَتِهَا عَلَى تَحْوِيلِ الْمَبَادِئِ إِلَى حَيَاةٍ.

د. صلاح عبد الحق